المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل

الدكتور
عبد العزيز عبده أبو عبد الله

منشورات
الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

القسـ
الثا

المعنى والاعراب عند النحويين ونظرية العامل

الطبعة الأولى

1391 و.ر ـ 1982

«الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع»

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

طرابلس ص.ب 959

المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل

الدكتور

عبد العزيز عبده أبو عبد الله

المدرس بكلية الآداب جامعة قاريونس

النحو يستفرغني لأنني أستدل به على القرآن والشعر

هارون الرشيد

القسم الثاني

منشورات

الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع

طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

(الباب التاسع)

تخريج علماء النحو لما اشكل اعرابه من الآيات القرآنية
فيما ألف من كتب التفسير لهؤلاء النحويين وهم
أبو حيان . الفراء . الزمخشري . الزجاج
تطبيقا وتأييدا للرأي الذي نوجهه

سبق أن ذكرنا في العلاقة بين المعنى والاعراب ما ذكره ابن جني في الخصائص بعنوان : « بين تقدير الاعراب وتفسير المعنى » وفي هذا الباب يضع ابن جني النقاط على الحروف حتى لا تكون هناك فجوة بين النحو والتفسير فيقول : « فاذا مر بك شيء من هذا عن أصحابنا فاحفظ نفسك منه » . ولا تسترسل اليه فان أمكنك أن يكون الاعراب على سعة تفسير المعنى فقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه وصححت طريق تقدير الاعراب حتى لا يشذ شيء منها عليك ، واياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر صلاحه[1] .

ولأن هذه الدراسة لا تقوم على الاحصاء كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد غالي فاننا سنبين منهج كل علم من أعلام النحو المفسرين مستشهدين بآرائهم فيما استشكل إعرابه وبتسليط هذه الأضواء ستبدوا آراؤ هم واضحة ، إذا كانوا ينزعون الى جانب المعنى أم جانب الاعراب ونعني به الصناعة النحوية ، وقد ألفت كتب عديدة في معنى القرآن وفي إعرابه فما الفرق بين الاتجاهين ؟ وما المقصود بإعراب القرآن ؟ .

---

(1) الخصائص جـ 1 ص 384

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نحب أن نشير الى كتب التفسير القديمة ، ولا نستطيع أن نعددها ويكفي أن نقول إنها كثيرة جعلت حاجي خليفة صاحب « كشف الظنون » يخصص لها في كتابه سبعة وثلاثين نهرا تقريبا[1] والذي يهمنا من كتب التفسير الكتب التي تعرضت للدراسة النحوية وأشهرها كتب الأربعة السابقين .

1) : كتب معاني القرآن :

وأول من صنف في معاني القرآن كما قال الفراء في مقدمة كتابه معاني القرآن أبو عبيدة معمر بن المثني ، والواقع أن هذا رأي الفراء وحدة ، فأبو عبيدة قد ألف في غريب القرآن الألفاظ وليس التراكيب ، وأول من يصادفنا في كتب الطبقات لمعاني القرآن هو أبو جعفر الرؤاسي قال عنه ابن الأنباري في نزهة الألباب :« وصنف الرؤاسي تصانيف كثيرة منها كتاب معاني القرآن »[2] وكذلك ذكر السيوطي في بغية الرعاة أن للرؤاسي كتاب معاني القرآن[3] وإذا كان الرؤاسي أستاذا للكسائي وقد توفي الكسائي سنة اثنتين أو ثلاث وقيل تسع وثمانين ومائة[4] فان الرؤاسي من غير شك أسبق في الوجود وفي الوفاة من أبي عبيدة معمر ابن المثني الذي ولد سنة ثنتي عشرة ومائة ومات سنة تسع وقيل ثمان وقيل عشر وقيل احدى عشرة ومائتين[5] .

---

1) كشف الظنون المجلد الأول ص 427 الى نهر 463

2) نزهة الألبا ص 66

3) البغية ص 33

4) البغية ص 337

5) البغية ص 395

ولم يذكر لنا مؤلف رسالة أبي زكريا الفراء الدكتور مكي الأنصاري تأثر الفراء بالرؤاسي فالفراء أخذ ما في معاني الرؤاسي وحفظه وأملاه يدل على ذلك ما رواه محمد بن الجهم السمري في صدر كتاب معاني القرآن ما نصه : (هذا كتاب فيه معاني القرآن أملاه علينا أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء يرحمه الله ـ عن حفظه من غير نسخة في مجالسة أول النهار من أيام الثلاثاوات والجمع في شهر رمضان وما بعده من سنة اثنتين وفي شهور سنة ثلاث وشهور من سنة أربع ومائتين [1] والصلة بين الرؤاسي والفراء تؤكد هذا المعنى فالفراء تلميذ للرؤاسي كما ينص على ذلك السيوطي في البغية[2] وفرق بين التأليف والاملاء فالتأليف اجتهاد خاص يحتاج الى أناة وفكر وبحث ومعاناة على حين لا يحتاج الإملاء الى ذلك لأن المملي يأخذ من ذاكرته ويستند الى حافظته من غير معاناة وبحث وحبذا لو عالجهذه النقطة مترجم أبي زكرياء .

2) والمؤلفون في معاني القرآن كثيرون : أذكر منهم الرؤاسي والكسائي ويونس بن حبيب والمبرد وقطرب والفراء وأبا فيد مؤرخ السدوسي [3] وذكر بروكلمان : أن لثعلب كتابا في معاني القرآن ذكره الحريري في (درة الغواص)[4] ولا ننسى أن للزجاج أبي اسحاق ابراهيم بن السري بن سهل كتاب (معاني القرآن) ولأبي جعفر النحاس المصري مؤلف في معاني القرآن[5] ولأبي علي الفارسي كتاب علق فيه

---

1) نقلا من كتاب أبي زيد الفراء للدكتور أحمد مكي الانصاري ص 270 مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون .

2) نزهة الالبا ص 66

3) انظر الفهرست ص 57 و 58 مطبعة الاستقامة

4) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار جـ 2 ص 213

5) البغية ص 157

على الزجاج في كتاب معاني القرآن وناقشه وجادله [1] (على أن هذه الكتب لعبت بها يد الفناء والعبث فضاع معظمها وبقي أقلها أما هذا الأقل فهو كتاب معاني القرآن للفراء وكتاب معاني القرآن للزجاج وكتاب الاغفال لأبي علي الفارسي وكتاب معاني القرآن لأبي جعفر النحاس والأول مطبوع والثلاثة الأخيرة مخطوطة)[1] .

1) معاني القرآن نسخة رقم 111 تفسير وهي نسخة ذات خط جميل تبتدىء بسورة النساء وتنتهي بآخر سورة هود وبالرجوع الى كتاب الاغفال للفارسي يتحقق نسبتها للزجاج لأن نصوص الفارسي في الاغفال هي نفس النصوص التي أوردها الزجاج في المعاني ، فمثلا يقول الفارسي في المسألة الرابعة والأربعين من كتاب الاغفال ما نصه قال أبو اسحاق في قوله تعالى : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ بدل من ﴿ ما طاب لكم ﴾ ومعناه اثنين اثنين وثلاثا وأربعا أربعا الا أنه لم ينصرف لجهتين لا أعلم أحدا من النحويين ذكرهما وهما أنه اجتمع فيه علتان : أنه معدول عن اثنين اثنين وثلاث ثلاث وأنه عدل عن تأنيث[3] . . . الخ .

وبالرجوع الى هذه الآية في معاني القرآن للزجاج نجد هذا النص الذي نقله أبو علي مما يؤكد صحة نسبة النسخة المذكورة اليه[4] وسأتعرض لمنهج الزجاج في حينه ولكني أحب أن أشير الى أن كتاب

---

1) البغية ص 217

2) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية لعبد الله العال سالم مكرم .

3) الاغفال ص 38

4) انظر معاني القرآن للزجاج ص 2 و 3 نسخة 111 تفسير مخطوطة بدار الكتب

5) الفهرست ص 101 مطبعة الاستقامة .

الاغفال لأبي علي الفارسي من كتاب المعاني ، لأنه تعليق واصلاح لأخطاء الزجاج في معانيه وكتاب الاغفال ألفه الفارسي ليرد على الزجاج أخطاءه التي وقع فيها ولم يكن الفارسي من الهادمين فحسب بل كان اذا مدم بنى ومن هنا كان بعض المؤرخين يسمي كتابه كتاب المسائل المصلحة يرويها عن الزجاج وتعرف بالاغفال [1] وقد أخطأ القفطي في (انباه الرواة) حيث ذكره أن لأبي علي الفارسي كتاب الاغفال فيما أغفله الزجاجي في المعاني ولم يتنبه محقق الانباه لهذا السهو من القفطي ، لأن الاغفال نسخة رقم 52 تفسير وقد صورها معهد المخطوطات تحت رقم 24 تفسير ونسخة رقم 875 تفسير ونسخة 699 تفسير وعند الكلام على الزجاج سنورد بعض صور من مسائله .

3) ومعاني القرآن لأبي جعفر النحاس ومنهجه التحدث عن تفسير المعاني وأحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وتسجيل أقوال علماء اللغة وتوضيح تصريف الكلمة واشتقاقها والاتيان من القرآن بما يحتاج الى تفسير معناه واللجوء الى الإعراب لتوضيح المعنى وتسجيل احتجاج العلماء في مسائل سأل عنها الملحدون [2] ويتضح من هذا المنهج أن كتابه (المعاني) ليس كتاب إعراب أو نحو وإنما هو كتاب تفسير يلم بأحكام الناسخ والمنسوخ ويتحدث عن أحكام القرآن ويهتم بتفسير معاني الأيات ولا يلجأ الى الإعراب إلا لتوضيح المعاني . وقد ادخر النحو والإعراب لكتاب إعراب القرآن الذي نسب اليه .

---

1) انظر انباه الرواه جـ 1 ص 274

2) مقدمة معاني القرآن لأبي جعفر النحاس ورقة 1

ثانياً : كتب اعراب القرآن :

ذكرت في المقدمة اختلاف العلماء في حقيقة الاعراب فقال بعضهم إن الاعراب معنى هو الاختلاف محتجين :

أ) باضافة الحركات الى الاعراب والشيء لا يضاف الى نفسه .

ب) ان الحركات قد تكون في المبنى فلا يكون اعرابا .

وذهب بعضهم الى أن الاعراب عبارة عن الحركات :

أ) لأن الاختلاف امر لا يعقل الا بعد التعدد فلو جعل الاختلاف اعرابا لكانت الكلمة في أول أحوالها مبنية لعدم الاختلاف .

ب) انه يقال أنواع الاعراب رفع ونصب وجر وجزم ونوع الجنس يستلزم الجنس .

والجواب عن الاضافة انها من باب إضافة الأعم الى الأخص للبيان ولا يدل وجود الحركات في المبنى على أنها حركات الاعراب ، لأن الحركات حدثت بعامل وهذا هو الحق .

2) متى ظهر الاعراب « جاء في التاريخ القديم » أن اللغة التي انتشرت في المملكة البابلية قبل (حمورابي) بعشرين قرنا أو أكثر وهي أم اللغات السامية كانت ذات حركات للاعراب وأنها قضت أكثر من ألفي عام وهي ذات حياة في سجلات الحكومة ودواوينها وعلى ألسنة العلية من القوم . وقد استعجمت في ألسنة العامة من أهل الحواجز ، وكان أول شيء أضاعته هو حركات الاعراب فكانت اللغة المتطورة منها المستعجمة هي السريانية القديمة وهي ليست بذات اعراب لأن مالا يوجد في الأصل لا يوجد في الفرع ولكن سكان البادية وهم بدو

الآراميين وهم العرب . لم يفقدوها فبقيت هذه الحركات ثابتة في لهجاتهم . فهذه الحركات إذن متصلة إلينا من ميراث اللغة الأولى أم لغتنا العربية التي حفظتها لنا البداوة[1] .

3) قيمة الإعراب :

هناك بعض أحاديث تنص على تعلم الإعراب ضمتها كتب التاريخ والطبقات ، روى أبو عبيدة باسناد له عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعربوا القرآن . وعن ابن مسعود قال : أعربوا القرآن فانه عربي ، وقال عمر بن الخطاب تعلموا اعراب القرآن كما تتعلمون حفظه[2] ، والواقع أن هذه الأحاديث والأخبار فيها نظر ، لأن الإعراب لم يظهر مصطلحا إلا في عصر متأخر وفي نظري أن المراد بالاعراب هنا ما يفهم من معناه اللغوي الإبانة والتوضيح وفهم الغريب ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسمون هذا الغريب (« إعراب القرآن » لأنهم يستبينون معانيه ويخلصونها)[3] ، ولا تنكر قيمة الإعراب لإنكار معنى (الإعراب الفني) في الأحاديث والأخبار ، فالإعراب كما يقول العكبري : (دخل الكلام ليفرق بين المعاني من الفاعلية والمفعولية والإضافة ونحو ذلك[4]

والإعراب كما يقول أبو حيان التوحيدي(ان الكلام كالجسم والنحو كالحلية وان التمييز بين الجسم والجسم انما يقع بالحلى القائمة

---

1) مولد اللغة ص 79 ، 80 للشيخ أحمد رضا العاملي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق نشرة مكتبة الحياة ببيروت .

2) الزنية ص 117 و 118

3) اعجاز القرآن للرافعي .

4) المسائل الخلافية في النحو للعكبري ورقة 12 مخطوط

والأعراض الحالة فيه وان حاجته الى حركة الكلمة بأحد وجوه الاعراب حتى يتميز الخطأ من الصواب كحاجته الى نفس الخطاب) وضرب أبو حيان الأمثلة على ذلك بقوله : وفي قوله ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾[1] وأنا نعلم فرق متى لم يقف عليه زال الى الكفر وكذلك قوله : ﴿ أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾[2] فرق يتوسط بين الصواب والخطأ صوابه إيمان وخطؤه كفر ..

4) الاعراب والمحدثون :

أ) وقد استبعد الدكتور ابراهيم أنيس صلة الاعراب بالسليقة اللغوية قائلا : انها صفة من صفات الوصل في الكلام شعرا أو نثرا فاذا وقف المتكلم لم يحتج الى الحركات بل يقف بالسكون .

ب) ويرى أنيس فريحة أن الاعراب لا يتلاءم مع الحضارة وأن فقدان الاعراب ليس انحطاطا بل تطورا مع الحياة ، واذا صح أن عمر بن الخطاب كان يضرب أولاده على اللحن فانه يمكن اتخاذ هذا دليلا على أن الاعراب لم يكن متمكنا في لغة الناس قبل ظهور الدعوة[3] .

جـ) ويرى المرحوم الأستاذ العقاد أن « الاعراب أيسر في الفهم من إهمال الاعراب » ، لأن الحركة فيه تدل على معنى الكلمة خلافا للكلمات المتشابهة في الحركات .

وخذ لذلك مثلا قول من يقول : كان حسن يكلم محمدا ومحمودا

---

1) سورة يس آية 76

2) سورة التوبة آية (3) .

3) نحو عربية ميسرة ص 123 و 124 للدكتور أنيس فريحة ـ دار الثقافة ببيروت بتصرف .

وعلي يصغي اليهما مكترثا حينا وحينا غير مكترث فأيهما أيسر في فهمها أن تكتب هكذا أم أن تكتب بغير حركات الإعراب ، قس على ذلك أي قطعة من النثر والشعر تختارها وتكتبها بإعرابها أو بغير إعرابها ثم تقابل بين سهولة الفهم في الحالتين[1] .

والواقع أن الاعراب يمت الى السليقة اللغوية بصلة كبيرة جدا إن لم يكن هو السليقة اللغوية فلغة الشعر ولغة النثر في العصر الجاهلي كانت معربة وأن الشاعر أو الناثر لم يعرف قواعد الإعراب فيجري شعره أو نثره على منوالها وانما كان اذا شعر أو نثر تكلم بالسليقة والطبيعة واللغة العربية كيانها الإعراب بل هو عمودها الذي تقوم عليه فالكلام لو لم يعرب لالتبست المعاني ألا ترى أنك إذا قلت ضرب زيد عمر وكلم أبوك أخوك لم يعلم الفاعل من المفعول .

كذلك قولهم : ما أحسن زيد ، لو أهملته عن حركة مخصوصة لم يعلم معناه ، لأن الصيغة تحتمل التعجب والاستفهام والنفي والفارق بينها هو الحركات[2] وإذا كان عمر قد قاوم اللحن فلا يلزم من ذلك أن اللحن كان منتشرا وانما فعل ذلك صيانة لكتاب الله .

5) الاعراب والنحو :

وقد اتهم الأستاذ ابراهيم مصطفى النحويين بأنهم لفظيون قد اهتموا ببيان الأحوال المختلفة للفظ من رفع أو نصب من غير فطنة لما

---

1) مجلة الكتاب السنة السابعة سنة 1952 ص 538

2) المسائل الخلافية في النحو للعكبري 28 س نحو ورقة 12 مخطوط دار الكتب .

يتبع هذه الأوجه من أثر في المعنى ، وفي ذلك تحامل على النحاة ، لأن ابن مالك لم يفهم من النحو الاعراب فقط قال السيوطي ما نصه :

وقد اتهم الاستاذ ابراهيم مصطفى النحويين بأنهم لفظيون قد اهتموا ببيان الأحوال المختلفة للفظ من رفع أو نصب من غير فطنة لما يتبع هذه الأوجه من أثر في المعنى ، وفي ذلك تحامل على النحاة ، لأن ابن مالك لم يفهم من النحو الاعراب فقط قال السيوطي ما نصه : (مسألة : قول ابن المصنف حد النحو في الاصطلاح عبارة عن العلم بأحكام مستنبطة من استقراء كلام العرب ، أعني أحكام الكلمة في دورانها وما يعرض لها بالتركيب . قال السيوطي مثل قوله : وما يعرض لها (بأو) أو بالواو وما معنى ذلك ؟

الجواب هو بالواو وقصد بذلك حد النحو على مصطلح أبيه الشامل للاعراب والتصريف معا فأحكام الكلمة في ذواتها هو المبحوث عنه في التصريف وما يعرض لها بالتركيب هو المبحوث عنه في الاعراب[1] .

6) حركات الإعراب والخليل :

وقد كان الخط العربي خلوا من الشكل والاعجام ولما ظهر اللحن قام أبو الأسود بعمله المعروف وهو وضع علامات للاعراب على صورة نقط (فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة تحته والضمة بين يديه وجعل التنوين نقطتين كل ذلك بمداد يخالف مداد الحرف فلما وضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بأمر من الحجاج نقط الاعجام

1) الحاوي للفتاوى لجلال الدين السيوطي جـ 2 ص 269 ص 27 ادارة الطباعة المنيرية .

اضطرب الأمر واشتبه الاعجام بالشكل)[1] .

وهنا نرى الخليل يتصدى لإزالة هذا الاضطراب فقام بعمله المعروف فوضع الشكل المعروف على الطريقة التي نعرفها اليوم فجعل للفتحة ألفا صغيرة مضطجعة فوق الحرف وللكسرة رأس باء صغيرة تحته ، وللضمة واوا صغيرة فوقه فاذا كان الحرف المحرك منونا كرر الحرف الصغير فكتب مرتين فوق الحرف أو تحته ، ذلك لأن الفتحة جزء من الألف والكسرة جزء من الياء والضمة جزء من الواو ووضع للتشديد رأس شين بغير نقط (رّ) ووضع للسكون دائرة صغيرة ووضع للهمزة رأس عين (ء) لقرب الهمزة من العين في المخرج ، ووضع لألف الوصل رأس صاد هكذا (ص) توضع فوق ألف الوصل ، مهما كانت الحركة فيها ، وللمد الواجب مع جزء من الدال هكذا(رٓ) فكان مجموع ما تم له وصفه ثماني علامات : الفتحة والكسرة والضمة والسكون والشدة والهمزة والصلة والمدة ـ وطريقة الخليل هذه لم يزد عليها أحد .

7) الإعراب والقرآن :

بدأت حركة الاعراب في القرآن بتنقيط المصحف على يد أبي الأسود حينما كثر اللحن حفاظا على كتاب الله ولم يكن العرب يعرفون اللحن الا بعد دخول الموالي في الاسلام ثم ازداد اللحن بعد الفتوحات الاسلامية الكثيرة ، فكان التفكير في صيانة القرآن من هذا الوفد الوباء الفادح وقد نزل القرآن الكريم على قوم تمكنت من ألسنتهم الفصاحة

---

1) من مقال الخليل بن أحمد لطه الراوي منشور في مجلة الرسالة السنة الحادية عشرة سنة 1943

وغدوا بلبان البلاغة والفصاحة في الكلام في نظمه لا يكون الا باعراب ولو كان بلهجة محلية كما يقول بعض المستشرقين لسهل الأمر وأصبح القرآن غير معجز ، لأنه من السهل الاتيان بمثله ومن السهل أن يندثر كما اندثرت بعض اللهجات ، أما والقرآن الكريم قائم بيننا بصولته البلاغية وصولجانه في الفصاحة والبلاغة والبيان يتحدى أرباب القول ويعجز أساطين البلاغة وهو الذي خلد هذه اللغة وخلد اعرابها وجعلها حية بعد هذه السنين الطويلة التي طوت فيما طوت كثيرا من اللغات فانه لا سبيل الى إنكار أنه نزل معربا ، ورحمه الله الرافعي الذي سد الثغرات التي حاول المستشرقون فتحها في جبهة القرآن الكريم لينالوا منه إذ يقول : (وبهذا الأثر ـ يقصد حديث : (أعربوا القرآن) ونحوه مما تأتى فيه لفظة الاعراب زعم طائفة من أبناء الطيالسة[1] وطائفة من قومنا الذين في قلوبهم مرض أن اللحن أي الزيغ عن الاعراب كان يقع من الصحابة في القرآن لعهد النبي صلى الله عليه وسلم ضلة من القائلين وذهابا الى معنى الاعراب النحوي[2] .

ومن إعجاز القرآن العظيم وخلوده الى أن يرث الله الأرض ومن عليها أن هيأ منزله جل وعلا عقول العلماء وأفكار الباحثين الى ميدانه لكشف أسراره ومن أهم هذه الميادين ميدان اعرابه فالاعراب يوضح المعنى ويبين الغرض ويشير الى البلاغة ويومىء الى جمال التركيب وحسن الصياغة وهذه كلها مواطن الاعجاز في القرآن الكريم والاعراب في القرآن كان شغل العلماء الشاغل ألفوا من أجله الكثير من الكتب

---

1) كناية عن الاعاجم وكان العرب يقولون للعجمي اذا عيروه (يا بن الطيلسان) كأنه عندهم بن ثوبة (عن اعجاز القرآن للرافعي في الهامش) .

2) المصدر السابق .

والعديد من المؤلفات يدلك على ذلك اهتمام علماء الاسلام بالقرآن أنهم كانوا لا ينقطعون عن دراسة القرآن حتى في الجنة من حيث الاعراب وما يلزمه من توضيح المعاني فقد أشار أبو العلاء المعري في رسالة الغفران في قصة احياء الموتى وفي قصة ابراهيم مع ربه ﴿ وكان النحاة في الجنة يتجادلون ﴾ فيقول أبو عبيدة ما وضع يطمئن[1] فيقولون نصب بلام كي فيقول هل يجوز غير ذلك فيقولون : لا يحضرنا شيء فيقول : يجوز أن يكون في موضع جزم بلام الأمر ويكون مخرج الكلام مخرج الدعاء كما يقال : (رب اغفرلي ، ولتغفرلي)[2] الا تدل هذه القصة الخيالية على مبلغ اهتمام العلماء باعراب القرآن .

8) كتب إعراب القرآن :

يبين حاجي خليفة في « كشف الظنون » أن بعض العلماء يجعل من اعراب القرآن علما ، ويعده من فروع علم التفسير ولكن صاحب كشف الظنون لا يوافق على هذا فيقول : « لكنه في الحقيقة هو من علم النحو وعده علما مستقلا ليس كما ينبغي »[3] .

ويسرد « كشف الظنون » الكثير من الكتب المؤلفة في اعراب القرآن ويكفينا أن نعرف بأشهرها :

1) إعراب القرآن المنسوب الى الزجاج م 311 هـ

2) اعراب القرآن لأبي جعفر النحاس م 338 هـ

---

1) آية 260 البقرة . (ولكن ليطمئن قلبي)

2) رسالة الغفران ص 115 ـ 186 تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء دار المعارف بمصر .

3) كشف الظنون جـ 1 نهر 121

3) اعراب القرآن لابن خالويه م 370 هـ .

4) البرهان في علوم القرآن للجوفي م 430 هـ

5) تفسير مشكل اعراب القرآن لمكي بن أبي طالب م 437 هـ

6) اعراب القرآن للعكبري المتوفي 538 هـ

7) اعراب القرآن لابن الأنباري م 577 هـ

8) اعراب القرآن للسفاقس م 742 هـ

9) اعراب القرآن للسمين الحلبي م 756 هـ .

1) وللخطة الملتزمة بأن نعيش مع أفكار الزجاج لحظات متتابعة تتناول موجزين منهج الباقين .

2) أما ابن النحاس فهو :

أ) يعرب القرآن والقراءات التي تحتاج الى تبين اعرابها والعلل فيها .

ب) لا يخلى كتابه من اختلاف النحويين .

جـ) لا يخلى كتابه أيضا من المعاني التي تلزم أو الزيادة في المعاني عن المعاني المعهودة وشرح لها .

د) التعرض للغة وما أجازه بعضهم ومنعه بعضهم من الجموع واللغات .

هـ) نسب كل لغة الى أصحابها .

و) مذهبه في منهجه الايجاز والمجيء بالنكتة في موضعها من غير الأطالة .

ز) هدفه من هذا الكتاب الاعراب وما شاكله[1] .

هذه خلاصة منهجه كما هو واضح في مقدمته .

3) أ) الكتاب في اعراب ثلاثين سورة من المفصل لابن خالويه .

ب) شرح أصول كل حرف وتلخيص فروعه وذكر غريب ما أشكل منه .

جـ) بيان المصادر والتثنية والجمع ليكون معونة على جميع ما يراد من اعراب القرآن أن شاء الله[2] .

د) ويحاول في كتابه أيضا أن يدل على الكتب التي ألفها ككتابه في أسماء الله الحسنى .

هـ) ودأبه في كتابه الاختصار والإيجاز .

و) الاعتداد بالمصحف ورسمه وترك القراءة بما يخالف هذا الرسم يقول في (مالك يوم الدين) واللغة الثالثة مليك ولم يقرأ به أحد لأنه يخالف المصحف ولا إمام له في هذا الموضع[3] .

ز) ومن منهجه أن القراءة لا تحمل على قياس العربية فيقول في

1) انظر مقدمته من نسخة رقم 48 تفسير (دار الكتب مخطوط) .
2) مقدمة الكتاب نسخة رقم 7 تفسير .
3) ورقة (10) .

﴿ مالك يوم الدين ﴾ ويجوز في النحو ﴿ مالك يوم الدين ﴾ بالرفع على معنى هو مالك ، ولا يقرأ به ، لأن القراءة سنة ولا تحمل على قياس العربية[1] .

ح) ويفضل قراءة ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ الآية السادسة عشرة من سورة الأعلى بالاظهار كما قرأ حمزة وغيره لأنهما كلمتان بينما أدغمهما حمزة لقرب المخرجين وسكون اللام .

ط) ويصحح بعض القراءات بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾[2] روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وآله أنه قرأ : ما ودعك ربك مخففا فيكون المعنى ما تركك . ويستشهد على هذا المعنى بالشعر وكلام أفصح العرب رسول الله .

4) ومنهج الحوفي الاهتمام بالقراءات فيبدأ بها النص القرآني معالجا ويعالجه ثانيا من حيث المعنى والتفسير ويعالجه ثالثا من حيث الاعراب .

5) تفسير مشكل اعراب القرآن وما يتعلق به من الفاتحة الى الناس مبينا منهجه في مقدمته بأنه قصد به الخاصة فضرب صفحا عن ذكر حروف الخفض وحروف الجزم وبما هو ظاهر من ذكر الفاعل والمفعول قاصدا تفسير المشكل وذكر علله وصعبه ونادره ليكون خفيف المحمل سهل المأخذ[3] .

---

1) ورقة (10) .

2) الضحى آية 3

3) انظر مقدمة تفسير مشكل اعراب القرآن ص 20

6) أما العكبري فكان همه في كتابه ذكر الاعراب ووجوه القراءات متبعا منهج البصريين ناقدا الكوفيين .

7) اما إعراب القرآن أو البيان في غريب اعراب القرآن لعبد الرحمن بن محمد بن سعيد الانباري فلا يغفل في اعرابه النواحي الصرفية فهو يقول في ﴿وإياك نستعين ﴾[1] أصل نستعين نستعون . نستفعل من العون فنقلت الكسرة من الواو الى ما قبلها فسكنت للواو وانكسر ما قبلها فقلبت ياء كما يشير الى كتابه الإنصاف وكتابه في الترجيح بين الشافعي وأبي حنيفة من جهة النحو ، ويلجأ الى القراءات لتصحيح رأي أو تقوية تخريج والقراءة في نظره ترجع الى الفصاحة والفصاحة ترجع الى القياس .

8) أما إعراب القرآن للسفاقسي (المجيد في إعراب القرآن المجيد)[2] فقد بين منهجه في ضوء مقدمته لكتابه مشيدا بشيخه أبي حيان في إعراب القرآن (البحر المحيط) مستدركا بأن أبا حيان بذلك سلك في كتابه سبيل المفسرين في الجمع بين التفسير والإعراب فيصعب جمعه إلا بعد بذل المجهود فاستخار الله وامتطى جواد الجد ليجمع ويلخص ويبين ويعرب منتفعا بكتاب أبي البقاء العكبري ضاما اليه من غيره .

9) أما إعراب القرآن للسمين الحلبي[3] (الدر المصون في علم الكتاب المكنون) فقد تعرض للقراءات المشهورة والشاذة وما ذكر

---

1) الآية الخامسة من سورة الفاتحة .

2) توفي 742 هـ وله ترجمة في البغية ص 186

3) مخطوط بدار الكتب ط تفسير رقم 384 والثالث رقم 107 والثامن 107 والتاسع 321

الناس في توجيهها والإحاطة بجميع ما ذكر من أوجه الاعراب وتسجيل المناقشات الواردة على أبي القاسم الزمخشري وأبي محمد بن عطية ومحب الدين أبي البقاء وإن أمكن رد الاعتراضات عليهم فعل ذلك ، والتعرض لكلام كثير من المفسرين كالمهدوي ومكي والنحاس وختم مقدمته بأن هذا المصنف في الحقيقة نتيجة عمره وذخيرة دهره[1] .

أليس هذا الاهتمام الكبير باعراب القرآن الكريم دليلا قويا ساطعا على أن هؤلاء الشيخان الفحول الثقاة قد قصدوا بالاعراب تبيان المعنى رجاء أن يثيبهم الله بكشف حقائق كتاب ربنا الأمجد وكتاب الانسانية الأوحد بل هو المنارة المتلألئة التي اهتدى بها العاملون لإرساء قواعد اللغة ولولاه لكان من المشكوك فيه أن يتوافر العلماء على وضع علم النحو وعلوم البلاغة وما نشطتاللغة العربية هذا النشاط الا لأنها لغة كتاب مقدس لغة تجمع بين رسالة السماء ورسالة الأرض فيها شعر خالد وفيها نثر خالد ومنها القرآن .

والآن فلنطف على بساتين أعلام النحو المفسرين :

أبي حيان ، والفراء ، والزمخشري ، والزجاج . مقتطفين من كل بستان زهرة مسكية الشذىعاطرة الأريج ترد على النفس انبساطها وتنعش القريحة فتستأنف نشاطها ، ولنرد أنهارهم العذبة لنأخذ من كل نهر قطرة تروي الظمأ وتشفي الغليل .

1) الدر المصون من نسخة رقم 384 تفسير تيمور ورقة (1) .

محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي :

لم أراع الترتيب الزمني وإنما راعيت العمل الضخم في تناول تفسير كتاب الله فبدأت بأبي حيان وهو : محمد أثير الدين بن يوسف الغرناطي ولد بمطخارش (من ضواحي غرناطة) وتلقى عن كثيرين منهم ابن الضائع ودرس بين ظهر انيهم ثم هاجر وضرب في مغارب الأرض ومشارقها وأخذ عن كثير ممن لقيه ثم انتهى به المطاف الى القاهرة فأخذ عن ابن النحاس ، وتصدر في الجامع الأقمر وصنف كثيرا فمن مؤلفاته النحوية (التذييل والتكميل في شرح التسهيل) وملخصه (ارتشاف الضرب من لسان العرب) وكان على مذهب ابن الضائع في منع الاستشهاد بالحديث ولذا رد على ابن مالك في شرحه على التسهيل بكلام مسهب ، توفي رحمه الله بالقاهرة سنة 745 هـ[1] وقد رثاه الصفدي تلميذه فقال مشيدا بتفسيره :

تفسيره البحر المحيط الذي يهدي الى وارده الجوهرا
فوائد في فضله جمة عليه فيها نعقد الخنصرا
وكان ثبتا نقله حجة مثل ضياء الصبح إذا أسفرا

وكان القدماء يطلقون على أبي حيان لقب (أمير المؤمنين في النحو[2] ويعدونه شيخ النحاة وهو الذي جسر الناس على قراءة كتب ابن مالك وتداولها) .

---

1) نشأة النحو للمرحوم الشيخ محمد الطنطاوي وبهامشه (ترجمة في الوافي بالوفيات وفوات الوفيات والدرر الكافية وبغية الوعاة وحسن المحاضرة (أئمة النحو واللغة أو نفح الطيب (الباب الخامس من القسم الأول وشذرات الذهب والبدر الطالع) .

2) ينظر أعيان العصر جـ 7

وقد أولى النحو أهمية كبيرة في تفسير القرآن الكريم وتفهم معانيه وإدراك أسراره فبث في تفسيره الكبير (البحر المحيط) المسائل النحوية الكثيرة ، وأثبت الآراء المختلفة ولم يكتف بما ذكره في هذا الكتاب وفي كتبه الخاصة بالدراسات الاسلامية والقرآنية وانما خاض غمار التأليف في اللغة والنحو وترك لنا كتبا كثيرة لها قيمتها وأهميتها في دراسة النحو وتطوره .

البحر المحيط أكبر كتب أبي حيان الدينية :

كان أبو حيان يسمي كتابه هذا (الكتاب الكبير) ويقع في ثمانية أجزاء كبيرة وقد طبع في مصر سنة 1328 هجرية بمطبعة السعادة على نفقة سلطان المغرب الأقصى عبد الحفيظ بن السلطان مولاي الحسن ابن السلطان سيدي محمد . وطبع على حاشيته كتاب (النهر المادة) لأبي حيان نفسه وهو مختصر للبحر المحيط (وكتاب الدرا للقيط) من البحر المحيط لتلميذه ابن مكتوم وفي مكتبة لندن مخطوطة من البحر المحيط لا نعرف متى كتبت وقد ذكرها (بلانثيا) في كتابه : تاريخ الفكر الأندلسي من غير أن يصفها وهي برقم OR 344 كما جاء في فهرس مخطوطات ليدن وفي مكتبة أيا صوفيا وقد ذكرهما الأستاذ جورجي زيدان من غير إشارة الى تاريخ نسخهما ولم يصفهما ، وفي المكتبة العباسية بالبصرة أحد أجزائه وهو من مخطوطات القرن الحادي عشر .

ألف أبو حيان البحر المحيط بعد أن ألقي عصا التسيار في مصر وبعد أن عين مدرسا لعلم التفسير في قبة السلطان الملك المنصور وابتدأ بتأليفه في عهد الملك الناصر يقول : (وما زال يختلج في ذكري

ويعتلج في فكري أني إذ بلغت الأمد الذي يتغضن فيه الأديم ويتغضن برؤ يتي النديم ، وهو العقد الذي يحل عرى الشباب المقول فيه : اذا بلغ الرجل الستين فاياه وإيا الشباب ، ألوذ بجناب الرحمن وأقتصر على النظر في تفسير القرآن فأتاح الله لي ذلك قبل بلوغ ذلك العقد وبلغني ما كنت أروم من ذلك القصد وذلك بانتصابي مدرسا لعلم التفسير في قبة السلطان الملك المنصور قدس الله مرقده ، وبل بمزن الرحمة معهده ، وذلك في دولة ولده السلطان القاهر الملك الناصر الذي رد الله به الحق الى أهله وأسبغ على العالم وافر ظله واستنقذ به الملك من غصابه وأقره في منيف محله وشريف نصابه ، وكان ذلك في أواخر سنة عشر وسبعمائة وهي أوائل سنة سبع وخمسين من عمري فعكفت على تصنيف هذا الكتاب وانتخاب الصفوة واللباب[1] ولم يؤلف أبو حيان كتابه لأحد وانما ألفه لوجه الله تعالى ولوجه العلم يقول : فما لمخلوق بتأليفه قصدت ولا غير وجه الله به أردت جعلت كتاب الله والتدبر لمعانيه أنيسي إذ هو أفضل مؤنس وسمير إذا أخلد لكتب ظلم الحنادس .

نعم السمير كتاب الله إن لـه ... حلاوة هي أحلى من جني الضرب
به فنون المعاني قد جمعن فما ... يفتن من عجب الا الى عجب
أمـــر ونهى وأمـثال ومــوعـظة ... وحكمة أودعت في انصح الكتب
لطائف يجتليها كـل ذي بصر ... وروضة يجتنيها كل ذي أدب

ويرى أبو حيان أن على المفسر آن يطلع اطلاعا واسعا على علوم متعددة ، لأن لكل علم ميزته وفضله ولا يستطيع المشتغل بعلم التفسير الاستغناء عنه فبعلم النحو توفى الأحكام التي للكلم العربية من جهة

---

1) البحر المحيط جـ 1 ص 3

أفرادها ومن جهة تركيبها وبعلم اللغة تعرف معاني الأسماء والأفعال التي لا يفهم المقصود من كلام الله وألفاظه الا بمعرفته والاطلاع عليه وبعلم الحديث يتعين المبهم ويتبين المجمل وسبب النزول والنسخ وبأصول الفقه يعرف الاجمال والتبيين والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد ودلالة الأمر والنهي وما أشبه ذلك وبعلم الكلام يعرف ما يجوز على الله تعالى وما يجب له وما يستحيل عليه والنظر في النبوةوإعجازلقرآن وبعلم القراءات يعرف اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص أو تغيير حركة او اتيان بلفظ بدل لفظ وذلك متواتر وآحاد .

وقد اتبع أبو حيان في تفسيره طريقة سار عليها من أول الكتاب الى آخره وهي : أن يبتدىء أولا بالكلام على مفردات الآية التي يفسرها لفظة لفظة فيما يحتاج اليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب واذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكر ذلك في أول موضع تقع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه ثم يسرع في تفسير الآية ذاكرا سبب نزولها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها حاشدا فيها القراءات شاذها ومستعملها ذاكرا توجيه ذلك في علم العربية ناقلا أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها متكلما عن جليها وخفيها بحيث لا يغادر منها كلمة وان اشتهرت الا ويتحدث عنها مبديا ما فيها من غوامض الاعراب ودقائق الآداب من بديع وبيان مجتهدا ان لا يكرر الكلام في لفظ سبق ولا في جملة تقدم الكلام فيها ولا في آية فسرت بل يحمل في كثير منها على الموضع الذي أشار فيه الى تلك اللفظة أو الجملة أو الآية وان عرض تكرار فبمزيد فائدة ناقلا أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني محيلا على الدلائل التي في كتب الفقه أو كتب اللغة والنحو وربما يذكر الدليل اذا كان الحكم غريبا أو خلاف ما هو

مشهور بادئا بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ ، منكبا في الاعراب عن الوجوه التي ينزه القرآن منها مبينا أنها مما يجب أن يعدل عنه ، وانه ينبغي ان يحمل على أحسن اعراب وأحسن تركيب ، إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحاة في شرح الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة والتراكيب القلقة والمجازات المعقدة ثم يختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرها إفرادا وتركيبا مما ذكروا فيها ما من علم البيان والبديع ملخصا ثم يتتبع آخر الآيات بكلام منثور يشرح به مضمون تلك الآيات على ما يختاره من تلك المعاني ملخصا أحملها أحسن تلخيص ، وقدينجر معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير وربما يلم بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ مع تجنبه لكثير من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ وتركوا أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ القريبة عن مدلولاتها في اللغة الى هذيان افتروه على الله تعالى وعلى الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجه ، وعلى ذريته وهو الذي يسمونه علم التأويل وقد وقف على تفسير بعض رءوسهم وهو تفسير عجيب يذكر فيه أقاويل السلف مزدريا عليهم ذاكرا أنه ما جهل مقالاتهم ، ويفسر الآية على شيء لا يكاد يخطر فيذهن عاقل،ويزعم أن ذلك هو المراد من هذه الآية ، وهذه الطائفة لا يلتفت اليها عند أبي حيان وقد رد أئمة المسلمين عليهم أقاويلهم في علوم أصول الدين .

هذا منهج أبي حيان في تفسيره الكبير وقد وضح علمه وجهوده بقوله « فعكفت على تصنيف هذا الكتاب وانتخاب الصفو واللباب » ، أجيل الفكر فيما وضع الناس في تصانيفهم وأنعم النظر فيما اقترحوه من تآليفهم فألخص مطولها واحل

مشكلها وأقيد مطلقها وأفتح مغلقها وأجمع مبددها وأخلص منقذها وأضيف الى ذلك ما استخرجته القوة المنكرة من لطائف علم البيان المطلع على اعجاز القرآن ومن دقائق علم الاعراب المغرب في الوجود أي إعراب المقتنص من الأعمار الطويلة من لسان العرب وبيان الأدب. فكم حوى من لطيفة فكر مستخرجها ومن غريبة ذهن متنجها، تحصلت بالعكوف على علم العربية والنظر في التراكيب النحوية والتصرف في أساليب النظم والنثر والتقلب في أفانين الخطب والشعر، لم يهتد الى آثارها ذهن ولا صاب بريقها مزن واني ذلك وهي خمائل غفل ومناظر لمستغلق أبوابها من قفل وفي إدارك مثلها تتفاوت الأفهام وتتبارى الأوهام[1] .

وفي البحر المحيط مادة غزيرة الى جانب كشف معاني الآيات القرآنية وتوضيحها فقد اهتم فيه باللغة والنحو والصرف والقراءات واللهجات ورد على الفرق المختلفة، وذكر معلومات كثيرة عن الاندلس وغيرها من الأقطار الاسلامية والعربية، وبذلك يكون هذا التفسير مهما في كثير من الدراسات الدينية والعقائدية واللغوية والتاريخية .

وأبو حيان يرى أن لكل علم ميزته وفضله فبعلم النحو تعرف الأحكام التي للكلم العربية من جهة افرادها ومن جهة تركيبها وبعلم اللغة تعرف معاني الأسماء والأفعال التي لا يفهم المقصود من كلام الله وألفاظه الا بمعرفته والاطلاع عليه وبعلم الحديث يتعين المبهم ويتبين

---

1) البحر المحيط جـ 1 ص 3

المجمل وسبب النزول والنسخ وبأصول الفقه يعرف الاجمال والتبيين والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد ودلالة الأمر والنهي وما اشبه ذلك وبعلم الكلام يعرف ما يجوز على الله تعالى وما يجب له وما يستحيل عليه والنظر في النبوة وفي الأنبياء واعجاز القرآن وبعلم القراءات يعرف اختلاف الألفاظ بزيادة او نقص او تغيير حركة أو إتيان بلفظ بدل لفظ وذلك بتواتر وآحاد .

فالمفسر يحتاج الى الاطلاع عليها جميعها كما يحتاج الى الاطلاع على كلام العرب ومعرفة سبب نزول الآيات وآراء الفرق المختلفة في آيات الله البينات .

ومن هنا نرى أبو حيان يرد على المفسرين وكتبهم من هذه النواحي فما أخذه على المفسرين عدم اطلاعهم وعدم امعانهم في تراكيبه وتركهم حفظ أشعار العرب .

نموذج يوضح منهجه وطريقة تناوله للمسائل النحوية في القرآن الكريم .

يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾[1] :

قرأ الجمهور (إن) بكسر الهمزة وقرأ ابن عباس والكسائي ومحمد بن عيسى الأسبهاني (أن بالفتح) فأما قراءة الجمهور فعلى الاستئناف وهي مؤكدة للجملة الأولى ، قال الزمخشري فان قلت ما فائدة هذا التوكيد ؟ قلت فائدته أن قوله : لا إله الا هو ، توحيد وقوله :

---

1) سورة آل عمران الآية 19 .

قائما بالقسط تعديل فاذا اردفه قوله ؟ ان الدين عند الله الاسلام ، فقد آذن ان الاسلام هو العدل والتوحيد وهو الدين عند الله وما عداه فليس عنده بشيء من الدين ومنه ان من ذهب الى تشبيه ما يؤدي اليه كاجازة الرؤية او ذهب الى الجبر الذي هو محض الجور لم يكن على دين الله الذي هو الاسلام وهذا بين جلى كما ترى ا هـ كلام وهو على طريقة المعتزلة في انكار الرؤية وقولهم إن أفعال العبد مخلوقة له لا لله تعالى واما قراءة الكسائي ومن وافقه في نصب أنه وأن فقال أبو علي الفارسي : ان شئت جعلته من بدل الشيء من الشيء وهو هو ، الا ترى أن الدين الذي هو الاسلام يتضمن التوحيد والعدل وهو هو في المعنى .

وان شئت جعلته من بدل الاشتمال ، لأن الاسلام مشتمل على التوحيد والعدل وقال : ان شئت جعلته بدلا من القسط ، لأن الدين الذي هو الاسلام قسط وعدل فيكون أيضا من بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة ، انتهت تخريجات أبي علي وهو معتزلي فلذلك يشتمل كلامه على لفظ المعتزلة من التوحيد والعدل وعلى البدل من (أنه لا اله الا هو)[1] خرجه غيره أيضا وليس بجيد لأنه يؤدي الى تركيب بعيد ان يأتي مثله في كلام العرب وهو : عرف زيد أنه شجاع الا هو وبنو تميم وبنو دارم ملاقيا للحروب ولا شجاع الا هو البطل الحامي) .

ان الخصلة الحميدة هي البسالة وتقريب هذا المثال : ضرب زيد عائشة والعمران خنقا أختك فخنقا حال من (زيد) واختك بدل من عائشة ـ تفصل بين البدل والمبدل منه بالعطف وهو لا يجوز وبالحال لغير

1) سورة آل عمران الآية 18 .

المبدل منه ولا يجوز ، لأنه فصل بأجنبي بين المبدل منه والبدل . وخرجها الطبري على حذف حرف العطف التقدير « وان الدين » قال ابن عطيه : وهذا ضعيف ولم يبين وجه ضعفه ووجه ضعفه انه متنافر التركيب مع اضمار حرف العطف فيفصل بين المتعاطفين المرفوعين بالمنصوب المفعول وبين المتعاطفين المنصوبين بالمرفوع المشارك الفاعل في الفاعلية وبجملتي الاعتراض وصار في التركيب دون مراعاة الفصل نحو أكل زيد خبزا وعمرو سمكا ، وأصل التركيب : أكل زيد وعمرو خبزا وسمكا ، فان فصلنا بين قولك وعمرو وبين قولك وسمكا يحصل شنع التركيب وإضمار حرف العطف لا يجوز على الأصح .

وقال الزمخشري : وقرئنا مفتوحتين على أن الثاني بدل من الأول كأنه قيل « وشهد الله أن الدين عند الله الاسلام » ، والبدل هو المبدل منه في المعنى فكان بيانا صريحا لأن دين الاسلام هو التوحيد والعدل . ا هـ . وهذا نقل كلام أبي علي دون استبعاد ، واما قراءة ابن عباس فخرج على « ان الدين عند الله الاسلام » وهو معمول شهد ، او يكون في الكلام اعتراضان ، أحدهما بين المعطوف عليه والمعطوف وهو (أنه لا اله الا هو) والثاني بين المعطوف والحال وبين المفعول لشهد وهو : لا اله الا هو العزيز الحكيم .

واذا أعربنا (العزيز) خبر مبتدأ محذوف كان ذلك ثلاثة اعتراضات ، فانظر الى هذه التوجيهات البعيدة التي لا يقدر أحد على أن يأتي لها بنظير من كلام العرب ، وإنما حمل على ذلك العجمة وعدم الإمعان في تراكيب كلام العرب وحفظ أشعارها كما أشرنا اليه في خطبة هذا الكتاب ، أنه لا يكفي النحو وحده على علم الفصيح من كلام العرب بل لا بد من الاطلاع على كلام العرب والتطبع بطباعها

والاستكثار من ذلك[1] ويأخذ على المفسرين عدم بصرهم بلسان العرب وتحميلهم ألفاظ القرآن ما يجب أن ينزه عنها وشحنهم التفسير بعلل النحو وتفاصيل الإعراب وتفصيلهم الكلام في الأحكام الشرعية وملء الكتب بالقصص الكثيرة التي لا مبرر لذكرها في كثير من الأحيان والأخبار التي لم يرد بها قرآن ولا نص عليها حديث ، ويرى اطراح كل قصة لا تعلق لها بلفظ القرآن وترك الإطالة في الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور والانصراف عن حمل القرآن على الشعر والضرائر الشعرية ويدعو الى تنزيه القرآن عن الالباس في التركيب وذكر الأقوال العربية التي تخرج كلام الله عن ظاهره وتبعده عن المفهوم منه وعن نقل ما ينقص من منصب النبوة وكرامة الأنبياء من مثل ما ورد في سورة (ص) عن سيدنا داود ، وعلة اتجاهه في التفسير هذا الاتجاه فهمه الخاص للتفسير فهو عنده شرح اللفظ المستغلق عند السامع بما هو واضح عنده مما يراد منه أو يقاربه أوله دلالة عليه بإحدى طرق الدلالات أو هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه[2] فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا[3] .

أما التفاسير التي فضلها أبو حيان فقد ذكرها في أول البحر المحيط وبين رأيه فيها وفي أصحابها ولكنه بعد الزمخشري وابن عطية الأندلسي المغربي أحسن المفسرين ويعتبر تفسيريهما أحسن التفاسير وأجلها وأعظمها شأنا وأجمعها مادة وأكثرها استشهادا وأوسعها انتشارا

---

1) البحر المحيط جـ 2 ص 407 وينظر البحر المحيط جـ 3 ص 45 وجـ 1 ص 36 و 385 و 128 و جـ 2 ص 29 وجـ1 ص 5 و45 و47 و12 و15 و9 و37 وجـ1 ص361 و17 و 18 و379 و258 و201 و224 وجـ 4 ص 356 وجـ 1 ص 35 و 259 على التوالي .

2) جـ 3 ص 282

3) البحر المحيط جـ 6 ص 497

وقد حاول أن يوازن بين هذين الرجلين فلم يجد الى المقارنة سبيلا لأن لكل واحد اتجاهه وطريقته في التفسير .

من هذا نفهم أن أبا حيان يضيق ذرعا بالصنعة الإعرابية وأنه يحبذ الإعراب الجاري على سنن كلام العرب الموضح المعنى . وهو متأثر بالمذهب الظاهري في الفقه الاسلامي الذي يبطل القياس والعلل ويأخذ بظاهر النصوص والذي نشأ في غير بيئة الأندلس وثم وفد عليها بعد ان خبا في المشرق وقد تأثر النحو بهذه الدعوة فظهر ابن مضاء القرطبي مناديا بتحرير النحو العربي من النزعة الشرقية المؤمنة بالقياس والتعليل المغرق في التأويل والتمحلات ، وسنتناول ذلك بمشيئة الله بتفصيل عند التحدث عن نظرية العامل . ولعل أهم ما في نحو الأندلس بعد الأفكار التي حملها ابن مالك وأبو حيان من الأندلس الى مصر والشام فقد نزحا الى هذين الاقليمين العربيين ونشرا علمهما فيها فنشأ نحاة كان لهم أكبر الأثر في وضع النحو موضعه الأخير .

اهتمامه باللغة والنحو والصرف :

كان أبو حيان لغويا ونحويا كبيرا ومن هنا كان لا بد من أن يدخل ثقافته اللغوية والنحوية في تفسيره : البحر المحيط الذي كان من أواخر مصنفاته التي كتبها في عهد نضجه الفكري ويرى أبو حيان أن المفسر بحاجة كبيرة الى معرفة اللغة والنحو . وقد أكد هذا المعنى في مقدمة البحر وفي مواضع كثيرة منه يقول : النظر في تفسير كتاب الله تعالى يكون من وجوه :

الوجه الأول : علم اللغة اسما وفعلا وحرفا ، والحروف لقلتها تكلم على معانيها النحاة فيؤخذ ذلك من كتبهم واما الأسماء والأفعال

فيؤخذ ذلك من كتب اللغة .

الوجه الثاني : معرفة الاحكام التي للكلم العربية من جهة تركيبها ويؤخذ ذلك من علم النحو[1]

ولذلك يعزو أبو حيان كثيرا مما وقع فيه المفسرون من الأخطاء الى عدم تعمقهم في اللغة والنحو ومعرفة أساليب العرب يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر ﴾[2] تقديره أو ما نذرتم لأن (من نذر) تفسير وتوضيح لذلك المحذوف وحذف ذلك للعلم به ولدلالة ما في قوله : (وما أنفقتم عليه) كما حذف في قوله :

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

التقدير (ومن يمدحه) فحذف لدلالة (من) المتقدمة عليه ، وعلى هذا الذي تقرر من حذف الموصول فجاء الضمير مفردا في قوله (فان الله يعلمه) لأن العطف بأو ، واذا كان العطف بأو كان الضمير مفردا ، لأن المحكوم عليه أحدهما وتارة يراعى به الأول في الذكر نحو (زيدا أو هند منطلق ، وتارة يراعي به الثاني نحو زيد أو هند منطلقة ، وأما أن يأتي مطابقا لما قبله في التثنية أو الجمع فلا ، ولذلك تأول النحويون قوله تعالى ﴿ إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ﴾[3] وبالتأويل المذكور في علم النحو وعلى المهيع الذي ذكرنا جاء قوله تعالى ﴿ واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها ﴾[4] وقوله تعالى ﴿ ومن

---

1) البحر المحيط جـ 1 ص 5 ، 6
2) سورة البقرة آية 270
3) سورة النساء الآية 135
4) سورة الجمعة الآية 1

يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا ﴾[1] كما جاء في هذه الآية فان الله يعلمه[2] ثم حذف .

هذا مثال من رد أبي حيان على المفسرين والاشارة الى عدم تعمقهم في النحو وقلة اطلاعهم عليه ونستطيع ان نتبين اهتمامه باللغة والنحو والصرف في البحر عند تعرضه لتفسير معنى كلمة فيبين معناها في اللغة ثم يأخذ المعنى المناسب للآية وتفسيرها على هذا ، يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾[3] : الوسطى : (فعلى) مؤنثة الأوسط كما قال اعرابي يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا أوسط الناس طرا في مفاخرهم   وأكـرم النـاس امـا بـرة وأبـا

وهو خيار الشيء وأعدله كما يقال فلان من واسطة قومه أي من أعيانهم وهل سميت الوسطى لكونها بين شيئين من وسط فلان يسط اذا كان وسطا بين شيئين أو من وسط قومه إذا فضلهم فيه قولان ، والذي تقتضيه العربية ان تكون الوسطى مؤنث الأوسط بمعنى الفضلى مؤنث الأفضل كالبيت الذي أنشدناه : (يا أواسط الناس) وذلك أن أفعل التفضيل لا يبني الا مما يقبل الزيادة والنقص وكذلك فعل التعجب فكل ما لا يقبل الزيادة والنقص لا يبنيان منه الا ترى أنك لا تقول : (زيد أموت الناس ، ولا ما أموت زيدا) لأن الموت شيء لا يقبل الزيادة والا النقص فلا يجوز أن يبني منه (أفعل التفضيل) لأنه لا تفاضل فيه فتعين

1) سورة النساء الآية 112
2) من آية 270 سورة البقرة .
3) الآية 238 سورة البقرة

أن تكون الوسطى بمعنى (الأخير والأعدل) لأن ذلك معنى يقبل التفاوت[6] واستفاد أبو حيان من النحو كثيرا في تفسير الكتاب العزيز وتوجيه المعاني المختلفة التي تضمنتها آياته البينات من ذلك تفسيره قوله تعالى ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾[2] يقول : وبغير حساب تقدمه ثلاثة أشياء يصلح تعلقه بهاء الفعل والفاعل ، والمفعول الأول وهو (من) فإن كان للفعل فهو من صفات المصدر وإن كان للفاعل فهو من صفاته أو للمفعول فهو من صفاته فاذا كان للفعل كان المعنى يرزق الله من يشاء رزقا غير حساب اي غير ذي حساب ويعني بالحساب : العد ، فهو لا يعد ولا يحصر من كثرته او يعني به المحاسبة في الآخرة أي رزقا لا يقع عليه حساب في الآخرة وتكون على هذا (الباء) زائدة وإذا كان للفاعل كان في موضع الحال : المعنى : يرزق الله غير محاسب عليه أي متفضلا في اعطائه لا يحاسب عليه ، أو غير عاد عليه ما يعطيه ويكون ذلك مجازا عن التقتير والتضييق فيكون (حساب) مصدر اعبر به عن اسم الفاعل من (حسب) وتكون الباء زائدة في الحال المنفية وهذه الحال لم يتقدمها نفي ، ومما قيل إنها زيدت في الحال المنفية قول الشاعر :

فمـا رجعت بخائبـة ركـاب   حكيم بن المسيب منتهـاهـا

أي فما رجعت خائبة ويحتمل في هذا الوجه أن يكون (حساب) مصدر اعبر به عن اسم المفعول أي غير محاسب على ما يعطي تعالى : أي : لا أحد يحاسب الله تعالى على ما منح ، فعطاؤه غمر لانهاية له . وإذا كان لـ (من) وهو المفعول الأول ليرزق فالمعنى : (أن المرزوق

1) البحر المحيط جـ 2 ص 240

2) سورة البقرة الآية (212) .

غير محاسب على ما يرزقه الله تعالى فيكون أيضا حالا منه ويقع الحساب الذي هو المصدر على المفعول الذي هو محاسب من حاسب أو المفعول من حسب أي غير معدود عليه ما رزق أو على حذف مضاف ، أي غير ذي حساب ، ويعني بالحساب المحاسبة ، أو العد ، و(الباء) زائدة في هذه الحال أيضا ، ويحتمل في هذا الوجه أن يكون المعنى : أنه يرزق من حيث لا يحتسب فيكون حالا أيضا أي غير محتسب .

وبعد أن يذكر هذه الأعاريب التابعة للمعاني المختلفة يقول : وهذه الأوجه كلها متكلفة وفيها زيادة (الباء) والأولى أن تكون الباء للمصاحبة وهي التي يعبر عنها (بباء الحال) وعلى هذا يصلح ان تكون للمصدر وللفاعل وللمفعول ويكون الحساب مرادا به المحاسبة أو العد أي يرزق من يشاء ولا حساب على الرزق أو لاحساب للرازق أو لاحساب على المرزوق ، وكون الباء لها معنى أولى من كونها زائدة ، وكون المصدر باقيا على المصدرية أولى من كونه مجازا عن اسم فاعل أو اسم مفعول وكونه مضافا لغير أولى من جعله مضافا (لذي) محذوفه ولا تعارض بين قوله : ﴿ جزاء من ربك عطاء حسابا ﴾ أي محسبا أو كافيا من أحسبني كذا اذا كفاك بغير حساب ، معناه العد أو المحاسبة او لاختلاف متعلقيهما إن كانا بمعنى واحد فالاختلاف بالنسبة الى صفتي الرزق والعطاء في الآخرة وبغير حساب في الدنيا إذ يرزق الكافر والمؤمن ولا يحاسب المرزوقين عليه وفي الآخرة يحاسب[1] وكثيرا ما يبين أبو حيان معنى الفعل وعمله وما يحمل من دلالات ويوضح

---

1) البحر المحيط جـ 2 ص 131 و132

استعماله وما يوحي به من معان خاصة قد لا تكون لغيره مكانه.[1] كما زخر البحر المحيط بالتحدث عن أثر حروف المعاني كأدوات النفي والتوكيد مستعرضا آراء النحاة والمفسرين فيها مرجحا ما يراه مطابقا للمعنى مما يدل على استفادته بالثقافة اللغوية والنحوية في التفسير ، وقد كان البحر المحيط ميدانا رحبا يطبق فيه هذه الثقافة الواسعة[2]

وكان أبو حيان بصري النزعة في النحو يذهب مذهب سيبويه ويغترف من معينه الذي لا ينضب وينهج نهج البصريين ويقتفي أثرهم ويكبرهم ويرى آراءهم وأصولهم الراجحة في كثير من الأحيان ويكفي لدلالته على رجحان مذهب أهل البصرة أن يقول : (وذلك لا يجوز عند البصريين أو هذا هو الراجح ، وإن أراد أن يطعن فيمن يخالف البصريين يكفي أن يقول : وهذه نزعة كوفية يقول وهو يرد على الزمخشري تفسير قوله تعالى ﴿ وذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾[3] .

وأجاز الزمخشري أن يكون (ذلك) بمعنى الذي ونتلوه صلته و (من الآيات) خبر وقال الزجاج قبله : وهذه نزعة كوفية يجيزون في أسماء الإشارة أن تكون موصولة ولا يجوز ذلك عند البصريين إلا في ذا وحدها إذا سبقها ما الاستفهامية باتفاق أو من الاستفهامية باختلاف[4] أو يتعجب من مخالفة مذهب البصريين فيقول رادا على ابن عطية ، وقال أبو محمد بن عطية المنتصب بواو الصرف ليس من مذاهب البصريين ومعنى واو الصرف أن الفعل كان يستحق معها من الاعراب غير النصب

---

1) البحر المحيط جـ 3 ص 423 و424
2) انظر البحر المحيط جـ 1 ص 107
3) سورة آل عمران الآية 58
4) البحر المحيط جـ 2 ص 476

كقوله تعالى ﴿ ويعلم الذين يجادلون ﴾[1] في قراءة من نصب ، وكذلك ويعلم الصابرين ، قياس الأول الرفع وقياس الثاني الجزم فصرفت الواو الفعل الى النصب فسميت واو الصرف وهذا عند البصريين منصوب باضمار أن بعد الواو والعجب من ابن عطية أنه ذكر هذا الوجه أولا وثنى بقول المهدوي ثم قال : والأول أحسن وكيف يكون أحسن وهو شيء لا يقول به البصريون وفساده مذكور في علم النحو[2] .

ويرد على من يخطيء البصريين أو يخالفهم ويرى أن من يفعل ذلك جاهل لا يفهم من النحو والعربية شيئا ، ويقول رادا على صاحب (الغرة) وذلك في كلامه على جواز دخول لام الابتداء في معمول خبر (ان) اذا كان الخبر متقدما على المعمول واسم (ان) مؤخر ، وكان المعمول مفعولا من أجله أو مصدرا وإطلاق قولهم معمول الخبر يدخل فيه المصدر أو المفعول من أجله فتقول : ان زيدا لقياما قائم ، وان زيدا لاحسانا يزورك ، وينبغي أن لا يقدم على جواز ذلك الا السماع على أنه نقل عن البصريين جواز دخول اللام على الحرف وما دخل عليه إذا كان علة للفعل نحو (كي وان) فيقول : ان زيدا لكي يقوم معترض ، وان زيدا لأن لا يغضب يأتيك وضح ذلك الفراء في (الغرة) ذكروا أن هذه اللام لا تدخل على النواصب ولا على الجوازم انما تدخل على الحروف الملغاة فمنعوا من قولهم : ان زيدا لكي يقوم معطيك وأجازوا ان زيدا كي تقوم معطيك وأجازوا ان زيادا كي تقوم ليعطيك ، ولو تعرض لهذا بصري لأجاز هذه المسألة على قول من قال : كيمه كما تقول : ان زيدا لفي الدار قائم ا هـ . (وجهل صاحب الغرة مذهب البصريين في كل

---

1) سورة الشورى الآية 35

2) جـ 1 ص 142

وأن ، اذا كانت علة وتقدم نقلنا جواز دخول اللام عليها عند البصريين[1] .

ووافقهم في مسائل كثيرة منها :

يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين ﴾ ، وانتصب فئتين على الحال عند البصريين في ضمير الخطاب في لكم وذهب الكوفيون الى انه منصوب على اضمار (وكان) أي كنتم فئتين ، ويجيزون (مالك الشاتم) اي كنت الشاتم ، وهذا عند البصريين لا يجوز لأنه عندهم حال والحال لا يجوز تعريفها[2] وكان يذهب مذهب البصريين في السماع والتحري ولم يكن متابعا لهم من غير تمحيص لأنه يرجح ما يراه الأفضل ، ويرى أن البصريين لم يحصر العلم بهم ولم يقتصر عليهم فلا ينظر الى قولهم : إن هذا لا يجوز ، ولعمري هذه هي النظرة الموضوعية البعيدة عن التقليد الأعمى ، ويرى أنه ينبغي الا يتعبد باتباع مذهبهم فيقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وكفر به والمسجد الحرام ﴾[3] وقد خبط المعربون في عطف والمسجد الحرام والذي نختاره أنه عطف على الضمير المجرور ولم يعد جاره وقد ثبت ذلك في لسان العرب نثرا ونظما باختلاف حروف العطف وإن كان ليس مذهب جمهور البصريين بل أجاز ذلك الكوفيون ويونس والأخفش والأستاذ أبو علي الشلوبين ولسنا متعبدين باتباع جمهور البصريين بل نتبع الدليل ولم يخالفهم في هذا فحسب وانما خالفهم في الاستشهاد بالقراءات فهو يستشهد بالسبع وبما تواتر من القراءات ويرد بورودها على ما منعه

---

1) ارتشاف الضرب من كلام العرب ص 158

2) جـ 3 ص 313

3) البقرة آية 217

البصريون ويرد على نحاتهم الذين يخطئون الفراء ويلحنونهم مع أن منهم من أخذ عن أوائل الصحابة والتابعين .

وقد سبق رأيي في القراءات إذ قلت : إن موقفنا في الاستشهاد بالقراءات يجب أن يكون هو القول الفصل وأن نردد . قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وقد قدر كتاب سيبويه كل التقدير ويعتبر رأيه هو الصحيح بين المذاهب أو المسموع من كلام العرب : يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ﴾[1] قال الزمخشري : الفاء للعطف على محذوف تقديره انهملكم فنضرب عنكم الذكر إنكارا لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من إنزاله الكتاب وخلقه قرآنا عربيا لتعقلوه وتعملوا بموجبه ا هـ .

والكلام معه في تقديره فعلا بين الهمزة والفاء في نحو : أفلم يسيروا كما أن المذهب الصحيح قول سيبويه والنحويين : إن الفاء والواو منوى بهما التقديم لعطف ما بعدهما على ما قبلهما وأن الهمزة تقدمت لكون الاستفهام صدر الكلام ولا خلاف بين الهمزة والحرف .

وقد يعلل الآراء التي اختارها سيبويه فيقول عند الكلام على جواز مجيء الخبر عن اسم معنى اسم ذات في تفسير قوله تعالى ﴿ ولكن البر من آمن ﴾[2] البر معنى من المعاني فلا يخبر عنه بالذات الا مجازا فإما أن يجعل البر هو نفس من آمن على طريق المبالغة ، قال أبو عبيدة والمعنى ولكن البار . وإما ان يكون على حذف من الأول أي ولكن ذا البر ، قال الزجاج أو من الثاني أي برد من آمن قاله قطيب وعلى هذا

1) الزخرف آية 5

2) البقرة آية 177

خرجه سيبويه قال في كتابه وقال جل وعز : ولكن البر من آمن وإنما هو ولكن البر بر من آمن بالله ا هـ .

وإنما اختار هذا سيبويه لأن السابق انما هو نفي كون البر هو تولية الوجه قبل المشرق والمغرب فالذي يستدرك انما هو من جنس ما ينفي ونظيره ذلك : ليس الكرم أن تبذل درهما ولكن الكرم بذل الآلاف فلا يناسب ولكن الكريم من يبذل الآلاف الا اذا كان قبله ليس الكريم بباذل درهم ، ولو تتبعنا كتابي الارتشاف والتذييل وجدنا أن أبا حيان كان دائما يعتز برأي سيبويه ويعتبر قوله الفصل من الأقوال يقول عنه في كتابه البحر المحيط : ويؤخذ ذلك من علم النحو وأحسن موضوع فيه وأجله كتاب أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه رحمه الله تعالى وقد أخذت هذا الفن عن أستاذنا الأوحد العلامة أبي جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي في كتابه سيبويه[1] .

موقفه من الكوفيين :

كان يخطئهم في كثير من الآراء وخالفهم في عدم استشهاده بشعر الاسلاميين والمحدثين وقد يوافقهم في بعض المسائل التي يرى أنهم على حق فيها فيحتج بالقراءات مخالفا البصريين الذين لا يعتبرونها مادة أساسية من مواد الاحتجاج كما يخالف الكوفيين في قبولهم جميع القراءات ويقف موقفا وسطا ويعتمد على القراءة السابعة المتواترة ويرد على مخطئهم كما فعل مع أبي اسحاق الذي ذهب الى أن قراءة أبي عمرو وأبي بكر وحمزة والأعمش غلط ولحن في قوله تعالى : ﴿ ومن

---

1) البحر المحيط جـ 1 ص 2

أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ﴾[1] يقول : وما ذهب اليه أبو اسحاق من أن الاسكان غلط ليس بشيء إذ هي قراءة في السبعة وهي متواترة وكفى انها منقولة عن إمام البصريين أبي عمرو بن العلاء فانه عربي صحيح وسامع لغة وإمام في النحو وهو إمام في النحو واللغة وحكي ذلك لغة البعض العرب تجزم في الوصل والقطع وقد روي الكسائي أن لغة عقيل وكلاب أنهم يختلسون الحركة في هذه الهاء إذا كانت بعد متحرك وأنهم يسكنون أيضا يقول أبو حيان « وما قرىء في السبعة لا يرد ولا يوصف بضعف ولا بقلة »[2] ولا يقتصر في الأخذ عن السبعة بل يأخذ عن كل من قرأ بالقراءات السبع ان كان عدلا ضبطا ويحتج بنقله القراءة سواء كان كوفيا أم بصريا لذلك نجده يأخذ بكل قراءة متواترة ولا يرجح بين قراءتين منهما ويعتبر القراءتين صحيحتين ، وقد اقتدى في هذه الناحية بثعلب أحد أئمة الكوفيين يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ﴾[3] قرأ حمزة وأبو بكر والكسائي (من يصرف مبنيا للفاعل و« من » مفعول مقدم والمضمير في (يصرف) عائد على الله ويؤيده قراءة أبي (من يصرف الله ، وفي عنه ، عائد على العذاب والضمير المستكن في رحمة الله عائد الى الرب ، وقرأ في السبعة : من يصرف مبنيا للمفعول ومعلوم أن الصارف هو الله تعالى فحذف للعلم به أو للايجاز إذ قد تقدم ذكر الرب ويجوز في هذا الوجه أن يكون الضمير في يصرف عائدا على (من) والضمير في يصرف عائدا على العذاب أي أي شخص يصرف عنه العذاب . .
وتكلم المعربون في الترجيح بين القراءتين على عادتهم فاختار أبو عبيد

1) سورة آل عمرانآية 75
2) البحر المحيط جـ 1 ص 152
3) آية 16 من الأنعام وينظر البحر المحيط جـ 1 ص 152

وأبو حاتم وأشار ابو علي الى تحسينه قراءة (يصرف) مبنيا للفاعل لتناسب (فقد رحمه) ولم يأت فقد رحم ، ويؤيد قراءة عبد الله وأبي (من يصرف الله) ورجح الطبري قراءة (يصرف) مبنيا للمفعول ، قال : لأنها أقل اضمارا قال ابن عطية : وهذا توجيه لفظي يشير الى الترجيح تعلقه ضعيف واما المعنى فالقراءاتان واحد) اهـ .

فانظر يارعاك الله ، كيف كان الإعراب تابعا للمعنى وليس المعنى تابعا لصناعة اعرابية متكلفة لتأييد مذهب ، وكيف كان هذا العلامة حر التفكير مستقل الرأي وكيف كان للنحو أثره في فهم آيات الله البينات .

موقفه من القراءات المتواترة :

لقد كان أبو حيان يستشهد بالقراءات المتواترة ويبني عليها القواعد والأحكام النحوية وقد بين موقفه من القراءات في كتابه البحر المحيط ودافع عن القراء وتعصب لهم ورد على من خطأهم ورماهم بأقبح الأوصـاف فقد رد على ابن عطية والزمخشري في تخطئتهما قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)[1] برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على اضافة القتل الى الشركاء والفصل بين المضاف والمضاف اليه بغير ظرف يقول : وهي مسألة مختلف في جوازها فجمهور البصريين يمنعونها : متقدموهم ومتأخروهم ولا يجيزون ذلك الا في ضرورة الشعر وبعض النحويين أجازها وهو الصحيح لوجودها في هذه القراءة المتواترة المنسوبة الى العربي المحض ابن عامر الأخذ بالقرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب ويرد على

---

1) الأنعام آية 137

الناس في ذلك أيضا (واذا كانوا قد فصلوا بين المضاف والمضاف اليه بالجملة في قول بعض العرب هو غلام ان شاء الله أصيل) ، فالفصل بالمفرد أسهل وقد جاء الفصل في اسم الفاعل في الاختيار قرأ بعض السلف (مخلف وعده رسله) بنصب (وعده) وخفض (رسله) وقال أبو الفتح اذا اتفق شيء من ذلك نظر في حال العربي وما جاء به فان كان فصيحا وكان ما أورده يقبله القياس فالأولى أن يحسن به الظن لأنه يمكن أن يكون ذلك وقع اليه من لغة قديمة وقد طال عهدها وعفا رسمها[1] .

فهو لا يقبل من النحاة تجريهم وراء اطراد قاعدة في مذهب ما فيخطئون من أجلها القراء كابن عامر ويتحملون التوجيهات البعيدة لقراءة الكسائي ومحمد بن عيسى الأصبهاني بفتح همزة (أن) في قوله تعالى ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾[2] وقد تحدثت عن التأويل الصحيح لهذه الآية في رأي أبي حيان في مفتتح حديثي عنه عند تحدثه عن العلوم التي يحتاج اليها المفسر ومنها النحو .

عرضه الآراء قبل رأيه :

ويقول رحمه الله في قوله تعالى[3] ﴿ وأن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشـــاء ﴾[4] وقرىء بالرفع والنصب والجزم وكذلك ألواو وأو وثم في مذهب من أجاز ذلك وقوله تعالى : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر ﴾[5] وقرىء بالثلاثة

---

1) البحر المحيط جـ 4 ص 229 ـ 230

2) سورة آل عمران الآية 19

3) ارتشاف الضرب ص 709 تحقيق د. مصطفى النماس .

4) سورة البقرة آية 384

5) آية البقرة 271 البقرة

والأحسن التشريك في الجزم اذا كان قبله أو بعده مجزوم وإذا ارتفع فهو على إضمار مبتدأ وإذا كانت جملة الجزاء اسمية بالرفع وجه الكلام ويجوز الجزم والنصب ولم يذكر سيبويه فيه النصب[1] .

واذا عطف مضارعا بعد الفعل المنصوب بعد فعل الجزاء جاز في المضارع الرفع على الاستئناف والنصب عطفا على المنصوب والجزم على موضع المنصوب مثاله : إن تأتني أحسن اليك وأزورك وأكرم أخاك فيجوز في أكرم النصب وهو ظاهر والرفع على الاستئناف والجزم على موضع وأزورك وأجاز سيبويه النصب بعد أفعال الشك قال : وتقول حسبته شتمني فأثب عليه إذا لم يكن الوثوب واقعا ومعناه أن لو شتمني لوثبت عليه وإن كان الوثوب قد وقع فليس إلا الرفع ، وذهب غيره الى أنه من الواجب الذي لا ينقاس فيه النصب إن جاء ولا يجوز النصب بعد إنما إن كان المعنى على الحصر ، وأجازه بعضهم وحمل عليه قوله تعالى ﴿ إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ﴾ على قراءة من نصب فيكون فلو كان الحصر بإلا أو كان الفعل واجبا خاليا من أداة الشرط فلا يجوز النصب الا اضطرارا نحو ما أنت الا تأتينا فتحدثنا وقوله فألحق بالحجاز فاستريحا وقد تؤ ول فاستريحا ونحوه على أن الألف فيه بدل من النون الخفيفة الواقعة في غير القسم وربطت الفرس لا ينفلت وأوثقت العبد لا يفر ، فمذهب الخليل وسيبيه والبصريين الى أنه يرفع ولا يجوز الجزم فيه ، وذهب الكوفيون الى جواز رفعه وجزمه وحكى الفراء أن العرب ترفع هذا وتجزمه قال وانما جزم لأن تأويله إن لم أربطه انفلت وقال ابن عصفور الجزم ضرورة ولا يقاس عليه في الشعر وليس من

---

1) لعل الجزم في رأي سيبويه لأنه ترتب على ما قبله والنصب بناء للفعل على المستقبل والأول واقع والثاني لم يقع لذلك رجح الأول ، انظر سيبويه جـ 1 ص 523

شرطه أن يكون الفعل تقديره ان يأت الا ويفلت اللص فأما الجزم على مذهب من أجازه فعلى لحظ فعل الشرط والجزاء وإن لم يكن بـأداة الشرط والجزاء لا من الأشياء السابق ذكرها واما الرفع فلم أر أحدا تعرض له لتخريجه ومعنى الكلام يقتضي أنه متعلـق بما قبله والمعنى ربط الفرس لئلا ينفلت فهو مفعول من أجله حذفت منه اللام ثم اتسعت العرب في قولك فحذفت ان فارتفع الفعل .

هذا هو أبو حيان في كتابه ارتشاف الضرب من لسان العرب ينسج على منوال سيبويه يعرض الآراء قبل أن يذكر رأيه ويتلمس منها ما يعطي المعنى المراد لذلك كان كتابه موسوعة علمية واسما على مسمى فالارتشاف مصدر من ارتشف بمعنى المص والضرب بالتحريك وفتح الراء يعني العسل الأبيض رحمه الله رحمة واسعة .

مع الفراء :

الفراء هو أبو زكريا يحيى بن زيد مولى بني أسد لقب بالفراء لأنه كان يفري الكلام ولد بالكوفة من أصل فارسي وتلقى عن الكسائي وغيره وتبحر في العلوم المتنوعة فكان فذا في معرفة أيام العرب وأخبارها وأشعارها والطب والفلسفة والنجوم وتقصي أطراف علم النحو حتى قيل فيه : (الفراء أمير المؤمنين في النحو) وهذ الذي قال (أموت وفي نفسي شيء من حتى ، لأنها ترفع وتنصب وتخفض ، طمع في نوال الخلفاء فانحدر الى بغداد ولح في الاتصال بالمأمون حتى وصله ثمامة بن أشرس فحاطه الخليفة برعايته ورغب اليه أن يؤدب ابنيه كما اقترح عليه أن يؤلف كتابا يجمع أصول النحو وهيأ له دارا خاصة فيها وسائل النعيم متكاملة فأخرج له (كتاب الحدود) بعد سنتين ، وما زال

الفراء وجيها عند المأمون مغبوط المنزلة بين الأمة يؤلف ويفيض علمه حتى توفي سنة ٢٠٧ هـ في طريقة مكة» [1]

وقد قلنا في استعراضنا لكتب معاني القرآن : إن الفراء انتفع في كتابه هذا بآراء استاذه أبي جعفر الرؤاسي ولكتابه (معاني القرآن) قيمة كبيرة فهو أول تفسير وصل الينا يمتاز بدراسة القرآن الكريم من حيث التراكيب والاعراب الى جانب الشرح والتفصيل كما أنه اشتمل على أفانين أخرى غير الجانب النحوي تلك التي يشترك بعضها مع مجاز القرآن لأبي عبيدة « كما ترجع قيمته التاريخية والموضوعية الى أنه حفظ لنا أول حديث مستفيض عن القراءات والاحتجاج لها كما أنه أحفظ لنا أول بحث في ظاهرة الموسيقى وكان أول من تفهم التشبيه بمعناه البلاغي وكان أسبق في ذلك من الجاحظ مما يقتضي الباحثين في نشأة البلاغة الى أن يعيدوا النظر فيها من جديد ، كما أنه أثار فكرة جديدة بالاهتمام وهي أسبقية الفراء الى وضع الأصول قبل ابن السراج خلافا لما هو مستقر في أذهان الباحثين المحدثين هذا الى جانب ثروة من المصطلحات المبتكرة التي اصطنعها الفراء وتأثر بها الكوفيون والبغداديون من بعده وقد أورد فيه جميع معارفه فكان أشبه ما يكون بدائرة معارف الرجل »[2] .

وقد سبق في تحدثي عن كتب المعاني أن ذكرت المرحلة الناضجة التي ألف فيها كتابه مما جعله مصـدر اهتمام الناس به واقتنائهم اياه ، وتقديرهم له ، وكان الكتاب مطمورا الى عهد بعيد لم يصل الينا

---

١) انشأة النحو ص 94

2) أبو زكريا الفراء للدكتور مكي الأنصاري .

شيء منه بل ان أحد المستشرقين الكبار وهو (جو تولدفايل) يقول في مقدمة كتاب الانصاف (إن معاني القرآن للفراء لم يصل الينا غير أنه يحمل له تقديرا كبيرا حين اطلع على بعض نصوصه المتناثرة في بطون الكتب فقال : إنه اشتمل على مجموعة من الآراء الصائبة الصالحة للبقاء ، وبعد تعريفنا الموجز لكتاب المعاني وصاحبه نتعرض بالتفصيل لكتاب المعاني مما يتصل أصلا بموضوعنا : المعنى والاعراب ، لقد تناول أبو زكريا الفراء في تفسيره (المعاني) ما أشكل من الآيات فهو وان كان تفسير القرآن كله على الترتيب التنازلي يبدأ بالفاتحة ويثنى بسورة البقرة وآل عمران وهكذا حتى النهاية الا أنه لم يتناول كل آية من القرآن بل التزم الهدف الذي ندب اليه وهو تفسير المشكل من الآيات حسب ترتيبها في المصحف الشريف مثال ذلك أنه ابتدأ أول ما ابتدأ بالحديث عن (البسملة) ولم يتناول منها غير ظاهرة تتعلق برسم المصحف وهي حذف الألف من كلمة اسم ، وعلل ذلك الحذف بالتخفيف لكثرة الدوران على طريقة العرب في الحذف للايجاز ، ثم ترقى في الدليل أن العرب تحذف ثلاثة أحرف ويقولون : (ايش عندك ، وفي أي شيء عندك وبعد هذا بدأ يتحدث عن أم الكتاب فقال في قوله تعالى﴿ الحمد لله ﴾ اجتمع القراء على رفع الحمد واختلف فيها أهل البدو حسب لغاتهم ثم ختم حديثه عن ذلك بلفتة بلاغية في خروج الاستفهام عن معناه الأصلي ثم قفز الى الآيات الأخيرة من سورة الفاتحة فعلق على كلمة عليهم من قوله تعالى﴿ أنعمت عليهم ﴾ وأخذ يذكر كل مذهب من ضم الهاء وكسرها ، ثم انتقل الى اعراب (غير) من قوله تعالى ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ موضحا ما يجوز فيها من الوجوه الثلاثة ثم تحول الى أداة النفي وهي (لا) في قوله تعالى ﴿ ولا الضالين ﴾ وبين أنها أصلية معطوفة على غير وليست زائدة كما توهم أبو

عبيدة وقسا عليه في الرد فوصفه بأنه لا يعرف العربية وفند ما استند اليه من شعر العرب ، وبين المواطن التي يجوز أن تقع فيها لا زائدة واستشهد له من شعر جرير كما بين الموطن الذي لا يصلح فيه عطف (لا) على غير ، وذلك فيما اذا كانت غير بمعنى سوى ، ومثل له مثال من عنده ثم ختم حديثه بمثال عربي يؤ يد وجهة نظره ضد أبي عبيدة الى هنا انتهى من البسملة ومن سورة الفاتحة وقد رأينا أنه لهم يتناول منهما الا النزر اليسير غير أنه كان عميقا في تناوله على أن له حديثا عن (مالك يوم الدين) في غير موطنها الأصلي فتناول منها قراءتها من حيث اثبات الألف وحذفها وربما كان مرد ذلك الى إيثار الإيجاز في التملية الأولى ثم عمد الى الإسهاب في التملية الثانية انتقاما من الوراقين ، أورد بعض ما كان قد ترك ، ومن هذا المنهج تتبين طريقته التربوية (نظرية القشتلت) في العصر الحديث حيث بعرض الصورة الاجمالية ثم يفصلها كما أنه اهتم برسم المصحف واستهدف روح العربية في التخفيف والأيجاز كما توضح طريقته المنهجية في الترقي بالأدلة كما يتعرض للقراءات ويحتج بالحديث النبوي الشريف مخالفا بذلك جمهور النحاة في عهده ، كما أنه يهتم بوضع القواعد العامة بعد المسائل الجزئية ، كما أن طابع النحو يظهر في هذا التفسير عند اعراب (غير) وزيادة (لا) مثلا ، الى جانب الدراسات العربية مثل البلاغة معتمدا في ذلك على العقل والنقل وها هو ذا نص كامل من نصوص الفراء في معانيه تثبت أن كتابه كان اسما على مسمى وأنه لم يهم وراء الصناعة اللفظية فحسب كما تثبت خصائص أسلوبه .

حينما تعرض أبو زكريا لتفسير قوله تعالى ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾[1] وقف عند نقطة واحدة منها وهي تأنيث الفعل أو تذكيره

---

1) آية 212 من سورة البقرة .

وطال به النفس كعادته حتى بلغ خمس صفحات أو تزيد استمع إلى براعته وتمكنه حيث يقول :

وقوله : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ ولم يقل « زينت » وذلك جائز وانما ذكر الفعل والاسم مؤنث لأنه مشتق من فعل في مذهب مصدر فمن أنث أخرج الكلام على اللفظ ومن ذكر ذهب الى تذكير المصدر ومثله (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى) (وقد جاءكم بصائر من ربكم) وأخذ الذين ظلموا الصيحة على ما فسرت اهـ .

فأما في الأسماء الموضوعة فلا تكاد العرب تذكر فعلا مؤنثا الا في الشعر لضرورته وهو مذكر فيجوز فيه تأنيث الفعل وتذكيره على اللفظ مرة وعلى المعنى مرة ومن ذلك قوله عز وجل ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾[1] ولم يقل (كذبت) ولو قيل كان صوابا كما قال (كذبت قوم نوح وكذبت قوم لوط . ذهب الى تأنيث الأمة ومثله من الكلام وفي الشعر كثير منه قول الشاعر :

وان كلابا هذه عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر

وكان ينبغي أن يقول : عشرة أبطن ، لأن البطن ذكر ولكنه في هذا الموضع في معنى قبيلة فأنث لتأنيث القبيلة في المعنى ، وكذلك قول الآخر :

وقائع في مضر تسعة وفي وائل كانت العاشرة

فقال (تسعة) وكان ينبغي أن يقول (تسع) لأن الوقعة أنثى ولكنه ذهب الى الأيام ، لأن العرب تقول في معنى الوقائع الأيام فيقال هو

---

1) الأنعام آية 66

عالم بأيام العرب يريد وقائعها فأما قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾[1] فاذا أريد به ، والله أعلم، جمع الضياءان وليس قولهم : إنما ذكر فعل الشمس لأن الوقوف لا يحصل في الشمس حتى يكون معها القمر بشيء ، ولو كان هذا على ما قيل لقالوا : الشمس جمع والقمر ، ومثل هذا غير جائز وان شئت ذكرته ، لأن الشمس اسم مؤنث ليس فيها هاء تدل على التأنيث والعرب ربما ذكرت فعل المؤنث إذا اسقطت منه علامات التأنيث ، قال الفراء أنشد في بعضهم :

فهي أحوى من الربعى خاذلة والعين بالإثمد الحارى مكحول

ولم يقل مكحولة والعين أنثى للعلة التي أنبأتك بها قال وأنشدني بعضهم :

فـلا مـزنـة ودقـت ودقـهـا ولا أرض أبـقـل ابـقـالـهـا

قال وأنشدني يونس يعني النحوي البصري عن العرب قول الأعشى :

الى رجل منهم أسيف كأنما يضم الى كشحبه كفاً مخضبا

وأما قوله (السماء منفطر به)[2] فان شئت جعلت السماء مؤنثة بمنزلة العين فلما لم يكن هاء مما يدل على التأنيث ذكر فعلها كما فعل بالعين والأرض في البيتين ومن العرب من يذكر السماء ، لأنه جمع كأن واحدته سماوة أو سماءة قال : وأنشدني بعضهم :

فلو رفع السماء اليه قوما لحقنا بالسماء مع السحاب

---

1) الآية 9 من سورة القيامة .
2) آية 18 من المزمل .

فان قال قائل : أرأيت الفعل إذا جاء بعد المصادر المؤنثة أيجوز تذكيره بعد الأسماء كما جاز قبلها قلت ذلك قبيح وهو جائز وانما قبح لأن الفعل اذا أتى بعد الاسم كان فيه مكنى من الاسم فاستقبحوا أن يضمروا مذكرا قبله مؤنث والذين استجازوا ذلك قالوا : يذهب به الى المعنى ، وهو في التقديم والتأخير سواء قال الشاعر :

فـان تعهـدي لامـرىء امـة　　فـإن الحـوادث أزرى بهـا

ولم يقل أزرين بها ولا أزرت بها ، والحوادث جمع ولكنه ذهب به الى معنى الحدثان وكذلك قال الآخر :

هنيئا لسعد ما اقتضى بعد وقعتي　　بباقة سعـد والعشية بـارد

كأن العشية في معنى العشي ألا ترى قول الله ﴿ أن سبحوا بكرة وعشيا﴾[1] وقال الآخر :

ان السماحة والشجاعة ضمنا　　قبرا بمرو على الطريق الواضح

ولم يقل ضمنتا ، والسماحة والشجاعة مؤنثان للهاء التي فيها ، قال فهل يجوز أن تذهب بالحدثان إلى الحوادث فتؤنث فعله قبله فتقول (أهلكتنا الحدثان : قلت نعم أنشدني الكسائي :

ألا هلك الشبـاب المستنيـر　　ومـدر هنـا الكمّي اذا تغيـر
وحمـال المئين اذا ألـمت　　بنـا الحدثـان والأنف القصور

وهكذا يطول نفسه في التذكير والتأنيث بحسب المعنى .

والعرب تجعل اللام في موضع أن ، في الأمر والإرادة كثيرا من

---

1) آية 11 سورة مريم

ذلك قوله ﴿ يريد الله ليبين لكم﴾[1] ﴿ يريدون ليطفئوا﴾[2] وقال في الأمر في غير موضع من التنزيل ﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾[3] وهي قراءة عبد الله : وما أمروا الا أن يعبدوا الله مخلصين ﴾ .

ثم استمع اليه في موطن آخر يستهدي فيه روح العربية ويرد علي من لم يتذوق هذا النهج السليم فيقول (لا أقسم) كان كثير من النحويين يقولون (لا) صلة .

قال الفراء : ولا يبتدأ بجحد أي بنفي يجعل صلة يراد به الطرح لأن هذا لو جاز لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار ، فجاء الاقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ أو غير المبتدأ كقولك في الكلام لا والله لا أفعل ذلك ، جعلوا (لا) وان رأيتها مبتدأ ردا لكلام كان معنا فلو ألقيت لا) مما بنوا به الجواب لم يكن بين اليمين التي تكون جوابا واليمين التي تستأنف فرق ، ألا ترى أنك تقول مبتدئا (والله إن الرسول لحق ، فاذا قلت : لا والله إن الرسول لحق ، فكأنك أكذبت قوما أنكروه فهذه جهة (لا) مع الأقسام وجميع الأيمان في كل موضع ترى فيه (لا ، مبتدئا بها وهو كثير في الكلام) تلك ظاهرة واضحة في منهجه التفسيري الى جانب منهجه الأثري وإن كان الغالب عليه التفسير بالمأثور فهو سلفي متحرر يعتمد على ذوقه وحسه المرهف الى جانب اعتماده على الأثر ولما كان الطابع العام لتفسيره نحويا لغويا رأيته يحكم الاعراب التابع للمعنى في ترجيح تفسير على تفسير كما أنه يدرك

1) سورة النساء أول آية 26
2) سورة الصف آية 8
3) سورة الأنعام آية 71

الإدراك أن اللغة لها منطقها الخاص فلا تخضع دائما للمنطق العقلي ، ثم انه كثيرا ما ينبه الى طرائق العرب وأسلوب التعبير وبخاصة إذا كانت خارجة عن الكثير المألوف وكانت مما يتوهم الناس أنه لا يجوز أو أنه معيب التعبير ، كما أنه يتعرض للمزالق التي تزل فيها أفهام المتكلمين فينبه إليها ويبسط فيها القول ويضع القوانين .

كما نراه يستشهد بالقراءات وتعرض لهاكثيرا كثرة تكاد تؤلف منها كتابا مستقلا عن المعاني ثم هو ينسبها كثيراً وأحياناً يعفيها بالنسب وقد أشرت اليها لأهميتها في تعقيد القواعد عند أفاضل النحويين .

هذا الى أنه يفتن في الاستعانة بالقراءات فتارة يستعين بها على رد إعراب لا يعجبه وأخرى يستعين بها على بيان مذاهب العربية في أسلوب التعبير .

أ) فمن الأول قوله : كان بعض النحويين يقول انه نصب قوله : نذيرا من أول السورة يا محمد قم يا محمد ﴿نذيرا للبشر ﴾[1] وليس ذلك بشيء والله أعلم . لأن الكلام قد حدث بينهما شيء منه كثير ، ورفعه في قراءة أبي ينفي هذا المعنى[2] .

ب) ومن الثاني قوله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ﴾[3] .

ثم هو يحتج لكثير من القراءات وتلك ظاهرة ملموسة في معانيه كأنما قصد اليها قصدا فمهد الطريق لكل من ابن السراج الذي احتج للقراءات التي اختارها ابن مجاهد فيما بعد وكان صديقا له ولأبي علي

---

1) آية 26 من سورة المدثر .
2) المعاني ص 348
3) سورة البينة آية (5) .

الفارسي الذي كان يحتج للقراءات السبعية فيما بعد ، ولابن جني الذي ألف كتابه المحتسب في الاحتجاج بالقراءات الشاذة .

ومن نماذج الاحتجاج الذي عنى به الفراء في معانيه ما يأتي :

أ) قال في تفسير سورة الفجر ﴿ والليل اذا يسر ﴾ ذكروا أنها ليلة المزدلفة وقد قرأ القراء يسري باثبات الياء ويسر بحذفها وحذفها أحب اليّ لمشاكلتها رؤوس الآيات ، ولأنه قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها أنشد في بعضهم :

كفـاك كف مـا تليق درهمـا جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

فنحن نراه يفضل قراءة على أخرى ويجنح لها بتحقيق الموسيقا اللفظية فيها وذلك لمشاكلتها رؤوس الآيات ، ثم يحتج لها بورود أمثالها في الشعر العربي ولا يكتفي بشاهد واحد بل انه يجعل موسيقا الفواصل مع نزوله بأفصح اللغات من اعجاز القرآن اللفظي ولكنه بحنينه لعقيدته الدينية راح يدافع عن المعتزلة ورأسهم النظام الذين نفوا الاعجاز اللفظي فنادى بالاعجاز اللغوي الى جانب الاعجاز المعنوي فهناك مواضع كان يعمد القرآن فيها الى تحقيق النسق الصوتي ولا يتهرب منه نفورا من أن يكون فيه سجع ، فالبون شاسع بين السجعين ، كما أن الفراء لم يفتعل الاعجاز المعنوي الى جانب الاعجاز اللفظي ، مثال ذلك قوله تعالى ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾[1] ولم يقل ديني بالياء ، لأن الآيات بالنون ، فحذفت الياء كما قال ﴿ فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[3]

1) آخر سورة الكافرون 2) الشعراء آية 79
3) المرسلات آية 36

نويت بالفاء أن تكون نسقا على ما قبلها واختير ذلك لأن الآيات بالنون فلو قيل فيعتذروا لم يوافق الأيات ، وقد قال الله ﴿ لا يقضي عليهم فيموتوا﴾[1] بالنصب وكل صواب ، أما ما تبدو فيه عناية الفراء بابراز الجانب المعنوي الى جانب النسق الصوتي مثال ذلك قوله في تفسير سورة الضحى وقوله ﴿ فأغنى وفآوى يراد به فأغناك وفآواك فجرى على طرح الكاف لمشاكله رؤ س الأيات ولأنه المعنى المعروف وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على الحس المرهف عند الفراء ، وولوعه بالموسيقا من جهة ثم الحاجة على إثبات نظريته في الإعجاز اللغوي من جهة أخرى ومن مظاهره (موسيقى الفواصل في القرآن) .

وكان الفراء معتدلا لا بين أهل السنة والاعتزال ووصفه البعض بأنه كان متشيعا والآخرون بأنه كان معتزليا ولا منافاة بين المذهبين إذا فسرنا ذلك باعتداله في تشيعه واعتزاله ، وهذا القول الوسط هو الذي يتفق مع الخط الرئيسي لشخصية الفراء وهو التحرر الذي يرتكز على أساس من السلفية الصالحة فقد عرفناه نسيج وحده يؤ من بعقله ولا يتقيد بمذهب دون الآخر وبالتالي لا يتعصب بل يدين بمذهب الاعتدال بين المتطرفين من هؤلاء وأولئك ، وتخير أحسن ما في المذاهب مما يتفق مع طبيعته المتدينة الورعة وعقليته الناضجة الواعية .

من المبادىء العامة عند المعتزلة القول بالعدل لأن الله سبحانه منح الناس حرية الارادة والاختيار وقد سمى المعتزلة أنفسهم أهل التوحيد والعدل وكان يطلق عليهم القدرية فقلبوا التسمية وسموا أهل السنة القدرية وحين يشتجر الخلاف بين الفريقين نراه يؤ يد المعتزلة ،

---

1) فاطر آية 36

قال في قوله تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب ﴾[1] يعني في العلم الأول من قبل أن تبرأ تلك النفس فهو ينفر من إثبات الكتاب ، لئلا يقع في القول بالجبر والقدر السابق فيتنأى في نظره مع العدل الالهي . وقد ذكرنا ذلك لنبين أنه في بعض الأحيان يتأول المعنى على غرار ما يتأول المعتزلة متلطفا للمعنى الذي يريد مستندا الى صحابي جليل ، كما في قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾[2] قال والحرج فيما فسر ابن عباس : الموضع الكثير الشجر الذي لا تصل اليه الراعية فكذلك صدر الكافر لا تصل اليه الحكمة .

وهذه هي بعض آرائه الخاصة :

ما نكاد نمضي في قراءة كتابه (معاني القرآن) كثيرا حتى نجده يتحدث عن مصطلح ثان له وصفه هو مصطلح الصرف ويقصد به النصب في بابين باب الفعل المضارع المنصوب بعد الواو والفاء وأو وباب المفعول معه ، اذ يصرف المضارع والمفعول معه عما قبله فلا تكون الواو فيهما عاطفة بل تكون واو صرف لهما عما قبلها ومثلها الفاء وأو ، ويشرح ذلك مع الواو[3] وأو فيقول : الصرف (أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله حادثة لا ستقيم إعادتها على ما عطف عليها كقول الشاعر :

---

1) سورة الحديد آية 22   2) الأنعام آية 125

3) الفعل منصوب عند البصريين بأن مضمرة بعد الفاء والواو اذا سبقهما أحد هذه المعاني : مر وادع وانه وسل واعرض لحضهم تمن وارج كذاك النفي قد كملا كم

مر وادع وانه وسل واعرض لحضهم تمنّ وارج كـذاك النفي قـد كمـلا

كما أن الفعل لا ينصب بأن بعد أو الا اذا كان معناها الى او الا .

لا تنـه عن خلق وتـأتي مثله   عـار عليـك إذا فعلت عـظيم

ألا ترى أنه لا يجوز إعادة لا في (تأتي مثله) فلذلك سمى صرفا إذا كان معطوفا ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله . ومثله من الأسماء التي نصبتها العرب وهي معطوفة على مرفوع قولهم : (لو تركت والأسد لأكلك) لو خليت ورأيك لضللت ، والعرب تقول : لست لأبي إن لم أقتلك أو تذهب نفسي ، ويقولون : والله لأضربنك أو تسبقني في الأرض فهذا مردود معطوف على أول الكلام ومعناه الصرف لأنه لا يجوز على الثاني إعادة الجزم بلم ولا إعادة اليمين على والله لتسبقني ، وتجد ذلك اذا امتحنت الكلام[1] .

ويقول في موضع ثان « الصرف » : الصرف ان يجتمع الفعلان بالواو أو ثم أو الفاء أو أو أو في أولهما جحد (نفي) أو استفهام ثم ترى ذلك الجحد أو الاستفهام ممتنعا أن يكسر في العطف فذلك الصرف[2]

ونرى هذا الاصطلاح عند الفراء يقرمد باصطلاح آخر ينسب اليه أيضا هو الخلاف ؛ إذ يقول الرضي : ان الأفعال المضارعة تنصب بعد الواو والفاء وأو عند الفراء على الخلاف ويشرح رأيه فيقول (أي أن المعطوف بها صار مخالفا للمعطوف عليه في المعنى ، مخالفة في الاعراب كما انتصب الاسم الذي بعد الواو في المفعول معه لما خالف ما قبله ، وانما حصل التخالف ههنا بينهما ، لأنه طرأ على الفاء معنى السببية ، وعلى الواو معنى الجمعية وعلى أو معنى النهاية والاستثناء[3]

---

1) معاني القرآن جـ 1 ص 34

2) معاني القرآن 2 ص 235

3) معاني القرآن 2 ص 235

ولعله كان يتداول الاصطلاحين في كتاباته ، ومن هنا كنا نظن أنه هو أيضا الذي ذهب الى أن الظرف الواقع خبرا في مثل (محمد عندك) منصوب على الخلاف [1] .

وتتردد في كتاب معني القرآن تسمية الفعل المتعدي باسم الفعل الواقع ، كما تتردد (أوقعت عليه الفعل بدلا من « عديت اليه الفعل »)[2] ويسمى الفعل المبني للمجهول باسم (الذي لم يسم فاعله) [3] كما يسمى الضمير : المكنى والكناية [4] وسمي ضمير الشأن العماد في مثل : وهو محرم عليكم إخراجهم [5] أي الحال والشأن أن الاخراج محرم عليكم وفي مثل (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك)[6] يقول في الحق النصب والرفع إن جعلت هذا اسما نعت الحق بها ، وإن جعلتها عمادا بمنزلة الصلة أي(الحشو) نصبت الحق كما أنه سمي التمييز مفسرا والبدل تكريرا وتبيينا وتغيرا وترجمة وسمى النفي باسم الجحد ولا النافية باسم التبرئة ويستخدم كلمة الاتباع للدلالة على أن الكلمة من التوابع ومثلها كلمة الرد وهو أول من اصطلح على تسميه (النعت باسمه ، ويطول بنا المقام لو استشهدنا بالأمثلة كما خالف الخليل وسيبويه في تحليلهما لكثير من الألفاظ وبذلك سوى لنحو بذكائه صورة متميزة وشكله في صورته النهائية ، ولا نسوق القول بدون دليل ، فمن يرجع الى توجيهه للاعراب في الآيات القرآنية يرى نفسه

1) الانصاف المسألة رقم 29 وابن يعيش جـ 1 ص 91 والرضي = / 81
2) معاني القرآن 21/1 ، 40 و121
3) معاني القرآن 301/1
4) معاني القرآن 5/1 و19
5) معاني القرآن 51/1 والآية 85 من البقرة .
6) الانفال

أمام ذهن صاف سيال بالخواطر التي تفد عليه من كل صوب ، من ذلك توجيهه لاعراب (أي) في قراءة من رفعها في قوله تعالى ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾[1] ومعروف أن قراءتها بالنصب واضحة اذ تكون مفعولا للفعل ننزعن ، أما الرفع فمذهب الخليل الى أنها استفهامية ، ومفعول الفعل محذوف والتقدير: لننزعن الفريق الذي يقال فيهم أيهم أشد ، وقال يونس : بل المفعول جملة أيهم والفعل معلق عنها كما يعلق في باب ظن حين تدخل هي وأخواتها على جملة استفهامية (فالتعليق هو الغاء عمل هذه الأفعال لفظا لا محلا لمانع ما فتعرب الجملة الواقعة بعد أحدها في محل نصب سدت مسد المفعولين أو أحدهما) وذهب سيبويه الى أنها (أي الموصولة) مبنية على الضم وحذف صدر صلتها ، والتقدير ثم لننزعن الذي هو أشد وقال الكسائي والأخفش : من في الآية زائدة ، وكل شيعة هي المفعول به ، وجملة أي مستأنفة ثم جاء الفراء فعرض فيها ثلاثة وجوه : الوجه الاول أن يكون الفعل واقعا على موضع (من) تمشيا مع رأيه في أن الحروف تعرب حسب العوامل التي تطلبها ، وكأن (من) هي مفعول ننزع ومثل لذلك بقولهم : « قد قتلنا من كل وقوم» وأصبنا من كل طعام » ثم تستأنف بعد ذلك جملة (أيهم أشد على الرحمن عتيا) بتقدير فعل محذوف عامل فيها هو ننظر أي ننظر أيهم أشد على الرحمن عتيا .

والوجه الثاني أن يكون تقدير الآية ثم لننزعن من الذين تشايعوا على هذا ، ينظرون بالتشايع أيهم أشد على الرحمن عتيا ، فتكون أي في صلة التشايع .

---

1) سورة مريم الآية 69

والوجه الثالث : أن يكون التقدير ثم لننزعن من كل شيعة بالنداء أي لننادين أيهم أشد على الرحمن عتيا[1] .

ولا شك ان التقديرات الثلاثة التي أعرب بها (أي) تفيد معاني مختلفة والله اعلم بمراده .

ومن ذلك تعليقه على الآية الكريمة ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾[2] فقد وقف بازاء (أن) في قوله تعالى ﴿ بغيا أن ينزل الله ﴾ ملاحظا أنها تفيد الجزاء مثل (إن) ومن هنا كانا يتعاوران الموضع الواحد في الكلام ، ويفرق بينهما في الاستعمال على هذا النحو « وإذا كان الجزاء لم يقع عليه شيء قبله ، وكان ينوي بأن الاستقبال كسرتها وجزمت بها فقلت أكرمك إن تأتني فان كانت ماضية قلت أكرمك أن تأتيني وأبين من ذلك أن تقول أكرمك أن آتيتني وكذلك قول الشاعر :

أتجزع أن بان الخليط المودع وحبل الصفا من عزة المتقطع

يريد أتجزع بأن أولا لأن كان ذلك ، ولو أراد الاستقبال ومحض الجزاء لكسر وجزم بها كقول الله جل ثناؤه ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا ﴾[3] ومن ذلك الآية الكريمة من سورة البقرة ﴿ واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله ﴾[4] فقد قال : إنه يصح

---

1) معاني القرآن 47/1 وانظر مجالس العلماء للزجاجي ص 301 والمغني ص 81 ورسالة ماجستير (أي) لصاحب هذا البحث بمكتبة الكلية (حكمان على سيبويه دوي بهما التاريخ) من هذه الرسالة .

2) سورة البقرة الآية 9 ـ معاني القرآن 58/1 و178 - 181

3) سورة الكهف الآية 6

4) سورة البقرة الآية 83

دخول أن في قوله تعالى : ﴿ لا تعبدون﴾ ولكنها لما حذفت رفع الفعل ثم وقف بازاء قراءة (لا تعبدوا إلا الله ﴾ وقال إنها مجزومة بالنهي وليست جوابا لأخذ الميثاق الذي يدل على الاستحلاف كأنها جواب ليمين كما ذهب الى ذلك بعض النحاة ، لأن الأمر لا يكون جوابا لليمين وجوز في القراءة الأولى أن يكون الأصل النهي وأخرج الفعل (لا تعبدون) مخرج الخبر ، ويؤيده أن بعده : (وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وكان الكسائي يذهب في قراءة (لا تعبدوا) إلى أن صلها بأن لا تعبدوا فحذف الجازم وأن وهو تقدير بعيد ونسب ابن هشام ذلك أيضا الى الفراء ولم يذكره في تعليقه على الآية[1] ومن ذلك مخالفته أستاذه في اعراب خيرا من قوله تعالى في سورة النساء ، فآمنوا خيرا لكم فقد كان الكسائي يذهب الى أن خيرا منصوبة على اضمار يكن ، وذهب الفراء الى أنها مفعول مطلق اذ التقدير آمنوا ايمانا خيرا لكم ، فهي صفة للمصدر المحذوف ورد على الكسائي بأن كلامه يبطله القياس لأنك تقول : اتق الله تكن محسنا ولا يجوز أن تقول اتق الله محسنا وأنت تضمر تكن ولا يصلح أن تقول: (انصر أخانا ، وأنت تريد تكن أخانا)[2] ومعروف أن (أرأيتكم في مثل قوله تعالى في سورة الأنعام (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله) بمعنى أخبروني .

وكان سيبويه يعرب التاء فاعلا والكاف حرف خطاب وقال الكسائي بل الكاف مفعول به وقال الفراء : ان العرب تطابق في هذا التعبير بين الكاف والمخاطب فتقول للواحد : أرأيتك بفتح الكاف للواحدة أرأيتك وتقول للرجال أرأيتكم وللنسوة أرأيتكن ، ومن هنا ذهب

---

1) معاني القرآن = / 53 وانظر المغني ص 452

2) معاني القرآن = / 295

الى أن التاء حرف خطاب ، والكاف هي الفاعل لأنها تطابق المسند اليه ويضعف رأيه أنه قد يستغنى عنها في التعبير فيقال : أرأيت وأن الكاف لم تقع قط في موضع رفع[1] .

وعلى هذا النحو كان لا يزال يلح في تحليل صيغ الذكر الحكيم ومواضع كلمه في الاعراب لا جريا وراء المماحكات اللفظية وشهوة الجدال والمخالفة ولكن جريا على طبيعة ذهنه ليستخرج فيضا من الآراء والمعاني الجديدة .

وبعد صحبتنا للفراء المفسر الذي يعتمد على النحو في العلاقة بين الكلمات طلبا لفهم المعنى لأنه أحد العلوم اللازمة للمفسر ويحضرنا في هذا المقام قول هارون الرشيد النحو يستفرغني ، لأنني أستدل به على القرآن والشعر تلذ لنا صحبه الفراء في طائفة من آرائه النحوية .

آراء الفراء النحوية :

أ) للنحاة في عامل المستثنى خلاف طويل :

1) فيرى البصريون أن العامل فيه هو ما سبقه من فعل أو ما في معناه بواسطة إلا وهذا الفعل وإن كان قاصرا قد تقوى بإلا كما يتقوى بالهمز والتضعيف .

قالوا وانما قلنا إن العامل هو الفعل المتقدم أو معناه ، لأن المستثنى شيء يتعلق به معنى إذ هو جزء مما نسب اليه الفعل وقد جاء

---

1) معاني القرآن 333/1 وانظر مجالس ثعلب 372 ط المعارف

بعد تمام الكلام فشابه المفعول .

وقد ورد على هذا أنه قد لايكون هناك فعل ولا معناه فيعمل نحو : القوم الا زيدا اخوتك وعلى فرض بأن في اخوتك معنى الفعل فهو لا يقوى على العمل في المتقدم وان استعان بالا واذا كان الأمر كذلك فينبغي ان يكون هناك عامل غير الفعل .

2) وقيل إن الناصب له هو الفعل المتقدم وحده من غير أن يكون لإلا مدخل في ذلك ويدل بدل نصبه غيرا بلا واسطة .

وهو مردود فان هذا الفعل لازم فلا ينصب ما بعده وانما نصبه لغير فلأنه لتوغله في الإبهام شابه الظروف المبهمة فنصب بالفعل اللازم كما تنصب هي به .

3) وقال بعضهم إن المنصوب بعد الا مفعول به والعامل فيه استثنى محذوفا دلت إلا عليه كما دلت (يا) على الفعل العامل في المنادى .

وهو مردود بأن الأصل عدم التقدير واذا كان في الامكان اعمال الظاهر فلا ينبغي أن يلجأ الى المقدم لأنا لا نقدر الا عند الضرورة .

4) وذهب بعض الكوفيين ووافقهم المبرد والزجاج الى أن العامل نفس إلا لأن معناها الاستثناء فكما تنصب إذا قلت قام القوم استثنى زيدا كذلك تنصب اذا قلت قام القوم إلا زيدا ثم إن العامل هو ما به يتقوم المعنى وإلا هي التي بها يتقوم المعنى فينبغي أن تكون هي العامل .

وقد رد هذا بأن إلا حرف غير مختص ، اذ هي كما تدخل على الأسماء تدخل كذلك على الأفعال والحروف فتقول : ما رأيت محمدا

قط الا يصلي ولا قابلته الا في المسجد وإذا كان الحرف غير مختص فلا يصح أن يكون عاملا على انه لو كان عاملا لما قد يقال من أن إلا مختصه بالأسماء ودخولها على غيرها انما هو في الصورة واللفظ فحسب دون الحقيقة والتقدير للزم اعمال معاني الحروف ولا وهو لا يجوز لأنها موضوعة للنيابة عن الأفعال طلبا للاختصار وفي اعمال معناها تطلع الى الافعال وهذا نقص للغرض .

ثم انها لو كانت عاملة لأنها بمعنى أستثنى لظل ما بعدها منصوبا أبدا ، وليس كذلك واذا كانت هي العاملة فما الذي عمل في غير في قولنا قام القوم غير زيد ؟ هو قطعا لم يعمل في نفسه كما أنه لم ينصب بالا المقدرة لأن تقديرها يفسد المعنى فتعين أن يكون منصوبا بالفعل الذي قبله وليت شعري لماذا زعمنا أن الا بمعنى استثنى فنصبنا ولم يقدرها بمعنى امتنع فنرفع ؟ وقد روى عن أبي على الفارسي أنه كان مع عضد الدولة فسأله عن ناصب المستثنى فأجاب الفارسي بانه انتصب لأن المعنى أستثنى زيدا فقال عضد الدولة وهلا قدرت امتنع فرفعت ؟ فقال أبو علي : هذا جواب ميداني فاذا رجعنا ذكرت لك الجواب الصحيح ، ولم يرو لنا أحد ماذا أجاب به الفارسي بعد ذلك ولكن الحق أن هذا الاعتراض غير متجه ، لأننا انما نعلل ما ورد عن العرب ، والذي ورد عنهم النصب ، فقدرنا ما يناسبه ولو ورد الرفع لم يكن عندنا مانع من تقدير نحو : امتنع .

5) وذهب الكسائي الى أن المستثنى منصوب بأن المقدرة المحذوفة الخبر والأصل في قام القوم الا زيدا ، قام القوم الا أن زيدا لم يقم وليس بشيء لأنه لو كان منصوبا لأنه بمعنى لم يقم اي بالخلاف لما قبله لوجب النصب في قولك قام زيد لا عمرو ، ولو كان منصوبا بأن

لبقي الاشكال اذ أن (أن المفتوحة) مع ما بعدها في تأويل المفرد فما العامل فيه ؟ .

6) وذهب الفراء وتبعه جمهور الكوفيين الى أن العامل (الا) ولكن ، لا لأنها بمعنى استثنى وانما لتركيبها من إن المؤكدة ولا العاطفة والأصل في قام القوم الا زيدا ، قام القوم ان زيدا لا قام أي لم يقم ، فزيد اسم ان ولا ، أغنت عن الخبر ثم خففت ان وأدغمت في لا وركبت معها فصارتا حرفا واحدا كما ركبت لو مع لا وصارتا حرفا واحدا فاذا نصبنا في الاثبات فلتغلب ان وإذا رفعنا في النفي فلتغلب لا ، ولا عجب في عملها عملين فهي في ذلك نظير حتى فانها لما شابهت الى والواو جرت مجراهما فخفضوا بها على معنى إلى وعطفوا على معنى الواو .

وهذه فلسفة من الفراء نحمدها له وعمق في التفكير يستحق عليه الثناء ، ومجهود عقلي جبار نشكره من أجله وهو في الواقع دليل ذكائه وحدة ذهنه وحسن تصرفه .

وهذا الرأي وان كان فيه من التكلف ما فيه وكان في الواقع ضربا من علم الغيب أولى عندي بالقبول لأن غيره فيما ذكر قد شاركه في ذلك ولكنه ليس في مستواه من عمق التخريج وسلامة التأويل ، فان قيل : ان ما زعمه مجرد دعوى لا دليل عليها ، قلنا الدليل عليها عقلي أرشدنا اليه الاستعمال ، فانا قد رأينا ما بعد الا ينصب مرة ويرفع أخرى وليس أمامنا في الكلام ما يصلح أن يكون عاملا لما ذكرنا من قبل ، فلزم أن نبحث عن العامل فاضطررنا إلى الحكم بأن (إلا) مركبة من حرفين أحدهما يصلح أن ينسب إليه النصب والآخر يمكن أن ينتمي اليه الرفع ، وليس في هذه استحالة عقلية ، وصورة اللفظ يساعد عليه وليس التركيب في الحروف بعزيز وهذا المذهب لا يرد عليه ما ورد على غيره من المذاهب .

فان قيل ان لا على المعنى الذي أوردتموه غير عاطفة لأنها داخلة على الخبر ، قلنا لا نسلم ذلك وانما هي عاطفة والتقدير قام القوام ان محمدا قعد لا قام .

فان قيل لا العاطفة لا تأتي الا بعد الاثبات و(الا) تقع بعد الأثبات والنفي قلنا هذا الحكم ثابت لها قبل التركيب أما بعده فليست مستقلة وقد ذهب حكمها فيجوز أن تقع بعد النفي والإثبات وليس في نصبها مرة ورفعها أخرى عزل لأحد الحرفين عند الآخر لأنا نقول إن العامل هو نفس إلا وليس لأحد جزئيها عمل مستقل لأنهما قد مزجا وصارا حرفا واحدا فإذا أعملناها نوعا من العمل فقد راعينا أحد الحرفين وليس هو العامل في الحقيقة وإذا أهملناها فقد لاحظنا أن المحققة التي يكثر اهمالها .

فان قيل إذا كانت الا على هذا التأويل هي العاملة فما العامل في نحو قولك : قام القوم غير زيد قلنا نحن لا نمنع أن يكون العامل في نحو هذا هو الفعل المتقدم لأنه لتوغله في الإيهام لم يكن ثمة بعد في أن يعمل فيه الفعل اللازم كما عمل في الظروف المبهمة نحو وراء وقدام لتساويها في الابهام .

وبعد فرأي الفراء أقواها جميعا ولا نسوي به الا رأي من يقول إنه منصوب عن تمام الكلام كما ينصب التميز بعد الاسم المنون أو المختوم بالنون في نحو : رطلا سمنا وعشرين درهما فان العامل على هذا هو الجملة كلها لتمامها لا لمعنى الفعل فيها وإن كنت الى هذا أميل نظرا ليسره وعدم الكلفة منه .

إن النحويين لم يكونوا ينقلون كلمات صماء وانما كانوا ينقلون اليها الحياة لتنظر ولا تعلم وفرق كبير بين المصور والملقن يحرصون

على ألا تكون الصورة مهزوزة بعدم اضطراد القواعد .

انه لمح المعنى الذي لم يعبر عنه المعرب وانما يستشف من خلال سطور كلماته انه اطالة عرض الوجوه المختلفة وصولا الى الصواب وليس سردا لخلافات وتتبعها واحصائها لأن هذا موجود في الكتب يستوي في معرفته المتخصص وغير المتخصص طويل العهد بصحبة النحو وحديثه[1] .

ب) الأخبار بالظرف (اليوم) عن أيام الأسبوع :

إذا أخبر بلفظ اليوم عن الجمعة والسبت وغيرهما مما تضمن من الأيام عملا كالعيد والفطر ونحوهما جاز فيه الرفع والنصب فتقول : اليوم الجمعة ، برفع اليوم ونصبه، فأما الرفع فلأن الغالب في الجمعة مثلا معنى اليوم ، واليوم لا يكون ظرفا لليوم وأما النصب فعلى أنه كائن فيه شيء لأن الجمعة في الأصل مصدر فكأن معنى ذلك المصدر كائن في اليوم ، فاذا قلت لليوم الجمعة فكأنك قلت : اليوم الاجتماع واذا قلت اليوم السبت فكأنك قلت اليوم الراحة أو القطع وهكذا وهذا القدر متفق عليه .

أما اذا لم يكن في الأصل مصدرا كالأحد والاثنين فانه يجب رفعه عند جمهور النحاة ولا يصح فيه النصب لأنه لم يكمن فيه شيء والنصب انما كان على أنه كائن فيه شيء فتقول اليوم الأحد برفع اليوم لا غير ، لأن الأحد بمعنى اليوم واليوم كما ذكرنا لا بظرف في اليوم .

وخالف الفراء وهشام[2] فأجازا فيه النصب أيضا على تأويل اليوم

---

1) من مراجع هذا الموضوع الكافية ص 207 جـ1 والمفصل ص 76 و77 جـ2 والانصاف ص 18 والتصريح ص 349 جـ1 والهمع ص 422 جـ1

2) هو هشام بن معاوية الكوفي النحوي الضرير توفي سنة 209 ـ سنة 824م .

بالآن كما تقول اليوم أفعل كذا أي فمعنى اليوم الأحد لأن الأحد والآن أعم من اليوم فيصح أن يكون ظرفا له وهكذا ما ماثله .

ورأي الفراء وجيه في الرفع والنصب ، لأن الجمعة والسبت والعيد ونحوها وان كانت في الأصل مصادر وقد أصبحت أعلا ما على الأيام ولم يعد معناها المصدر يخطر بالبال عند ذكرها فهي كالأحد والإثنين سواء فحكم الجميع ينبغي أن يكون واحدا فاما أن نجيز نصبها كلها على التأويل بالآن واما أن نمنعه في جميعها لأن اليوم لا يظرف في اليوم .

وليس ما ذكره الجمهور في تعليل جواز الأمرين بأقوى مما ذكره الفراء حتى يكون أحق منه بالقبول .

على ان في رأي الفراء توسعة على المتكلم وتيسيرا عليه وهذا غرض نعمل له ونسعى اليه ان كلا من الجمهور والفراء قد لاحظا معنى وكلام الفراء وجيه[1] .

جـ) حذف العائد من جملة الخبر :

ذهب جمهور النحاة الى أن الضمير العائد من جملة الخبر الى المبتدأ يجوز حذفه قياسا في موضع واحد وهو أن يكون مجرورا بمن والجملة الخبرية ابتدائية والمبتدأ منها جزء من المبتدأ الأول نحو العسل الرطل بدرهم أي منه لأن جزئيته تشعر بالضمير فيحذف ويحذف معه الجار ، وكذلك السمن منوان بدرهم أي منه ، وحذف العائد عندهم فيما عدا ذلك مقصور على السماع نحو قوله تعالى : ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ، أي إن ذلك منه .

1) المراجع : الكافية ص 86 جـ 1 والهمع ص 99 و 100 جـ 1 والاشموني ص 167 جـ 1

ويرى الفراء أن هذا العائد يحذف قياسا في موضعين هذا أحدهما والثاني أن يكون منصوبا على انه مفعول به والمبتدأ لفظ كل نحو : كل ذلك لم أفعل .

وحجته ان الكلام مع كل في معنى النفي فاذا قلت كلهم ضربت كان المعنى ما فيهم أحد الا ضربت واما النافية كالموصول في العموم واذا كان عائدا لموصول يحذف قياسا فكذلك عائد ما هو بمعنى ما يشبهه ، وعندي أن رأي الفراء لا بأس به ، لأنه مع أن له وجها من القياس يؤيده السماع فقد قرأ ابن عامر : وكل وعد الله الحسنى برفع كل ، وهي قراءة متواترة لا مطعن فيها وقال أبو النجم العجلي[1] :

وقد أصبحت أم الخيار تدعى   على ذنبا كله لم أصنع[2]

برفع كل ، وقال الآخر :

ثلاث كلهن قتلت عمدا   فأخزى الله رابعة تعود

وقد نقل الصفار مثل هذا الرأي عن الكسائي وحكى ابن مالك في التسهيل الاجماع عليه ولكن شراح كلامه صرحوا بأنهم لم يروا هذا الأجماع لأن منع البصريين لذلك معروف مشهور .

وقد نقل صاحب الهمع ان الفراء يجيز حذف العائد من كل جملة أخبر بها عن مبتدأ له صدر الكلام أو يشبه الموصول في العموم نحو : أيهم يسألني أعطي ، ورجل يدعو الى الخير أحب[3] .

---

1) هو الفضل بن قدامة أحد رجاز الاسلام المتقدمين يقول فيه أبو عمرو بن العلم هو أبلغ من العجاج في النعت وأم الخيار زوجته توفي سنة ١٣٠ هـ .

2) من شواهد سيبويه غير المعروفة .

3) المراجع : الكافية ص 83 جـ 1 وهمع الهوامع ص 97 جـ 1 والاشموني ص 16 والتصريح ص 25 و163 جـ 1 وص 22 و123 جـ 2 وابن عقيل ص 17 جـ 1

اذا لا لبس في هذا الكلام ورأيه مستمد من القراءة ومن كلام العرب .

مع الزمخشري :

الزمخشري هو أبو القاسم محمود بن عمر جار الله ولد بزمخشر (بلد بخوارزم) وتلقى عن النيسابوري وغيره ، ثم أربى على من تقدمه وغدا الامام المعلم في كثير من الفنون فشدت اليه الرحال وكان معتزلي العقيدة ومؤلفاته بين أيدينا تغنينا عن الإشارة بمعارفة ، منها في النحو النموذج والأمالي والمفرد والمؤلف والمفصل وعني العلماء بالمفصل شرحا وتعليقا فمن أشهر شروحه شرح ابن يعيش وشرح الأندلسي ولما وصل بغداد قاصدا الحج احتفى به ابن الشجري وتبادلا تحية يجمل بالأدباء تعرفها ذكرت في ترجمته في نزهة الألباب ومعجم الأدباء ، وفي ترجمة ابن الشجري في وفيات الأعيان وبعد أن جاور حرم مكة قفل الى وطنه فمات به سنة 538 هـ[1] .

ونمهد قبل التحدث عن آرائه العلمية في التفسير وهل كان ينزع الى المعنى أو الاعراب في آرائه النحوية ، تمهد لذلك مشيرين الى ما سبق أن ذكرناه في فصل مستقل عن وضع عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم ، لأن الزمخشري هو الذي طرقها ولأنه لا يصح الحكم على عالم كبير ذي معاني بارعة وأفكار نيرة بمثال واحد على أنه انحاز الى جانب الاعراب وأهمل جانب المعنى أو انحاز الى موقف ضعيف بسبب تصحيح الصناعة ، وسنرد على ذلك عند تناول آرائه التفسيرية .

1) نشأة النحو للمرحوم الاستاذ محمد الطنطاوي ص 161

آمن عبد القاهر بنظرية النظم وخصها بكتاب مسهب ملأه بالتقرير والاستشهاد والدفع والموازنة كما عبر عن رأيه بجلاء حين قال :

« اعلم أنك إذا رجعت الى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك ان لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك ، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس ، وإذا كان كذلك فعلينا أن ننظر الى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله ؟ .

وإذا نظرنا في ذلك علمنا ألا محصول لها غير أن تعمد الى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد الى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على ان يكون الثاني صفة للأول ، أو تأكيدا له أو بدلا منه ، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزا أو تتوخى في كلام هو لاثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تزيد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك وعلى هذا القياس »[1] .

لقد بذل الجرجاني جهد المفكر الألمعي حين تحدث بإفاضة وإشباع عما يتطلبه الموضوع الحافل من حيث المسند والمسند اليه والتقديم والتأخير والحذف والذكر والوصل والفصل والقصر والاختصاص بحيث أصبح الواضع الحقيقي لما يعرف بعلم المعاني ،

1) أسرار البلاغة ص 5

ولا ننكر انه اتكأ في بعض ما قال على ما قرره العلماء في علمي النحو والبيان ولكنه اتكاء صاحب الألمعية اللاقطة التي تحتفل بالخيوط الدقيقة لتمد أسبابها بخيوط جديدة لا تزال تتوالد بالتجميع والاحتشاد حتى تصبح نسيجا قويا ينسى أصله ولا يكاد يذكر به ، ولن نلقى القول جزافا ولكننا نستشهد بصنيع علمين سابقين من أعلام النحو والنقد جالا مجال عبد القاهر في بعض ما اتجه اليه من الحديث وانتفع بهما الجرجاني انتفاعا كان موضع التمهيد لثمر علمي ناضج آتى أكله هذان هما سيبويه النحوي صاحب الكتاب وابن وهب البلاغي صاحب البرهان الذي نسب لقدامة بن جعفر وطبع تحت عنوان : نقد النثر ، وهو من قدامة بعيد غريب .

أما سيبويه فقد تحدث عن التقديم والتأخير في خلال حديثه عن حروف العطف كأم أو ما يليها من الأفعال والأسماء إذا أريد الاستفهام عن جملة أو عن اسم وعما يليهما في غير الاستفهام فسلك مسلكا دقيقا لا يتهيأ لفهم غير الراسخين من ذوي الصبر والاحتمال وأحيل القارىء على ما جاء في الجزء الأول لفهم غير الراسخين من ذوي الصبر والاحتمال وأحيل القارىء على ما جاء في الجزء الأول من الكتاب ابتداء من الصفحة أربعمائة وثمانين وثنتين[1] خشية الاطالة وكثرة الاستطراد وقد سبق أن تناولت الكثير منه عند تحدثي عن سيبويه واما ابن وهب فقد تحدث عن الحذف والقطع والعطف والتأخير في الصفحات التاسعة والستين والثانية والسبعين والثالثة والسبعين حديثا فظلم مؤلفه كل الظلم اذا قسنا خطراته السريعة بفيض عبد القاهر الزاخر وما نريد موازنة ، ولكن الأمناء من مؤرخي العلوم لا ينسون فضل السابق مهما

---

1) طبعة بيروت ص 564

ضـؤ ل وإذا كان عبد القاهر نحويا في صميم دراساته الأولى فان انتفاعه بسيبويه من ناحية واعتماده على تقرير نظرية النظم على قواعد النحو مما يدفعنا الى معاودة النظرة الجادة في ازالة الحوائل القائمة لدينا بين علم المعاني وكتب النحو ، إذ يعد الأول من علوم البلاغة في عرف المتأخرين وقد تعرض له من لا يتعمق مسائل النحو فأتى بخطل كثير .

وقد ألح عبد القاهر على رجـوع سر الاعجاز الى مراعاة النظم النحوي وحده وكأن هذه المراعاة هي كل شيء مؤكدا أن الإعجاز لا يكون في الكلم المفردة بعيدا عن مسألة النظم كما لا يكون في الفواصل والمقاطع أو في الاستعارة والمجاز فلم يبق الا أن يكون ـ على حد تعبيره ـ في النظم والتأليف .

وما توجه الزمخشري الى اقتناص فوائد المعاني من التراكيب الا بوحي عبد القاهر وعلى هدى سناه ، احتذاه الزمخشري احتذاء نشم منه رائحته في كل سطر من سطور الكشاف فالذي يقارن صنيع عبد القاهر بصنيع الزمخشري يجد الأول قد رسم الخطة وأعد المثال وبين الطريق ويجد الثاني قد تولى التنفيذ الدقيق لما رسم صاحبه حيث تتبع آيات الكتاب الكريم آية ليوضح ما عناه الجرجاني بالنظم القرآني وهنا نتعرض الى مسألة هامة فنذكر أن الزمخشري هو أول من أطلق على مباحث النظم : علم المعاني وقد تابع السكاكي (الكشاف) في ذلك كما يتضح ذلك من مقدمة الكشاف التي نص فيها على أن علمي البيان والمعاني هما من ألزم اللوازم لمن يتعرض للتفسير .

لقد تولى الزمخشري تفصيل قضية النظم في تفسير الكشاف فوقف عند آيات الذكر الحكيم جميعها آية آية ليتبين ما يتعلق بكل نص

قرآني من مسائل المعاني والبيان وقد ذكر المؤلف ما دعاه الى تفسير القرآن فقال : انه رأى بعض اخوانه من رجال البلاغة والاعتزال يرجعون اليه في تفسير الآيات فيستحسنون غاية الاستحسان ما يبرز لهم من مكنونات المعاني ويستطيرون شوقا الى مؤلف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا مقترحين عليه أن يضم ما يعلمه من حقائق التنزيل في كتاب فتباطأ واستعفى ، لما يرى عليه أهل الزمان من رثاثه أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم فضلا عن أن تترقى الى الكلام المؤسس على المعاني والبيان ، ثم زاد الاستشفاع وتدخل بعض الأمراء فضاقت على المستعفى الحيل وعيت به العلل وتفرغ لتفسير كتاب الله .

وفي هذه السطور ما يحدد اتجاه الكشاف ؛ لأن سائليه كما قال من : « أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية » فهم اذن من رجال الاعتزال الذين يرون في الزمخشري إماما في المذهب الكلامي والمذهب البياني معا فهرعوا إليه ظامئين وقد هاموا بصاحبهم ، لأنه في الحقل البلاغي يرضي كل دارس من أبناء العربية وفي الحقل الكلامي يقدم اليهم غذاء يشتهونه فرحين .

وقد صادف تفسير الكشاف حظوة بالغة لا عند رجال الاعتزال وحدهم ، بل عند القارئين جميعا من أبناء الإسلام فجعله أهل السنة مصدرا هاما من مصادر التفسير واكتفوا بالتعليق الكاشف على ما لا يرتاحون إليه من آراء الإعتزال . وانتشر الكتاب انتشار الضوء يبدد الحنادس في كل مكان .

لقد اشترط صاحب الكشاف في مفسر القرآن أن يكون مسترسل

الطبيعة تقادها مشتعل القريحة وقادها يقظان النفس دراكا للمحة وان لطف شأنها متنبها على . . . الرمزة وان خفي مكانها لاكزا جاسيا ولا غليظا جافيا . قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف طالم دفع الى مضايقة ووقع في مداحضة ومزالقة وهي شروط تجد انطباقها لدى الزمخشري إذ رزق حصيلة وافية من الإدراك واليقظة والذوق ففتح الله عليه بما برع وجاد)[1] .

ولا يعنينا في هذا الموضع أن نبين كيف انتصر الزمخشري لأراء الاعتزال فذلك ما يهم في الدرجة الأولى مؤرخو المذاهب الكلامية لا الباحثون عن المعاني المستشفة من الإعراب وإنما يهمنا أن نبين كيف تناول الآيات القرآنية تناولا ينسجم مع معتقداته الكلامية انسجاما يراه متفقا مع أسرار القول البياني دون اعتساف ، فالمعتزلة مثلا يجيزون رؤ ية الله . إذ لو رآه مراء لنظر اليه من جهة فانحصر في حيز وهم ينفون التشبيه ولكن القرآن يجيء بآيات تدل على الرؤ ية فلا بد لمثل الزمخشري أن يفسرها من وجهة نظره الكلامية وهي وجهة تجد في مسائل البيان ما يمدها بالقوة فتغدو أمرا يقبل الجدل والاستدلال .

وقد تعرضت لهذه النقطة أعني التفسير والتأويل حسب المعتقد الاعتزالي لأن ذلك يبين ملامح شخصية الزمخشري العلمية منعكسة في تفسيره والشخصية العلمية كل لا يتجزأ فيها من الفطرة وفيها من الاكتساب ان علما وثقافة أو تجربة وأحداثا وهي على كل حال تكوين معقد أشد تعقيد مركب أيما تركيب ، هذا شأن الشخصية العلمية في

1) خطوات التفسير للقرآن الكريم للدكتور محمد رجب البيوي سلسلة البحوث الاسلامية شوال سنة 1361 ديسمبر سنة 1971 الكتاب الثاني والأربعون ص 232 - 234

ذات نفسها فكيف بالأمر ان حاولنا أن تتضح أمامنا صورة منها في مرآة عمل علمي ؟

إن المهمة تصبح أشق وأدق حين تعالج الشخصية العلمية من مؤلف لها علمي فلن نستطيع أن نجزىء كلها المركب فنقول هذا الجزء منها أدبي وذاك علمي وثالث ديني وهكذا لأنها ككل ذات عناصر متمازجة مختلطة متحدة ولكنا نفترض أن الشخصية العلمية التي تعالج أشبه بالوجه تسلط عليه ريشة الرسام فمرة تبرز عينيه أدق إبراز ومرة تبرز أنفه وثالثة شاربيه وهكذا نتنقل بين أجزاء الوجه لا تغادر سمة من سماته أو خصيصة من خصائصه وأجزاء الوجه المصورة بعد مجموعة هي الوجه كله ، وسبيلنا هنا هو سبيل ريشة الرسام فنسلط الضوء مرة على جانب من شخصية الزمخشري العلمية المتعددة الجوانب ، ومرة أخرى على جانب ثان وثالث وهكذا ، وهذه الجوانب كلها مضمومة بعضها الى بعض ممتزجة بعضها مع بعض هي شخصية الزمخشري العلمية كما عكسها تفسيره الينا ، وهذا ما اتبعناه في تعرضنا لسلفية العظيمين أيضا أبي حيان أو الفراء .

وشخصية الزمخشري كمعتزلي مفكر جانب غلاب على كل الجوانب الأخرى في تفسيره ظاهر عليها أشد ظهور وتكفينا في ذلك الاشارة مكتفين بمثل واحد في جانب العقيدة التي لا يقبل فيها الاستثناء والتي يدل فيها الجزء على الكل لأننا لو فصلنا لشطبنا المقام مولين عن هدفنا الأصلي .

ونعود بعد هذا الاستطراد الى الحديث عن تفسيره الرؤ ية بما يوافق مذهبه :

قال الله تعالى في سورة القيامة « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » فقال الزمخشري[1] « تنظر الى ربها وهذامعنى تقديم المفعول ألا ترى الى قوله ﴿ الى ربك يومئذ المستقر ﴾ الى ربك يومئذ المساق ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[2] والى الله المصير[3] (واليه ترجعون ﴾[4] ﴿ عليه توكلت واليه أنيب ﴾[5] كيف دل منها التقديم على معنى الاختصاص ومعلوم أنهم ينظرون الى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم ، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم ، لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فاختصاصه بنظرهم اليه لو كان منظورا اليه محال ، فوجب حملة على معنى يصح معه الإختصاص والذي يصح معه أن يكون من قول الناس « أنا ناظر الى فلان ناظرا ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء ومنه قول القائل :

وإذا نـظرت إليـك من ملك والبحـر دونـك زدتني نعمـا

وسمعت مروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون الى مقاتلهم تقول : « عويتني ناظرة الى الله واليكم » والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة الا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون الا إياه » .

فالزمخشري يحمل النظر على توقع الخبر وانتظار الكرامة

---

1) ص 294 جـ 3 الكشاف طبعة الحلبي سنة 1948

2) سورة القيامة 23/22

3) سورة الشورى 53

4) آخر سورة يس 82

5) سورة هود 88

ويقول : إن تقديم الجار والمجرور « الى ربها » في الآية وأمثالها يدل على الاختصاص واذا كان كل شيء منظورا يوم القيامة فاختصاصه عز وجل وحده بالنظر حينئذ محال فلم يبق الا حمل النظر على توقع النجاة والكرامة في يوم تشخص فيه الأبصار ثم يستأنس بشاهد شعري ويقول امرأة مستجدية سمعها بمكة ولم ينج المفسر من تعقيب ابن النير حيث قال تعليقا على قوله « إنه يدندن ويطيل في جحد الرؤية ويحقق البناء ويكثر ويتعمق فلما فغرت هذه الآية فاه صنع في مصانعتها بالاستدلال على أنه لو كان المراد بالرؤية النظر الحسي لما انحصرت بتقديم المفعول ، لأنها حينئذ غير منحصرة وما يعلم أن المتمتع برؤ ية جمال وجه الله تعالى لا يصرف عنه طرفه ولا يؤثر عليه غيره ولا يعدل به عز وجل منظورا سواه ، ونحن نشاهد العاشق في الدنيا إذا ظفر برؤية محبوبة لم يصرف عنه لحظة فكيف بمحب الله .

وهو تعليل يصدم تعليلا ويباريه .

وكذلك قال في سورة المطففين (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) تمثيل للاستخفاف بهم . وفي سورة يونس : لننظر كيف تعملون) استعار النظر للعلم المحقق ، وهكذا ، وقد قلنا ان العادلية قد أعجبوا بتفسيره وبلاغته لأنه تابع عبد القاهر في نظرية المعاني يقول الزمخشري تعليقا على آية البقرة (وأولئك هم المفلحون) هم فصل وفائدته الدلالة على أن الواردة بعد خبر لا صفة وتوكيد ، وايجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند اليه دون غيره . والفائدة الأولى فائدة نحوية خالصة ، أما الفائدتان الثانية والثالثة فتلتقيان مع كلام عبد القاهر في أن ضمير الفصل يفيد تأكيد الاختصاص ويقف الزمخشري عند تعريف كلمة (المفلحون)قائلا : ومعنى التعريف في (المفلحون) الدلالة على

إن المتقين هم الناس الذين منهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة أو على أنهم الذين ان حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة)[1] .

وواضح انه ردد التعريف بين العهد والجنس فهو إما اشارة الى المعهودين بالفلاح وإما تعيين لحقيقة الجنس المسمى بالمتقين وهو نفس كلام عبد القاهر في دلائل الاعجاز طبقه الزمخشري على الآية الكريمة ، ويقف في تفسيره كثيرا بازاء التعريف ومعناه فهو مثلا في آية الفاتحة (الحمد لله) يقول هو من باب تعريف الجنس ومعناه الاشارة الى ما يعرفه كل أحد عن الحمد ما هو ؟ ويقول إن من جعلوا التعريف من باب الاستغراق وهم منهم[2] وقد يحمل الزمخشري التعريف على الاحاطة والشمول فيفيد الاستغراق ومع أنه أيضا للجنس كما في كلمة الكتاب في آية البقرة(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، فقد قال : إن الكتاب يصح أن يراد به جنس كتب الله[3] وجعل التعريف في آية (ذلك الكتاب لا ريب فيه للدلالة على أنه الكتاب الكامل[4] أو بعبارة أخرى للدلالة على حقيقة الجنس وانه هو الذي يمثل الكتاب حقا وفي تعريف الذكر والأنثى في آية آل عمران : (قالت رب إني وضعتها أنثى . . والله أعلم بما وضعت . . وليس الذكر كالأنثى) يقول اللام فيهما للعهد[5] .

---

1) الكشاف ص 112 جـ 1

2) ص 40 و41 جـ 1

3) ص 251 جـ 1

4) ص 85 جـ 1

5) ص 320 جـ 1

وقد ذكر عبد القاهر جملة الحال الاسمية والفعلية ومتى تقترن بالواو ومتى تستحب ومتى تمتنع ونرى الزمخشري يتابع عبد القاهر في أن الأصل في الجملة الحالية الاسمية أن تقترن بالواو الا أن تبدأبحرف مثل كأن ، يقول تعليقا على آية الاعراف (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون) أن الواو حذفت عند قوله (أو هم قائلون) استثقالا لاجتماع حرفي العطف ، لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل وعد سقوط الواو من مثل : جاءني زيد وهو فارس خبيثا[1] كأنه يؤثر ذكر الواو وآثر في هذا التعبير أن حذفت منه الواو أن يقال : جاءني زيد فارسا . وكان عبد القاهر يرى امتناع حذف الواو فيه .

ويستغل الزمخشري كل ما كتبه عبد القاهر في الدلائل من قواعد الفصل والوصل بين الجمل بالواو ، فنراه يقف عند قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل اليك) فيقول إنه وسط العاطف بين هذه الجملة وسابقتها كما يوسط بين الصفات في قولك : هو الشجاع والجواد[2] وجعل قوله جل شأنه ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ بعد قوله : هدى للمتقين كأنه إجابة لسائل سأل : ما بال المتقين مخصوصين بالهدى ، فوقع قوله : هدى للمتقين ، كأنه إجابة لسائل سأل : يقال : ما بال المتقين مخصوصين بالهدى ، فوقع قوله (الذين يؤمنون بالغيب) إلى سابقه كأنه جواب لهذا السؤال المقدر[3] ويلاحظ أن هذا النوع يجيء تارة باعادة اسم من استؤنف عنه الحديث كقولك : قد أحسنت الى

---

1) ص 251 جـ1

2) ص 102 جـ1

3) الكشاف جـ 1 ص 106

زيد ، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه وهكذا يتابعه في الوصل ويعض التعبيرات الدقيقة كالنفي والتنكير والقصر والإسناد الخبري والخبر والإنشاء ولن يتسع المقام للاستشهاد .

وإذا كان المؤلف الكبير علما من أعلام العربية الفاهمين لدقائق نحوها وصرفها ولغتها والمتمكنين من أسرار أساليبها العريقة وخفايا تراكيبها العميقة ، فان النص القرآني باعتباره أفصح نص عربي يقرأ قد وجد من بصيرته النيرة أشعة كاشفة لا يملكها غير الأفذاذ من الموهوبين وقد أخذت هذه الأشعة الثاقبة تتناول النص الشريف من شتى نواحيه فتقف عند الحرف في الكلمة والكلمة في الآية والآية في السورة وقوف من ملك موازين البيان فجعل لكل حرف وزنه وتقديره واستشف لكل كلمة ايحاءها وظلالها كالخط ما يخفي عن غيره من وسائل التماسك القوية في السياق المحكمْ المكين وقد عبر عن ذلك كله تعبيرا ترك صداه المجلجل لدى من تلاه حتى اضطر مخالفون في الاعتزال الى أن يتغاضوا عما ينفرج بينهم وبينه من مسائل الخلاف وليفرغوا الى التمتع بما اهتدى اليه من أسرار البيان القرآني صياغة وتفكيرا ومنهجا إذ إن أكثر ما اهتدى إليه في ذلك نادر ثمين .

ولن نسوق القول دون تدليل فأمامنا الكشاف مليئا بكل ما نبتغيه واذا كان غير الكشاف قد حفل بأسرار الحروف النحوية في سياقها القرآني من عطف وجزم وجر ونصب ونفي واستفهام ونداء فان من تقدم الزمخشري في هذا المضمار كسيبويه والفراء والزجاج والمبرد وابن درستويه وأبي علي الفارسي وابن جني وغيرهم ممن ذكرهم صاحب الكشاف قد أمدوه بما لم يعد غريبا على القراء ولذلك نترك التمثيل

لبعض ما برع فيه الزمخشري خاصا بمعاني الحروف واختلاف المدلول التركيبي بابدال شيء منها مكان شيء لأن ذلك مما لا يعز نظيره متقلين الى الكلمات فالجمل فالآيات حيث يعرض من نماذجها الرائعة كل مبدع خلوب .

لقد وقف الزمخشري أمام الألفاظ القرآنية وقفات من تغلغل الى باطن أسرارها تغلغلا يكشف المجهولات من الدقائق فأنت تراه مثلا في الآية الكريمة (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله)[1] اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضا شديدا وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس مضموما اليه حرف رابع وهو الراء فيكون رباعيا ودالا على المعنى الزائد يقال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره وهو مثل في شدة التخويف فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل وتصوير الافراط خشيتهم وانه يريد التحقيق ولا نجد كلا ما سبق به المؤلف في تحليل لفظة اقشعر وبنائها التركيبي واضافة الراء الى المادة الثلاثية لتصير رباعية يتم بها التأثير مما يدل على أن الرجل يكتشف للكلمات أسرارا لا تكاد تبين وهو بعد شديد الحساسية بموقع اللفظ القرآني من سياقه فاذا تعرض لقول الله عز وجل عن زلزلة الساعة (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها) أخذ يوازن بين كلمتي مرضعة ومرضع فيقول[2] فان قلت : لم قيل مرضعة دون مرضع ، قلت المرضعة التي هي في حال الارضاع ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع من شأنها أن ترضع وان لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل مرضعة

---

1) الكشاف جـ 2 ص 29 سورة الزمر 23

2) ص 340 جـ2 سورة الحج آية 2

ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة » .

وهي موازنة بارعة تنبيء عن معدن هذا الصيرفي الدقيق وتنطسه في تقدير الألفاظ وتحديد المعاني وفق ما يتطلبه السياق ولندع هذا المثال الى مثال ثالث تجده لدى الزمخشري عند تفسير قوله تعالى « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » إذ يوازن بين كلمتي العوج بكسر العين وهي ما جاءت في النص القرآني والعوج بفتح العين فيقول[1] « فإن قلت قد فرقوا بين العوج بالكسر في المعاني والعوج بالفتح في الأعيان ، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين ، قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع بديع في وصف الأرض بالأستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنهما على أبلغ ما يكون » وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي ، فنفى الله عز وجل ذلك عوض الذي دق ولذ ولطف عن الإدراك اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقرير والهندسة وذلك الاعوجاج لما لم يدرك الا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل به عوج بالكسر » .

ولا أظن ـ الا في القليل ـ دقة لغوية تفوق هذه الدقة الألمعية لدى

1) ص 314 جـ1 سورة طه 105 - 107 .

صاحب هذا التحليل البصير ، وإذا كانت الثلاثة السابقة في الكلمات المفردة فها هي ذي ثلاثة مواضع أخرى تبين كيف تذوق الزمخشري موضع الجملة ، ونبدأ بقول الله عز وجل ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾[1] حيث قال الزمخشري : فان قلت لم جاء « فتثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ، قلت ليحكي الحال التي يقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة البديعة للدلالة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب ، قال تأبط شرا :

بأني قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول وثباته على كل شدة وكذلك سوق السحاب الى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها كانا من الدلائل على القدرة الباهرة فقيل فسقنا وأحيينا معدولا بهما من لفظ الغيبة الى ما هو داخل في الاختصاص ، ففي هذا المثال أوضح المفسر كيف وقع المضارع لعلة بلاغية أحسن شرحها والاستشهاد لها كما أوضح موقع المضارع مكان الماضي في أمثلة أخرى نختار منها قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ان الله لطيف خبير ﴾[2] فإن

---

1) آية 9 سورة فاطر ـ الكشاف جـ 2 ص 571

2) الكشاف جـ 2 ص 353 سورة الحج آية 63

قلت هلا قيل فأصبحت ولم صرف إلى لفظ المضارع قلت لنكتة فيه وهي إفادة بقاء المطر زمانا بعد زمان كما تقول : أنعم على فلان عام كذا ، فأروح وأغدوا شاكرا ، ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع هذا الموقع وهو كلام من الوضوح بحيث يغني عن كل تعليق ، أما المثال الثالث فنختاره من قول الله تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله بأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾[1] .

حيث قال الزمخشري فان قلت : أي فرق بين وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم وبين النظم الذي جاء عليه ؟ قلت في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها اياهم وفي تصيير ضميرهم اسما وإسناد الجملة دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض اليهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم ، وهو قول تجد له في تفسير الكشاف نظائر كثيرة ذات تدليل محكم وتعليل دقيق .

ويؤيد هذا الاتجاه صاحب (القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية الدكتور عبد العال سالم مكرم فيقول :

(فمن منهجه في الدراسة النحوية ما يأتي :

النظر من خلال الدراسة النحوية الى الذوق الأدبي والأسلوب البلاغي بغض النظر عن تقديرات النحاة (ويفهم من هذا أنه يعني بالمعنى لا بصناعة الإعراب واستشهد على ذلك بقوله : يقول في قوله

---

1) الكشاف جـ 3 ص 213 سورة الحشر آية 2

تعالى هدى للمتقين[1] ومحل هدى للمتقين الرفع ، لأنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لا ريب فيه لـ (ذلك) أو مبتدأ إذا جعلها لظرف المقدم خبرا عنه ، ويجوز أن ينتصب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف ثم قال :

والذي هو أرسخ عرفا في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحا وأن يقال : ان قوله (آلم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها (وذلك الكتاب) جملة ثانية (ولا ريب فيه) ثالثة (وهدى للمتقين) رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حروف نسق وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض[2] .

وفي موطن آخر يقول في قوله تعالى ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ : ونحن له عابدون : عطف على آمنا بالله وهذا العطف يرد قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة ابراهيم أو نصب على الإغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من ذلك النظم واخراج الكلام عن التئامه واتساقه وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه ، والقول ما قالت حذام[3] ويجري في معظم تناوله للنحو في القرآن مجرى مذهب البصريين ففي الآية الكريمة : ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية ﴾[4] بصف مذهب البصريين بالسداد ولا يكتفي بذلك ، بل يشيد بكتاب سيبويه ولا يقنع بهذه الاشارة بل يوجب الجثو

1) الكشاف ص 89 جـ 1 سورة البقرة آية 2

2) ص 92 و93 من الكشاف .

3) سورة البقرة آية 138 ص 242 الكشاف .

4) سورة الاعراف آية 132 ص 569 جـ1

بين يدي الناظر في كتاب سيبويه[1] .

وكل هذا جميل من صاحب القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية .

ولكني أجد التناقض بين كلامه عند التحدث عن منهج الزمخشري في دراسة النحو القرآني إذ يقول بعد أن تحدث عن نظره من خلال الدراسة النحوية الى الأسلوب البلاغي بغض النظر عن تقديرات النحاة وعن جريانه على مذهب البصريين وسيبويه الذي قدمنا أكثر من مرة في أكثر من موضع أنه كان يراعى جانب المعنى ، يقول في البند الثالث : إن من منهجه اللجوء الى ظاهر اللفظ وقوانين الإعراب وإهمال المعنى متابعا ما ذكره الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري المالكي صاحب (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) .

والباحث يجب أن يبني رأيه على الإحصاء والاستقصاء والموازنة ويغلب جانبا على جانب لا أن يلقى القول على عواهله ويتناقض مع نفسه ، وإذا كنا قد وافقنا ابن المنير على اعتراضه فيما ألف كتابه الانتصاف فيه وهو الرد على الآراء الاعتزالية فلسنا معه في هذا الحكم على الزمخشري الذي تحدثنا عنه في صفحات عدة من هذا البحث في مراعاة المعنى ولتنقل ما ذكره الدكتور /عبد العال سالم مثبتا/ له لجوء الزمخشري الى ظاهر اللفظ وقوانين الإعراب مهملا جانب المعنى .

« قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم

---

1) القرآن وأثره في الدراسات النحوية ص 230 و231

ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا »[4] منكم أو اتباعا قليلاً ﴾ لما ذكر في الرأي قبلها تثبطكم عن القتال وإظهارهم الطاعة أو إضمارهم خلافها ، ولم يسكت ابن المنير صاحب الانتصاف بها من الكتاب عن هذا التوجيه فقال : وفي تفسير الزمخشري هذا نظر وذلك أنه جعل الاستثناء من الجملة التي وليها بناء على ظاهر الإعراب وأغفل المعنى وذلك أنه يلزم على ذلك جواز أن ينتقل الانسان من الكفر الى الإيمان ومن اتباع الشيطان الى عصيانه وخزيه وليس لله عليه في ذلك فضل ، ومعاذ الله أن يعتقد ذلك ، وبيان لزومه أن لولا حرف امتناع لوجود وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان فاذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة فقد سلبت تأثير فضل الله في امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ضرورة وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالإيمان وعصيان الشيطان الداعي الى الكفر بأنفسهم لا بفضل الله ومن المحال أن يعتقد موحد مسلم أنه عصم في شيء من الأشياء من اتباع الشيطان إلا بفضل الله تعالى عليه » .

وقد ادعى ابن المنير ان ما قاله الزمخشري مخالف لقواعد أهل السنة الذين يجعلون الطاعة والمعصية مخلوقة لله ومذهب المعتزلة الذين يجعلون الانسان خالقا طاعته وأن فضل الله منسحب على ذلك لأنه خلق له القدرة التي بها خلق العبد ذلك ودفعه لإرادة الخير ويخلص من ذلك ابن المنير قائلا (فقد وضح لك تعذر الاستثناء من الجملة الأخيرة على تفسير الزمخشري وما أراه إلا واهما مسترسلا على المألوف في الإعراب وهو إعادة الاستثناء الى ما يليه من الجمل مهملا النظر في المعنى [1] .

---

1)) النساء آية 83 وص413 من الكشاف . 1) الانتصاف ، هامش الكشاف لابن المنير .

وأقول والله أعلم ردا على ابن المنير :

علم الله سبحانه في الأزل أن قليلا منهم سوف لا يتبعون الشيطان وذلك بفضل الله فلم يشملهم الخطاب ضمن هؤلاء الذين عصمهم الله بفضله من اتباع الشيطان والعلم سابق على الإرادة وحينما جاء وقت إغراء الشيطان اختارت إرادته سبحانه الا يتبع هؤلاء الذين شملهم الخطاب اتباع الشيطان بالكفر بل كانوا في صفوف المسلمين يؤيدون الدعوة (والا اتباعا قليلا) لا يوصل الى الكفر كاذاعة أخبار الحرب في هذه السرية كما حدث في غزوة بدر من أبي لبابة وكما اتبع آدم الشيطان من الأكل من الشجرة (فعصى آدم ربه فغوى) ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) وأنا أستبعد من عقلية متفتحة كعقلية الزمخشري أن يكون تأويل ابن المنير مقصودا له أو أنه جاهل معنى لولا وأنها حرف امتناع لوجود أو أنه لم ينظر الى المعنى حينما أعرب هذا الإعراب وهذا التفسير الذي ذكرته في الشطر الثاني الا اتباعا قليلا لا يتعارض مع تفسير إمامنا الزمخشري رحمه الله فقد أشرت إليه مؤولا كلامه كما أنه يتفق مع تفسير بعض المحدثين (كان بعض المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرية أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم للغزو أو نحوه وعلموا أن هذه السرية قد أمنت من أعداها وانتصرت عليهم أو خيف عليها منهم أفشوا ما علموه وانطلق لسانهم بالكلام فيه خفة وطيشا فيتأذى من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان يليق بالدهماء أن يذيعوا أخبار الحرب وأسرارها ويخوضوا في أمورها وسياستها فإن الحرب خدعة ويجب ترك شئونها للرؤساء والقادة ولو سكتوا ولم يذيعوا ما علموه ولم يحدثوا به أحدا حتى يكون رسول الله وأولو الأمر من أهل الرأي والمشورة من كبار الصحابة هم الذين يذيعون ما يرون إذاعته لعلم تلك

الأخبار من يبحثون عنها ويهمهم أمرها من مصادرها الصحيحة ، ولو تفضل الله عليكم أيها المسلمون بالعفو عنكم ورحمته بما هداكم إليه من طاعته لاتبعتم وسوسة الشيطان فأفسدتم على الأمة سياستها وخرجتم عن حدود الدين إلا قليلا منكم من أصحاب البصائر النافذة والعقول الراجحة[1] .

وانني مع مؤلف (منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه)[2] .

إذ ذكر مؤلف هذا الكتاب أن الزمخشري (حين يعرض للقرآن من الوجهة الإعرابية لا ينساق وراء صناعته النحوية فيتحيف جانب المعنى وإنما يجعل رائده المعنى حيثما كان هناك تقدير إعرابي فنراه يبين الأحكام النحوية وما وراءها من فروق معنوية فهو يعالج النحو القرآني من الناحية التي تخدم تفسير القرآن وتنسق معانيه[3] .

مستدلا بقول الله سبحانه في الآية الكريمة ﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾[4] مناقشا : لم رفعت (ينصرون) ؟ ولم لم تجزم ؟ وتأثر المعنى في الحالتين ثم يبين علام عطفت ؟ ليدرجها في نسقها المعنوي ، يقول : فإن قلت : هلا جزم المعطوف في قوله (ثم لا ينصرون) ؟ قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون . فان قلت : فأي فرق

---

1) الجزء الخامس من تفسير القرآن الكريم حمزة وعلوان وبرانق ص 51 و52

2) تأليف مصطفى الصاوي الجويني

3) منهج الزمخشري ص 167 جـ 1 ط دار المعارف بمصر .

4) الآية 111 من آل عمران ـ الكشاف ص 342

بين رفعه وجزمه في المعنى ؟ قلت لو جزم لكأن نفي النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقا كأنه قال ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصرة والقوة لا ينهضون بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر عن حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر فإن قلت : فما الذي عطف عليه هذا الخبر ؟ قلت جملة الشرط والجزاء كأنه قيل أخبركم أنهم إن يقاتلوكم لم ينهزموا ثم أخبركم أنهم لا ينصرون ﴾[1] .

وقد تمتد رعاية الزمخشري للنسق المعنوي في الآية الواحدة الى رعايته للتناسب المعنوي في القرآن كله في الآية ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾[2] يرى وجهين لمرجع الضمير في مثله وهو اما (لما نزلنا) أو (لعبدنا) ويفضل منهما الوجه الذي يتفق مع المعاني القرآنية ، يقول (من مثله) متعلق بسورة لها أو بسورة كائنة من مثله والضمير لما أنزلنا أو (لعبدنا) ويجوز أن يتعلق بقوله (فأتوا) والضمير للعبد ورد الضمير الى المنزل أوجه لقوله تعالى (فأتوا بسورة مثله)[3] فأتوا (بعشر سور مثله)[4] على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)[5] .

ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب

---

1) الكشاف ص 342 جـ 1
2) الآية 23 من البقرة
3) الآية 38 يونس
4) سورة هود الآية 13
5) الآية 88 من سورة الاسراء .

والكلام مع رد الضمير الى المنزل أحسن ترتيبا وذلك أن الحديث في المنزل ، لا في المنزل عليه وهو مسوق اليه ومربوط به فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير الى غيره . ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم ما يماثله ويجانسه وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال (وإن ارتبتم في أن محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا من مثله ولأنهم خوطبوا جميعا وهم الجم الغفير بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم كان أبلغ في التحدي من أن يقال لهم : ليأت واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد ولأن هذا التفسير هو الملائم لقوله تعالى ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾[1] إن المعاني القرآنية وتناسقها يضعها الزمخشري نصب عينيه حينما يعرض لحكم اعرابي يقول عند الآية (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾[2] أي قوم موسى التوراة ، لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها كما قال (على خوف من فرعون وملئهم)[3] يريد آل فرعون وكما يقولون هاشم وثقيف وتميم ويراد قومهم ولا يجوز أن يرجع الضمير في (لعلهم) الى فرعون وملئه ، لأن التوارة انما أوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملئه : ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى)[4] ، وفي الآية ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ [5]يقول (ثلاثة) خبر مبتدأ محذوف فان صحت الحكاية عنهم أنهم يقولون هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم : أقنوم الأب ، أقنوم الابن وأقنوم روح

---

1) ص 187 من الكشاف جـ 1

2) المؤمنون آية 49

3) سورة يونس 83

4) سورة القصص 43

5) سورة النساء آية 176 والكشاف ص 440

القدس ، وأنهم يريدون بأقنوم الأب الذات وبأقنوم الابن العلم وبأقنوم روح القدس الحياة .

فتقديره : الله ثلاثة والا فتقديره الآلهة ثلاثة ، والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن اللهوالمسيح ومريم ثلاثة آلهة وأن المسيح ولد الله من مريم ألا ترى الى قوله ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ ، والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون في المسيح لاهوتية وناسونية من جهة الأب والأم ويدل عليه قوله ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم ﴾ لما ثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتها وأن اتصاله بالله تعالى من حيث إنه رسوله وإنه موجود بأمرهوابتداعه جسدا حيا من غير أب فنفى أن يتصل به اتصال الأبناء بالآباء ، وقوله : سبحانه أن يكون له ولد) وحكاية الله أوثق من حكاية غيره ، وما قيل من روايات قصصية عن الحجر المضروب بعصا موسى يفرزها الزمخشري الى قسمين يستتبع كل قسم حكم إعرابي وما عرض للنحو هنا إلا أنه يخدم تفسير الآية : فيقول في الآية ﴿ اضرب بعصاك الحجر ﴾[1] الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه (بالأدرة) ففر به فقال له جبريل : يقول له الله تعالى : ارفع هذا الحجر فإن لي فيه قدرة ولك فيه معجزة فحمله في مخلاته ، وإما للجنس أي ضرب الشيء الذي يقال له الحجر . وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجرا بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة وروى أنهم قالوا : كيف لنا لو أفضينا الى أرض ليست فيها حجرا فحمل حرجا في مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه . وقيل كان يضربه بعصاه فيتفجر ويضربه بها فييبس فقالوا : إن فقد موسى عصاه

1) الآية 60 من سورة البقرة الكشاف ص 218

متنا عطشا فأوحى اليه لا تقرع الحجارة وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون .

فالنحو عنده خادم للمعنى . يقول الزمخشري في الآية : يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) اذا حضر ظرف للشهادة وحين الوصية بدل منه وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية وأنها من الأمور اللازمة التي ما ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها[1] فاذا أخل الحكم الاعرابي بالمعنى رفضه فعند الآية ﴿ والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾[2] يقول : وأجاز الفراء أن يكون (بين ذلك) اسم كان على أنه مبني لاضافته الى غير متمكن كقوله :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت

وهو من جهة الإعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس يقوى ، لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة ، فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة ، ويعرب الآية ، ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ فيقول (ذلكم) مبتدأ و(الله ربكم له الملك) أخبار مترادفه أو (الله ربكم) خبر إن و(له الملك) جملة مبتدأة واقعة في قرآن) قوله ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾[3] ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الاشارة أو عطف بيان وربكم يكون خبرا ولا أن المعنى يأباه ، ولعل رفض هذا الوجه الإعرابي لما يجره من الإشارة الى لفظ الجلالة .

لذلك ينأى الزمخشري بالقرآن عن تعسف التأويلات النحوية

---

1) الآية 116 من المائدة ص 487 من الكشاف

2) سورة الفرقان الكشاف جـ 2 ص 415 آية 67

3) سورة فاطر الآية 13 ـ الكشاف ص 574

التي لا يفيد التفسير القرآني منها محصولا ففي الآي ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب ﴾[1] .

يقول : إن قلت : هل يصح قول من زعم أن اصله لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت في قولك : جئتك أن تكرمني فبقي أن لا يسمعوا فحذفت (أن) وأهدر عملها كما في قول القائل :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

قلت : كل واحد من هذين الحرفين غير مردود على انفراد فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب[2] .

والزمخشري يستغل النحو في الدفاع عن القرآن والنضح عن طاعنين يرون فيه ما لا يضطرد والقاعدة النحوية في سلامتها واضطرادها على وتيرة واحدة . يقول الزمخشري في الآية ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة ﴾[3] . المقيمين نصب على المدح لبيان فضل الصلاة وهو باب واسع وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد لا يتلفت

---

1) آيتا 6 و9 من الصافات .

2) الكشاف جـ 2 ص 598

3) سورة النساء آية 162 وفي هذه الآية يقول أبو عبيدة في المجاز ورقة 139 ـ العرب تخرج من الرفع إذا اكثر الكلام الى النصب ثم يقود الى رفع قال خرنق :

لا يبعدن قومي الذين هم ـ سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك ـ والطيبون معاقد الأزر

الى ما زعموا من وقوعه لحنا في خط المصحف ، وربما ألفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان وبني عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم وخرقا يرفوه من يلحق بهم .

وهذه الآراء النحوية نجدها مبثوثة في كتابه الكشاف ، لأننا عرفناه مؤلف كتب النحو التي منها المفصل وكان كلفا به بصيرا بدقائقه ولهذا تعرض كثيرا للإعراب في تفسيره فأعرب كلمات وأورد آراء النحاة في إعراب كلمات وناقش الأعاريب واختار ما رآه أصح وأصوب وكثيرا ما كان يمثل بالنصوص الأدبية وهذه أمثلة من الآيات الكريمة التي يتعرض فيها للنحو :

1) شهد الله إنه لاإله الاهو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط [1] ـ قال : ان قائما منصوب على الحال من لفظ الجلالة فان قلت: لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه ولو قلت جاءني زيد وعمرو راكبا لم يجر ؟ قلت : انما جاء هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله تعالى ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾[2] أن انتصب (نافلة) حالا من يعقوب ، ولو قلت جاءني زيد وهند راكبا جاز لتميز الحال بالذكورة ويجوز أن يكون (قائما) منصوبا على المدح . فان قلت : أليس من حق المنتصب على المدح ان يكون معرفة كقولك : الحمد لله

1) سورة آل عمران 18 الكشاف جـ 1 ص 314

2) سورة الأنبياء 92

الحميد بفتح الدال ـ وإنا معشر بفتح الراء الأنبياء لا نورث ؟

قلت : قد جاء نكرة كما جاء معرفة وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي :

ويـأوي إلـى نـسـوة عـطـل وشعثا مراضيع مثل السعالى

فان قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمنفى كأنه قيل : لا إله قائما بالقسط إلا هو ؟

قلت : لا يبعد : فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف .

فإن قلت : قد جعلته حالا من فاعل (شهد) فهل يصح أن ينتصب حالا من هو في (لا اله الا هو) ؟ قلت : نعم ، لأنها حال مؤكدة والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها وكقولك أنا عبد الله شجاعا ، وكذلك لو قلت لا رجل الا عبد الله شجاعا وهوأوجه من انتصابه عن فاعل (شهد) وكذلك انتصابه على المدح[1] .

2) ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا[2] فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل أي وجعل الشمس والقمر حسبانا أو يعطفان على محل الليل .

فان قلت كيف يكون لليل محل والإضافة حقيقية لأن اسم الفاعل

---

1) الكشاف ص 314

2) سورة الانعام الآية 95 ص 518 و519 وفي بحث الاضافة اللفظية والمعنوية رأى ابن هشام في هذه الآية وفي مالك يوم الدين تحت عنوان رحلة مع بعض أبواب النحو بهذه الرسالة .

المضاف إليه في معنى المضي ولا تقول زيد ضارب عمرو أمس ؟ قلت ما هو في معنى المضي وانما هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة وكذلك فالق الحب وفالق الإصباح كما تقول : الله قادرعالم فلا تقصد زمانا دون زمان .

والجر عطف على لفظ الليل والرفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر مجعولان حسبانا أو محسوبان حسبانا ومعنى جعلهما حسبانا أن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما .

3) « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون في آيتنا ما لهم من محيص »[1] فإن قلت فما وجوه القراءات الثلاثات في (يعلم) ؟

قلت أما الجزم فعلي ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف ، وأما النصب فالعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ، ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ، منه قوله تعالى ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ وخلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾[3] .

وأما قول الزجاج : النصب على إضمار (أن) لأن قبلها جزاء نقول : ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك بالرفع على تقدير

---

1) سورة الشورى 35
2) سورة مريم الآية 21
3) سورة الجاثية آية 22

وأنا أكرمك ، وإن شئت وأكرمك جزما ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه إذ قال : واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله إن تأتني آتك وأعطيك ضعيف ، وهو نحو من قوله : وألحق بالحجاز فأستريحا فهذا يجوز وليس بحد الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلا لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل ، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه .

ثم عقب الزمخشري بقوله ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أخلي سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة .

4) (فلولا كان من القرون من قبلكم أو لو بقية ينهون عن الفساد في الأرض)[1] فهلا كان وقد حكـوا عن الخليل أن كل (لولا) في القرآن معناها (هلا) ، الا التي في سورة الصافات[2] ولكن هذه الحكاية غير صحيحة لأن (لولا) وردت في سورة أخرى وليس معناها (هلا) مثل قوله تعالى ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء) وقوله ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم ﴾ [3] وقوله ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ﴾[4] .

5) ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾[5] .

---

1) سورة هود 116

2) يريد قوله تعالى في شأن يونس عليه الســلام ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المســبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ﴾ سورة الصـافات 142 - 144

3) سورة القلم 49 وسـورة الفتح 25 4) سـورة الاسراء 74

5) سورة يوسف 43 الكشـاف جـ 2 ص 139

فان قلت هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للتمييز وهو بقرات دون المميز وهو بسبع وأن يقال بقرات سمانا ؟ .

قلت : إذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن .

فإن قلت : هلا قيل سبع عجاف على الإضافة ؟

قلت : التمييز موضوع لبيان الجنس والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده ، فإن قلت فقد يقولون ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب ؟

قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها ، ألا تراك لا تقول عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ ، فإن قلت : ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه ، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف .

والعجف الهزال الذي ليس بعده ، والسبب في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء ، مع أن أفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال يحمله على سمان ، لأنه نقيضه ومن رأيهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض[1] .

6) هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا[2] .

لا يصح أن يكون (خوفا وطمعا) مفعولا لهما لأنهما ليسا بفعل

---

1) جـ 2 ص 139 الكشاف تفسير سورة يوسف .

2) سورة الرعد 13 والكشاف جـ 2 ص 161

فاعل الفعل المعلل الا على تقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع أو على معنى اخافة واطماعا ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع أو على ذا خوف وذا طمع أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين .

7) لا أقسم بيوم القيامة[1] قال رحمه الله : ادخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامري   لا يدعي لقوم أني أفر

وقال غوية بن سلمي :

ألا نادت أمامة باحتمال   لتحزنني فلا بك ما أبالي

وفائدتها تأكيد القسم وقالوا إنها صلة (زائدة) مثلها في (لئلا يعلم أهل الكتاب) وفي قوله : في بئر لا حور سري وما شعر[2] .

واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوله وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض .

والأعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ولكن الجواب غير سديد ألا ترى الى امرىء القيس كيف زادها في مستهل قصيدته ؟ والوجه أن يقال هو للنفي والمعنى أنه لم يقسم بالشيء الا إعظاما له يدلك عليه قول الله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » فكأنه بإدخال حرف النفي يقول : إن إعظامي

---

1) سورة القيامة آية (1) والكشاف جـ 3 ص 291

2) قال ابن يعيش في شرح المفصل 136/8 ان اطراد في بئر حور ولا مزيدة كذا فسره أبو عبيدة والحور : الهلكة .

له بإقسامي به كلا إعظام يعني أنه يستأهل فوق ذلك .

وقيل ان (لا) نفي لكلام ورد له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل لا ، أي ليس الأمر كما ذكرتم ثم قيل أقسم بيوم القيامة .

فان قلت : قوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ والأبيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي فهلا زعمت أن (لا) قبل القسم زيدت موطئة للنفي ومؤكدة له وقدرت المقسم عليه المحذوف ها هنا منفيا ، كقولك لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى ، قلت لو قصر الأمر على النفي دون الاثبات لكان لهذا القول مساغ ولكن لم يقصر ، ألا ترى كيف نفى لا أقسم بهذا البلد بقوله : لقد خلقنا الانسان في كبد وكذلك فلا أقسم بمواقع النجوم بقوله إنه لقرآن كريم .

وقرىء (لأقسم) على أن اللام للابتداء وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه لأنا أقسم قالوا ويعضده أنه في المصحف الإمام بغير ألف[1] .

8) ومن ذلك ما قاله الزمخشري في تعدية الفعل (يعدو) بعن في قوله تعالى ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾[2] يقول الزمخشري : يقال عداه اذا جاوزه ومنه قولهم : عدا طوره وجاءني القوم عدا زيدا وانما عدى بعن لتضمن عدا معنى بنا وعلا في قولك بنت عنه عينه وعلت عنه عينه اذا اقتحمته ولم تعلق به ، ويسأل الزمخشري قائلا : أي غرض في هذا التضمين ؟ وهلا قيل ولا تعدهم عيناك أو ولا تعل عيناك عنهم ؟ ويجيب : الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين وذلك

---

1) الكشاف جـ 2 ص 291

2) الكهف 28 والكشاف جـ 2 ص 256

أقوى من إعطاء معنى فذ ، ألا ترى كيف رجع المعنى الى قولك ولا تقتحمهم عيناك مجاوزين الى غيرهم ؟ ونحوه قوله تعالى ﴿ ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ﴾ أي ولا تضموها إليها آكلين لها .

9) ويقول الزمخشري في الآية الكريمة : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى ﴾[1] ويجيب جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها كقولك لي في آل فلان مودة ولي فيهم هوى وحب شديد تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله وليست في بصلة للمودة كالكلام إذا قلت إلا المودة ثابتة في القربي .

10) وفي قوله تعالى ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾[2] يقول الزمخشري : إن المعنى جعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر وهو أبلغ من قولك وفجرنا عيون الأرض .

ومثله في النظم واشتعل الرأس شيبا وهو يشير بذلك الى ما وضحه عبد القاهر من مزايا النظم في هاتين الآيتين بادئا بقوله تعالى ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾[3] فهو يقول : فالمزية الجليلة في هذا لا ترجع الى مجرد الاستعارة ولكنها ترجع الى المجيء بالاستعارة على طريق ما يستند فيه الفعل الى الشيء وهو في المعنى لما هو سببه فيرفع بالفعل ما يسند إليه ويؤتى بالذي له الفعل منصوبا بعده مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة الى ذلك الأول انما كان من أجل الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم طاب زيد نفسا وقر عمرو عينا

---

1) الشورى 23 والكشاف جـ 3 ص 81

2) سورة القمر 12 والكشاف جـ 3 ص 183

3) سورة مريم الآية 4

وتصبب عرقا وكرم أصلا وحسن وجها وأشباه ذلك مما نجد فيه الفعل فيه متقولا عن الشيء الى ما ذلك الشيء من سببه وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى وان كان هو للرأس في اللفظ كما أن طاب للنفس وقر للعين وتصبب للعرق وإن أسند الى ما أسند اليه ، والسر في بلاغة النظم الذي جاءت عليه استعارة (اشتعل) للشيب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول وأنه شاع فيه وأخـذه من نواحيه وأنه قد استقر فيه وعم جملته حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا ما لا يعتد به وهذا ما لا يكون اذا قيل اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة .

ثم ينتقل عبد القاهر الى الآية الاخرى فيقول : (ونظير ذلك في التنزيل قوله عز وجل ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ فالتفجير للعيون في المعنى وأوقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتعال الى الرأس وقد أفاد ذلك معنى الشمول ها هنا كما استفيد معنى الشمول هناك ذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيونا كلها وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها ولو جرى اللفظ على ظاهره فقيل : وفجرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض لم يفد ذلك ولم يدل عليه ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان من عيون متفرقة في الأرض وتبجس من أماكن فيها .

ثم يقول عبد القاهر : واعلم أن ما في الآية ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ (شيبا آخر) وهو من جنس النظم وهو تعريف الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة وهو ما أوجب المزية ولو

قيل : واشتعل شيب الرأس فصرح بالاضافة لذهب بعض الحسن[1] (لقد أثبت عبد القاهر أن معاني النحو تمثل العلاقات بين معاني الكلم في النفس وإليها يستند ترتيب هذه المعاني في النفس وقال : إن المعاني تترتب في النفس والألفاظ تترتب في النطق ترتيبا يحكم فيه ترتيب المعاني فهناك نظم معنوي في النفس يقابله على اللسان نظم لفظي يتبعه تبعية مطلقة ﴿ويقتفي آثاره﴾[2] .

11) ويقول الزمخشري في قوله تعالى ﴿وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[3] .

خولف بين حرفي الجر للداخلين على الحق والضلال ، لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضل كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه .

وفي الآية الكريمة (ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير ﴾[4] ويقول الزمخشري أي فرق بين النظم والآية ؟ ويجيب: كم بينهما ألا ترى الى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الالهية حيث جعلت الجبال منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا إشعارا بأنه ما من حيوان أو جماد وناطق وصاف الا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته .

---

1) دلائل الاعجاز ص 29 - 81

2) النظم القرآني في الكشاف الزمخشري للدكتور درويش الجندي ص 13 ط دار نهضة مصر سنة 69

3) سورة سبأ 24 ـ الكشاف جـ 2 ص 561

4) سورة سبأ آية 10 والكشاف جـ 2 ص 555 .

12) ويقول الزمخشري في قوله تعالى ﴿ وورث سليمان داود وقال يـأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾[1] قال علمنا وأوتينا ، إما لأنه يريد نفسه وأباه وإما على أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا فكلمه أهل طاعته على صفته وحاله التي كان عليها أو ليس التكبر من لوازم ذلك .

وقد يتعلق بتحمل الملك وتفخمه وإظهار آيته مصالح فيعود تكلف في ذلك واجبا وقد كان رسول الله يفعل نحوا من ذلك إذا وفد عليه وفد أو يحتاج أن يرجح في عين عدو ، ألا ترى كيف أمر العباس رضي الله عنه أن يحبس أبا سفيان حتى تمر عليه الكتائب .

13) ويقول الزمخشري بصدد تفسيره لقوله تعالى ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾[2] كيف نفي الريب على سبيل الاستغراق وكم مرتاب فيه ؟

ويجيب : ما نفى أن أحدا لا يرتاب فيه وانما المنفي كونه متعلقا للريب ومظنة له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ؟ فما أبعد وجود الريب منهم وانما عرفهم الطريق الى مزيل الريب وهو أن يحرروا أنفسهم ويبرزوا قواهم في البلاغة ، هل تتم للمعارضة أو تتضاءل دونها فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة .

ويقول الزمخشري فهلا قدم الظرف على الريب كما قدم على

---

1) سورة النمل آية 16 والكشاف جـ 2 ص 445 وما بعدها .

2) سورة البقرة آية 2 الكشاف ص 86

الغول في قوله تعالى ﴿ لا فيها غول ﴾ . ويجيب : لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي نفي الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل ولا كذب مما كان المشركون يدعونه ولو أولى الظرف لقصد الى ما يبعد عن المراد وهو أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه كما قصد في قوله (لا فيها غول) تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها العقول كما تغتالها هي كأنه قيل : ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيض .

14) ويقول الزمخشري في الآية الكريمة (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾[1] وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من ايقاع الغاضين أصواتهم اسماً لأن المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ أو خبر معرفتين معا والمبتدأ اسم اشارة واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم ؟ وإيراد الجزاء نكرة مبهما أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداء والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خفض أصواتهم وفي الاعلام بمبلغ عزة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف منزلته وفيها تعريف بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء .

ألا ما أصدق قول الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فكيف يتلمس آية النساء ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا ﴾ باحث كبير هو صاحب أثر القرآن الكريم في

---

1) سورة الحجرات 3 ـ الكشاف جـ 3 ص 147

الدراسات النحوية ، ويتابع صاحب الانتصاف في غير اختطاطه ، لأن تفسير الزمخشري للآية لا تشم منه رائحة المعتزلة أو أهل السنة فتقول : إن إعراب الزمخشري كان على حساب المعنى ، لقد ظهر اللبن الفصيح تحت الرغوة وبدا الصبح لذي عينين ، ولا ينكر الشمس الا من به قذى بعينيه ، وبعد هذه الآيات البينات والدلائل الواضحات بدا لنا واضحا أن الزمخشري رحمه الله كان يجعل النحو خادما للمعنى وكان إعرابه تابعا لمعانيه المشرقة التي تملأ النفس ضياء وهدى .

وكما تعرضنا للقراءات لدى أبي حيان والفراء ولأن النحاة الراشدين المتفتحين يجعلونها أصلا من أصول النحو فجدير بنا أن نختم صحبتنا لأبي القاسم جار الله محمود في القراءات : (الزمخشري لغوي نحوي أديب ذواقة ولهذا أكثر من ذكر القراءات منسوبة الى أصحابها في أكثر الأحيان وغير منسوبة في قليل من الأحيان وكان في الأغلب الأعم لا يعقب بشيء ولا يفضل قراءة على قراءة ، وأحياناً كان يعقب باختيار أروع القرءات تعبيرا ، وأبلغها معنى وأشبهها بنظم القرآن الكريم[1] :

أ) استعان الزمخشري بالقراءة على التفسير الذي يفسر فهي تقوى منه وتلقي الضوء عليه[2] .

ب) والزمخشري يبين فرق ما بين القراءات من حيث اللغة إذ لذلك ضرورة أثر في اختلاف معنى الآي [3] وهو يعالج القراءات ليوجه

---

1) الزمخشري طبعة اولى سنة 66 ص 175 للدكتور احمد الحوفي .

2) انظر الآية 96 من طه (قال بصرت بما لم تبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي) الكشاف جـ 2 ص 312

3) انظر الآية 10 من سورة البقرة ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكفرون ﴾ الكشاف ص 136

قراءة يعينها الى أوجهها المعنوية المختلفات المحتملات .

جـ) ليكشف عما وراء الآي من ثروة معين فيستغل بذلك القراءات في خدمة التفسير[1] .

د) ان هم الزمخشري المعنى القوي الذي تتضمنه الآي القرآني لذلك فالقراءة المفضلة عنده التي تحمل وراءها معنى قويا يخدم التفسير القرآني فيفضل الزمخشري القراءة المشهورة في الآية (فأن لله خمسه) لقوة معناها ، وذهاب العقل في التقرير مذاهب مختلفة وهو يعرب الآية فيقول : فأن لله مبتدأ خبر محذوف تقديره فحق أو فواجب أن لله خمسه .

ثم بعد إذ يورد قراءات في هذه الآية يقول : المشهورة آكد وأثبت للإيجاب كأنه قيل فلا بد من ثبات الخمس منه ولا سبيل الى الاخلال والتفريط فيه من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات كقولك ثابت واجب حق لازم وما أشبه ذلك كان أقوى لا يجابه من النص على واحد وفي الآية (وضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾[2] يحبذ قراءة الجماعة لقوة معناها فيقول : قرأ أنس بن مالك كشجرة طيبة ثابتة أصلها ، فإن قلت : أي فرق بين القراءتين ؟ قلت : قراءة الجماعة أقوى معنى لأن قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة وإذا قلت مررت برجل قائم أبوه ، لأن المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل ، ويقول في الآية : كبرت كلمة (قرىء) كبرت كلمة وكلمة ، بالنصب على التمييز والرفع على

---

1) ابراهيم آية 24 والكشاف جـ 2 ص 178

2) انظر الآية 10 من سورة البقرة ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكفرون﴾ الكشاف ص ٦٣١

الفاعلية والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أكبرها كلمة وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أنه يختار الاعراب المقوى المعني .

والزمخشري يرى ان ضبط القراءة بحاجة الى أهل النحو فيقول في الآية : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾[1] وقرىء فيغفر ويعذب ، فإن قلت كيف يقرأ الجازم ؟ قلت يظهر الراء ويدغم الباء ومدغم الراء في الكلام لاحن مخطىء خطأ فاحشا وراويه عن أبي عمرو مخطىء مرتين ، لأنه يلحن وينسب الى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة والسبب في قلة الضبط قلة الدراية ولا يضبط نحو هذا الا أهل النحو ، ومن ثم يرفض كل قراءة ولا تضطرد والقاعدة النحوية يرفض قراءة ابن أبي عبلة في الآية ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه ﴾[2] وعن أبي عبلة أنه قرأ غير ناظرين مجرورا صفة لطعام وليس بالوجه ، لأنه جرى على غير ما هوله ، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز الى اللفظ فيقول غير ناظرين اناه أنتم كقولك هند زيد ضاربته هي .

ولذلك يرفض قراءة ابن عامر في الآية ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم[3] وأما قراءة ابن عامر قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد ، وجر الشركاء على اضافة القتل الى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف ، فشيء لو كان في مكان

---

1) البقرة آية 242 والكشاف جـ 1 ص 307

2) آية 53 من الاحزاب والكشاف جـ 2 ص 547

3) الكشاف ص 530 وآية 137 من الانعام ويناقشه بعنف ابن المنير في رده هذه القراءة لأن صاحبها أحد أئمة قراءة الوجوه السبعة .

الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردودا كما سمج ورد : زج القلوصي أبي مزاده ، فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ، والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوبا بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب .

ورأى أن موقف إمامنا الزمخشري في تغليبه الصناعة في هاتين القراءتين مما يدخله تحت قول بشار : كفى المرء نبلا أن تعد معايبه .

لأن هذه القراءة لن يترتب عليها اختلاف في المعنى الذي طالما حرص عليه المفسر العظيم وسبق أن ذكرنا رد أبي حيان عليه في رفضه هذه القراءة وقلنا : إن ورود القراءة حجة يجب أن نتمثل لها بقول العربي : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ولا سيما القراءة المتواترة .

وطالما اعتمد الزمخشري على القراءات (فقد ذكر مصحف عبد الله بن مسعود ومصحف أبي ومصحف الحارث بن سويد صاحب عبد الله وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج ومصاحف أهل الكوفة وأهل الحرمين والبصرة والشام ومصاحف أهل العراق وعكرمة والأعرج وابن يعمر وبعض المصاحف كما يذكر روايات عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وزيد بن علي ونافع وابن جريج وحمزة والحسن وعمرو بن عبيد وغيرهم .

من أمثلة ذلك ما ذكره في هذه الآيات :

1) ولا تسأل عن أصحاب الجحيم[1] قرأ عبد الله (ولن تسأل)

1) سورة البقرة آية 119

وقرأ أبي (وما تسأل) .

2) وإذ ابتلى ابراهيم ربه[1]

قرأ أبو حنيفة وهي قراءة ابن عباس ابراهيم ربه برفع ابراهيم ونصب ربه والمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء .

3) وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين[2] .

قرأ ابن عباس « وعلى الذين يطوقونه »[3] من الطوق أو من الطاقة أو القلادة أي يكلفونه ويقلدونه ، وعن ابن عباس يتطوقونه بمعنى يتكلفونه أو يتقلدونه ويطوقون بادغام التاء في الطاء .

4) وأتموا الحج والعمرة لله[4] قرأ علي وابن مسعود والشعبي وأتموا الحج والعمرة لله ، برفع العمرة كأنهم قصدوا بذلك اخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب .

5) هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء[5] ، قرأ طاوس (هو الذي تصوركم) أي صوركم لنفسه .

6) شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط[6] قال (ان قائما منصوب على الحال أو المدح وقرأ عبد الله

1) سورة البقرة الآية 124
2) سورة البقرة الآية 184
3) انظر الكشاف
4) سورة البقرة الآية 196
5) سورة آل عمران الآية 6
6) سورة آل عمران الآية 18

القائم بالقسط على أنه بدل من هو أو خبر مبتدأ محذوف وقرأ أبو حنيفة قيما بالقسط) .

مع الزجاج :

الزجاج هو أبو اسحق ابراهيم بن محمد السري بن سهل الزجاج النحوي ، كان من علماء الدين والأدب ، له كتاب في معاني القرآن وكتاب الأمالي وكتاب ما فسر من جامع المنطق وكتاب الاشتقاق ، وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب الفرق وكتاب خلق الانسان وكتاب مختصر في النحو وكتاب فعلت وأفعلت ، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف ، وكتاب شرح أبيات سيبويه وكتاب الأنواء وغير ذلك .

أخذ الأدب عن المبرد وثعلب وكانت صناعته خرط الزجاج ثم تركه واشتغل بالأدب واختص بصحبة الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب وعلم ولده القاسم الأدب ولما استوزر القاسم من عبد الله استفاد الزجاج مالاً جزيلا[1] .

(ثم ساعدته الأقدار ونادم الخليفة المعتضد ، دخل يوما دار ثعلب ووجد معه أبا موسى الحامض واستطرد الحديث الى ذمهما المبرد ثم سيبويه ويونس ، فاغتاظ الزجاج وخطأ ثعلبا في نصب كتابه (الفصيح) لما عرض ثعلب لتخطئة سيبويه في الكتاب ، اذ تعقبه باعتراضات عشرة بينما كتاب الفصيح كله عشرون ورقة وقد ذكر هذه الاعتراضات مع البسط ياقوت في معجم الأدباء ترجمة الزجاج ، كما

1) دائرة المعارف لمحمد فريد وجدي .

ذكرت أيضا في الأشباه والنظائر للسيوطي الفن السابع في الجزء الرابع)[1] .

توفي يوم الجمعة تاسع عشر جمادي الآخرة سنة عشرة وقيل احدى عشرة وقيل ست عشرة وثلاثمائة ببغداد[2] .

وقد ذكر الدكتور شوقي ضيف في كتابه (المدارس النحوية)[4] آراء مختلفة دائرة في كتب النحو منها ما يتصل بالعوامل ومنها ما يتصل بالتعليل ومنها ما يتصل ببعض الأدوات ومنها ما يتصل ببعض مسائل نحوية وصرفية كما ذكر أنه كان يعني بالتعليل ، سواء في المسائل النظرية أو العلمية كتأييده مذهب أصحابه البصريين في أن المصدر هو الأصل وأن الفعل مشتق منه بقوله : لو كان المصدر بعد الفعل وكان مأخوذا منه لوجب أن يكون لكل مصدر فعل قد أخذ منه لا محيص عن ذلك ولا مهرب منه فلما رأينا في كلام العرب مصادر كثيرة لا أفعال لها مثل العبودية والرجولية والبنوة والأمومة الخ علمنا أنه ليست الأفعال أصولا للمصادر كما أورد مخالفته جمهور البصريين في مسائل نحوية وصرفية .

وذهب الجمهور الى أن جواب لوحين يكون جملة اسمية مثل (ولو انهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير) محذوف وتقديره لأثيبوا ، أما (لمثوبة من عند الله خير) فجواب قسم تقديره والله لمثوبة ، وقال الزجاج بل الجملة جواب لو ، واللام الداخلة عليها

---

1) دائرة المعارف المذكورة .

2) نشأة النحو ص 138 للاستاذ محمد الطنطاوي (4) ص 135

ليست لام قسم ، انما هي اللام التي تدخل عادة في جواب لو ، وقد ذكرنا ذلك لنبين شخصيته النحوية .

واذا كنا قد أسلفنا التحدث عن جار الله الزمخشري وبينا قيمة مفسره : حقائق التأويل فقد كان من منابع هذا النهر الفياض أستاذه الزجاج فمن المصادر التي انتفع بها الزمخشري كتاب (معاني القرآن للزجاج)[1] .

وقد أفاد الزمخشري من تفسير الزجاج شيئين :

أولهما : التفسير اللغوي للقرآن .

وثانيهما : مجمل التفسير النقلي الذي صنفه الزجاج وهذا هو البيان :

يقول الزجاج في تفسيره (معاني القرآن) وقوله عز وجل ﴿ انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق ﴾[2] والاشراق طلوع الشمس وإضاءتها ، يقال : شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت اذا أضاءت وقد قيل : إن شرقت وأشرقت بمعنى واحد والأول أكثر[3] .

والزمخشري يعتمد على هذا التفسير اللغوي إذ يقول : والاشراق ووقت الاشراق وهو حين تشرق الشمس أي تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق[4] ،

1) معاني القرآن للزجاج بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية لوحة 174 جـ 4 من نسخة كتب في سنة 589

2) آية 18 سورة ص

3) مخطوط معاني القرآن للزجاج ورقة 19

4) الكشاف جـ 3 ص 6

وهذا تفسير لغوي للزجاج ، وقوله عز وجل﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾[1] والصافنات : الخيل القائمة ، وقال أهل اللغة وأهل التقسيم أيضا : الصافن القائم الذي يثني إحدى يديه أو إحدى رجليه بمعنى حين يقف بها على سنبكة وهو طرف الحافر ثلاث من قوائمه متصلة بالأرض وقائمة يتصل بالأرض منها طرف حافرها فقط فقال الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه   مما يقوم على الثلاث كثيرا

وقال بعضهم : الصافن القائم ثنى احدى قوائمه أو لم يثنها ، والخيل أكثر ما تقف اذا وقفت صافنة لأنها كأنها تزاوج بين قوايمها[2] .

وينظر الزمخشري الى هذا التفسير فيقول : والصافن الذي في قوله :

ألف الصفوان فما يزال كأنه   مما يقوم على الثلاث يسيرا

وقيل الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل هو المتخيم وأما الصافن فالذي يجمع ولا أقسم بالنفس اللوامة (آيتا 1 ، 2 القيامة) لا اختلاف بين الناس أن معناه أقسم بيوم القيامة واختلفوا في تفسير (لا) فقال بعضهم (لا) لغو وان كانت في أول السورة ، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة لأنه متصل بعضه ببعض فجعلت (لا) ها هنا بمنزلتها في قوله : لأن لا يعلم اهل الكتاب ، والمعنى لأن يعلم ، وقال بعض النحويين (لا) رد لكلام كأنهم أنكروا البعث فقيل : لا ليس الأمر على

1) آية 31 سورة ص

2) معاني القرآن للزجاج ورقة 9

ما ذكرتم ، ثم أقسم بيوم القيامة وقوله : انكم مبعوثون ، دل على الجواب[1] والزمخشري يفصل فيما أورده الزجاج إذ يقول ادخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس :

لا وابيك ابنة العامري   لا يدعى القوم أني أفر

وقال غوية بن سلمى :

ألا نادت أمامة باحتمال   لتحزنني فلا بك ما أبالي

وفائدتها توكيد القسم وقالوا انها صلة مثلها في لئلا يعلم أهل الكتاب ، وفي قوله : « في بئر لا حور سرى وما شعر » واعترضوا عليه بأنها انما تزاد في وسط كلام لا في أوله وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة الا في وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد ألا ترى الى امرىء القيس كيف زادها في مستهل قصيدته ، والوجه أن يقال : هي للنفي ، والمعنى في ذلك أنه ما يقسم بالشيء الا إعظاما له ، يدلك عليه قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾[2] فكأنه بادخال حرف النفي يقول : إن اعظامي له بإقسامي به كلا اعظام يعني أنه يستأهل فوق ذلك وقيل إن لا نفي لكلام ورد له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل لا أي ليس الأمر على ما ذكرتم ثم قيل : أقسم بيوم القيامة[3] .

---

1) معاني القرآن للزجاج ورقة 175

2) الأيتان 75 و76 من الواقعة .

3) الكشاف جـ 3 ص 292

والزجاج حين يقول في الآية ﴿ بلى قادرين ﴾[1] المعنى بل لنجمعهم قادرين بل نقدر أن نجعله كخف البعير والذي هو أشكل بجمع العظام بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه على ما كانت وان قل عظامها وصغرت وبلغ منها البلى[2] .

والزمخشري نراه ينظر لقول الزجاج في الآية السالفة فيقول (قادرين) حال من الضمير في تجمع أن نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادتها الى التركيب الأول الى أن نسوي بنانه أي أصابعه التي هي أطرافه وآخر ما يتم به خلقه أو على أن نسوي بنانه ونضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها الى بعض كما كانت أولا من غير نقصان ولا تفاوت فكيف بكبار العظام ، وقيل معناه بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه أن نجعلها مستوية شيئا واحدا كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينهما فلا يمكنه أن يعمل شيئا بها مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأني لما يريد من الحوائج[3] .

والزجاج اذ يورد قراءات الآية ﴿ فاذا برق البصر ﴾[4] ويقرأ برق فمن قرأ برق فمعناه فزع وتحير ومن قرأ برق فهو من برق يبرق من بريق العين[5] ونرى الزمخشري يزيد فيها شيئا إذ يقول : أبرق البصر (أبرق البصر) تحير فزعا وأصله من برق الرجل اذا نظر الى البرق فدهش

1) سورة القيامة آية 4
2) معاني القرآن للزجاج ورقة 175
3) الكشاف جـ 3 ص 292
4) سورة القيامة اية 7
5) المعاني السابق

بصره ، وفرع برق من البريق أي لمع من شدة شخوصه وقرأ أبو السمال بلق اذ انفتح وانفرج .

ويقول الزجاج في الآية : ﴿ يقول الانسان يومئذ أين المفر ﴾[1] وتقرأ المفر بكسر الفاء فمن فتح فهو معنى أي الفرار ومن كسر فعلى معنى أين مكان الفرار . والمفعل من مثل جلست بفتح العين المصدر تقول جلست مجلسا بفتح اللام بمعنى جلوسا فاذا قلت جلست مجلسا فأنت تريد المكان [2] .

والزمخشري يوجز ما أورده الزجاج فيقول : المفر بالفتح المصدر وبالكسر المكان ويجوز أن يكون مصدرا كالمرجع وقرىء بهما[3] .

والزجاج حين يفسر الأيتين ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ ﴿ آية 14 و 15 سورة القيامة ﴾ يقول معناه : بل الانسان تشهد عليه جوارحه قال عز وجل ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعلمون ﴾[4] وقال في موضع آخر ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ﴾[5] وأعلم تعالى أن هذه الجوارح التي يتصرفون بها شواهد عليهم[6] .

يوجز الزمخشري بقوله : (بصيرة) حجة يديه وصفت بالبصارة على المجاز كما وصفت الآيات وان لم ينبأ ففيه ما يجزىء عن الانباء

---

1) سورة القيامة آية 10
2) معاني القرآن للزجاج ورقة 175
3) معاني القرآن للزجاج ص 175
4) سورة النور آية 24
5) سورة فصلت آية 20
6) معاني القرآن 175

لأنه شاهد عليها بما عملت لأن جوارحه تنطق بذلك ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعلمون ﴾[1] .

والزجاج يقول : وقوله : لا تحرك به لسانك لتعجل به(١٦ القيامة) كان جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبي صلى الله عليه وسلم تلاه النبي عليه السلام كراهة أن يتفلت منه فأعلم الله تعالى أنه لا ينسيه إياه وأنه يجمعه في قلبه[2] .

والزمخشري ينظر الى تفسير الزجاج فيقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحي نازع جبريل القراءة ولم يصبر الى أن يتمها مسارعة الى الحفظ وخوفا من أن يتفلت منه فأمر بأن يستنصت له ملقيا إليه بقلبه وسمعه حتى يقضي إليه وحيه ثم يقفيه بالدراسة الى أن يرسخ فيه[3] .

ويقول الزجاج مفسرا الآية ﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾[4] ومعنى هل أتى : قد أتى على الانسان أي ألم يأت على الانسان حين من الدهر[5] .

وقد استفاد الزمخشري من هذا التفسير اذ قال (هل بمعنى قد في الاستفهام خاصة) والأصل أهل بدليل قوله (هل رأونا لسفح القاع ذي الأكم) فالمعنى أقد أتى على التقرير والتقريب أي كان شيئا منسيا غير

---

1) الكشاف جـ 2 ص 380 ، 380

2) المرجع السابق للزجاج والصفحة .

3) الكشاف جـ 3 ص 293

4) آية 1 سورة الانسان .

5) معاني القرآن ورقة 176

مذكور لطفه في الأصلاب والمراد بالانسان جنس بني آدم بدليل قوله : ﴿ انا خلقنا الانسان من نطفة ﴾[1] .

كما ذكر الدكتور أحمد الحوفي أن الزجاج ضمن من أخذ الزمخشري عنهم في تفسيره الكشاف كما في تفسيره لقوله تعالى﴿ هيهات هيهات لما توعدون ﴾[2] فانه عقب بقوله : فان قلت (ما توعدون) هو المستبعد ، ومن حقه أن يرتفع في هيهات كما ارتفع في قول الشاعر فهيهات هيهات العقيق وأهله ، فما هذه اللام ؟ قلت : قال الزجاج في تفسيره : البعد لما توعدون أو بعد لما توعدون فيمن نونه منزل منزلة المصدر وفيه وجه آخر وهو أن تكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة (الاستبعاد ، كما جاءت اللام في هيت لك) لبيان المهيب به ، كذلك نقل عنه تفرقته بين الشروق والاشراق لأن الزجاج ذكرها في كتابه (معاني القرآن) عند تفسير قوله تعالى (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق) وقد تحدثنا عنها .

ومما جاء في معاني القرآن قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق ﴾ آية المائدة ، قال : فالمعنى فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وأرجلكم الى الكعبين وامسحوا برؤ وسكم على التقديم والتأخير ويؤ يد هذا المعنى مستدلا بالقرآن على القرآن قائلا : والواو جائز فيها ذلك كما قال جل وعز﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ والمعنى اركعي واسجدي لأن الركوع قبل السجود[3] .

---

1) الكشاف جـ 3 ص 295 ط الحلبي .
2) الكشاف جـ 2 ص 362 وسورة المؤمنون آية 36
3) سورة آل عمران آية 43

ومن القواعد المشهورة التي ذكرها المغني في الأمور الكلية أن النكرة اذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى واذا أعيدت معرفة أو أعيدت المعرفة معرفة أو نكرة كان الثاني عين الاولى وحمل على ذلك ماروى : لن يغلب عسر يسرين ، ويشهد للصورتين الأوليين أنك تقول اشتريت فرسا ثم بعت فرسا فيكون الثاني غير الأول ولو قلت ثم بعت الفرس لكان الثاني عين الأول . وبعد أن مثل هشام للرابع وهو إعادة المعرفة نكرة رد على الصورة الأولى قائلا : يشكل على ذلك أمور ثلاثة : أحدها أن الظاهر في آية ألم نشرح أن الجملة الثانية تكرار للجملة الأولى كما تقول : ان لزيد دارا ان لزيد دارا وعلى هذا فالثانية عين الأولى والثاني أن ابن مسعود قال لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه انه لن يغلب عسر يسرين مع أن الآية في قراءته وفي مصحفه مرة واحدة فدل على ما ادعيناه من التأكيد وعلى أنه لم يستفد تكرر اليسر من تكرره بل هو من غير ذلك كأن يكون فهمه مما في التنكير من التفخيم فتأويله بيسر الدارين ، والثالث أن في التنزيل آيات ترد هذه الأحكام الأربعة[2] .

والذي يهمنا هنا أن معنى الزجاج صحيح بدليل استدلاله على الآية بمثال الفرس وانما الأمور الخارجية هي التي أثبتت أن الجملة الثانية تكرار للأولى وأن النكرة لم تعد مرة ثانية كالفرس والعجيب أن الدكتورة بنت الشاطىء حملت حملة عنيفة على النحاة المفسرين لكل هذه التأويلات ثم انتهت الى ما انتهى اليه ابن هشام قالت : والأمر فيما نرى أوضح من أن نتكلف له هاتيك التأويلات المجهدة التي يغيب فيها وجه البيان ، وأحسب أن المفسرين ما تكلفوا هذا كله الا لأنهم قدروا أن

---

1) ابن هشام في المغني ص 18 جـ 2

الجملة الثانية قد تكون مستأنفة واذن فلا بد من تقدير معنى فيها غير المعنى الأول ولو بأن يكون معناها أهم من سابقتها وعلى ما ذهب اليه الشيخ محمد عبده كما أنهم عنوا بالوقوف عند الحديث المروي عن الرسول ليتأولوا اليسرين اللذين لا يغلبهما عسر واحد .

ولكن الذي نطمئن اليه ، هو أن الجملة الثانية تكرار للأولى لتقوية اليقين وترسيخ ما من الله به على عبده من شرح صدره ووضع وزره ورفع ذكره ، والأمثل عندنا أن تكون (أل) في العسر للعهد لا للاستغراق ، ويقصد بها ما كان الرسول يشعر به من ضيق الصدر وثقل العبادة وفداحة الأمر وأما تنكير اليسر فلكي ينفسح فيه مجال التصوير ويمضي به الى أبعد مدى فيحتمل ما قاله المفسرون وما لم يقولوه اذ التحديد هنا بكذا أو كيت من مفهوم اليسرين في البيان القرآني الذي آثر اطلاق (يسر) هكذا بغير حدود[1] .

ويفهم من كلامها أن الشيخ محمد عبده قد ناصر الرأي الذي جعل فيه الآية الثانية استئنافية متلمسا في ذلك معنى وهو إمام مجتهد فلم يكن الزجاج يهيم وراء الصناعة اللفظية والرغبة في تحقيق هذه القاعدة الكلية وقضية عدم غلبة عسر يسرين وانما هو الاجتهاد على أن العصمة لله وحده وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون وهذا هو الزجاج يعتقد أن القراءة سنة متبعة وأنه ينبغي أن يقرأ بكل ما يجيزه النحويون .

يقول في قوله تعالى ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾[2] يقال هو

---

1) التفسير البياني للدكتورة بنت الشاطىء

2) سورة النساء آية 4

صداق المرأة وصدُقة المرأة وصداق المرأة مفتوح أولها ، والذي في القرآن جمع صدقة ، ومن قال : صدقة قال صدقاتهن ، كما يقول : غرفة وغرفات ويجوز صدقاتهن بضم الصاد وفتح الدال ولا يقرأ من هذا الا بما قرىء به لأن القراءة سنة لا ينبغي أن يقرأ فيها بكل ما يجيزه النحويون [1] وهذا رأي أوافقه عليه ولكن الزجاج يعود فيناقض نفسه فيدهم قراءة مشهورة ، لأنها خطأ في المقاييس العربية قال في قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به الأرحام ﴾ [2] القراءة الجيدة نصب الأرحام . . فأما الجر في الأرحام فخطأ في العربية لا يجوز الا في اضطرار شعر وخطأ أيضا في أمر الدين عظيم لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا تحلفوا بآبائكم فكيف يكون تتساءلون به وبالرحم على هذا ولكنه أيضا مع مخالفته القراءة يعتمد على المعنى في اعتماده على رواية النصب مؤيدا رأيه بحديث المصطفى عليه الصلوات والتسليم .

مع الزجاج في صحبة الفارسي :

أبو علي الفارسي المتوفى سنة 337 هـ أخذ عن الزجاج وقال كثير من تلامذته إنه أعلم من المبرد ومن أشهر تلاميذه ابن جني وعيسى الربعي وله كتاب الأغفال (واعتبر كتاب « الأغفال » من كتب المعاني) لأنه تعليق واصلاح لأخطاء الزجاج في معانيه وكتاب ألفه الفارسي ليرد على الزجاج أخطاءه التي وقع فيها ولم يكن الفارسي من الهادمين فحسب بل كان اذا هدم بنى ، ومن هنا كان بعض المؤرخين يسمي

---

1) معاني القرآن للزجاج ورقة 4 مخطوط رقم 111 تفسير م

2) سورة النساء آية 1

كتابه : كتاب المسائل المصلحة يرويها عن الزجاج وتعرف بالأغفال)[1] .

بعض صور من مسائل الأغفال :

1) إياك نعبد :

قال في قوله تعالى ﴿ إياك نعبد ﴾ اياك نصبه لوقوع الفعل عليه وموضع الكاف في اياك خفض بإضافة إيا إليها وإيا اسم لمضمر المنصوب إلا أنه ظاهر يضاف الى سائر المضمرات نحو قولك إياك ضربت وإياك حدثت ولو قلت إيا زيد حدثت كان قبيحا لأنه خص به المضمر وقد روى عن العرب (رواه الخليل) إذا بلغ رجل الستين فاياه وايا الشواب الخ قال أبو علي على أيده الله : الذي يدل على أن هذا الاسم مضمر وليس بمظهر أنه في جميع الأحوال منصوب الموضع وليس في الأسماء الظاهرة اسم يلزمه الانتصاب ولا يرتفع الا ما كان ظرفا ، وليس ايا بظرف فتلزم اجازة هذا الحكم فكونه منتصبا أبدا دليل أنه ليس مظاهر .

ويدل أيضا على أنه بظاهر تغير ذاته وامتناع ثباته في حال الرفع والجر وليس كذلك الأسماء الظاهرة ألا ترى أنها تعتقب عليها الحركات في آخرها ويحكم لها بها في موضعها من غير تغيير نفسها فمخالفة هذا الاسم في هذا الذي وضعناه للمظهر يدل على أنه ليس بمظهر[2] .

2) والفارسي يصحح في الاغفال خطأ وقع فيه الزجاج حيث نقل

---

1) الفهرست ص 101 مطبعة الاستقامة

2) الاغفال صفحتا 30 و31

عن سيبويه قولا لم يقله سيبويه . قال في قوله تعالى ﴿ وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة ﴾[1] . قال الزجاج « تمسنا نصب بأن وقد اختلف النحويون في تفسير علة النصب بلن ، فروى عن الخليل فيها قولان : أحدهما : أنها تنصب كما تنصب أن وليس وما بعدها بصلة لها لأن لن يفعل نفي سيفعل ، فيقـدم ما بعدها عليها نحو قولك : زيدا لن أضرب .

وقد روى عن سيبويه عن بعض أصحاب الخليل عن الخليل أنه قال : الأصل في لن لا أن ولكن الحذف وقع استخفافا وزعم سيبويه أن ذلك ليس بجيد ولو كان كذلك لم يجز زيدا لن أضرب .

قال أبو علي قد تقدم افسادنا لما ذكره في لن وعلى حيث ذكر ذلك في قوله تعالى : فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فأما في هذا الموضع ففيه غلط في الحكاية وهو ما ذكره في (لن) من أنه روى عن الخليل فيه قولان ، ولم يرو عنه فيه إلا قول واحد وهو ما رواه عنه سيبويه قال سيبويه في لن : أما الخليل فزعم أنها (لاأن) ولكنهم حذفوا لكثرته في كلامهم كما قالوا : ويلمّه وكما قالوا : يومئذ وجعلت بمنزلة حرف واحد ، كما جعلوا هلا بمنزلة واحد ، فانما هي (هل ، لا) فهذا ما روى عن الخليل في لن ولم يرو عنه فيها غيره ولم يرو عنه انها تنصب كما تنصب (أن) وما ذكره أيضا من قوله : روى عن سيبويه عن بعض أصحاب الخليل انما حكى هو عن نفسه عن الحليل وقد كتبت لفظة (عن الخيل) قبل : والروايتان عن الخليل انما هما في (إذا) وليس في لن) فتوهمهما أبو اسحاق في لن ، وكذلك رواه سيبويه عن بعض

---

1) البقرة آية 80

أصحاب الخليل عن الخليل وانما هي في إذا ، ليست في لن[1] .

على هذا النهج يسير أبو علي في الأغفال موضحا مصلحا معللا محققا ، والمذكور غيض فيض وقليل من كثير يشير الى نهجه ويوضح طريقته في تناوله لمسائل الزجاج واصلاحها .

واذا كان الفارسي استدرك ما أغفله الزجاج ذاكرا له منبها عليه فهما معا مكملان معاني القرآن وهما نحويان لا يجريان وراء اللفظ أو الصناعة دون ما فهم أو افهام وانما اقتناص فوائد المعنى هو ما يهمها وقد سارا في هذا الطريق بخطوات فساح عليهما رحمة الله . . .

---

1) الاغفال ص 219 ـ 220

« الباب العاشر »

« عرض عام لآراء النحويين المتأخرين
من أمثال : ابنٍ هشام وابن مالك والسيرافي
إثباتاً أو نفيا لما نراه »

قبل أن نتعرض لأراء ابن هشام يجدر بنا أن نعرف به فهو جمال الدين أبو محمد عبد الله بن هشام ابن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري[1] وقد يتقدم بعض أسماء أجداده على بعض في بعض الترجمات[2] .

مولده ونشأته العلمية :

ولد ابن هشام في مصر سنة 708هـ 309يوم السبت اليوم الخامس من ذي القعدة وتلقى معارفه في صغره فيها، فلازم الشهاب عبد اللطيف وحضر دروس الشيخ تاج الدين التبريزي وقرأ على الفكهاني وسمع من أبي حيان النحوي ولكنه لم يلازمه وقيل إنه درس عليه ويوازيه وحدث عن ابن جماعة بالشاطبية وتلا على ابن السراج .

وتلقن المذهب الشافعي حتى أتقنه وعرف به ولكننا رأيناه فيما

1) الدرر الكامنة : 308/2 والبغية 243 وشذرات الذهب 191/6 وشرح التصريح 5/1 والبدر الطالع 400/1 والمنهج الأحمد العلمي ص 255

2) انظر دائرة المعارف الاسلامية 295/1

بعد يتركه ليأخذ بالمذهب الحنبلي قبل خمس سنوات من وفاته[1] .

ولقد شغل ابن هشام منذ نشأته الأولى بحفظ المختصرات ، ومواصلة القراءة والدرس حتى حفظ كتاب (المختصر) للخرقي في أقل من أربعة شهور ، يقول الشوكاني « وأتقن العربية ففاق الأقران ، ولم يبق له نظير فيها ، ويقول في موضع آخر من (البدر الطالع) وقد تصدر للتدريس وانتفع به الناس وتفرد بهذا الفن يعني النحو ، وأحاط بدقائقه ولطائفه وصار له من الملكة فيه ما لم يكن لغيره واشتهر صيته في الأقطار وطارت مصنفاته في غالب الديار حتى قال ابن خلدون عنه « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه قد ظهر بمصر عالم يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه »[2] .

وليست كلمة ابن خلدون نوعاً من المبالغة فقد ألف حوالي الأربعين مؤلفاً في النحو والصرف والأدب والتفسير والفقه ، لم يكن فيها مقلدا ناقلا بل مجتهدا مدققا ، وكثيرا ما خطأ سيبويه والزمخشري والفخر الرازي في النحو والصرف والتفسير ، ولأهمية مؤلفاته وحسن تنظيمها والروح النقدية التي تسودها صارت عمدة عند المتأخرين وكل دارس للنحو يعرف كتابيه ـ الجليلين (قطر الندى) و (مغني اللبيب) .

وكتب لابن هشام أن يقيم في مكة زمنا غير قصير وكان قصدها سنة 749 هـ ثم تركها الى مصر ثم عاد اليها سنة 756 هـ وجاور بها مدة

1) شرح التصريح للأزهري 1) ص 5
2) انظر البدر الطالع جـ 1 ص 401

حتى فتح الله أن يصنع كتابه المغنى فيها[1].

ولقد هيأت له علميته حياة فاضلة حافلة بالأعمال الجليلة من تدريس أو تأليف أو إقراء فكانت شافعيته سبيلا للتدريس في علم التفسير بالقبة المنصورية بالقاهرة ولكنه انتقل من المذهب الشافعي الى الحنبلي قبل وفاته ، كما أسلفنا ـ فعين مدرسا بالمدرسة الحنبلية بالقاهرة وكان ذلك بعد عودته من رحلته الثانية الى مكة على الأغلب .

وبقي ابن هشام في مصر يؤلف ويدرس ويتخرج به طلبة العلم حتى توفاه الأجل سنة 763 هـ فخلف تصانيف بعده تدل على جلالة قدره وعلو كعبه بكل فن طرقه ، يقول ابن خلدون : إن ابن هشام على علم جم يشهد بعلو قدره في صناعة النحو ، وكان ينحو في طريقته منحى أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه[2] .

« مذهبه النحوي » :

تمكن ابن هشام من مبادىء النحو ومذاهب النحاة تمكنا يسر له أن يتمثلها في كتبه جميعها تمثلا نادرا وأن يناقشها مناقشة دقيقة دالة على مقدرة فائقة وفهم عجيب ، وأستطيع أن أقول انه لم يبق مذهبا من مذاهب الذين تقدموه الا استوعبه بدقائقه وفهمه بجزئياته يدلنا على ذلك ما بثه في كتبه ومصنفاته من آراء النحاة السابقين وما عارض به كبار النحاة من مذاهبهم أو وافقهم أو أبدى رأيا خاصا به .

---

1) انظر مقدمة المغنى جـ1 ص 3

2) انظر البغية 293 والشذرات 191/6

ومن الواضح ان ابن هشام كثير المعارضة للنحويين في كتبه ولكنها معارضة مبنية على التوجيه والتعليل العقلي والتخريج المنطقي المقبول .

وكان لأبي حيان ـ معاصره ـ والزمخشري ، والرازي وغيرهم نصيب ، من هذه المعارضات والمخالفات ولعل أوضح من يخالفه من هؤلاء هو ابو حيان ، ويعلل الشوكاني سبب هذه المنافسة المذهبية بين الرجلين بالمعاصرة فيقول : (ولعل ذلك ـ والله أعلم ـ لكون أبي حيان متفردا بهذا الفن في ذلك العصر غير مدافع عن السبق فيه ، ثم كان المنفرد بعده هو صاحب الترجمة وكثيرا ما ينافس الرجل من كان قبله في رتبته التي صار اليها إظهارا لفضل نفسه بالاقتدار على مزاحمته لمن كان قبله أو بالتمكن من البلوغ الى ما لم يبلغ إليه ، والا فأبو حيان هو من التمكن من هذا الفن بمكان ، ولم يكن للمتأخرين مثله ، ومثل صاحب الترجمة ، وهكذا نافس أبو حيان الزمخشري فأكثر من الاعتراض عليه في النحو والنهر الماد يكون الزمخشري ، ممن تفرد بهذا الشأن وان لم يكن عصره متصلا بعصره[1] .

والذي نلاحظه في كتابنا هذا الذي بين أيدينا ـ أن ابن هشام قد اعترض الزمخشري أكثر من مدة كما اعترض الفخر الرازي ووصفه بالوهم في أحد تفسيراته ، وأورد مذهبا للهروي في (لولا) ولكن اعترض بأن أكثر النحاة لا يثبتون ذلك المذهب .

وهذه ثلاثة أمثلة راجع فيها الزمخشري نكتفي بها وكلها تدل على

---

1) البدر الطالع 401/1

أنه كان يهيم وراء المعاني ابتغاء ثواب الله في إيضاح كتابه :

أولها : رده ما ذهب اليه من أن « لن » تقتضي تأبيد النفي وتوكيده يقول « وكلاهما دعوى بلا دليل ، ولو كانت للتأبيد لم يقيد منفيها باليوم في قوله تعالى ﴿ فلن أكلم اليوم أنسيا ﴾ ولكان ذكر الأبد في (ولن يتمنوه أبدا) تكرار والأصل عدمه[1] .

وثاني الأمثلة ما ذهب اليه الزمخشري في الواو من أنها قد تأتي للاباحة مثل أو وذلك في تعليقه بتفسيره على آية البقرة ﴿ فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ فقد ذكر عند الكلام على قوله تعالى (تلك عشرة كاملة) أن الواو تأتي للإباحة نحو : جالس الحسن وابن سيرين (وأنه إنما جاء بتلك العبارة دفعا لتوهم إرادة الإباحة في قوله جل وعز (﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم ﴾ يقول ابن هشام : وقلده في ذلك صاحب الإيضاح البياني ولا تعرف هذه المقالة لنحوي[2] .

والمثال الثالث : يتصل بعطف الزمخشري كلمات وعبارات متباعدة في الذكر الحكيم بعضها على بعض إذ ذهب في قوله تعالى ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يرو آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، الى أن (كل أمر مستقر) فيمن جر مستقر وعطف على الساعة وهي في رأي ابن هشام مبتدأ خبره[4] ومن ذلك ذهاب الزمخشري الى أن الآية الثامنة والثلاثين في

---

1) المغني ص 221 جـ 1

2) المغني ص 33 4) المغني ص 129

سورة الذرايات : ﴿ وفي موسى اذا أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين ﴾ معطوفة على الآية السابقة لها السابعة والثلاثين (وتركنا فيهما آية للذين يخافون العذاب الأليم)[1] وليس معنى ذلك أنه كان يعارض دائماً آراء الزمخشري فقد كان يرتضي بل يستحسن كثيرا من آرائه .

ومن ذلك ما ذهب إليه من أن (انما) بالفتح تفيد الحصر مثل (انما) وقد اجتمعتا كما يقول في قوله تعالى ﴿ قل إنما يوحي الي أنما إلهكم إله واحد ﴾[2] ويقف بازاء إفادة أما التوكيد في مثل (أما زيد فمنطلق) ويقول : قل من ذكره ولم أر من أحكم شرحه غير الزمخشري . فانه قال وفائدة (أما) في الكلام أن تعطيه فضل توكيد تقول : زيد ذاهب قلت (أما زيد فذاهب ، ولذلك قال سيبويه في تفسيره : مهما يكن من شيء فزيد ذاهب وهذا التفسير مدل بفائدتين : بيان كونه توكيدا وأنه في معنى الشرط ، وقد استصوب رأيه في أن (قد) تأتي للتوقع وقد تأتي للتحقيق مثل (قد يعلم ما أنتم عليه) إذ دخلت لتوكيد العلم[3] .

وكتابة المغني في الواقع موسوعة كبرى لعرض آراء النحاة السابقين له في مختلف الأصقاع العربية وهو ليس عرضا فقط بل هو مناقشة واسعة لتلك الآراء وتبين الصحيح منها والفاسد مع كثرة الاستنباطات ومع اشتقاق الآراء المبتكرة غير المسبوقة ويكفي أن نضرب لذلك بعض الأمثلة كذهابه الى أن (عشر) في قولنا (اثنا عشر) حالة محل النون في اثنين وهي بذلك ليست مضافة الى ما قبلها ولا محل

---

1) المغنى ص 129

2) المغنى ص 38

3) المغنى ص 54

لها من الاعراب[1] .

ومن ذلك أن كان وأخواتها ما عدا ليس تدل على الحدث كما تدل على الزمان[2] وأن الحال كما تأتي مؤكدة لعاملها في مثل (ولي مدبرا) تأتي مؤكدة لصاحبها مثل (جاء القوم طرا) و (لآمن من في الأرض كلهم جميعا)[3] .

وأهم من الأراء المبتكرة وضعه للضوابط النحوية على نحو ما يتجلى في الأبواب الثاني والثالث والرابع والخامس من كتابه المغني وقد بلغت حدا رائعا من الدقة والسداد ولا تقل عنها أهمية القواعد النحوية التي ضمنها الباب الثامن من هذا الكتاب وهي مقتبسة في جملتها من قواعد علم الأصول كقاعدة أن الشيء قد يعطي حكم ما أشبهه في معناه أو في لفظه أو فيهما وقد عرضها في أربع وعشرين صورة جزئية[4] .

ولعل في ذلك كله ما يصور من بعض الوجوه نشاط ابن هشام النحوي ومدى استيعابه لأراء النحاة السابقين ومدى فطنته في استخلاص الآراء واستنباطها والحوار فيها كأدق ما يكون الحوار مع النفوذ الى القوانين النحوية الكلية العامة وقد تبارى العلماء في التعليق على المغنى مذ ظهر فشرحه ابن الضائع وسمي شرحه (تنزيه السلف عن تمويه الخلف) . والدماميني بعد أن علق عليه في الديار المصرية ونزح الى الهند ، شرحه بتوسع وسمي شرحه (تحفة الغريب بشرح

---

1) الهمع 1 ص 14
2) المغنى
3) المغنى ص 91 جـ 2
4) المغنى ص 188

مغنى اللبيب) وفي هذا الشرح اعتراضات على المغني كثيرة تعقبها الشمني في حاشيته المسماة (المنصف من الكلام على مغني ابن هشام) وللسيوطي حاشية على المغني وصل فيها الى (حتى) وللأمير حاشية تامة ، وللدسوقي أيضا وللأبياري سماها (القصر المبني على حواشي المغني) وصل فيها الى أول الباب الثاني .

ولا يستطيع أحد القول بأن ابن هشام كان يجنح الى مذهب دون آخر ، فان جنوحه الى البصريين في مسألة أو الى شخصية من شخصيات هذه المدرسة ليس دليلا على بصريته كما أن جنوحه الى الكوفيين أو الى أحد شخصياتهم ليس معناه أنه نهج منهج الكوفيين ومع أن ابن هشام قد أخذ من علماء مصر الشيء الكثير فاننا لن نستطيع أن نعده من المدرسة المصرية ، كما عدة الدكتور شوقي ضيف[1] .

والحق أن هذا المنهج بغدادي صرف ، فالبغداديون كأبي علي الفارسي وابن جني والزجاجي وابن كيسان وغيرهم ممن جمعوا أصول المدرستين في النحو ، كانوا قد أقاموا منهجهم على ما وصلهم من رجال البصرة والكوفة فأضافوا الى ذلك نظراتهم وتعليلاتهم وتخريجاتهم حتى اتخذت مدرستهم طابعا خاصا لهم هو طابع الموازنة والمقابلة بين المذاهب واختيار أصحها عقلا ونقلا فمن هذا الجمع بين آراء المدرستين وتقوية ما جنح إليه بالشاهد قوله في (لولا) من قوله تعالى (لو أخرتني الى أجل قريب) وقوله (لولا أنزل عليه ملك ﴾[2] .

قال (قال الهروي والظاهر أنها في الأولى للعرض وفي الثانية

---

1) المدارس النحوية ص 346 فما بعد

2) الآية الأولى من المنافقين 10 والثانية الانعام 8

للتخصيص ، وزاد معنى آخر وهي أن تكون نافية بمنزلة ـ لم ـ وجعل منه (فلولا كانت قرية آمنت ، أي لم تكن قرية آمنت . والظاهر أن المراد (فهلا) وهو قول الأخفش والكسائي والفراء ويؤيده قراءة أبي (فهلا) فقد جمع ابن هشام قول الأخفش وهو بصري الى جانب الكسائي والفراء وهما كوفيان ، وقوى مذهب الثلاثة بقراءة أبي .

وقد تقف على ابن هشام وهو يميل مع البصريين في أكثر ترجيحاته فيأخذ برأي سيبويه في معظم آرائه أو يرجح قول جمهور البصريين على قول الكوفيين ولكن ذلك لا يعطي سمة خاصة لمذهبه البتة ، إذ قد نراه حينا آخر يأخذ برأي سيبويه ويرفض قول المبرد وهو بصري أيضا ، وقول الفارسي وهو بغدادي ، ومن ذلك قوله في (اذ ما) حرف شرط مثل (إن) الشرطية موافقا سيبويه ومخالفا المبرد والفارسي اللذين يقولان باسميتها[1] .

وفي موضع آخر نرى ابن هشام يذهب مذهب الكوفيين بجواز العطف على الضمير المتصل المخفوض باعادة الخافض مستشهدا بقول الله تعالى (تساءلون به والأرحام عطفا على الهاء في (به) وقد شذ عن اجماع الكوفيين في هذه المسألة الفراء منهم[2] .

وخلاصة القول أن ابن هشام أمة ـ وحده ـ في النحو ، فقد جمع (أصول المدارس النحوية من بصرية وكوفية) وبغدادية وأندلسية وضم إليها نظراته الخاصة وتعليلاته التي تفرد بها فكانت مدرسة قائمة بذاتها ولا أسوق القول بدون دليل فانظر حفظك الله كيف جمع آراء علماء

---

1) المغني ص 79

2) شرح التصريح ـهـ ـ 150

النحو مختلف المذاهب وناقشها ورجح منها ما رآه ما دام المعنى يعضده ملخصا ذلك بغية الايجاز .

أولا : العطف على المحل :[1]:

له ثلاثة شروط :

1) امكان ظهوره في الفصيح

2) أن يكون الموضع بحق الأصالة أي الأصل .

3) وجود المحرز أي الطالب لذلك المحل .

لهذا الشرط امتنع مسائل عند المحققين منها :

1) إن زيدا وعمرو قائمان ، هذا المثال جوزه بعض العلماء ، ومنعه بعضهم أما من جوزه فهو ابن مالك لأنه لا يشترط في العطف على المحل وجود المحرز اي الطالب .

وأما من منعه فهم المحققون والبصريون . فالمحققون منعوه بسبب : أ) عدم وجود المحرز أي الطالب للمحل ، لأن الطالب لرفع زيد هو الابتداء وقد زال مدخوله .

ب) أنه يلزم عليه العطف على معمول ان قبل أن تستكمل .

أما البصريون فمنعوه لا لهذا السبب بل بسبب آخر هو توارد عاملين ان والابتداء على معمول واحد هو الخبر كما أجازه الكوفيون أيضا مثل ابن مالك ، لأنهم لا يشترطون المحرز ، ولأن الخبر عندهم لم يتأثر بان .

---

1) ص 95 وما بعدها المغني الجزء الثاني حاشية الأمير طبع الحلبي .

2) ان زيدا قائم وعمرو (إذا قدر عمرو عطفا على المحل)

منع هذا المثال المحققون لأنهم يشترطون المحرز في العطف على المحل وأجازه البصريون والكوفيون ، لأنهم لا يشترطون مثل هذا الشرط ، ولأن الخبر عندهم لم تؤثر فيه ان فهو مرفوع بما كان مرفوعا به قبل دخلوها ، وشرط الفراء لصحة الرفع قبل مجيء الخبر خفاء اعراب الاسم لئلا يتنافر اللفظ بأن كان مبنيا نحو : ان هذا وعمرو قائمان ، أو يكون منصوبا بحركة مقدرة نحو ان هذا وعمرو قائمان ، وليس بشرط الاتفاق في سائر مواضع العطف .

والكسائي لم يشترط شيئا أي ان الفراء والكسائي أجازا عطف المرفوع على المنصوب قبل مجيء الخبر ، لأنهما اتفقا على ذلك واحتجا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ﴾ وقولهم : انك وعمرو ذاهبان .

ولكن البصريين أجابوا عن الآية بأمرين :

الأول : أن خبر ان محذوف تقديره : مأجورون أو آمنون ، والصابئون مبتدأ وما بعده الخبر وذلك له نظير مثل قول الشاعر :

خليلي هل طب فاني وأنتما وإن لم تبوحا بالهوى دنفان

الثاني : أن الخبر المذكور لان ، وخبر (والصابئون) محذوف ، أي كذلك وذلك له نظير هو قول الشاعر :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

ويضعفه تقديم الجملة المعطوفة على بغض الجملة المعطوف عليها .

وأجاب البصريون على المثال بأمرين :

الأول : أنه عطف على التوهم (على عدم ذكر ان) وهو لا يشترط المحرز .

الثاني : انه تابع لمبتدأ محذوف والتقدير : انك أنت وزيد ذاهبان فهو عطف على مبتدأ محذوف وعلى هذين الأمرين يخرج قولهم :

إنهم أجمعون ذاهبون ، فكلمة (أجمعون) لا يصح أن تكون توكيدا على اللفظ أو المحل فهو توكيد لاسم ان على التوهم ، أو توكيد لمبتدأ محذوف كما يصح توجيه قوله تعالى (والصابئون) في الآية على هذين الوجهين فيكون فيها أربعة توجيهات . ا هـ .

وانظر كيف كان ابن هشام رحمه الله يراعى المعنى في كل اعراب .

قاله في باب ذكر أماكن من الحذف يتمرن بها المعرف (أداة الاستثناء[1] ولا أعلم أن أحدا أجازه الا أن السهيلي قال في قوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ .

1) لا يصح أن يتعلق الاستثناء بفاعل لأنه لم ينه عن أن يصل الا أن يشاء الله بقوله ذلك بل قل اني فاعل ذلك بدون الا أن يشاء الله .

2) ولا يصح ان يتعلق قوله الا أن يشاء الله بالنهي المسلط على تقولن ، لأنه يلزم عليه محذور هو أنك إذا اقلت : أنت منهى عن ان

---

1) ص 171 من المغني .

تقوم الا ان يشاء الله فلست بمنهى فقد سلطته على أن يقوم ، لأن له أن يقوم ويدعي أن الله شاء القيام .

3) ولكن تأول بعضهم الآية على أن الأصل الا قائلا الا أن يشاء الله ، وحذف القول كثير وتضمن كلامه حذف أداة الاستثناء والمستثنى .

4) الصواب أن الاستثناء مفرغ وأن المستثنى مصدر أو حال ، الا قول مصحوبا بأن يشاء الله أو ملتبسا بأن يشاء الله ، وهنا أداة الاستثناء .

5) يجوز (أن يشاء الله) كلمة تأبيد أي لا تقولنه أبدا .

6) رأي الزمخشري رحمه الله : لا تقولن ذلك الا أن يشاء الله أن تقوله وهو مبعد ، لأن ذلك معلوم بالضرورة وبهذا يرد على من قال إن الاستثناء منقطع ، لأنه يؤدي الى نهي كل حد أن يقول : اني فاعل ذلك غدا مطلقا وجعله منقطعا بدرجة في النفي .

وقد كان ابن هشام يرجح الآراء بناء على ماتضح له من معنى ولا يرجح بدون دليل بل يقدم الدليل الواضح وضوح الشمس كالمدره الثابه المعتمد على الحجة الواضحة ووسائل الاقناع ونحن نلخص كلامه بعرض خاص :

مما يحتمل جواب القسم والاستئناف في قوله تعالى ﴿ وان منكم الا واردها ، فاذا كانت الواو عاطفة على ثم لنحن ، كانت الجملة جواب القسم لأن ما قبلها أجوبة لقوله : فوربك لنحشرنهم والشياطين وهذا مراد ابن عطية .

أمور ترد على جملة جواب القسم :

1) قد تخفى جواب القسم مثل : أم لكم أيمان علينا إن لكم لما تحكمون ، واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين إحسانا ، واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون ـ لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف ويدل على ذلك أنه ورد مؤكدا له الجواب باللام والنون مثل قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس . واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل :

1) يحتمل أن يكون أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف فتكون الجملة واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ـ بعده جواب القسم لا محل لها من الاعراب .

2) الفراء والكسائي يقول التقدير بألا تعبدوا وبألا تسفكوا فالجملة معمول لأخذنا فخرج عن جواب الشرط .

3) الفراء يجوز أن الأصل النهي ثم أخرج مخرج الخبر ويؤيده قوله وقولوا وأقيموا وآتوا فهو معمول لحال معطوفة أي قائلين لا تعبدوا الا الله ثم عدل الى الخبر فهي جملة خبر لفظا انشائية معنى .

فالجملة ليست جوابا للقسم لأنه خبر لفظا ومعنى ومما يحتمل الجواب غيره قوله :

تعش فان عاهدتني لا تخونني تكن مثل من يا ذئب يصطحبان

فجملة النفي فيها خلاف بين العلماء بعضهم يقول : إنها جواب لعاهدتني ، والدليل على ذلك أن الفعل عاهد قد جاء مؤكدا باللام والنون في مثل قوله :

أرى محرزا عاهدته ليوافقن

فالجملة على هذا لا محل لها من الاعراب . وبعضهم يقول : انها في محل نصب حال من الفاعل أو المفعول ولكن المعنى يشهد للجوابيه ، أي أنها جواب للقسم ، لأن المعنى أن المعاهدة انما هي على ترك الخيانه نفسها ، لا أن الحلف في حال ترك الخيانة على شيء آخر كما هو الظاهر ، إذا كانت الجملة حالا وبذلك ترجح أنها جواب للقسم ومثله قوله :

ألم ترني عاهدت ربي وانني   لبين رتاج قائما ومقام
على حلفة لا أشتم الدهر مسلما   ولا خارجا من فيّ زور كلام

جملة لا أشتم يحتمل أن تكون جواب قسم فلا محل لها ، ويحتمل ان تكون حالية للعطف الظاهري عليها خارجا ، ولكن الدليل تطرق اليه الاحتمال فخارجا مفعول مطلق والأصل يخرج خروجا فعلى هذا الجملة المعطوفة لا محل لها من الإعراب أيضا[1] .

وفي العطف في مثل : لألزمنك أو تقضيني حقي . يذكر ابن هشام ما يلي :

البصريون يقولون إن هذا من العطف على المعنى والفعل منصوب بأن مضمرة وحرف العطف عطف مصدرا منسكبا من أن والفعل على مصدر متوهم والتقدير ليكونن لزوم مني أو قضاء منك لحقي ، والكوفيون يقولون : الناصب للفعل الحرف المذكور ولا عطف أصلا فالحرف المذكور غير العاطف وكذلك تقاتلونهم أو يسلموا بحذف

---

1) جـ 2 ص 58 و٥٩ من المغني .

النون . فان كان الفعل بالنون فبالعطف على العنى : ما تأتينا فتحدثنا أي ما يكون منك إتيان فحـديث فالنفي مسلط على الاتيان فينتفى الحديث تبعا لذلك وهو الأصلي القياسي . (2) أو أنه مسلط على الحديث فقط ما تأتينا محدثا .

جاء على معنى نفي الاتيان ـ لايقضى عليهم فيموتوا بنصب الفعل أي لا يقضي عليهم فكيف يموتون و يمتنـع على الثاني لأن المعنى لا يؤ يده اذ يمتنع أن يقضى عليهم ولا يموتوا ويجوز أن يكون الفعل مرفوعا فتوجيهه اما أن يكون عطفا على تأتينا فيكون كل منهما داخلا عليه حرف النفي واما على القطع فيكون موجبا والقطع واضح في ما تأتينا فتجهل أمرنا ولـم تقرأ أفتنس وقول الشاعر :

غيـر أنـا لم تـأتنـا بيقيـن فنـرجى ونـكثـر التـأميـلا

وللاستئناف وجه آخر وهو أن يكون على معنى السببية وانتفاء الثاني لانتفاء الأول وهو أحد وجهي النصب وهو قليل وعليه قوله :

فلقـد تركت صبيـة مـرحـومـة لم تدر ما جزع عليك فتجزع

أما ما ذكره ابن هاشم في التلازم بين المعنى والأعراب فانني أذكر منه بعض الأمثلة وقد أشرت اليه في مقدمة هذه الرسالة تنبيها على أهميته ، وقد ذكرها ابن هشام طيب الله ثراه تحت عنوان :الباب الخامس من الكتاب في ذكر الجهات التي يدخل الأعتراض على المعرف من جهتها[1] .

الجهة الاولى أن يراعى ما يقتضيه ظاهر الصناعة ولا يراعى

---

1) ص 11 حـ 2 من المغني .

المعنى وكثيرا ما تزل الأقدام بسبب ذلك وأول واجب على المعرب أن يفهم ما يعربه مفردا أو مركبا ، ولهذا لا يجوزاعراب فواتح السور على القول بأنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه .

ب) أو لقد حكى لي أن بعض مشايخ الأقراء أعرب لتلميذه بيت المفضل :

لا يبعد الله التلبب والغارات إذا قال الخميس نعم

فقال نعم حرف جواب ثم طلبا محل الشاهد في البيت فلم يجداه فظهر لي حينئذ حسن لغة كنانه في نعم الجوابية وهي نعم بكسر العين انما نعم هنا واحد الأنعام وهو خبر لمحذوف أي هذه نعم وهو محل الشاهد .

جـ) وسألني أبو حيان وقد عرض اجتماعنا ، علام عطف تحقق من قول زهير :

تقى نقى لم يكثر غنيمة بنكهة ذي قربى ولا بحقلد

فقلت حتى أعرف ما الحقلد فنظرناه فاذا هو سيء الخلق ، فقلت هو معطوف على شيء متوهم اذ المعنى ليس بمكثر غنيمة فاستعظم ذلك .

د) وقال الشلوبين حكى لي أن نحويا من كبار طلبة الجزولي سئل عن اعراب كلالة من قوله تعالى : وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة) فقال أخبروني ما الكلالة ، فقالوا له الورثة اذا لم يكن منهم أب فما علا ولا ابن فما سفل فقال فهي اذا تمييز وتوجيه قوله : ان يكون الأصل وإن كان رجل يرثه كلالة ثم حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فارتفع

الضمير واستتر ثم جيء بكلالة تمييزا ، ولقد أصاب هذا النحوي في سؤاله وأخطأ في جوابه ، فان التمييز بالفاعل بعد حذفه نقض للغرض الذي حذف لأجله ، وتراجع عما بنيت الجملة عليه من طي ذكر الفاعل فيها ولهذا لا يوجد في كلامهم مثل ضرب أخوك رجلا ، وأما قراءة من قرأ يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال بفتح الباء فالذي سوغ فيها أن يذكر الفاعل بعد ما حذف أنه انما ذكر في جملة أخرى غير التي حذفت فيها ، وكاعراب هذا المعرب كلالة تمييزا قول بعضهم في هذا البيت :

يبسط للأضياف وجها رحبا   بسط ذراعيه لعظم كلبا

ان الأصل كما بسط كلب ذراعيه ثم جيء بالمصدر وأسند للمفعول فرفع ثم أضيف اليه ثم جيء بالفاعل تمييزا ، والصواب في الآية أن كلالة بتقدير مضاف أي ذا كلالة وهو اما حال من ضمير يورث فكان ناقصه ويورث خبر ، أو تامة فيورث صفة ، وأما خبر فيورث صفة ، ومن فسر الكلالة بالميت الذي لم يترك ولدا ولا والدا فهي أيضا حال أو خبر ، ولكن لا يحتاج الى تقدير مضاف ، ومن فسرها بالقرابة فهي مفعول لأجله ، وأما البيت فتخريجه على القلب وأصله كما بسط ذراعاه كلبا ، ثم جيء بالمصدر وأضيف للفاعل المقلوب عن المفعول وانتصب كلبا على المفعول المقلوب عن الفاعل .

وبعد هذه المقدمة الممتعة في وجوب عدم التجري وراء الإعراب بدون فقه المعنى نراه يورد أمثلة بني المعربون فيها على ظاهر اللفظ ولم ينظروا في موجب المعنى فحصل الفساد وقد أورد اثنين وعشرين مثالا وأكتفي منها بثلاثة وأذكرها بعبارته[1] :

---

1) ص 120 المغني جـ 2

(أحدها قوله تعالى : ﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤ نا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾[1] فانه يتبادر الى الذهن عطف أن نفعل على أن نترك وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون وإنما هو عطف على ما فهو معمول للترك ، والمعنى أن تترك أن نفعل ، نعم من قرأ تفعل وتشاء بالتاء لا بالنون ، فالعطف على أن تترك وموجب الوهم المذكور ، أن المعرب يرى أن والفعل مرتين وبينهما حرف العطف ونظير هذا سواء أن يتوهم في قوله :

لن ما رأيت أبا يـزيد مقـاتلا   أدع القتـال وأشهـد الهيجـاء

أن الفعلين يتعاطفان حين يرى فعلين مضارعين منصوبين وقد بينت في فصل لما أن ذلك خطأ وأن أدع منصوب بلن وأشهد معطوف على القتال) .

(الثاني) قوله تعالى (واني خفت الموالي من ورائي)

فان المتبادر تعلق (من) بخفت وهو فاسد في المعنى ، والصواب تعلقه بالموالي لما فيه من معنى الولاية أن خفت ولايتهم من بعدي وسوء خلافتهم ، أو بمحذوف هو حال من الموالي أو مضاف اليهم أي كائنين من ورائي أو فعل الموالي من ورائي وأما من قرأ خفت بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء فمن متعلقة بالفعل المذكور . [2] .

(الثالث) قوله تعالى : ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله) [3] .

---

1) سورة هود الآية 67

2) سورة مريم ءاية 5 (المرجع السابق)

3) سورة البقرة آية 282

فان المتبادر تعلق الى بتكتبوه وهو فاسد لاقتضائه استمرار الكتابة الى أجل الدين وإنما هو حال أي مستقر في الذمة إلى أجله ونظيره قوله تعالى (فأماته اللهمائة عام) [1] فان المتبادر انتصاب مائة بأماته وذلك ممتنع مع بقائه على معناه الوصفي لأن الإماتة سلب الحياة وهي لا تمتد والصواب أن يضمن أماته معنى ألبثه فكأنه قيل : فألبثه الله بالموت مائة عام وحينئذ يتعلق الظرف بما فيه من المعنى العارض بالتضمين أي معنى اللبث لا معنى الالباث ، لأنه كالاماتة في عدم الامتداد فلو صح ذلك لعلقناه بما فيه من معناه الوصفي ويصير هذا التعلق بمنزلته في قوله تعالى : قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، وفائدة التضمين أن يدل بكلمة واحدة على معنى كلمتين ، يدلك على ذلك أسماء الشروط والاستفهام ونظيره أيضا قوله عليه الصلاة والسلام : كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أوينصرانه، لا يجوز أن يعلق حتى بيولد ، لأن الولادة لا تستمر الى هذه الغاية بل الذي يستمر اليها كونه على الفطرة فالصواب تعليقها بما تعلقت به على وان على متعلقة بكائن محذوف منصوب على الحال من الضمير في يولد ويولد خبر كل . [2]

فهل بعد هذا تطلب لفهم معنى هذه الآيات البينات والدلائل الواضحات والأخبار الصادقة والمواعظ الرائقة حسب إعرابها في التراكيب أعظم من هذا التطلب للمعنى الصحيح فالمعنى أولا ، ثم إذا وافقته الصناعة فبها ونعمت ، أما اذا أدت الصناعة الى غموض أو إبهام أو فساد فلنلتمس غيرها مما يضيء طريق فهم كتاب البشرية الخالدالذي

---

1) سورة البقرة الآية 259

2) المغني ص 120 جـ 2

(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة تنزيل من حكيم حميد) .

ان حرص النحاة على اطراد قواعدهم وعدم اضطرابها مطلب سام كان الباعث عليه الثقة الكاملة في هذه القواعد حتى تكون وسيلة الى حفظ كتاب الله . وقد أشرنا الى اختلاف الآراء في اختصاص اللغة العربية بالإعراب أو مشاركة غيرها لها وانتهينا الى أن الإعراب في اللغة العربية كان متسعا شاملا لأواخر التراكيب بينما الإعراب في اللغات الأخر لم يشمل الأواخر التي تكون ساكنة وانما يشمل التراكيب الداخلية تمييزا بين المعاني فاذا رأينا ابن هشام رحمه الله برغبة منه في التلازم بين المعنى والإعراب فقد ذكر في الجهة الثانية أن المعرب قد يراعي معنى صحيحا ولا ينظر في صحته الى الصناعة . فالواجب ألا نقول ان الصناعة قد استعبدت المعنى كما في عصور الأدب المتأخرة المختلطة التي هامت الكتابة فيها نحو المحسنات البديعية وإن جاءت على حساب المعنى ، لأن في الاستطاعة تخريجها على قاعدة مطردة ، دون ما اخلال بالمعنى وسنكتفي أيضا بثلاثة أمثلة من ثلاثة عشر مثالا ذكرها في المغنى .[1]

أحدها : قول بعضهم (وثمودا فيما أبقى)[2] إن ثمودا مفعول مقدم وهذا ممتنع لأن لما النافية الصدر فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها وإنما هو معطوف على عدا أو هو بتقدير وأهلك ثمودا وإنما جاء : ونحن عن فضلك ما استغنينا .

لأنه شعر مع أن المفعول ظرف وأما قراءة عمرو بن فائد (من شر ما

---

1) ص 125 جـ 2

2) آية 51 من سورة النجم .

خلق) بتنوين شر فما بدل من شر ، بتقدير مضاف أي من شر ما خلق ، وحذف الثاني لدلالة الأول .

الثاني : قول بعضهم في إذ من قوله تعالى (ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم (إذ تدعون الى الايمان فتكفرون) [1] .

انها ظرف للمقت الأول أو للثاني وكلاهما ممنوع ، أما امتناع تعليقه بالثاني فلفساد المعنى [2] لأنهم لم يمقتوا أنفسهم في ذلك الوقت وانما يمقتونها في الآخرة ونظيره قول من زعم في يوم تجد أنه ظرف ليحذركم حكاه مكي قال وفيه تظروا لصواب الجزم بأنه خطأ لأن التحذير في الدنيا لا في الآخرة ، ولا يكون مفعولا به ليحذركم كما في وأنذرهم يوم الآزفة لان يحذر قد استوفى مفعوليه وإنما هو نصب بمحذوف تقديره اذكروا واحذروا ، وأما امتناع تعليقه بالأول (لمقت الله) وهو رأي جماعة منهم الزمخشري فلا ستلزامه الفصل بين المصدر ومعموله بالأجنبي ولهذا قالوا في قوله :

وهن وقوف ينتظرن قضـــاءه بضاحي غداة أمره وهو ضامر

إن الباء متعلقة بقضائه لا بوقوف ولا ينتظرن لئلا يفصل بين قضائه وأمره بالأجنبي ولا حاجة الى تقدير ابن الشجري وغيره أمره معمولا لقضى محذوفا لوجود ما يعمل ونظير ما لزم الزمخشري هنا ما لزمه إذ علق يوم تبلى السرائر بالرجع من قوله تعالى : إنه على رجعه لقادر وإذا علق أياما بالصيام من قوله تعالى : كتب عليكم الصيام كما كتب على

1) آية 2 من سورة

2) قال الأمير في حاشيته هذا من الجهة الأولى والمقصود الثاني .

الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فان في الأولى الفصل بخبر إن وهو لقادر وفي الثاني في الفصل بمعمول كتب وهي كما كتب »، فان قيل لعله يقدر كما كتب صفة للصيام فلا يكون متعلقا بكتب قلنا يلزم محذور آخر وهو اتباع المصدر قبل أن يكمل معموله ونظير اللازم له على هذا التقدير ما لزمه إذ قال في قوله تعالى : وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام[1]ان المسجد عطف على سبيل الله وأنه حينئذ من جملة معمول المصدر وقد عطف على المصدر قبل مجيئه والصواب أن الظروف الثلاثة متعلقة بمحذوف أي مقتكم إذ تدعون وصوموا أياما ويرجمه يوم تبلى السرائر ولا ينتصب يوم بقادر لأن قدرته لا تتقيد بذلك اليوم ، ونلاحظ أن الصناعة لا تراعي الا بحسب اعتمادها على المعنى الصحيح .

الجهة الثالثة أن يخرج على ما لم يثبت في العربية وعاء القرآن التي حفظت كتاب الله لفظا وغاية ، وما ضاقت عن آي به وعظات ، وهي التي تربط العرب في كل مكان ومقوم كبير من مقومات قوميتهم العربية والاعتزاز بها فيه عز اليوم ومجد الأبد وليست هي مادة من المواد بل هي نافذة الثقافة بذل العلماء الأولون النفس والنفيس والجهد المضني في سبيل نقلها للأجيال التالية ورحم الله ابن المقفع إذ يقول : «وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم كان يفتح له الباب من العلم أو الكلمة من الصواب ـ وهو في البلد غير المأهول فيكتبه على الصخور مبادرة للأجل وكراهة منه أن يسقط ذلك عمن بعده ، وقد بينا أهمية القياس والسماع اللذين بسببهما نستطيع الاستيلاء على الألوان الحسان من بديع اللآلىء . . .

---

1) سورة البقرة آية 217

وقد قدم لنا ابن هشام أربعة أمثلة محللا لها بأن ذلك انما يقع عن جهل أو غفلة نذكر أولها :

أحدها قول أبي عبيدة في : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق[1] ان الكاف حرف قسم وان المعنى الأنفال لله والرسول والذي أخرجك ، وقد شنع ابن الشجري على مكي في حكايته هذا القول وسكوته عنه قال ولو أن قائلا قال كالله لأفعلن لاستحق أن يبصق في وجهه ، ويبطل هذه المقالة أربعة أمور :

1) أن الكاف لم تجيء بمعنى واو القسم .

2) واطلاق ما على الله سبحانه وتعالى .

3) وربط الموصول بالظاهر وهو فاعل أخرج وباب ذلك الشعر كقوله :

وأنت الذي في رحمة الله أطمع

4) ووصله بأول السورة مع تباعد ما بينهما .

وقد يجاب عن الثاني بأنه قد جاء نحو والسماء وما بناها وعنه أنه قال : الجواب يجادلونك ويرده عدم توكيده وفي الآية أقوال أخر . .

ثانيهما : أن الكاف مبتدأ وخبره فاتقوا الله ويفسده :

1) اقترانه بالفاء .

2) وخلوه من رابط .

---

1) الآية الرابعة من سورة الانفال .

3) وتباعد ما بينهما .

وثالثها : أنها نعت مصدر محذوف أي يجادلونك في الحق الذي هو اخراجك من بيتك جدالا مثل جدال إخراجك وهذا فيه تشبيه الشيء بنفسه .

ورابعها : وهو أقرب مما قبله أنها نعت مصدر أيضا ولكن التقدير قل الأنفال ثابتة لله والرسول مع كراهيتهم ثبوتا مثل ثبوت إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون ، وخامسها وهو أقرب من الرابع أنه نعت لحقا أي أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك والذي سهل هذا تقاربهما ووصف الإخراج بالحق في الآية . وسادسها وهو أقرب من الخاص أنها خبر لمحذوف أي هذه الحال لا كحال إخراجك أي أن حالهم في كراهية ما رأيت من تنفيلك الغزاة مثل حالهم في كراهية خروجك من بيتك للحرب وفي الآية أقوال أخر منتشرة[1] .

أليس المعنى وحده الذي اصطلح عليه الناطقون بالضاد كما فهم من أساليبهم هو الذي حمله على ذكر هذه الآراء والترجيح بين الأعاريب المختلفة بحسب ما تدل عليه الآية الكريمة من تأويل حسب ظروف أول معركة بين القلة المؤمنة المنتصرة والكثرة الكافرة المنهزمة .

(والجهة الرابعة) أن يخرج على الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة ويترك الوجه القريب والقوي ، فان كان لم يظهر له الا ذاك فله عذر وان ذكر الجميع فان قصد بيان المحتمل أو تدريب الطالب فحسن الا في ألفاظ التنزيل فلا يجوز أن يخرج إلا على ما يغلب على الظن إرادته فإن

1) صفحة 127 و128 من المغني .

لم يغلب شيء فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف وان أراد مجرد الاغراب على الناس وتكثير الأوجه فصعب شديد وسأضرب لك أمثلة مما خرجوه على الأمور المستبعدة لتجتنبها وأمثالها :

(أحدها) قول جماعة في وقيله [1]انه عطف على لفظ الساعة[2] فيمن خفض وعلى محلها فيمن نصب مع ما بينهما من التباعد وأبعد منه قول أبي عمرو في قوله تعالى (ان الذين كفروا بالذكر [3])ان خبره أولئك ينادون من مكان بعيد [4]وقول بعضهم (ثم آتينا موسى الكتاب انه عطف على ووهبنا له اسحاق [5]وقول الزمخشري في وكل أمر مستقر فيمن جر ان كلا عطف على الساعة[6].

والصواب خلاف ذلك كله مما وقيله فيمن خفض فقيل الواو للقسم وما بعده الجواب واختاره الزمخشري وأما من نصب فقيل عطف على سرهم أو على مفعول محذوف معمول (ليكتبون) أو (ليعلمون) أي يكتبون ذلك أو يعلمون الحق أو أنه مصدر لقال محذوفا أو نصب على اسقاط حرف القسم واختاره الزمخشري .

وأما إن الذين كفروا بالذكر فقيل الذين بدل من الذين في إن الذين يلحدون والخبر لا يخفون واختاره الزمخشري وقيل مبتدأ خبره

---

1) أول الآية من سورة الزخرف (88) (وقيله يا رب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون)

2) الآية 85 ﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون ﴾ .

3) سورة فصلت الآية 41

4) آية 44 من سورة فصلت .

5) سورة الانعام آية 84

6) سورة القمر آية 13

مذكور ولكن حذف رابطة ثم اختلف في تعيينه فقيل هو ما يقال لك أي في شأنهم وقيل هو لما جاءهم أي كفروا به وقيل لا يأتيه الباطل أي لا يأتيه منهم وهو بعيد لأن الظاهر أن لا يأتيه من جملة خبر أنه وأما ثم أتينا الكتاب فعطف على ذلكم وصاكم به وثم لترتيب الزمان أي ثم أخبركم بأنا آتينا موسى الكتاب وأما كل أمر مستقر فمبتدأ حذف خبره أي وكل أمره مستقر عند الله واقع أو ذكر وهو حكمه بالغة وما بينهما اعتراض وقول بعضهم الخبر مستقر وخفى على الجوار حمل على ما لم يثبت في الخبر[1] .

وقد ذكر ابن هشام في هذا الموضع ثلاث عشرة مسألة اكتفينا بالأولى .

وقد يعترض معترض ذاهبا مذهب بعض مدعي التجديد في النحو آخذا عليهم تقديرهم الحذف في كتاب الله فنقول له (أي هكذا خلقت) وهكذا تكلمت العرب وقد جاء القرآن على أساليبهم لتتضح لهم وجوه الإعجاز ونذكره بما قاله أبو الفتح عثمان بن جني في الخصائص .[2]

باب في أن المحذوف اذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به الا أن يعترض هناك من صناعة اللفظ ما يمنع منه .

من ذلك أن ترى رجلا قد سدد سهما نحو الغرض ثم أرسله فتسمع صوتا فتقول :

القرطاس والله أصاب القرطاس (فأصاب) الآن في حكم

1) المغنى ص 129

2) جـ 1 ص 284 طبع دار الكتب المصرية القسم الأدبي بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد علي النجار .

الملفظ به البتة وان لم يوجد في اللفظ غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به . وكذلك قولهم لرجل مهوٍ بسيف في يده زيدا ، أي اضرب زيدا فصارت شهادة الحال بالفعل بدلا من اللفظ به ، وكذلك قولك للقادم من سفر خير مقدم ، أي قدمت خير مقدم ، وقولك قد مررت برجل ان زيدا وان عمرا أي ان كان زيدا وان كان عمرا وقولك للقادم من حجه ، مبرور ماجور ، أي أنت مبرور ماجور ، ومبرورا ماجورا[1] أي قدمت مبرورا ماجورا وكذلك قوله :

رســم دار وقفت في طـــلله كدت أقضي الغداة من جلله

أي رب رسم دار . وكان رؤبه اذا قيل له : كيف أصبحت يقول : خير عافاك الله أي بخير بحذف الباء لدلالة الحال عليها بجرى العادة والعرف بها وكذا قولهم : (الذي ضربت زيد) تريد الهاء وتحذفها لأن في الموضع دليلا عليها . وعلى نحو من هذا تتوجه عندنا قراءة حمزة وهي قوله سبحانه (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) ليست هذه القراءة عندنا من الابعاد والفحش والصناعة والضعف على ما رآه فيها وذهب إليه أبو العباس [2]بل الأمر فيها دون ذلك وأقرب وأخف وألطف وذلك أن لحمزة أن يقول لأبي العباس : إنني لم أحمل (الأرحام) على العطف على المجرور المضمر ـ وهو ما أجازه ابن مالك بدون عود الخافض أو وجود فاصل ما ـ بل اعتقدت أن تكون فيه باء ثابتة حتى كأني قلت (وبالأرحـام) ثم حذفت الباء لتقدم ذكرها كما حذفت لتقدم ذكرها في نحو قولك : بمن تمرر أمرر ، وعلى من تنزل أنزل ، ولم تقل أمرر به ولا أنزل عليه ، لكن حذفت الحرفين لتقدم ذكرهما . واذا جاز للفرزدق أن

---

1) انظر مجالس ثعلب ص 91

2) يريد المبرة واحضرا أبو زكريا الفراء ص 384 وشرح المفصل جـ 78/3

يحذف حرف الجر لدلالة ما قبله عليه (مع مخالفته له في الحكم في قوله :

وإني من قوم بهم يتقي العدا ورأب الثأي والجانب المتخوف

أراد وبهم رأب الثأي فحذف الباء في هذا الموضع لتقدمها في قوله بهم يتقي العدا وان كانت حالا هما مختلفتين ، ألا ترى أن الباء في قوله (بهم يتقي العدا) منصوبة الموضع لتعلقها بالفعل الظاهر الذي هو يتقى كقولك : بالسيف يضرب زيد ، وبالباء في قوله (وبهم رأب الثأي) مرفوعة الموضع عند قوم وعلى كل حال فهي متعلقة بمحذوف ورافعة الرأب ـ ونظائر هذا كثيرة ـ كان حذف الباء من قوله (والأرحام) لمشابهتها الباء في (به) موضعا وحكما أجد وقد أجازوا تبا له وويل على تقدير له فحذفوه وان كانت اللام في (تباً له) لا ضمير فيها وهي متعلقة بنفس (تبا) مثلها في هلم لك وكانت اللام في (ويل له) خبرا ومتعلقة بمحذوف وفيها ضمير فهذا عروض بيت الفرزدق ـ أي مثيله .

الجهة الخامسة من جهات التلازم بين الألفاظ والمعاني التي ذكرها ابن هشام دون ما إخلال بالقواعد العامة . أن يترك بعض ما يحتمله اللفظ من الأوجه الظاهرة وقد أورد سبع مسائل بدون أن ينص على العدد وكان هدفه من هذه الجهة ذكر اهتمام العرب بلغتهم ووضعهم لها القواعد والأصول والأحكام وقد توصلوا بطريق الاستقراء الى أنها ذات حدود ومقاييس لا يخرج عليها المتكلم الا حين يلحن أو يخطىء وقد أتى بها مرتبة حسب أبواب النحو ليتمرن بها الطالب كما يقول وانه ليستمد أمثلته من مائدة القرآن الحافلة بكل غذاء روحي ليحلق في سماوات الفكر صاعدا الى مدارج السمو العلو ، وها هي ذي أطول هذه المسائل :

يجوز في المرفوع من نحو : أفي الله شكل وما في الدار زيد الابتدائية والفاعلية وهي أرجح لأن الأصل عدم التقدير والتأخير ومثله كلمتا غرف

في سورة الزمر .[1]

لأن الظرف الأول معتمد على المخبر عنه ، والثاني على الموصوف ، اذ الغرف الأولى موصوفة بما بعدها ، وكذا نار في قول الخنساء : كأنه علم في رأسه نار ، ومثله الاسم التالي للوصف في نحو : زيد قائم أبوه وأقائم زيد كما ذكرنا ، ولأن الأب إذا قدر فاعلا كان خبر زيد مفردا وهو الأصل في الخبر ومثله في قوله تعالى : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات » لأن الأصل في الصفة الإفراد ، فان قلت : أقائم أنت ، فكذلك عند البصريين وأوجب الكوفيون في ذلك الابتدائية ووافقهم ابن الحاجب ووهم إذ نقل في أماليه الإجماع على ذلك وحجتهم أن المضمر المرتفع بالفعل لا يجاوره منفصلا عنه ، لا يقال قام أنا والجواب أنه انما انفصل مع الوصف لئلا يجهل معناه لأنه يكون معه مستترا بخلافة مع الفعل فانه يكون بارزا كقمت أو قمت ، ولأن طلب الوصف لمعموله دون طلب الفعل فلذلك احتمل معه الفصل ولأن المرفوع بالوصف سد في اللفظ مسد واجب الفصل وهو الخبر بخلاف فاعل الفعل ، ومما يقطع به على بطلان مذهبهم قوله تعالى ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم﴾ وقول الشاعر : خليلي ما واف بعهدي أنتما ، فان القول بأن الضمير مبتدأ كما زعم الزمخشري في الآية مؤدالي فصل العامل من معموله بالأجنبي ، والقول بذلك في البيت مؤد الى الاخبار عن الاثنين بالواحد ، ويجوز في نحو : ما في الدار زيد وجه ثالث عند ابن عصفور ونقله عن أكثر البصريين وهو أن يكون المرفوع اسما لما الحجازية والظرف في موضع نصب على الخبرية والمشهور وجوب بطلان العمل عند تقدم الخبر ولو

---

1) يقصد الآية 70 من سورة الزمر ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار ، وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ .

ظرفا .

وكما بحث ابن هشام في التراكيب متلمسا المعنى الشريف منزها القواعد عن الاضطراب نراه يبحث في الكلمات المفردة شارحا مفسرا مبينا أن تحت الرغوة اللبن الفصيح وأن هذه المفردات تعطي معانيا يتأثر بها التركيب باعتبارها أجزاء في الكلام نراه يفسر كلمات يحتاج اليها المعرب وهي عشرون كلمة وهي ثمانية أنواع ذكرها في الباب الثالث ، ما جاء على وجه واحد وهو أربعة أنواع وما جاء على وجهين وهو اذا وما جاء على ثلاثة أوجه وهي سبع ، النوع الرابع ما يأتي على أربعة أوجه وهو أربعة وهو ما سأذكره بالتفصيل .[1]

احداها (لولا) فيقال فيها ـ تارة ـ حرف يقتضي امتناع جوابه لوجود شرطه ويختص بالجملة الاسمية المحذوفة ـ الخبر ـ غالبا ـ نحو (لولا زيد لأكرمتك) وتارة ـ حرف تحضيض وعرض أي طلب بإزعاج أو برفق فتختص بالمضارع أو بما في تأويله (لولا تستغفرون الله) ونحو (لولا أخرتني الى أجل قريب) وتارة ـ حرف توبيخ ـ فتختص بالماضي نحو : (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة)[2]وقيل: قد تكون للاستفهام نحو (لولا أخرتني الى أجل قريب)[3](ولولا أنزل عليه ملك)[4] .

1) من كتابه الاعراب عن قواعد الاعراب وهو رسالة قصيرة موجزة في (قواعد الاعراب) التي يحتاج اليها المعربون في توجيه عباراتهم ويعتبر كمقدمة للمغني (خمس نسخ مخطوطة بالخط الفارسي) ونسخة مطبوعة في تركيا ونسخة م ملحقة بآخر رمز الى المتن وحده وهما من مكتبة مكة المكرمة وقد حقق الكتاب الأستاذ رشيد عبد الرحمن العبيدي بكلية الآداب قسم اللغة العربية جامعة بغداد والمنتدب لتدريس النحو في كلية الشريعة بمكة طبع دار الفكر بليبيا .

2) سورة الاحقاف آية 28

3) سورة المنافقون آية 10

4) سورة الانعام 8

قال الهروي والظاهر في الأولى للعرض وفي الثانية للتخصيص وزاد معنى آخر وهو أن تكون نافية بمنزلة لم وجعل منه (فلولا كانت قرية آمنت) في سورة يونس ، أي لم تكن قرية آمنت .

والظاهر أن المراد (فهلا) وهو قول الأخفش[1] والكسائي والفراء ، ويؤيده قراءة أبي : (فهلا) ويلزم من ذلك معنى النفي الذي ذكره الهروي لأن اقتران التوبيخ بالفعل الماضي يشعر بانتفاء وقوعه .

الثانية : (ان) المكسورة الخفيفة فيقال فيها (هي) شرطية في نحو (إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله)[2] .

ونافية في نحو (إن عندكم من سلطان بهذا) وقد اجتمعتا في قوله تعالى (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده)[3] .

ومخففة من الثقيلة نحو (وإن كلا لما ليوفينهم في قراءة من خفف النون ونحو (إن كل نفس لما عليها حافظ)[4] في قراءة من خفف (لما) وأما من شددها فهي عنده نافية غير مخففة من الثقيلة .

وزائدة في نحو (ما إن زيد قائم) وحيث اجتمعت (ما) و (إن) فان تقدمت (ما) فهي نافية (وان) زائدة) وان تقدمت (ان فهي شرطية و (ما) زائدة نحو : وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ)[5] .

والثالثة (أن) المفتوحة الخفيفة فيقال فيها : حرف مصدري ينصب

---

1) الاخفش الأوسط فاذا أريد الأكبر أو الأصغر قيد آخره انظر المزهر 459/2
2) سورة آل عمران آية 29
3) سورة فاطر آية 41
4) الطارق آية 4
5) الانفال آية 58

المضارع نحو يريد أن يخفف عنكم ونحو (أعجبني أن صمت) وزائدة في نحو «فلما أن جاء البشير»[1] وكذا حيث جاءت بعد (لما).

ومفسرة في نحو (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا)[2].

وكذا حيث وقعت بعد جملة فيها معنى بالقول دون حروفه ولم يقترن بخافض فليس منها (وآخر دعواهم أن الحمد لله)[3] لأن المقدم عليها غير جملة ولا في نحو كتبت اليه بأن افعل لدخول الخافض.

وقول بعض العلماء في نحو (ما قلت لهم الا ما أمرتني به : ان اعبدوا الله ربي وربكم)[4] انها مفسرة ـ أن ـ حمل على أنها مفسرة لـ (أمرتني) دون (قلت) منع منه أنه لا يصح أن يكون «أن اعبدوا الله ربي وربكم) مقولا لله ـ تعالى ـ أو على أنها مفسرة لـ (قلت) فحروف القول تأباه وجوزه الزمخشري (أن تكون تفسيره) ان أول (قلت) بـ (أمرت) وجوز مصدريتها على أن المصدر عطف بيان للهاء في (به) لا بدل (منها) والصواب العكس ولا يبدل من (ما) لأن العبارة لا يعمل فيها فعل القول وهو (قلت) ولا يمتنع في (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر[5] أن تكون مفسرة مثلها : «فأوحينا اليه أن اصنع الفلك)[6] خلافا لمن منع ذلك لأن الايحاء في معنى القول.

ومخففه من الثقيلة في نحو «علم أن سيكون منكم

1) سورة يوسف 96

2) سورة المؤمنون آية 27

3) يونس وتمامها ﴿ رب العالمين ﴾ آية 10

4) سورة المائدة 117

5) سورة النحل آية 68

6) سورة المؤمنون آية 27

مرضى)[1] (وحسبوا ألا تكون فتنة)[2] في قراءة الرفع وكذا حيث وقعت بعد علم أو ظن نزل منزلة العلم .

الرابعة (من) فتكون شرطية في نحو (من يعمل سوءا يجزبه) [3] .

وموصولة في نحو : (ومن النـــاس من يقول) [4] .

واستفهامية في نحو (من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) [5]

ونكرة موصوفة في نحو (مررت بمن معجب لك أي بانسان معجب لك .

وأجاز الفارسي أن تقع نكرة وحمل عليه قوله : ونعم من هو في سر واعلان أي ونعم شخصا هو .

رحم الله ابن هشام الذي قال في أمثلته واستشهاده بالقرآن فصدق ، ولقد كان ذا همة عالية يدل عليها قوله :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ... ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس في طلب العلا ... يسيرا يعش دهرا طويلا أخاذل

وقد رثاه بدر الدين بن الصاحب فقال :

---

1) سورة المزمل 20

2) سورة المائدة 71

3) سورة النساء آية 123

4) سورة البقرة وتمامها ﴿ . . . آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ .

5) سورة يس آية 52

تهن جمال الدين بالخلد إنني   لفقدك عيشى لزحة وتعال
فما لدروس غيث عنها طلاوة   ولا لزمان لست فيه جمال

مع السيرافي :

السيرافي هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزبان السيرافي النحوي المعروف بالقاضي ولد بسيراف سنة ٢٨٠ من الهجرة وسيراف هذه من بلاد فارس على ساحل البحر مما يلي كرمان وقد خرج منها جماعة من العلماء وكان أبوه مجوسيا يسمى بهزاد فأسلم وتسمى باسم عبد الله ودفع ابنه الى التعلم منذ نعومة أظفاره ولم يكد يبلغ العشرين من عمره حتى ذهب الى عمان وتفقه على شيوخها ثم سكن بغداد فدرس اللغة على ابن دريد والنحو على ابن السراج والقراءات على أبي بكر بن مجاهد وتعمق في الفقه تفقها جعله يختار لتولي منصب القضاء نيابة عن أبي محمد بن معروف ويدرس أثناء ذلك الفقه الحنفي بمسجد الرصافة نحو خمسين عاما وبلغ من اجلال الناس له أن كانوا يخاطبونه بإمام المسلمين وشيخ المسلمين[1]

وكان السيرافي كثيرا ما ينشد في مجلسه :

اسكن الى سكن تسر به   ذهب الزمان وأنت منفرد
ترجو غدا وغدا كحاملة   في الحي لا يدرون ما تلد

وكان بينه وبين أبي الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الأغاني منافسة

---

1) انظر ترجمة السيرافي تاريخ بغداد 341/7 ونزهة الالبا ص 307 ومعجم الأدباء 145/8 ومعجم البلدان في سيراف وابن خلكان في الحسن والفهرست ص 99 واللباب والجواهر المضية في طبقات الحنفية 196/1 وانباه الرواة 313/1 وشذرات الذهب 65/3 ومرآة الجنان 390/2 والنجوم الزاهرة 133/4 وبغية الدعاة 331 ودائرة معارف القرآن العشرين لمحمد فريد وجدي .

فقال فيه أبو الفرج :

لست صدرا ولا قرأت عن صدر ولا علمك البكى بشاف
لعن الله كل نحو وشعر وعروض يجيء من سيراف

وكان يعتنق الاعتزال مما جعله شديد الصلة بالمنطق والمباحث الفلسفية مما أضرم فيه نار الجدل وجعله يظفر دائما بمناظريه ومناظرته التي افحم فيها متى بن يونس مشهورة وكان موضوعها : النحو والمنطق أيهما أدق في معرفة صحيح الكلام من سقيمة وسديدة من مدخوله وكان يدافع فيها عن النحو وأغضبه بريقه وكان يشغف شغفا بكتاب سيبويه فألف عليه شرحه المطول الذي لم يطبع الى اليوم وهو يضم فيه آرء مخالفيه من البصريين والكوفيين جميعا متوقعا دائما للرد على الأخرين .

وألف مصنفا في شرح شواهد سيبويه ومصنفا ثانيا سماه المدخل الى الكتاب وترجم لنحاة البصرة في كتابه أخبار النحاة البصريين ومن مصنفاته كتاب الفات الوصل والقطع وكتاب شرح مقصورة ابن دريد وكتاب الاقناع في النحو لم يتم وكتاب صناعة الشعر والبلاغة وكتاب جزيرة العرب وما زال يوالي نشاطه في التصنيف والتأليف حتى توفي سنة ٣٦٨ هـ .

وتوجد من شرحه للكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية كتبها عبد اللطيف البغدادي العالم الفيلسوف المعروف وليس له منهج ثابت في شرح الكتاب فهو لا يتعرض لشرح كلام سيبويه إذا كان واضحا ولكنه يبذل الجهد وشرح الغامض في لغة بينة واضحة وافاضة . .

وكثيرا ما يعبر عن بصريته بقوله : قال أصحابنا حين يعرض آراء من خلفوا سيبويه من نحاة البصرة والكوفة واستقر في نفسه الى أقصى حد أن سيبويه هو الإمام المتبوع وأن كتابه هو العلم المنصوب مما جعله

يتصدى في مواطن كثيرة للرد على مخالفيه من الكوفيين ومن البصريين أمثال الأخفش والمبرد وقد اتسع السيرافي كثرة ما أضافه من شواهد في شرحه للكتاب كما اتسع في بيان وجوه الاعراب الممكنة لها ولما يسوقه سيبويه من شواهد .

آراؤه فيما يتصل بالمعنى والإعراب :

انما ذكر النحاة العلل النحوية تعبيرا عما يقصدونه من معنى تطرد فيه القواعد ، وقد كان السيرافي يتوسع في التعليل توسعا اسعفه فيه عقله الجدلي الخصب فليس هناك شيء علله النحاة الا وتذكر عللهم فيه وتضاف اليه علل جديدة من ذلك نراه يعلل لعدم جر المضارع كما جر الاسم بسبع علل[1] . ويقف عند نصب جمع المذكر السالم بالياء دون الألف ويذكر لذلك أربع علل كما يذكر لعدم نصبه بالواو اربع علل أخرى وهكذا .

وكانت شخصيته بارزة فوقوفه مع سيبويه لم يمنعه من مخالفته أحيانا والأخذ بآراء غيره من ذلك أنه كان يرد رأي سيبويه في أن كيف ظرف ، ويذهب مذهب الأخفش في أنها اسم غير ظرف[2] .

وكان سيبويه والخليل يريان أن الجزم في مثل ائتني أكرمك بنفس الطلب لتضمنه معنى إن الشرطية وذهب السيرافي الى أن المضارع مجزوم بالطلب لنيابته مناب الجازم الذي هو الشرط المقدر كما أن النصب بضربا في قولك (ضربا زيدا) لنيابته عن اضرب لا لتضمنه معناه[1] .

---

1) السيرافي المجلد الأول الورقة 38

2) المغني ص 174 ك 1 والهمع 214/1

وكانا يريان ان الجزم في فعل أكن في قوله تعالى ﴿ لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ للعطف على معنى لولا أخرتني أي إن اخرتني وكان السيرافي يذهب الى أن (أكن) معطوفة على محل فأصدق . رحمه الله رحمة واسعة .

مع ابن مالك :

إننا لا نجد مؤلفا ـ ممن صنفوا في قواعد العربية ـ قد نال من الحظوة عند الناس والاقبال على تصانيفه : قراءة واقراء ، شرحا وتعليقا مثل أبي عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله بن مالك المولود بجيان سنة ستمائة من الهجرة والمتوفي في دمشق سنة اثنين وسبعين وستمائة من الهجرة ، واعتمد (بروكلمان) على كتاب (معجم المطبوعات لسركيس) في أنه ولد بدمشق ولكن هذا خروج على الإجماع وقد خانه التوفيق في هذا بدليل تقريره في نفس الترجمة أنه نزيل دمشق وهذا يتنافى مع ولادته في دمشق .

وشاء الله أن يكون ابن مالك نجم هذا القرن في الدراسات النحوية فقد كانت له منزلة كبرى لدى علماء عصره ولم لا ؟ وهو صاحب التآليف المفيدة والتصنيفات الممتعة وأفضل من كتب في علوم العربية من أهل طبقته علما وأوسعهم اطلاعا وأقدرهم على الاستشهاد لما يرى من الآراء بكلام العرب مع تصون وعفة .

فلابن مالك مؤلفات في العربية كثيرة متعددة المشارب مختلفة المناحي ، وقل أن تجد من بينها كتابا لم يتناوله العلماء منذ زمنه الى

---

1) ص 525 س 1

اليوم بالقراءة والبحث وبيان معانيه بوضع الشروح الوافية والتعليقات عليه ، ومن هذه المؤلفات كتابه (الخلاصة) الذي اشتهر بين الناس باسم (الألفية) والذي جمع فيه خلاصة علم النحو والتصريف في أرجوزه ظريفة مع الإشارة الى مذاهب العلماء وبيان ما يختار من الآراء أحيانا .

وقد كثر إقبال العلماء على هذا الكتاب من بين كتبه بنوع خاص حتى طويت مصنفات أئمة النحو من قبله ولم ينتفع من جاء بعده بأن يحاكوه أو يدعوا أنهم يزيدون عليه وينتصفون منه ولو لم يشر في خطبته الى ألفية الإمام العلامة يحيى زين الدين بن عبد النور الزواوي الجزائري المتوفي بمصر في يوم الاثنين آخر شهر ذي القعدة من سنة 627 والمعروف بابن معط لما ذكره الناس ولا عرفوه .

وشروح هذا الكتاب أكثر من أن تذكر هنا لتعدادها وبيان مزاياها وما انفرد به كل شرح وأكثرها لأكابر العلماء ومبرزيهم كالإمام أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري الشافعي الحنبلي المتوفي ليلة الجمعة الخامس من شهر ذي القعدة سنة 761 هـ والذي يقول عنه ابن خلدون : (مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه) .

وقد شرح الخلاصة كثير من العلماء منهم ابن هشام احداهما في كتابه اوضح المسالك الى الفية ابن مالك والثانية في كتاب أسماه دفع الخصاصة عن قراءة الخلاصة ، ويقال انه أربع مجلدات ويقول السيوطي بعد ذكر هذين الكتابين وله عدة حواش على الألفية والتسهيل ا هـ

وهذه الشروح مختلفة ففيها المختصر وفيها المطول ، فيها المتعقب للناظم يتحامل عليه ويتلمس له المزالق وفيها المتحيز له والمصحح لكل ما يجيء به ، وفيها الذي اتخذ طريقا وسطا بين الايجاز والاطناب والتحامل والتحيز .

ومن هؤلاء الذين سلكوا طريقا بين الطريقين بهاء الدين بن عقيل فانه لم يعد الى الايجاز حتى يترك بعض القواعد الهامة ولم يقصد الى الاطناب فيجمع من هنا ومن هنا ويبين جميع مذاهب العلماء ووجوه استدلالهم ولم يتعسف في نقد الناظم بحق وبغير حق كما لم يتحيز له بحيث يتقبل كل ما يجيء به ، وافق الصواب أو لم يوافقه .

وطلاب اللغة العربية مدينون لهذا الإمام أعنى ابن مالك الذي أسدى هذه الذخائر فما أحراه بكتاب منفرد فيه التعريف بحياته ومؤلفاته وما فيها بالتفصيل ، نعم ان المحسن لا يضيع عمله عند الله فقد جعل الله لابن مالك لسان صدق فيمن بعده ، فمؤلفاته وأقواله تناقلها العلماء في كتبهم مشارقه ومغاربه ، فالرضى القريب منه زمنا وهو من المشارقة نقل عنه في شرحه الكثير من مقاله . والمغاربة ومن في القطرين اتبعوه واعتمدوا عليه فكان قطب دائرتهم . هذا والغريب من ابن خلكان الذي كان يشيعه الى بيته بعد الصلاة كل يوم تعظيما له الا يترجم له في وفيات الأعيان ، وقد كانت له منزلة كبرى لذى علماء عصره ، يروى ان الشيخ تاج الدين عبد الرحمن الغزاري العالم المشهور تأسف يوم موت (ابن مالك) تأسفا كثيرا فقيل له : أكان الشيخ جمال الدين (ابن مالك في النحو مثله في الفقه فقال له : والله ما أنصفتموه بل كان في النحو مثل الشافعي في الفقه ولما توفي ابن مالك سارع الأدباء لرثائه بشعر يحمل

في طياته الأسى والألم مما يدل على مكانة الرجل في نفوس معاصريه ، فقد رثاه الشرف الحصني بقصيدة طويلة قال الصفدي : ما رأيت مرثية في نحوي أحسن منها على طولها ، وقد رثاه من تلامذته النجباء : الشيخ بهاء الدين بن النحاس بقصيدة منها :

قل لابن مالك ان جرت بك أدمعـ ـي حمرا يحاكيها النجيع القاني
فلقد جرحت القلب حين نعيت لي وتـدفقت بـدمـائـة أجفـاني[1]

وعلى الرغم من تقدير علماء العصر لابن مالك فان ابا حيان كان له من ابن مالك موقف معين ذكرت جزءا منه في نقده له في استشهاده بالحديث على اطلاقه وقد كان أبو حيان أندلسيا رحل الى المشرق كما رحل ابن مالك وكان ابن مالك شيخا تقدمت به السن ومنع أبا حيان غروره من أن يجلس في حلقة ابن مالك هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى أن الرجلين كانا من موطن واحد والمنافسة بين أبناء الوطن الواحد تصل في أكثر الأحيان الى قمتها وتبلغ أشدها .

ومن هنا كان أبو حيان مضطربا في آرائه بالنسبة لابن مالك لا يثبت على فكرة ولا يستقر على رأي مما يدل على تسرع الشباب وعدم التريث في الحكم على الأشياء نراه يذمه ثم يعود بعد ذلك ليثبت عكس ذلك ويمدحه بما ينقض آراءه السابقة ، وبيان ذلك : أن صاحب نفح الطيب نقل عن كتاب أبي حيان (التذييل والتكميل) في باب الجوازم أن ابن مالك « لم يصطحب من له البراعة في علم اللسان » ، ولذا تضعف استنباطاته ، وتعقباته على أهل هذا الشأن وينفر من المنازعة والمباحثة

1) وترجمته في نفح الطيب الباب الخامس من القسم الأدبي وفوات الوفيات والوافي بالوفيات وبغية الوعاة وشذرات الذهب ، وبغية الوعاة ص 55 الطبعة الأولى 1326 هـ على نفقة الخانجي وآخرين .

والمراجعة قال : وهذا شأن من يقرأ بنفسه ويأخذ العلم من الصحف بفهمه ». ثم نقل تعقيب العلامة يحيى العجيس ، الذي تولى الرد على أبي حيان حيث قال معقبا على قوله السابق : « وليس ذلك منه بانصاف ولا يحمل على مثله الا هوى النفس وسرعة الانحراف » ويا ليت أبا حيان يقف عند هذا الرأي لأنه لو كان كذلك لقلنا هذا رأي كونه بعد تجربة وجمعه بعد خبرة ، ولكن أبا حيان لم يكن كذلك بالنسبة لابن مالك فقد كان يلقي القول على عواهنه ، من غير تثبت أو روية وأناة وهذا عيب كبير وبخاصة في رجل كأبي حيان ، ولعل مرد هذا كما قلت الى الشباب الذي لا يفكر في العواقب حينما تسيطر عليه الاندفاعات ، ولا أدل على ذلك ايضا من كلام أبي حيان نفسه في ابن مالك حينما قال عنه في موضع آخر يناقض كلامه السابق ونقله صاحب نفح الطيب « انه نظم من هذا العلم ـ بقصد النحو ـ كثيرا ونثر وجمع باعتكاف على الاشتغال به ومراجعة الكتب ومطالعة الدواوين العربية وطول السن من هذا العلم غرائب وحوت مصنفاته منها نوادر وعجائب ، وان منها كثيرا استخرجه من أشعار العرب وكتب اللغة إذ هي مرتبة الأكابر النقاد وأرباب النظر والاجتهاد » .

وقال عنه أيضا « لا يكون تحت السماء أنحى ممن عرف ما في تسهيله ، وقرن التسهيل في البحر المحيط بمصنف سيبويه ، وقدأسهر أبو حيان نفسه في المشاركة العلمية في كتب ابن مالك يقول صاحب بغية الوعاة (فهو الذي جسر الناس على مصنفات ابن مالك ورغبهم في قراءتها وشرح لهم غامضها وخاض بهم لججها)[1] .

---

1) د. عبد العال سالم مكرم ـ العدد 166 من العربي سبتمبر سنة 1972 مقال بعنوان ابن مالك الاندلسي سيبويه زمانه في الدراسات النحوية . ص 131

منهج ابن مالك في الدراسات النحوية :

كان لابن مالك منهج خاص في الدراسات النحوية صنعه بنفسه وكونه من ثقافاته ومعارفه ، فما هي الأصول التي يقوم عليها هذا المنهج ؟

ذكر المقري انه « كان أكثر ما يستشهد بالقرآن ، فان لم يكن شاهد عدل الى الحديث وإن لم يكن شاهد عدل الى اشعار العرب » .

واستشهاد ابن مالك بالقرآن الكريم لا يقف عند القراءات المتواترة فحسب بل يأخذ بها جميعا في بناء القاعدة سواء كانت متواترة أو شاذة ، قال السيوطي : « ابن مالك أخذ بالقراءات الشاذة ورد على النحويين المتقدمين الذين يعيبون على عاصم ، وينسبونهم الى اللحن ، وهم مخطئون في ذلك فان قراءتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن عليها وثبوت ذلك دليل على جوازه في العربية ، فابن مالك إذن لا يتشدد في قبول القراءات كما كان يفعل علماء البصرة ، كان يرى أن هذه القراءات رويت عن عرب خلص ، ومن الغبن أن نستشهد بكلام لم تبلغ درجة العناية به كما بلغت في القراءات التي هي أولى في مجال الاستشهاد من شعر الشعراء وخطب الخطباء » .

الاستشهاد بالحديث الشريف :

وابن مالك يذهب الى صحة الاحتجاج بالحديث الشريف ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام أفصح العرب لسانا وأقواهم بيانا ، وأحسنهم بلاغة وقد اهتم رواة الحديث بما نقل عنه صلى الله عليه وسلم

وتشددوا في ضبطه ودققوا في روايته وتكبدوا المشاق والرحلات في سبيل ضبط هذه الأحاديث ومعرفة الرجال الذين نقلوها أو رووها ولهذا كان الاحتجاج بالحديث في نظر ابن مالك يلي القرآن الكريم في رتبة الاحتجاج به . وقد صنع في ذلك كتابا سماه « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وقد حققه المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي .

وابن مالك لا يلجأ الى الاستشهاد بأشعار العرب في إثبات القواعد النحوية الا بعد الرجوع الى القرآن الكريم وقراءاته ثم الأحاديث النبوية فهي في نظره أقوى في الاستشهاد وابلغ في الاحتجاج من أشعار العرب .

وهو اذا استشهد بأشعار العرب أتى بالعجائب والغرائب معا مما يدل على مقدرة كاملة واطلاع شامل وبصر باللغة دقيق ويكفي أن علماء عصره شهدوا له بطول الباع في هذا المضمار كما سبق وقد كان كالكوفيين في اتساع استشهاده بأشعار العرب والدليل على ذلك اعتراض أبي حيان على ذلك في التسهيل حيث قال « عني في كتبه بنقل لغة لخم وخزاعة وقضاعة وغيرهم وقال : ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن » .

القياس :

وابن مالك كان يراعي في أقيسته السهولة وكان يحترم كل مسموع ويقيس عليه ، لأنه يرى أن اللغة متطورة وكلما زادت أساليبها وكثرة المروى عنها وكلما اتخذ هذا المروى مهما كان قليلا ، أساسا ليقاس عليه ، كانت اللغة حية نامية متحركة ، وابن مالك في رأيي محق في

هذا كل الحق ، لأن الرواة لم يحيطوا بكل لهجات العرب ولغاتهم حتى يردوا ذلك المسموع القليل وربما كان لهذا المسموع نظائر كثيرة لم يستوعبها الرواة .

لذلك كان ابن مالك شخصية فذة في تاريخ الفكر العربي يستحق منا كل تقدير وإعجاب .

آراؤه النحوية :

1) الأشياء التي تدل على معنى الجمع ستة أشياء ، الأول : اسم الجمع نحو قوم ورهط ونسوة ، والثاني : اسم الجمع نحو روم وزنج وكلم ، والثالث : جمع التكسير لمذكر نحو رجال وزيود ، والرابع جميع التكسير لمؤنث نحو هنود وضوارب . والخامس جميع المذكر السالم نحو : الزيدين والمؤمنين والبنين ، والسادس : جمع المؤنث السالم نحو الهندات والمؤمنات والبنات وللعلماء في الفعل المسند الى هذه الأشياء ثلاثة مذاهب .

المذهب الأول : مذهب جمهور الكوفيين وهو أنه يجوز في كل فعل أسند الى هذه الأشياء الستة أن يؤتى به مؤنثا وأن يؤتى به مذكرا ، والسر في هذا أن كل واحد من هذه الأشياء الستة يجوز أن يؤول بالجمع فيكون مذكر المعنى ، فيؤتى بفعله خاليا من علامة التأنيث فيقول على هذا : جاء القوم ، وجاءت القوم ، وفي الكتاب العزيز (وقال نسوة في المدينة) وتقول زحف الروم وزحفت الروم ، وفي الكتاب الكريم (غلبت الروم) ، وتقول : جاء الرجال وجاءت الرجال وتقول : جاء الهنود وجاءت الهنود ، وتقول : جاءت الزينبات وجاءت الزينبات ، وفي التنزيل ﴿ اذا جاءك المؤمنات ﴾ . وقال عبده بن الطيب من قصيدة له :

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون الي ثم تصدعوا

وتقول : جاء الزيدون وجاءت الزيدون وفي التنزيل (آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل) ، وقال قريط بن أنيف ، أحد شعراء الحماسة :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة عن ذهل بن شيبانا

والمذهب الثاني مذهب أبي علي الفارسي وخلاصته أنه يجوز الوجهان في جميع هذه الأنوع إلا نوعا واحدا وهو جمع المذكر السالم فانه لا يجوز في الفعل الذي يسند اليه الا التذكير ، وأنت لو تأملت في كلام الناظم لوجدته بحسب ظاهرا مطابقا لهذا المذهب ، لأنه لم يستثن الا السالم من جمع المذكر .

والتاء مع جمع سوى السالم من مذكر كالتاء مع احدى اللبن
والحذف في نعم الفتاة استحسنوا لأن قصد الجنس فيه بين

والمذهب الثالث : مذهب جمهور البصريين وخلاصته انه يجوز الوجهان في أربعة أنواع وهي : اسم الجمع واسم الجنس الجمعي وجمع التكسير لمذكر وجمع التكسير لمؤنث وأما جمع المذكر السالم فلا يجوز في فعله إلا التذكير وأما جمع المؤنث السالم فلا يجوز في فعله الا التأنيث ، وقد حاول جماعة من الشراح كالأشموني أن يحملوا كلام الناظم عليه فزعموا أن الكلام على نية حذف الواو والمعطوف بها وأن أصل الكلام «سوى السالم من جمع مذكر ومن جمع مؤنث ، ولكن شارحنا ابن عقيل رحمه الله لم يتكلف هذا التكلف ، لأنه رأى أن لظاهر الكلام محملا حسنا وهو أن يوافق مذهب أبي علي الفارسي . فمراعاة المعنى هو الذي جعل ابن مالك يمنع التاء مع جمع المذكر السالم ويوجبها مع جمع المؤنث السالم اذ لا شبهة في

واحد منها لإدخال واحد من الجنس الآخر .[1]

2) والأصل سبق فاعل معنى كمن من (البسن من زاركم نسج اليمن)

تلخيص ما أشار اليه الشارح والناظم في هذه المسألة أن للمفعول الأول مع المفعول الثاني (اللذين ليس أصلهما المبتدأ والخبر ، ثلاثة أحوال ، الحالة الأولى يجب فيها تقديم الفاعل في المعنى والحالة الثانية يجب فيها تقديم المفعول في المعني والحالة الثالثة يجوفي فيها تقديم أيهما شئت ، وهذه هي الأحوال الثلاث ، أما الحالة الأولى فلها ثلاثة مواضع ، أولها : أن يخاف اللبس وذلك اذا صلح كل من المفعولين أن يكون فاعلا في المعنى وذلك نحو : أعطيت زيدا عمرا ، وثانيها أن يكون المفعول في المعنى محصورا فيه نحو قلك :(ماكسوت زيدا الا جبة) وما أعطيت خالدا الا درهما ، وثالثها : أن يكون الفاعل في المعنى ضميرا ، والمفعول في المعنى اسما المقدر كما أن النصب بضربا في قولك ضربا زيدا لنيابته عن اضرب لا لتضمنه معناه .

والثالث للجمهور أنه بشرط مقدر بعد الطلب (وهذا أرجح من الأول ، لأن الحذف والتضمنين وإن اشتركا في أنهما خلاف الأصل لكن في التضمين تغير معنى الأصل ولا كذلك الحذف وأيضا فان تضمين الفعل معنى الحرف اما غير واقع أوغير كثير ومن الثاني لأن نائب الشيء يؤدي معناه والطلب لا يؤدي معنى الشرط)[2] .

1) انظر ص 483 شرح قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمذاني المصري شرح راجي عفوان ربه أو رجاء محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة 14 م السعادة سنة 1964 .

2) ترجيح ابن هشام رحمه الله وتعقبه في الحاشية الشيخ محمد الامير بأن ما قاله في التضمين =

رأي ابن مالك :

وأبطل ابن مالك بالآية أن يكون الجزم في جواب شرط مقدر ، لأن تقديره يستلزم أن لا يتخلف أحد من المقول له ذلك عن الامتثال ، لكن التخلف واقع فأجاب ابنه بأن الحكم مسند اليهم على سبيل الاجمال لا الى كل فرد فيحتمل أن الأصل يقم أكثرهم ثم حذف المضاف وأنيب عنه المضاف اليه فارتفع واتصل بالفعل وباحتمال أنه ليس المراد بالعباد الموصوفين بالايمان مطلقا بل المخلصين منهم وكل مؤمن مخلص قال له الرسول أقم الصلاة أقامها[1] ، وقد أرجع ابن مالك التضمين الى تضمين الطلب معنى الشرط كما قال الشيخ محمد الأمير في حاشيته في معرض تعليه على رأيه ، وقال إن كلامه مبني على التلازم العقلي بين الشرط والجزاء وتكفي العلية فقط ولا يلزم كما قال ابن الحاجب أن تكون العلية تامة للجزاء بل يكفي مجرد توقف الجزاء عليه ، ووافق السيد بناء على الأصول ابن مالك أن كلمة ان غلبت في السببية فدلت على ترتب الثاني على الأول ووقوعه اثره قطعا ولو بالحصول الجزئي وقوله تعالى (قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة) فيه اشارة الى أن الذي ينبغي من المؤمنين كلهم أن يبادروا باقامتها اثر قول النبي صلى الله عليه وسلم وما قاله السيد موافق لما قاله ابن مالك في الترتيب الكلي كما هو مقتضى معنى الشرط اصطلاحا أو الجزئي كما قال ابنه وهو رأي وجيه قائم على معنى دقيق لا يصل اليه الا من أوتي قريحة متفتحة فاهمة ذات روية .

---

* إنما هو بمعنى اشراب الكلمة معنى كلمة اخرى ولا يتأتى هذا في اسميه ابراهيم اذ ليس المراد التعليق بل طلب القول مطلقا . والعرب لا يستعملون فعل الطلب ويعلمه مضارع مجزوم الا في مقام يكون القصد فيه ترتب مضمون المضارع على مضمون فعل الطلب .

1) المغني ص 189

اختيارات ابن مالك من المذاهب النحوية :

ولابن مالك اختيارات كثيرة من مذاهب البصريين والكوفيين والبغداديين وسابقيه من الأندلسيين غير آراء اجتهادية ينفرد بها .

فما اختاره من مذاهب البصريين ما ذهب اليه سيبويه من أن الفعل عسى في قولك « عسيت أن تفعل » مضمن معنى قاربت وبذلك يكون محل (أن تفعل) النصب على المفعولية[1] وكان يرى رأي يونس في أن أما الثانية في مثل (قام أما زيد وأما عمرو) غير عاطفة وإنما العاطف الواو السابقة لها .[2] واختار رأي المبرد في أن إذا الفجائية ظرف مكان .[3] .

واختار كثيرا من آراء الأخفش منها في باب كان مسألتان أولاهما : دخول الواو على أخبارها اذا كانت جملة تشبيها لها بالجملة الحالية مستدلين بقول بعض الشعراء :

وكانوا أناسا ينفحون فأصبحوا   وأكثر ما يعطونه النظر الشزر

وذهب الجمهور الى أن (أصبحوا) في البيت تامة والجملة حالية واختار رأي ابن جني في أن الجملة قد تبدل من المفرد وخرج عليه قوله تعالى (ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك ـ الآية) سورة فصلت قائلا : إن ربك وما بعدها بدل من ما وصلتها .[4] .

وكان أحيانا يأخذ برأي أسلافه من الأندلسيين من ذلك رأيه رأي

---

1) جـ 1 ص 27

2) المغنى جـ 1 ص 57

3) المغنى جـ 1 ص 80

4 الهمع جـ ٢ ص 128

الشلوبين ومن سبقه مثل الرماني في أن خبر المبتدأ بعد لولا اذا كان كونا عاما كالوجود والحصول وجب حذفه مثل :

فوالله لولا الله ما اهتدينا

اما اذا كان كونا مقيدا مثل السفر ونحـوه وجب ذكره كقولك (لولا علي لزرتك) [1] وكان يذاهب مذهب ابن عصفور في أن (كأين) كما تأتي للتكثير في مثل (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير) تأتي للاستفهام كما جاء في قول أبي بن كعب لعبد الله بن مسعود (كأين تقرأ سورة الاحزاب آية ؟ فقال ثلاثا وسبعين)[2] .

«آراء ابن مالك الخاصة» :

ولابن مالك وراء هذه الاختيارات من مذاهب النحاة السابقين آراء كثيرة ينفرد بها من ذلك أنه كان يرى أن علامات الاعراب جزء من ماهية الكلمات المعربة بينما كان يرى الجمهور أنها زائدة عليها[3] وذهب الى أن قراءة (ان هذان الساحران) انما هي على لغة للحارث ابن كعب في اجراء المثنى بالألف دائما[4] وجوز تثنية اسم الجمـع والجمع المكسر مستدلا بمثل (قد كان لكم آية في فئتين) (يوم التقى الجمعان)[5] وجوز الاخبار عن اسم عين بظرف الزمان بشرط الفائدة مثل الليلة الهلال والبلح شهرين[6] وكان

1) المغنى جـ 1 ص 215
2) المغنى جـ 1 ص 159
3) الهمع جـ 1 ص 42
4) المغنى ص 37 جـ 1
5) الهمع جـ 1 ص 42
6) الهمع جـ 99/1

يرى أن «اذ» قد تقع للاستقبال مستدلا بقوله جل وعز شأنه ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾[1] .

واذا تصفحت المغني في معاني الحروف وجدت له معاني جديدة في (الى) و (عن) و (على) و (الكاف) مدعما رأيه بالآية القرآنية حتى لتكاد تلمس المعنى بيديك (وكان الجمهور يذهب في مثل قول شاعر : «وزججن الحواجب والعيونا» وقول آخر : علفتها تبنا وماء بارداً الى أنه من عطف الجمل باضمار فعل مناسب مثل كحلن في الشطر الاول وسقيتها في الشطر الثاني ، وذهب ابن مالك الى أنه من عطف المفردات لما يجمع بين العامل المذكور والمحذوف من معنى مشترك هو التحسين في الأول والطعام في الثاني) وهو دائما على هذه الشاكلة يذكر الشاذ ولا يقيس عليه كما يفعل الكوفيون ولا يعمد الى تأويلة كما يصنع البصريون كثيرا وكان رائده في أحكامه السماع وكان عقله دقيقا لم يستغله في تمثل آراء السابقية واستنباط الجديد منها بل استغله أيضا في تحرير أبواب النحو ومصطلحاته وتذليل صعابه ومشكلاته ، رحمه الله رحمة واسعة .

والمسألة الثانية دخول الواو على خبر ليس وكان المنفية اذا كان جملة وتاليا لإلا كقول أحد الشعراء :

ليش شيء الا وفيه إذا ما قابلته عين البصير اعتبار

وقول آخر :

ما كان من بشر الا وميتته محتومة لكن الأجال تختلف

وأنكر ذلك الجمهور ذاهبين الى أن الخبر حذف ضرورة أو أن الواو

---

1) الهمع جـ 204/1 والمدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ص 316 نقلا عن الهمع جـ 130/2

زائدة ، كما أخذ برأيه في أن الحال لا تجيء من المضاف إليه الا اذا كان جزءا من المضاف أو مثل جزئه على شاكلة قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا) وقوله (واتبع ملة ابراهيم حنيفا) لأنه لو استغنى عن المضاف وقيل نزعنا ما فيهم اخوانا واتبع ابراهيم حنيفا لاطرد السياق والكلام) .[1]

وإذا كان الكوفيون قد تابعوا الأخفش في كثير من المسائل فقد تابع ابن مالك الكوفيين في بعض المسائل منها جواز اقامة غير المفعول به من الظرف والجار والمجرور والمصدر ونائب فعال مع وجوده كما جاء في قراءة أبي جعفر (ليجزي قوما بما كانوا يكسبون)[2] ومجيء اذ الظرفية مفعولا بمثل (واذكروا اذا كنتم قليلا) وبدلا منه مثل (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت) والجمهور لا يثبتون ذلك)[3] .

كما اختار بعض مسائل انفرد بها الكوفيون من ذلك ما ذهب اليه من أن مذ ومنذ إذا وليهما اسم مرفوع مثل (ما رأيته مذ أو منذ شهران) ظرفان مضافان لجملة حذف فعلها وبقي فاعلها والأصل : مذكان شهران ، وكان المبرد وابن السراج والفارسي يذهبون الى أنهما مبتدآن وما بعدهما خبر ، وذهب الاخفش والزجاج والزجاجي الى أنهما ظرفان مخبر بهما عما بعدهما .[4]

واختار رأيهم في أنه اذا وقع بعد الجار والمجرور مرفوع وتقدمهما نفي أو استفهام أو موصوف أو موصول أو صاحب خبر أو حال كان فاعلا

---

1) الهمع جـ 1 ص 240
2) الهمع جـ 1 ص 37
3) الهمع جـ 1 ص 162
4) المغنى جـ 2 ص 22

للجار والمجرور لنيابتها عن الفعل المعد باستقر في مثل (ما في الدار أحد)[1] وأن لو مصدرية في مثل يود أحدهم لو يعمر ، ومثل (ودوا لو تدهن فيدهنون)[2]

واختار آراء البغداديين في كثير من المسائل من ذلك رأي الزجاجي[3] في أن سوى مثل غير في المعنى والتصرف فتكون فاعلا في مثل جاءني سواك ومفعولا في مثل رأيت سواك وبدلا أو منصوبة على الاستثناء في مثل ما جاءني احد سواك وذهب الجمهور الى أنها ظرف مكان ملازم للنصب[4] والمعنى في رأيي يشهد لاختيار ابن مالك وأخذ برأي الفارسي في أن معاني الباء الجارة التبعيض مثل : عينا يشرب بها عباد الله[5]

1) المغنى جـ 2 ص 79

2) المغنى جـ 1 ص 210 و 211

3) (الزجاجي) هو ابو عمر ومحمد بن ابراهيم الزجاجي النيسابوري جاور بمكة سنين كثيرة وتوفي بها 348 هـ .

4) المغنى جـ1 ص 124 6) المغنى جـ 1 ص 98

القسم الثاني :

« نظرية العامل »

« وبواعثها »

تمهيد :

اللغة العربية دعامة قوية من دعائم نهضتنا وعنصر هام من عناصر قوميتنا ، وهي لسان كل عربي وبها يتفاهم العرب في كل مكان ، توثق من صلاتهم ، وتؤلف بين قلوبهم وتدل على عروبتهم اذا اغتربوا عن أوطانهم ، وليست كذلك اللغة العامية بعد أن كادت لهجاتها المختلفة في أقطار الوطن العربي تقطع وشائج التفاهم والإفهام ، واعتزازنا بلغتنا العربية اعتزاز بلغة لها ثقافتها العريقة الخالدة فقد ظلت هذه اللغة وعاء لحضارة الجنس البشري أمدا طويلا ، حينما فرضها العرب في عهودهم الزاهرة على العالم وبها وصلت علومهم الى أوربا ، ولا تزال متسعة للثقافة العالمية الحاضرة ، تساير بخصائصها ركب الزمن وتتكيف مع الحياة وتعبر عن مختلف المشاعر والأحاسيس ، ويجب أن ننظر اليها لا على أنها مادة من المواد بل أداة من أدوات الثقافة تنفذ منها أشعة المعرفة ويشع من خلالها النور ، ولقد حاول الاستعمار الاستخفاف بها والنيل منها باستعماره الثقافي الذي هو من أخطر أنواع الأستعمار حاربها ، لأنها لغة الوحي ولغة القرآن ، والدين يدعو الى العزة التي لا نريدها للعرب ، ولقد أعطاها هذا الدستور الالهي الخالد مثلا في الصياغة

اللغوية كانت بين اللغات مثلا فريدا في الاعجاز اللغوي .

وفي ضوء هذه الحقيقة نحكم للغة العربية بمغايرتها لسائر اللغات .

نحن لا ننكر أنه قد تكون لقوم من الأقوام لغة حية ثم أن يكون لهم كتابهم الديني ولكننا لا نرى بين لغة قوم من الأقوام وبين كتابهم الديني هذه الرابطة المتينة التي نراها بين العربية والقرآن ، انها رابطة فريدة المثال لا تعد لها في هذا الباب رابطة ، وأن القرآن بالنسبة الى العرب جميعا كتاب لبست فيه لغتهم ثوب الاعجاز وهو كتاب يشد الى لغتهم عشرات الملايين من أجناس أقوام يقدسون لغة العرب ويفخرون بأن يكون لهم ثم منها نصيب .

أردنا من ذلك أن نبين أن اللغة العربية من هذه الناحية ليست كسائر اللغات الاخرى وأن السهم الذي يسدد الى العربية لا يسدد الى حروف وألفاظ ولا الى صيغ وتراكيب ولكنه سهم يسدد من أمتنا في الصميم . .

ان اللغة العربية مظهر رائع لامتزاج الشكل العربي بالمضمون الاسلامي ، ومن هنا كان أصحاب النفوس الحاقدة والغايات الفاسدة من استعمارية وغيرها وراء كل دعوة إلى الفصل بين هاتين القوتين العظيمتين ، كانوا دوما وراء الطعن في إحداهما ، لأنه طعن مزدوج لا يصيب واحدة منهما الا أصابهما جميعا .

ولقد اتخذت محاولات الطعن في العربية أو في الاسلام والطعن فيهما سواء ـ أشكالا ومظاهر شتى فهي تلبس تارة ثوب الطعن في الأدب القديم وصحته وتظهر تارة بمظهر تشجيع اللهجات المحلية لتفتيت اللغة

الواحدة وتمزيق الناطقين بها ، وتارة تلبس ثوب الثورة على القديم والدعوة الى الجديد . . . فمن مناد بالتمرد على الأسلوب العربي القديم ، وهو لا يتمرد في حقيقته على قدم الأسلوب وانما يتمرد على صحة اللغة وسلامتها ، ومن قائل بضيق العربية وقصر باعها عن مواكبة الحضارة ومن ناعق بهجر الحرف العربي الى الحرف اللاتيني ، ومن داع الى تغيير القواعد . . . ومن داع للاعتراف بالعامية وما فيها من أدب وفن[1] .

وإنها لسهام مسمومة تسدد بأيد عربية الى قلب العروبة والاسلام باسم الاصلاح اللغوي وتخدم أهداف الاستعمار .

لقد غزينا في أفكارنا وقلوبنا ، واذا جاهد من يستطيع الجهاد بالنار والبارود أو بالمال والعتاد ، أفلا أقل من أن يجاهد صاحب الفكر والقلم بكلمة حق يقولها وان نور الكلمة المخلصة ليعادل جروح الشهداء ، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : مداد العلماء يعدل دماء الشهداء . . .

ولم يصادف نحو من العناية ما صادف النحو العربي ولم ينل ما نال من بحث ودرس نشأ في أخريات القرن الأول للهجرة ونما وتكون في القرنين الثاني والثالث ثم استمر يفصل وينفخ في القرون الخمسة التالية ، وكان طبيعيا أن يعنى به ، لأنه وسيلة لحماية اللغة من لحن الأعاجم وسيل الفتوحات الاسلامية الشاسعة وأداة لفهم الكتاب والسنة وبخاصة لحماية الموالي الذين لم تكن العربية فطرتهم ولا الفصحى سليقتهم .

---

1) نحو وعي لغوي للدكتور مازن المبارك مكتبة الفارابي دمشق سنة 1970 ص 8 و 9

(أ) وضعه :

مهد النحاة الاول في البحث عن الولاة وان لم يسلموا من الخطأ ومنهم من عاش في البادية زمنا لينهل من المنبع الأول ويأخذ العربية من أهلها ممن لم تفسد, سلائقهم في الحضارة ولم تصل اليهم عدوى الاختلاط واتصلوا بالدراسات الاسلامية الناشئة في الفقه والكلام ومن بينهم من كان فقيها أو متملكا وألموا بالحركات الفكرية في البصرة والكوفة وهما مدينتا العلم الأوليان في الاسلام بعد مكة والمدنية ، وعاشوا في عصر الترجمة وعرفوا بعض كبار المترجمين ممن عرضوا لنحو لغات أخرى كالسريانية واليونانية ، ووقفوا على شيء من الفلسفة والمنطق وبخاصة كتب ارسطو المنطقية التي لم تخل من دراسات نحوية ، وفصلت القول في القياس ولواحقه من استقراء وتمثيل ، وكان لهذا كله أثره في نشأة النحو العربي ومما يلفت النظر في هذه النشأة أنها سارت مسرعة وظهرت ثمارها عاجلة فلم يكد يمضي قرن واحد على الاشتغال بالنحو حتى استوى علما يكاد يكون تاما ، ظهرت فيه أولا بعض الرسائل الصغيرة ، ثم تلاها (الكتاب لسيبويه) الذي عد مضرب المثل في الكتب الأولى الجامعة وأضحى أساسا لمعظم الدراسات النحوية اللاحقة ولم يتوفر لكثير من العلوم الاسلامية ما توفر للنحو من بحث وتأليف تعددت بين بصرية وكوفية وبغدادية وأندلسية تعاصرت حينا وتلاحقت حينا آخر ، تلاقت تارة وتعارضت تارة أخرى ، وكان الخلاف بينهما مثار أخذ ورد أو حافزا على التوسط والجمع والتوفيق ، عولج النحو في كتب اللغة والأدب ومن بينها ما يشتمل على طرائف نحوية قد لا تجدها في كتب النحو نفسها وضعت فيه كتب مستقلة ليصطبغ بصبغة خاصة ويقوم على مصطلحات واضحة والنحويون من

أحرص علماء الاسلام على مصطلحاتهم وهذه الكتب بين منثور ومنظوم ومنها ما أضحى أمهات الكتب كالكتاب لسيبويه والمفصل للزمخشري والالفية لابن مالك والكافية لابن الحاجب والمغني لابن هشام وشرحت في كتب أخرى شواهد هذا النحو ونصوصه وجمعت شواذه وغرائبه وأحصيت أوجه الخلاف بين نحوي ونحوي أو بين مدرسة وأخرى وترجم للنحاة ورتبوا طبقة طبقة وطبق النحو على العلوم الأخرى بحيث لا يكاد يخلو مؤلف من مسائل نحوية ، وفي اختصار تشعبت الداراسات النحوية وكادت تستوعب في القرون الستة الأخيرة معظم النشاط الفكري والثقافي في العالم العربي ولم يمتد اليها حكم الحل والحرمة الذي أصدر على دراسات أخرى .

ونستطيع أن نقرر أن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربي ، جاء وليد صبر وجلد وجمع وتنسيق وفقه تام للغة وقام على ملاحظة دقيقة وتتبع واسع واستنباط سليم ، وأخذ من المنطق ما أمكن ولم يرق واحد من نحو اللغات القديمة الى مستواه فنحو اليونانية واللاتينية في اللغات والنهد وأوبدية ونحو السريانية والعبرية في اللغات السامية لم يصل الى ما وصل اليه من عمق البحث وسعة الدراسة وكشف الآراء ، أما اللغات الحديثة فهي أميل الى اختصار نحوها والوقوف به عند أضيق الحدود الممكنة وكان للنحاة الأول شأن وسلطان أدبوا الأمراء والخلفاء ، عارضوا الخطباء والشعراء ونصبوا أنفسهم قوامين على اللغة يخطئون هذا ويصوبون ذاك ، وكثيرا ما نزل الرؤساء عند حكمهم خوفا من اللحن ومسبته استنكروا بعض الشعر وان صدر عمن يحتج به كالنابغة والفرزدق وترددوا في الاستشهاد بالحديث ، لأنه يروى بالمعنى وبين رواته كثير من الأعاجم وعدوا أيضا الى بعض القراء فخطئوهم في بعض

ما كانوا يقرءون ، وقد فصلنا ذلك عند التحدث عن أصول النحو السماعية[1] .

وقد أطال النحاة التحدث عن العامل ، فقد نظر العلماء في اللغة العربية فوجدوا فيها خصائص مشتركة في الضبط والصوغ تسير على نهج خاص فنبه ذلك أذهانهم الى وضع قواعد عامة يلمون فيها بهذه الخصائص والعامل كما يقول ابن الحاجب هو ما به يتقوم المعنى المقتضى للاعراب ، ولقد كان من الهين أن يتبع النحاة القول (ان الكلمة اذا جاءت على نسق بعينه في الجملة كانت مرفوعة أو منصوبة مثلا وأن يقتصر على تحليل التراكيب العربية وايضاح مكانة الكلمات فيها وما يستتبعه وضعها في التراكيب من ظواهر نحوية ولكنهم تعمقوا ووسعوا مجال بحثهم ومزجوا قواعدهم النحوية بعناصر فلسفية واسترسلوا في البحث عن الأسباب وربطوا بها النتائج واستغلوا فكرة أن كل حدث لا بد له من محدث وكل أثر لا بد له من مؤثر فطبقوها على الكلمات وضبطها في شتى أوضاعها وبحثوا عن شيء بعينه لينسبوا اليه أحداث هذه الظواهر الإعرابية وهذا الشيء هو ما أسموه العامل فأثبتوا له الوجود ووضعوا له أحكاما وقواعد ثم عادوا يحتكمون الى هذه القواعد التي وضعوها ويتخذونها أساسا للجدل واقامة الحجة وتفضيل رأي على رأي[2] .

لقد كثر الكلام على العامل قديما وحديثا وعلى ما له من أثر سيء في النحو العربي وفي الأساليب وصياغتها وفهمها ولم نر بين المتكلمين

---

1) انظر العوامل وأقسامها وبيره معنى العامل (الكراسة الاولى ص 7 و 8 و 9) .

2) عبد الحميد حسن من كتاب القواعد النحوية مادتها وطريقتها طبع 1953 مكتبة الانجلو المصرية مطبعة العلوم الخليج مصر .

من راعي جانب الاعتدال والانصاف وأقوى ما وجهوه الى العامل من طعن أمران :

أولهما : أن النحاة نسبوا العمل إليه فجعلوه هو الذي يرفع أو ينصب أو يجر أو يجزم مع أنه قد يخفي المعنى أو يعقده وكيف ينسب اليه العمل وهو لا يعمل شيئا وانما الذي يعمل هو المتكلم .

ثانيهما : أن النحاة وقد قصروا عليه العمل وحده بحثوا عنه في بعض التراكيب العربية الصحيحة فلم يجدوه وقد اضطروا أن يقدروه وأن يفترضوا وجوده ويتكلفوا ويتعسفوا .

والحق أن النحاة أبرياء مما اتهموا به أذكياء بارعون فيما قرروه بشأن (نظرية العامل) فقد قامت على أساس يوافق خير أسس التربية الحديثة لتعليم اللغة ، وضبط قواعدها وتيسير استعمالها ونسوق لهذا مثلا يوضحه ويزد الأمثلة إيضاحا : (أكرم محمود الضيف ، محمود في هذه الجملة ينسب اليه شيء وكذلك الضيف ، فما الذي ينسب اليه العمل فيها ؟ ينسب الى محمود أن فعل الكرم فبدلا من أن تقول : ينسب الى محمود أنه فعل شيئا هو الكرم ، أن ينسب الى محمود أنه فاعل الكرم ، حذفنا هذه الكلمات الكثيرة واستغنينا عنها برمز صغير اصطلح عليه النحاة ويرشد اليها ويدل عليها ، ذلك الرمز هو الضمة في آخر كلمة محمود ، فهذه الضمة على صغرها تدل على ما تدل عليه تلك الكلمات المحذوفة الكثيرة وهذه مقدرة وبراعة أدت الى ادخار الوقت والجهد باستعمال ذلك الاصطلاح الذي دل عليه المعنى المطلوب بأخصر إشارة .

لكن كيف عرفنا في التركيب السابق أن (محمود) فعل شيئا أي

أنه فاعل ؟ عرفنا ذلك من كلمة قبله هي أكرم ويسميها النحاة فعلا ، فوجود الفعل دل عليه وجود الفاعل ووجود الفاعل يقتضي أن نعلنه ونذيع أنه الفاعل ، وطريقة الاذاعة قد تكون بكلمات كثيرة أو قليلة أو برمز يغني عن هذه وتلك كالضمة التي اختارها النحاة واصطلحوا على أنها الرمز الدال على الفاعلية وعلى هذا يكون الفعل هو السبب في الإهتداء ، أولا : الى الفاعل والى الكشف عنه الى وضع الرمز الصغير في آخره اعلانا على أنه الفاعل وشارة دالة عليه ، فالفعل هو السبب أيضا في ذلك الرمز وفي اجتلابه والاتيان به ، فليس غريباً أن يقول النحاة (ان الفعل هو الذي عمل الرفع في الفاعل لأنه السبب في مجيئه ويسمونه من أجل ذلك عاملا) .

(ب) متل هذا يقال في كلمة (الضيف) فقد نسب اليه شيء كما سبق فما ذلك الشيء ؟ هو الكرم، وقد حذفنا هذه الكلمات الكثيرة واستغنينا عنها برمز صغير ، اصطلح عليه النحاة يرشد اليها ويدل عليها وهو الفتحة في آخر الضيف ، فهي تؤدي ما تؤديه الكلمات المتعددة التي حذفت ، والذي أرشدنا الى أن الضيف وقع عليه شيء هو وجود الفعل والفاعل معا قبله ، ولما كان الفعل هو المرشد الي الفاعل والدال عليه وكان الفعل هو الأصل في الارشاد والدلالة على الفاعل وعلى المفعول فهو الأصل أيضا في جلب العلامة الدالة على كل منهما هو السبب الأساسي في مجيئها فسمى لذلك (عاملها) وما يقال في الفعل مع فاعلة ومفعوله يقال في غيره من العوامل الأخرى مع معمولاتها سواء أكانت عوامل لفظية كالفعل وكحروف الجر والجوازم أو معنوية كالابتداء وبما تقدم نعلم أن تلك العوامل بنوعيها ليست مخلوقات حية تجري فيها الروح فتعمل ما تريد وتحس بما يقع عليها وتؤثر بنفسها

وتتأثر حقا بما يصيبها وتحدث حركات الاعراب المختلفة ليس لها شيء من ذلك ، انما الذي يؤثر ويتأثر ويحدث حركات الاعراب هو المتكلم وليست هي ولكن النحاة نسبوا اليها العمل لأنها المرشد الى المعاني والرموز ، نعم لها بعض عيوب يمكن تداركها[1] .

وانا نسوق أهم هذه القواعد الخاصة بالعامل .

« الفعل » العمل أصلي في الأفعال (الاسم) العمل فرع في الأسماء ، والاسم لا يعمل الا في حالتين (احداهما) اذا قربت مشابهته للفعل، فيعمل الرفع والنصب ، وذلك في اسم الفاعل واسم المفعول وما شبه بهما من طريق التثنية والجمع والتذكير والتأنيث وهي الصفة المشبهة (الثانية) أنه يعمل كذلك يشبه الحرف فيعمل الجر في حالة الاضافة ويعمل الجزم في الأدوات الجازمة التي تجزم فعلين ثم أثبتوا العمل للمصدر ولأفعل التفضيل أما المصدر فانه يعمل عمل الفعل لأن الفعل مشتق منه ، وأما أفعل التفضيل فاذا صحبته (من) بعد عن شبه الفعل فلذلك لا يعمل في الاسم الظاهر الا في حالة خاصة لها شروطها المدونة (الحرف) العمل فرع في الحروف ، والحروف التي تعمل هي الحروف المختصة أما بالأفعال واما بالأسماء ، وإنما كان الاختصاص موجبا للعمل ليظهر أثره ويعمل الحرف في القبيل الذي اختص به فان وأخواتها تعمل في الأسماء والنواصب والجوازم تعمل في الأفعال ويشترط لجواز عمل الحرف ألا ينزل من الكلمة منزلة الجزاء أما اذا كان كذلك فانه لا يعمل ، كالسين وسوف وقد ، لأنها كالجزء مما يليها ويستدلون على ذلك بدخول اللام على سوف في قوله تعالى

---

1) النحو الوافي للاستاذ عباس حسن هامش صفحتي 68 و 69 جـ 1

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى فلولا أنها بمنزلة حرف من حروف الفعل ما جاز الفصل بها بين اللام والفعل .

وكان القياس في (ما) النافية على هذا أن لا تعمل ، لأنها غير مختصة ولكن لها ناحيتين فلها شبه عام بالحروف غير المختصة في كونها تلي الأسماء والأفعال ولها شبه خاص بليس فكلتاهما للنفي وداخلة على المبتدأ والخبر ، وتخلص المضارع للحال بعد أن كان صالحا للحال والاستقبال فمن راعى الشبه العام لم يعملها وهم بنو تميم ومن راعى الشبه الخاص أعملها وهم الحجازيون .

ويقول الشلوبين : إن أصل الحروف ألا تعمل رفعا ولا نصبا لأن الرفع والنصب انما هما من عمل الأفعال من حيث كان كل مرفوع فاعلا أو مشبها به ، وكل منصوب مفعولا أو مشبها به فاذا أعملهما الحرف فانما يعملهما لشبه الفعل ولا يعمل عملا ليس له بحق الشبه الا الجر .

((العامل المعنوي))

هناك مواطن لم يهتد النحاة فيها الى عامل ظاهر ملموس فقالوا : إن العامل معنوي وهو ما ليس له ظاهرة والعوامل المعنوية هي :

1) الابتداء . عامل في المبتدأ وقيل إنه عامل في الخبر كذلك .

2) عامل الرفع في المضارع معنوي على الصحيح ثم ذهب النحاة في تحديد هذا العامل المعنوي مذاهب وهي :

أ) تجرده من الناصب والجازم .

ب) وتعريته عن العوامل اللفظية مطلقا .

جـ) اهمال جزمه أو نصبه .

د) وقوعه موقع الاسم فقولنا محمد يقوم وقع الفعل فيه موقع قائم في قولنا : محمد قائم .

هـ) نفس المضارعة .

و) بالسبب الذي أوجبه له الأعراب ، لأن الرفع نوع من الإعراب والثلاثة الأولى عدمية والأخيرة ثبوتية ، وقال أبو حيان ليس لهذا الخلاف فائدة ولا ينشأ عنه حكم منطقي .

3) الخلاف ومعناه : عدم المماثلة جعله بعضهم عاملا للنصب في الأفعال المضارعة بعد (أو) التي بمعنى إلى أو إلا ، وبعد الفاء والواو في جواب النفي أو الطلب ويريدون الخلاف مخالفة الثاني للأول من

حيث انه لم يكن شريكا له في المعنى ولا معطوفا عليه ، فهو ضدهم نظير قولك (لو تركت والأسد لأكلـك) نصبت لما لم تر عطف الأسد على الضمير اذ لا يصح التقدير لو تركت وترك الأسد .

4) العامل في الفاعل : ذهب قوم من الكوفيين الى أن الفاعل مرفوع باحداثه الفعل أو بمعنى الفاعلية أو بالإسناد .

5) عامل المفعول : ذهب بعضهم الى أنه معنى المفعولية .

6)العامل في الصفة والتأكيد وعطف البيان ، ذهب بعضهم الى أنه معنوي وهو كونها تابعة لما قبلها .

قواعد عامة :

وقد وضع النحاة الى جانب ما تقدم قواعد أخرى منها :

1) عوامل الأسماء لا تعمل في الأفعال والا بطل الاختصاص الموجب للعمل ، ولهذا كان الأصح في (كي) أنها حرف مشترك فتارة يكون حرف جر بمعنى اللام وتارة يكون موصولاً حرفياً ينصب المضارع لا أنها حرف واحد يجر وينصب .

2) مرتبة العامل أن يكون مقدما على المعمول .

3) قال الكوفيون : لا يمتنع أن يكون الشيء عاملا في شيء وأن يكون الآخر عاملا فيه وبنوا على ذلك أن المبتدأ يرفع الخبر ، والخبر يرفع المبتدأ .

ورد عليهم أبو الدهان بأن هذا فاسد من وجهين :

أحدهما : أن الخبر اذا كان عاملا فرتبته التقديم واذا كان معمولا

فرتبته التأخير والشيء الواحد لا يكون مقدما مؤخرا .

والثاني : أن الاسم ليس من حقه العمل وانما يعمل بشبه الفعل .

4) لا يجوز اجتماع عاملين على معمول واحد ، ولهذا رد قول من قال : ان الابتداء والمبتدأ معا عاملان في الخبر وقول من قال : إن (ان) وفعل الشرط عاملان في جواب الشرط .

5) الاسم لا يعمل في الفعل ولا في الحرف بل هو المعرض للعوامل من الأفعال والحروف .

هذه هي بعض الأصول التي وضعها النحاة في أحكام العامل ، ولما أرادوا الاحتكام اليها واتخاذها أساسا لتعليل الظواهر النحوية تشعبت بهم السبل في كثير من الأحوال فلم يكن العامل عندهم محل اتفاق بل كان مجالا لأراء مختلفة وحاول كل فريق منهم أن يقيم الحجة على صحة ما يذهب اليه فمن هذه الم المواطن :

العامل في المبتدأ ، في الخبر ، العامل في المفعول ، في المفعول معه ، في المستثنى بالا ، في الصفة ، في البدل ، في المضارع المرفوع ، في جواب الشرط ، في المشغول عنه ، في خبر ما الحجازية ، في الظرف اذا وقع خبرا فيما بعد واورب ، في المرفوع بعد مذ ومنذ .

العامل في المضارع المنصوب بعد واو المعية وفاء السببية ، في المضارع المنصوب بعد لام التعليل ، العامل في المضارع المنصوب اذااجتمعت قبله لام التعليل ، وكي وأن ، المنصوب بعد لام الجحود ،

العامل في المضارع المنصوب بعد حتى .

في الاسم المرفوع بعد ان الشرطية نحو (وان أحد من المشركين استجارك) كل هذه المواطن كانت محل خلاف بينهم ولنذكر أمثلة مما سرده النحاة في بعضها من آراء .

(العامل في المستثنى)[1]

في ناصب المستثنى أقوال :

1) أن الناصبة له إلا وصححه ابن مالك وعزاه لسيبويه والمبرد واستدل بأنها مختصة بالدخول على الاسم وليست كجزء منه فعملت فيه كما عملت فيه أن ولا النافية .

2) أن الناصبة له ما قبل الا من فعل ونحوه من غير أن يعدى اليه بواسطة الا وينسب هذا لابن خروف لأن (غير) اذا وقعت محل الا نصبت به بلا واسطة .

3) أن الناصب له ما قبل الا معدى اليه بواسطتها وعليه السيرافي والفارسي وابن بابشاذ وحكاه الشلوبين للمحققين قياسا على المفعول معه فان ناصبة الفعل بواسطة الواو .

4) أنه منصوب بأن مقدرة بعد إلا وعليه الكسائي فيما نقله السيرافي قال في قولنا : قام القوم الا زيدا ، التقدير : الا أن زيدا لم يقم .

5) أنه منصوب بان المكسورة المخففة وان (الا) مركبة منها ومن (لا) وعليه الفراء ، قال ولهذا رفع من رفع تغليبا لحكم (لا) ومن

1) همع الهوامع جـ 1 ص 224 والانصاف المسألة رقم 34

نصب غلب حكم (ان) .

6) منصوب لمخالفة الأول ، لأن المستثنى موجب له الحكم بعد نفيه الأول أو عكسه وعليه الكسائي .

7) أنه منصوب بفعل مضمر تقديره أستثني وعليه المبرد والزجاج .

العامل في المضارع المرفوع[1] :

1) ذهب أكثر الكوفيين الى أنه مرفوع لتجرده من العوامل الناصبة والجازمة ، لأنه اذا دخل عليه ناصب نصب واذا دخل عليه جازم جزم واذا لم يدخله شيء من ذلك كان مرفوعا فعلمنا أنه بدخولها لحقه النصب أو الجزم وبسقوطها عنه وتجرده منها دخله الرفع .

2) وذهب الكسائي الى أنه يرتفع بأحرف المضارعة في أوله ورد بعضهم على هذا بأن حروف المضارعة أجزاء من الفعل لا تنفصل عنه ، فاذا قلنا انها هي العاملة أدى ذلك الى أن يعمل الشيء في نفسه وبأنه لو كان الأمر على ما زعم ينبغي ألا ينصب المضارع أو يجزم لوجود حرف المضارعة أبدا في أوله .

3) وذهب البصريون الى أنه مرفوع لقيامه مقام الأسم وهذا عامل معنوي يشبه الابتداء والابتداء يوجب الرفع فكذلك ما أشبهه .

---

1) الانصاف المسألة رقم 74

العامل في جواب الشرط :

1) يقول الكوفيون : إن جواب الشرط مجزوم على الجوار ، لأن جواب الشرط مجاور لفعل الشرط ولازم له لا يكاد ينفك عنه فلما كان منه بهذه المنزلة في الجوار حمل عليه في الجزم ويقولون إن الحمل على الجوار كثير ويسوقون له شواهد من القرآن الكريم ومن أشعار العرب وقد رد البصريون عليهم في كل هذا .

2) ذهب أكثر البصريين إلى أن العامل في فعل الشرط وجوابه هو حرف الشرط وكما وجب أن يعمل في فعل الشرط فكذلك يجب أن يعمل في جواب الشرط .

3) وذهب آخرون إلى أن حرف الشرط وفعل الشرط يعملان في جواب الشرط وذلك لأن حرف الشرط وفعل الشرط يقتضيان جواب الشرط فلا ينفك أحدهما عن صاحبه فلما اقتضياه معاً وجب أن يعملا فيه معا واعترض بعضهم على هذا بأنه رأي ضعيف ، لأن فعل الشرط فعل والأصل في الفعل ألا يعمل في الفعل وإذا لم يكن للفعل تأثير والتأثير هو لأداة الشرط فاضافة ما لا تأثير له إلى ما له تأثير لا يكون ذا فائدة .

4) وذهب فريق الى أن حرف الشرط يعمل في فعل الشرط ، وفعل الشرط يعمل في جواب الشرط لأن حرف الشرط حرف جزم والحروف الجازمة ضعيفة فلا تعمل في شيئين فوجب أن يكون فعل الشرط هو العامل .

وذهب المازني من البصريين الى أن جواب الشرط مبني على الوقف أي السكون وأن الفعل المضارع إنما أعرب بوقوعه موقع الاسم وجواب الشرط لا يقع موقع الاسم ، لأنه ليس من مواضعه فوجب أن يكون مبنيا على أصله وهذا القول ليس بمعتد عند البصريين لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الفعل مبنيا بعد أدوات أخرى مثل : أن . وكي . واذن . ولم . ولما . لأن الاسم لا يقع بعد هذه الأحرف[1] .

« المؤثرات غير العربية في وضع علم النحو »

لم يكن للعرب في عصورهم الأولى تدوين أو تأليف أو بحث علمي ، ولم يكن لهم اشتغال بفلسفة أو بمنطق ، بل كانت حياتهم العقلية نظرية ، ومعارفهم مستمدة مما اتصل بحياتهم وما أوحت به بيئتهم .

ولما جاء الإسلام حفزهم إلى البحث والتفكير وذلك لما استدعاه تفهم القرآن الكريم ودراسة الدين وأحكامه من علوم ومعارف ، فكان ذلك هو الوثبة الأولى في الحياة الثقافية للعرب ، وكانت بحوثهم وما دونوا من آثار لا تعدوا التسجيل السردي ، ولم يكن لها منهج علمي أو نظام منطقي ، فكانوا كما قال ابن خلدون (والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعتهم اليه حاجة وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين)[2] ثم وثبوا وثبة ثقافية ثانية حين درسوا ما للأمم الأخرى من ذخائر في العلم والفلسفة ، وقد اشترك في هذه المرحلة واحتمل عبئها الأكبر فريق من الأعاجم وغيرهم من العناصر

---

1) الانصاف المسألة رقم (9) .

2) المقدمة الفصل 36

غير العربية ممن نشأ في كنف الدولة الاسلامية من فرس وسريان يعاقبه ونساطرة فاشترك كل أولئك مع العرب في نقل الفلسفة اليونانية وكان للسريان شأن في هذا بما نقلوا من كتب يونانية الى لغتهم ثم أذاعوا ذلك في اللغة العربية حين تعلموها وأصبحت لغة لهم . ثم نبتت من الفرس نابتة أولت اللغة العربية غايتها وشدت العزم في دراستها من شتى نواحيها ، دعاهم الى ذلك أسباب منها ما رأوا من تشجيع الخلفاء للعلم وتقريب رجاله ومنها أن العلم والأدب كانا من المؤهلات للمناصب الكبيرة في الدولة الاسلامية ومنها أن اللغة العربية ليست لغتهم الأصلية فهم في حاجة الى دراسة علومها ليعرفوا أسرارها وليصقلوا بذلك ألسنتهم ولقد كان لهؤلاء الأعاجم فضل عظيم على اللغة وعلومها وكان أكثر حملة العلم منهم قال ابن خلدون[1] : (من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم من العجم فكان صاحب صناعة النحو سيبويه ، وأبو علي الفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم ، وقد نشطت هذه البحوث النحوية واللغوية في العراق ، وكانت البصرة ، والكوفة مسرحا للعلماء ومسترادا للباحثين وللشادين وقد التقت منهما عناصر متعددة من غير العرب ولا شك أن هذا الامتزاج له أثره الفكري والعلمي ، وفوق هذا كان بين نحاة البصرة والكوفة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين اشتغلوا بالحكمة الأجنبية ونهجوا في التفكير منهجا منطقيا فلسفيا الى جانب كل ذلك ما كان قد نشط بين القوم عامة في تلك الحقبة من عنايتهم بدراسة الفلسفة وتفهم آراء الفلاسفة وقراءة كتبهم .

---

1) المقدمة (الفصل 33)

هذا هو الجو العقلي والدراسي الذي نبتت فيه القواعد النحوية كما نبت غيرها من فروع الثقافة وهؤلاء هم الرجال الذين أعملوا فيها عقولهم ، جو مشبع بالتفكير الفلسفي والمنطقي ، ورجال لهم أو لفريق كبير منهم ثقافات أخرى واطلاع على ذخائر علمية لم تكن معهودة للعرب ، والذي ينتظر بعد كل هذا أن يتجه التفكير في علم النحو والتأليف فيه اتجاها أساسه الأسباب والنتائج والعلل ومعلولاتها والتقسيم والتبويب والشروط والقيود وغير ذلك مما صيغت به أساليب التفكير والبحث .

فهل لنا أن نقول في بحوث النحو ومؤلفاته مظاهر أو عوامل غير عربية لينظر قبل ذلك في نظام القواعد النحوية في بعض اللغات التي كان للمشتغلين بالنحو العربي صلة بها أو بمن يعرفونها لنرى ما هنالك من تشابه .

ان علم النحو في اللغة العربية سار طبقا لطبيعة هذه اللغة ولجهود علمائها وما هداهم اليه النظر في أساليبها وخصائصها .

على أنه لا يضير اللغة العربية أن يثبت الباحثون أو ينفوا قواعدها فقد دونت على نهج من وحي لغات أخرى تمت اليها بصلة من النسب في الأصول والخصائص ، فان الإهتداء الى هذه الخصائص ليس بالأمر العسير لمن يريد أن يصنع قواعد اللغة العربية وضعا ضناعيا أو علميا له أصوله وفروعه ، ويكفي فيه أن يتبع الباحث ألفاظها وتراكيبها ويجيل فيها فكره وهو حينئذ واجد أن هذه الخصائص تسترعي النظر وتستوقف الملاحظة . فانها ظواهر محسوسة التزمها العرب في أكثر الأحوال والذي يتطلبه البحث بعد ذلك إنما هو الترتيب والتقسيم والتبويب ووضع الاصطلاحات والتعريف العلمي بالحقائق وقد اتجه الباحثون

الى ذلك فيما اتجهوا اليه من بحوث في الثقافة العربية واستمروا في التمحيص والمزاولة سنوات متعاقبة انتهت بهذا التفضيل المستفيض في القواعد النحوية .

كل هذا قد يبدو بحثا عربيا يستطيع الفكر أن يهتدي اليه دون حاجة الى القول بأنه شيء ناشيء عن فلسفة أجنبية وان كنا لا ننكر أنه نشأ عن ميل الى التبويب والتقسيم مما ألفته عقول هؤلاء الدخلاء في العروبة أو أولئك الذين لهم المام بثقافات أخرى لها طابعها ونظامها ولا نستبعد كذلك أن يكون لوحي الثقافات أثر في هذا .

ولكن الذي يستوقف النظر ويدعو الى البحث في أسبابه وهو هذه الناحية التي يبدو فيها الاتجاه الى النهج الفلسفي في التفكير الذي غمر القواعد النحوية وتحكم في أوضاعها حتى أصبح من شعار كثير من المؤلفين ألا يتركوا عللا تتلمس أو أسبابا تنتحل الا أحصوها وأغرقوا في الاحصاء ، وكأنهم أرادوا بهذا أن يوفوا علم النحو حقه الكامل من جهة التأليف والتبويب والتنسيق وأن يتحروا الدقة في الأداء العلمي وفي إقامة الأساليب العربية على دعائم من المنطق فسردوا التعاريف وساقوا الأسباب والعلل فهذا العلم ينبع من اللغة العربية وطبيعتها ومقوماتها أما الفلسفة والعلل والتعاريف والعوامل فقد اتّجه إليها النحاة طوعا للمؤثرات العامة التي وجهت للثقافة العربية توجيها علمياً وفلسفياً فهو علم عربي أخرجته عقول لها نصيب من النظام العلمي والمنطق الفلسفي .

لقد وقع في يدي كتاب من منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت تأليف وليم الخازن ، نبيه اليان ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٠ وجه

الى أحد الأدباء اللبنانيين وهو الأستاذ منصور أبي صالح هذا السؤال ؟ ما الجديد الذي أتى به اللغويون والنحاة من عهد الخليل وسيبويه الى أيامنا ، فكانت اجابته مع التحامل مؤيدة لما سبق أن ذكرته قال :

للغويين والنحاة القدماء تراث هائل فقد جمعوا اللغة كما تيسر لهم ووضعوا قواعدها بمقدار إدراكهم ولولاهم لما كان لنا سوى القرآن ولكن عملهم جاء على غير ترتيب فكان أكداسا لا أول لها ولا مبدأ ولا نظام ولم يكتفوا بهذه المعامع بل اختلفوا على كل مبدأ وكل فرع وكل شذوذ وندور حتى مات الكسائي وهو يقول : أي هكذا خلقت ، وجعلوا همهم الوحيد انتقاد بعضهم بعضا واضعين نصب أعينهم المناقضات والتفوق على بعضهم .

والقاعدة الأصلية للتأليف هي التنظيم والترتيب ورد الفرع الى الأصل حتى يسهل على المطالع ادراك المعنى بسهولة فبات علينا اليوم تنقية هذه الأكداس ابتداء من الأصل فالفرع ، والحاقها بالغريب الطارىء والشذوذ النادر وفي ذلك ما فيه من المشقة البالغة ولكنه يظهر اللغة العربية بمظهرها الصحيح فتبدوا أصرح لغة واعتاها وتبدوا بذاتها تاريخا كاملا لتطور الحياة العربية من الخليج الى المحيط .

فكل ما أخذه عليهم انما هو الترتيب والتقسيم والتبويب ، دون أن نغير شيئا من هذه القواعد السليمة المطردة . ومع تحامل هذا الأديب على النحاة واتهامهم بعدم الاخلاص لهذا العلم الذي أفنوا فيه شبابهم وأن هدفهم هو المجادلة والتفوق فلم يذهب مذهب زميله اللبناني الأستاذ نجيب مخول الذي وجه اليه هذا السؤال ؟ ألا توافق على أن الجيل الحاضر أخذ يهمل التعمق في قواعد اللغة وما الدواء الشافي لهذه العلة فكان جوابه :

ليس للجيل الحاضر متسع من الوقت للتعمق في قواعد اللغة ، هذا من عمل المدرسين والأساتذة أما الباقون فيكفيهم أن يتعلموا كيف يقرؤون ويكتبون ويتكلمون لغة صحيحة مضبوطة وانجع دواء لذلك أن يكون لتدريس اللغة معلمون اختصاصيون وأن يخفف عن الناس عبء القواعد بتعميم الوقف على السكون ، وهذه النقطة الأخيرة هي المعول الهدام في بناء صرح لغتنا ، إنه يقول في الترويج لرأيه هذا في نفس الكتاب : أرى أن نستغل كل الاستغلال قاعدة الوقف على السكون كما نفعل في حديث كحديثنا هذا أعني أن نلغي حركات الإعراب ، لأن تركيب الجملة العربية ولا سيما الحديثة بغنى عن الاعراب من غير أن يمس جوهر اللغة بأذى من الخليج الى المحيط كما يقال : ترك العرب حركات الإعراب في لغتهم اليومية ، هذا واقع لا بد من الخضوع له ، عصرنا اليوم ليس عصر : رجل ، رجلا ، رجل ، رجل ، رجل ، ورجل ، بل عصر رجل فحسب في كل الحالات .

نقضي زهرة حياتنا في تعلم قواعد اللغة بالحركات ولا تعرب في كلامنا العادي ولا في تخاطبنا الراقي ولا في كتابتنا ولا في طباعتنا ولا في قراءتنا نفسها الا فيما ندر ، فلم الاعراب بالحركات اذا في مخاطبتنا الشعب ؟

الطبقة المثقفة تبنت تعميم الوقف من غير أن تعرف ، هذه هي الطريقة الوحيدة الصالحة للتمثيل والإذاعة (التلفاز) والخطب والمؤتمرات والأندية والمحاضرات وإلقاء الدروس هذه هي الطريقة الوحيدة للقضاء على العامية ، وهكذا تحل مشكلة الفصحى والعامية بتعميم الوقف على السكون والوقف قاعدة عربية صرف تطبق في النثر وفي الشعر أحيانا وتدل على رحابة صدر لغتنا وهكذا وهكذا من غير أن

تحتاج اللغة العربية الى استجداء الحلول من الخارج[1] .

هكذا بكل بساطة ولكن : أنقف على كل كلمة في التركيب ونضيع العلاقة بين أجزاء الجملة وهل هذه هي القاعدة العربية في الوقف ، أية مغالطة هذه وأي غثيان يصيب الانسان حين يرى هذا الذي ينتسب الى العرب يستخف بلغته الى هذا الحد ؟ إن الوقف في اللغة العربية وهو انقطاع القول معنى وعملا وتحويرا في الكلام و(فأنت تقرأ مثلا قول الله تعالى : ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، فتقف على كل من الكتاب ، وفيه ، يكون المعنى ذلك هو الكتاب الجديد بأن يكون كتابا حقا وصدقا ويكون كل من (لا ريب فيه) وهدى للمتقين ، تبيانا للقضية الأولى وشرحا لأسبابها .

أما إن وقفت على لا ريب ، فالمعنى حينئذ أن ذلك الكتاب لا تحوم حوله الشكوك ولا ترقى إليه الشبه وأنه يشتمل فيما يشتمل على الهداية للمتقين وأما ان وقفت على (فيه) فمعنى التعقيب بآية (هدى للمتقين) انه في أجل خصائصه علم هداية وتبصرة للمتقين .

من هذا كله ومن كثير غيره نتبين أن العربية حقا لغة ذات حس بل دقيقة الاحساس في مفرداتها وأساليبها جميعا فما يكاد يصيب هذه أو تلك شيء من تغيير حتى يكون له صدى في معناها على وجه من الوجوه فبعيد إذن أن يكون الاعراب في العربية مجرد حلية زائفة أو لغو فارغ وما كان سلف هذه الأمة فيما اعتقد لينفق على النحو تأليفا وتدريسا كل ما

---

1) دعا الى العامية أيضا الدكتور مندور وغيره مثل لويس عوض في مصر وفي الجزائر أديب كبير مناضل هو (كاتب ياسين) يقول «اللغة العربية أو اللغة ككل ليست مقدمة ، وهو لا يعرف الا العامية يكتب بها فكيف يدعو جاهل بلغة الى إصلاح .

أنفق عليه من جهود متصلة وأموال كثيرة أي منذ عرف النحو الى اليوم لو علموا أن الاعراب في العربية عناء باطل لا حاجة اليه ولا جدوى فيه وأبعد من هذا وأشد نكرا أن يتظنن متظنن أنهم لم يفطنوا الى هذه الحقيقة ولم تكن منهم على بال فمضوا عن غفلة ينفقون ما أنفقوا من جهد ضائع ومال مبدد طوال أربعة عشر قرنا[1] .

قلنا إن العربية لغة حساسة يغلب أن يتأثر معناها بكل ما يدخل الكلمات والأساليب من تغيير مهما كان موضعه فكتب بفتحات للفاعل المعلوم ، وكتب بضم فكسر للفاعل المجهول ومقصد بفتح الميم والصاد للمصدر وبفتح الميم وكسر الصاد للمكان أو الزمان ، ومرشد بضم الميم وكسر الشين للفاعل وهو بفتح الشين فقط للمفعول وجائب ومجوب وصفان للفاعل والمفعول من جاب بمعنى قطع ومجيب ومجاب وصفان لهما كذلك من لكن من أجاب بمعنى أحدث جوابا وهكذا .

في مطلع هذا القرن أقام العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي الدنيا وأقعدها وأثار حربا شعواء على الصحافة والصحفيين ، لأنهم لا يتحرون الاصابة اللغوية في أسلوبهم ويأتون بكلمات تخالف أوضاع اللغة وصيغها الواردة والمأثورة في الأسلوب العربي ، وشمر اليازجي عن ساعده وكتب سلسلة من المقالات والابحاث تتبع منها ما يقع من أخطاء لغوية في أسلوب الصحف وما خرج به الصحفيون على مأثور اللغة وقد جمع هذه المقالات في كتاب أسماه (لغة الجرائد) وهو يشير بهذا الى أن لغة الجرائد قائمة على الخطأ .

كل ما كان ينكره اليازجي على الجرائد وكتابها أنهم يتساهلون في

---

1) علي النجدي ناصف من قضايا اللغة والنحو مكتبة نهضة مصر بالفجالة 59

بعض صيغ اللغة واستخدام كلماتها فهم مثلا يجمعون كلمة (مشكلة) على مشاكل وهي لا تجمع الا على مشكلات[1] وهم يستعملون كلمة (انتاج) ولم يسمع في اللغة الا (نتاج) وهم يذكرون كلمة التطور وهي صيغة لم تعرف في العربية من قبل الخ ، تلك الكلمات التي كنا نحفظها ونتعالم بها ونحن في صدر الشباب على أنها أصبحت اليوم كلمات أصيلة في أسلوب الكتاب .

ولكن ماذا يصنع الشيخ اليازجي لو أنه كان حيا بيننا ورأى اللغة التي تكتب بها جرائد اليوم ، لقد تناولت احدى صحف الصباح في يوم من أيام هذا الأسبوع وتركزت عيناي على موضوع هام في صفحتها الأولى ، فوالله ما أتيت على خمسة أسطر فيه حتى أحصيت ضعفها عددا من الأخطاء الشنيعة ، ولا أعني تلك الأخطاء اللغوية الهينة التي كان ينكرها اليازجي ، ولكنها أغلاط في قواعد النحو الأولية التي لا يمكن أن يغفرها المدرسون لتلاميذهم على مقاعد الدرس ولا يكون جزاء التلاميذ عليها الا الصفر .

والواقع أن لغة الصحافة عندنا قد تدلت الى حد خطير من ركاكة بالتعبير ووخامة بالأداء والإسعاف في الخطأ ، وهذا أمر من الخطر السكوت عليه والتهاون فيه ، لأنه من جهة اهدار الكرامة التي نتخذها عنوانا لقوميتنا وشعارا لشخصيتنا ولأنه من جهة أخرى يؤدي الى ضياع أبنائنا ، ذلك لأن أبناءنا في المدارس كلهم ، أو جلهم يطالعون الصحف وهم يعتقدون عن سلامة نية أن الصحف لا يكتبون الا بأسلوب صحيح وفصيح فيأخذون عنهم وينقلون تعابيرهم وهم في الحقيقة

---

1) أجاز مجمع اللغة العربية هذا الاستعمال .

ينقلون أغلاطهم وأخطاءهم ويتمرسون بها فيما يتحدثون ويكتبون ومن هنا يكون الخطر ويكون الضياع معاً .

اني لا أطالب الصحفيين بالكتابة بأسلوب معجمي كما يطالب الشيخ اليازجي ولكنا نطالبهم بمراعاة القواعد بلا تأنيث للمذكر والعكس وبلا خطأ في تمييز العدد وعدم تمييز بين الاسم والخبر فتلك أمية يجب أن تمحي ، وجهل من الخير أن يزول ، كما تجب العناية بالأسلوب الحي الواقعي الذي يخدم خصائص اللغة ومميزاتها حتى تكون الصحافة أداة تثقيف من افهام ، فلا يختلف شأن العبارة في صياغتها عن شأن المفردات في بنيتها ، فما من تعبير يدخل على العبارة بتقديم أو تأخير وتعريف أو تنكير واطلاق أو تقييد وذكر أو حذف وهكذا الا كان له صدى في معناها قوي أو ضعيف .

وفي مباحث النحو كما في مجالس العلماء شواهد قاطعة تدل على أن الاعراب قد يوجه المعنى ويؤثر فيه بل كانوا يربطون به بعض أحكام التشريع ، رووا أن الكسائي وأبا يوسف القاضي اجتمعا عند الرشيد فجعل أبو يوسف يذم النحو ويسخر منه ، فقال له الكسائي ـ وقد أراد أن يعلمه فضل النحو : ما تقول في رجل قال لرجل : أنا قاتلُ غلامِك ، وقال له الآخر : أنا قاتلٌ غلامَك ، أيهما كنت تأخذ به ، فقال أبو يوسف ، آخذهما جميعا فقال له الرشيد ، أخطأت ، وكان له علم بالعربية فاستحيا وقال كيف ذلك ؟ قال الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال : أنا قاتلُ غلامِك ، بالاضافة ، لأنه فعل ماض ، وأما الذي قال : أنا قاتلٌ غلامَك بالنصب فلا يؤخذ ، لأنه مستقبل لم يكن بعد ، كما قال الله عز وجل : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾

فلولا أن التنوين مستقبل ما جاز فيه غدا[1] .

وهذا ابن حيان في ارتشاف الضرب من لسان العرب[2] يقول : قوله تعالى : ﴿ وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر ﴾[3] قرىء بالرفع والنصب والجزم وكذلك الواو وأو وثم في مذهب من أجاز ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم[4] وقرىء بالثلاثة والأحسن التشريك في الجزم اذا كان قبله أو بعده مجزوم واذا ارتفع فهو على اضمار مبتدأ واذا كانت جملة الجزاء اسمية فالرفع وجه الكلام ويجوز الجزم والنصب ، ولم يذكر سيبويه فيه النصب[5].

فالصلة وثيقة بين الاعراب والمعنى من وجهين :

1) هذه القراءات المتعددة التي قرىء بها القرآن الكريم وكان لكل منها توجيه في معاني الآيات التي قرأ بها ، مثال : قال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ، فقرىء يعلم الصابرين برفع الفعل (يعلم) على معنى ولما تجاهدوا وأنتم صابرون ، وقرىء بالنصب ، على معنى ولما تجاهدوا مع الصبر وقرىء بالجزم على معنى ، ولما تجاهدوا ولما تصبروا على الجهاد .

---

1) حاشية الصبان على الاشموني جـ 2 ص 121

2) ص 709 تحقيق د. مصطفى النماس .

3) سورة البقرة آية 384

4) سورة البقرة الآية 271

5) لعل الجزم لانه ترتب على ما سبقه والنصب بناء للفعل على المستقبل والأول واقع والثاني لم يقع بعد .

وما ذكره ابن النديم نقلا عن أبي عبيدة من سماع أبي الأسود قارئا بعطف في مفتتح سورة التوبة ورسوله بالجر على لفظ الجلالة وصحتها ضم لام رسوله ، لأن معناها أن الله بريء من المشركين ورسوله كذلك ، لأن المولى حاشا لله يتبرأ من رسوله وكان هذا سبب وضع النحو .

2) بعض الأساليب التي تثبت بعض هذه الصلة ، فقد نشرت الأهرام في الحادي والثلاثين من مارس عام ستة وخمسين وتسعمائة وألف خبرا عنوانه : الأسماك تأكل وجه سيدة وابنها الطفل ، فلم يعرف الناس علام يعطفون ابنها ، أعلى وجه فتكون الأسماك قد أكلت الابن كله أم على سيدة فتكون قد أكلت وجهه ، كما أكلت وجه أمه ، وقد ذكرنا هذا الاسلوب عنوان لخبر مرض ايدين نشر بالجريدة نفسها في العشرين من نوفمبر من العام نفسه وهو : ايدين مريض سياسي كاذب وليس حقيقيا صادقا ولكن التوفيق جانبها في ضبط الوصف فجعلته مرفوعا والمعنى الذي تريد يقتضي أن يكون منصوبا ، ويدخل في هذا الباب مثل قولهم : مدرسة التربية الحديثة فان لم تكن الحديثة صفة لمدرسة فحكمها الرفع وان تكن التربية فحكمها الجر .

والاعراب مخلد في كتاب الله وحديث الرسول وتراثنا الفكري واذا لم نراعه فالواجب ألا نسمي الكلام عربيا كما أنه ليس من الصدق في شيء أن نسمي بتاتا هذه الملابس التي نلبسها الآن ثيابا عربية لمجرد أن لها جيوبا وأكماما كما يلبسها العرب ، فحركات الاعراب ليست شيئا زائدا أو ثانويا وهي لم تدخل على الكلام اعتباطا وإنما دخلت لاداء وظيفة أساسية في اللغة اذ بها يتضح المعنى ويظهر وعن طريقتها نعرف الصلة النحوية بين الكلمة والكلمة في الجملة الواحدة :

1) فمن المشهور في النحو نصب المضارع بعد فاء السببية وواو المعية إذا سبقا بطلب مر وادع وانه وسل واعرض لحضهم تمن وارج كذاك النفي قد كملا ولكن بشرط أن يكون ما قبل الفاء سببا فيما بعدها وورد في كتب النحويين هذا البيت :

يا بن الكرام ألا تدنوا فتبصر ما   قد حدثوك به فما راء كمن سمعا

ولما أكثرنا تأيده في معظم سطور البحث من أن الاعراب فرع المعنى ، فانه يمتنع بيان معنى بعض الآيات بغير استخدام قواعد النحو والاعراب ، ولذلك ورد الفعل فتصبح في قوله تعالى في سورة الحج ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ﴾[1] مرفوعا وسبب وروده مرفوعا لا منصوبا أن مقصود الآية هو اثبات حصول اخضرار الأرض بسبب نزول المطر حقيقة وفعلا وايقاع الفعل منصوبا مع أنه مسبب على ما قبله يخالف المعنى اذ ليست هناك علاقة سببية بين الفعلين أي أن الرؤ ية ليست هي سبب أن تصبح الأرض مخضرة وانما السبب هو انزال الماء من السماء ولو قلنا بعيدا عن قول الله عز وجل : ﴿ ألم ينزل الله من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ لوجب هنا أن يكون فعل« فتصبح » منصوبا ، لأن السببية هنا واقعة بين انزال الماء من السماء واخضرار الأرض واذن فان فعل « فتصبح » ليس مترتبا على ما قبله والرفع انما كان لمراعاة المعنى[2] .

2) ومن الآداب الاسلامية أن يرد المسلم التحية بمثلها أو بأحسن

---

1) الاية 63 سورة الحج .

2) تعرض لتفسير هذه الاية الكريمة فضيلة الدكتور محمد سعاد جلال بصحيفة الجمهورية 72/6/12 (قرآن وسنه) .

منها ، وقد فعل هذا ابراهيم عليه السلام مع ضيفه من الملائكة ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام ﴾ فقد حياه الملائكة بقولهم سلاما ، وهي جملة فعلية مرتبطة بزمن معين فأجابهم بقولهم (سلام) وهي جملة اسمية تدل على الثبات والاستمرار فاذا قابلوه بالسلام في زمن الزيارة أجابهم بأنه سيظل معهم في سلام دائم وعلامة الاعراب هي التي حددت المعنيين والأمثلة كثيرة .

وليس معنى الإعراب في اللغة يبعد عن هذا المعنى الاصطلاحي الذي أشرنا إليه فالإعراب لغة : الإفصاح ويقال أعرب الرجل عن حاجته اذا أبان عما في نفسه ومنه في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام« الثيب تعرب عن نفسها ، والبكر رضاها صمتها »[1] فالإعراب لغة الإفصاح عما في النفس والإعراب اصطلاحا هو الاعراب عن المعاني بالحركات الدالة عليها .

ولما كانت وظيفة النحو تعيين صلة الكلمات بعضها ببعض في الجملة الواحدة بحسب المعنى المراد وكانت حركات الإعراب على النحو كله حتى سمي النحو بعلم الإعراب ، وليس هذا التعريف صحيحا على ما نرى ، لأن النحو أوسع من الإعراب وأشمل .

وقد لفتت ظاهرة الإعراب إليها الكثير من الباحثين قديما وحديثا فدرسوها وحاولوا شرحها وتعليقها ،

أما المستشرقون فلعل أبرز آرائهم في الاعراب ما ذكره WRIGHT من أن حركات الاعراب بقايا للواحق اندثرت وبقي بعضها

---

1) رواه احمد في مسنده 4 : 192 وابن ماجة في سننه 1 : 602

وحاول أن يهتدي مع القائلين برأيه الى أصول حركات الاعراب عن طريق المقارنة بين اللغات السامية[1] وأما المحدثون من علمائنا فلعل أوسع ما كتبوه عن الاعراب وما جاء به صاحب (احياء النحو) وقد ظهر هذا الكتاب سنة1951 وقال صاحبه بصدد حركات الإعراب : ألهذه العلامات الإعرابية معان تشير اليها في القول ؟ أتصور شيئا مما في نفس المتكلم ؟ وتؤدي به الى ذهن السامع ؟ وما هي هذه المعاني ؟ والعربية لغة القصد والايجاز أتلتزم علامات الاعراب على غير فائدة في المعنى ولا أثر في تصوره ؟ لقد أطلت تتبع الكلام أبحث عن معان لهذه العلامات الإعرابية ولقد هداني الله ـ وله خالص الاخبات والشكر الى شيء أراه قريبا وواضحا وأبادر إليك الآن بتلخيصه :

1) ان الرفع علم الاسناد ودليل أن الكلمة يتحدث عنها .

2) ان الجر علم الاضافة ، سواء أكانت بحرف أم بغير حرف .

3) ان الفتحة ليست بعلم على اعراب ، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة التي يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم ما لم يلفتهم عنها لافت فهي بمنزلة السكون في لغتنا الدارجة .

4) ان علامات الإعراب في الاسم لا تخرج عن هذا الا في بناء أو نوع من الاتباع وقد بيناه أيضا .

فهذا جماع أحكام الاعراب ، ولقد تتبعت أبواب النحو بابا بابا واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير فصح أمره واطرد فيها حكمه[2]

---

1) Lectves of comperetive grammar of semetic languages Wright cambridg 1890 .
وانظر التطور النحوي للغة العربية لبراجستراسر .

2)) احياء للاستاذ ابراهيم مصطفى ـ المقدمة ـ هـ ـ ز

ويستطرد صاحب الأحياء الى ذكر التنوين ودلالته فيقول : ثم زدت تتبع هذا الأصل فتجاوزت حركات الاعراب ودرست التنوين على أنه منبىء عن معنى في الكلام فصح لي الحكم واستقام وبدلت قواعد « مالا ينصرف » ووضعت للباب أصولا أيسر وأنفذ في العربية مما رسم النحاة للباب ولا أؤجل عنك اجمال هذه الأصول أيضا :

1) ان التنوين علم التنكير .

2) لك في كل علم ألا تنونه وانما تلحقه التنوين اذا كان فيه حظ من التنكير .

3) لا تحرم الصفة التنوين حتى يكون لها حظ من التعريف[1] وهو يشرح في كتابه ما أوجزه في هذه المقدمة من الأصول ويدرس علامات الإعراب على أنها دوال على المعاني[2] كما يفصل القول في التنوين ليثبت أنه في النكرة مقابل(أ) في المعرفة[3].

ويعود صاحب الاحياء في كتابه الى القدماء يسألهم آراءهم ويستهدي بها ، فيفعل رأي محمد بن المستنير المعروف بقطرب وخلاصته أن العرب أعربت كلامها ، لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون ، فجعلوا كلامهم في الوصل محركا حتى لا يبطئوا في الادراج وعاقبوا بين الحركة والسكون وجعلوا لكل واحد أليق الأحوال به ، ولم يلتزموا حركة واحدة لأنهم أرادوا الاتساع فلم يضيقوا على أنفسهم وعلى

---

1) احياء النحو للاستاذ ابراهيم مصطفى - المقدمة - ز - ح
2) الاحياء 164 وما بعدها .
3) الاحياء 48 وما بعدها .

المتكلم بحظر الحركات الا حركة واحدة[1]

ثم يرد هذا الرأي المفضي الى إبطال الاعراب لأنه يوسع على القائل ويترك له حرية تحريك آخر الكلمة بما يشاء .

ولا يكتم صاحب احياء النحو أن نحويا متقدما هو أبو القاسم الزجاجي المتوفي سنة 337 هـ سبق له أن قال : (إن الأسماء لما كانت تعتريها المعاني وتكون فاعلة ومفعولة) ، ومضافة ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني جعلت حركات الاعراب تنبيء عن هذه المعاني وتدل عليها ليتسع لهم في اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة[2] ويتبع صاحب الاحياء ذلك بقوله (وهذا الرأي كالأصل لما ذهبنا اليه) ، وقد بينه الزجاجي في كتاب له يسمى (ايضاح علل الاعراب)[3] ولو وقع هذا الكتاب لصاحب الاحياء لوجد فيه الأصل كل الأصل لما يقول ، إذ ليس في احياء النحو من حيث المبدأ شيء جديد يزيد على ما جاء به الزجاجي ، على أن صاحب احياء النحو أفرد الكتاب للفكرة ، وأعقبها بتطبيقات عملية على أبواب معينة من النحو .

إذن لقد عرف القدماء ظاهرة الإعراب معرفة دراسة وبحث وتأليف ووقفوا عند حركات الإعراب معللين فقال ابن جني (392 هـ) : الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ[4] وقال ابن فارس (395 هـ) : (من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق

---

1) نقل صاحب الاحياء رأى قطرب عن الاشباه والنظائر 1 : 261 واصله ايضاح علل النحو للزجاجي (70 - 71)

2) احياء النحو 52 والاصل في ايضاح الزجاجي .

3) حققه الدكتور مازن المبارك ونشره في القاهرة سنة 1959

4) الخصائص 1 : 35

بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام . ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت ولا تعجب من استفهام)[1] وقال في موضع آخر (فأما الإعراب فيه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين) وذلك أن قائلا لو قال : (ما أحسن زيد) ، غير معرب و (ضرب عمرو زيد) غير معرب ولم يوقف على مراده ، فاذا قال : (ما أحسن زيدا أو ما أحسن زيد أو (ما أحسن زيد) أبان الاعراب عن المعنى الذي أراده ، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني)[2].

والزجاجي أسبق المتقدمين وأطولهم نفسا في الموضوع فلقد وقف عند الاعراب ، وخص كل مسألة من مسائله بباب من كتاب (الإيضاح) فعقد بابا للقول الكلام والاعراب ، أيهما أسبق[3] وبابا للقول في الاعراب لم دخل الكلام[4] وهو الباب الذي يعنينا خاصة ، وبابا للقول في الإعراب لم وقع في آخر الاسم دون أوله ووسطه[5] وبابا للقول في المستحق للاعراب من الأسماء والأفعال والحروف[6] وقد قدمنا ذلك في القسم الأول من الموضوع المعنى والاعراب عند النحويين ، وبابا للقول في الفرق بين النحو واللغة والاعراب والغريب[7] وبابا للقول في معنى الرفع والنصب والجر عن طريق اللغة[8]

1) الايضاح : 67
2) الصاحبي 42
3) نفس المرجع السابق
4) الايضاح 69
5) الايضاح 76
6) الايضاح 77
7) الايضاح 91
8) الايضاح 93

وبابا للقول في علة دخول التنوين في الكلام[1].

وإذا عدنا الى باب القول في الإعراب لم دخل الكلام ؟ وهو الباب الذي نقل صاحب الاحياء جزءا منه عن الأشباه والنظائر ، مع أن السيوطي في الأشباه والنظائر نقل الباب بكامله ، وجدنا الزجاجي يقول : (إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافا إليها ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الإعراب فيها تنبيء عن هذه المعاني ، فقالوا : ضرب زيد عمرا فدلوا برفع زيد على أن الفعل له ، وينصب عمرو على أن الفعل واقع به . وقالوا ضرب زيد ، فدلوا بتغيير أول الفعل ورفع زيد على أن الفعل ما لم يسم فاعله وأن المفعول قد ناب منابه ، وقالوا هذا غلام زيد ، فدلوا بخفض زيد على اضافة الغلام إليه ، وكذلك سائر المعاني ، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم ويقدموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة الى تقديمه وتكون الحركات دالة على المعاني[2].

وهكذا يتبين لنا أن الزجاجي سبق الى القول . لا بدلالة الحركات على المعاني فقط بمعاني هذه الحركات ، إذ أليس قوله (انهم دلوا بخفض زيد في قولهم هذا غلام زيد على إضافة الغلام إليه) ، يعني أن الكسرة علم الإضافة ؟؟؟ بل لقد ذكر أنه رأى لجميع النحويين ـ والعجيب بعد ذلك أن يكون الزجاجي في الباب نفسه ـ قد فطن لقول قطرب ومخالفته لرأيه ، فأورد اعتراض قطرب ورد عليه بأحسن مما رد عليه المتأخرون ، قال الزجاجي : هذا قول جميع

---

1) الايضاح 97

2) الايضاح 69 - 70

النحويين الا قطربا فانه عاب عليهم هذا الاعتلال » ، وقال لم يعرب الكلام للدلالة على المعاني والفرق بين بعضها وبعض ، لأنا نجد في كلامهم أسماء متفقة في الإعراب مختلفة المعاني وأسماء مختلفة الإعراب متفقة المعاني فما اتفق إعرابه واختلف معناه قولك : إن زيدا أخوك ، ولعل زيدا أخوك ، وكأن زيدا أخوك ، اتفق إعرابه واختلف معناه ، ومما اختلف إعرابه واتفق معناه قولك : ما زيد قائما ، وما زيد قائم ، اختلف إعرابه واتفق معناه . فلو كان الإعراب انما دخل الكلام للفرق بين المعاني لوجب ان يكون لكل معنى إعراب يدل عليه لا يزول الا بزواله ، ثم قال : إنما أُعربت العرب كلامها ، لأن الاسم في حال الوقوف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الاسكان في الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الادراج فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للاسكان ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ، لأنهم في اجتماع الساكنين يبطئون وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون وتذهب المهلة في كلامهم فجعلوا الحركة عقب الإسكان .

قيل له : فهلا لزموا حركة واحدة لأنها مجزئة لهم اذا كان الغرض إنما هو حركة تعقب سكونا ؟

فقال : لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم فأرادوا الاتساع في الحركات ، وألا يحظروا على المتكلم الكلام الا بحركة واحدة ، هذا مذهب قطرب واحتجاجه .

وقال المخالفون له ردا عليه : لو كان كما زعم لجاز خفض

الفاعل مرة ورفعه أخرى ونصبه وجاز نصب المضاف إليه ، لأن القصد في هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام . وأية حركة أتى بها المتكلم أجزأته ، فهو مخير في ذلك .

وفي هذا إفساد للكلام وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم ، واحتجوا لما ذكره قطرب من اتفاق الإعراب واختلاف المعاني واختلاف الاعراب واتفاق المعاني في الأسماء التي تقدم ذكرها بأن قالوا إنما كان أصل دخول الإعراب في الأسماء التي تذكر بعد الأفعال ، لأنه يذكر بعدها اسمان أحدهما فاعل والآخر مفعول فمعناهما مختلف فوجب الفرق بينهما ، ثم جعل سائر الكلام على ذلك وأما الحروف التي ذكرها فمحمولة على الأفعال ، ولكل شيء مما ذكره علة تمر بك في بابه إن شاء الله تعالى[1].

ولا يقف الزجاجي ببحثه عند هذه الحركات بل يتعداها كما تعداها صاحب احياء النحو الى الحديث عن التنوين فيذكر في (باب ذكر علم التنوين في الكلام ووجوهه) أن التنوين يدخل في الكلام لثلاثة معان :

الأول : دخوله للفرق بين المتمكن الخفيف من الأسماء وبين الثقيل الذي ليس بتمكن .

والثاني : دخوله ليكون عوضا من محذوف من الكلمة .

والثالث : دخوله ليكون فرقا بين الأسماء المعرفة والنكـرة في بعض الأسماء خاصة .

---

1) الايضاح 70 - 71

ويذكر في هذا الباب الأسماء الأعجمية المنتهية بـ (ويه) ثم يقول : فاذا أرادوا تنكيرها نونوها ، فجعلوا التنوين دليلا على المنكور منها ، وكذلك جميع الأصوات والحكايات والزجر يفرق بين معرفتها ونكرتها بالتنوين [1] .

ويتضح لنا مما سبق أن القدماء وقفوا عند حركات الاعراب وعللوا دخولها في الكلام ووقفوا عند التنوين أيضا فاستقرؤا مواضع دخوله وصنفوا معانيه بحسب تلك المواضع ، ولم يكن الزجاجي وحيدا في هذا المجال ،وإنماكان كثيرون ممن سبقوه ومن لحقوا به يعنون بما عني به ، وإن كان له الفضل في نقل آراء السابقين وتسجيلها لهم في مؤلفاته ، ولا شك أن الاستاذ ابراهيم مصطفى (صاحب احياء النحو) ومن يذهب مذهبه متأثرون بآراء القدماء التي اعترفوا بأنها كانت كالأصول لآرائهم ومذاهبهم .

وقد بلغ الأمر ببعض منظمات يهودية لها عملاء في مختلف البلاد العربية ، من أبناء هذه البلاد نفسها مع الأسف الشديد وساعدها في ترويج دعوتها طائفة من الباحثين في فقه اللغة من علماء اليهود وبوجه خاص وقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء أن زعم أن قواعد الإعراب لم تكن مراعاة في لهجات الحديث عند العرب ولا في لغات آدابهم وكتابتهم وانما خلقها النحاة خلقا قاصدين بذلك تزويد اللغة العربية بنظم شبيهة (بنظم اللغة اليونانية حتى يكمل نقصها وتسمو الى مصاف اللغات الراقية) ، ونحب أن نصحح خطأ يقع فيه الكثيرون وهو ما يزعمه بعض المتعصبين من أن اللغة العربية انفردت بين لغات العالم بقواعد

---

1) الايضاح 97 - 99

الاعراب ، فإن قواعد الإعراب معروفة في بعض اللغات العالمية القديمة والحديثة على السواء فقد شاعت أنواع من الاعراب في اللغة اليونانية واللاتينية وهي أساس اللغات الأوروبية المعاصرة كما كانت شائعة في الهيروغليفية والعبرية والحبشية واللغة الألمانية في العصر الحديث ، تعتمد على كثير من قواعد الاعراب ولم يعفها هذا عن أن تكون في طليعة اللغات العالمية الحديثة في ميادين العلوم والفلسفة والآداب[1].

ويحمل هؤلاء العملاء في الوقت الحاضر الى استخدام العامية واطراح العربية الفصحى مثل سعيد عقل في لبنان الذي قال (سألبنن العالم وازحلن لبنان) ، معنى سألبنن العالم واضح ، أما سأزحلن لبنان فيعني أنه : سيجعل (زحله) وهي مصيف لبناني جميل هي العالم ، ولبنان الخاص ، فاذا تم لسعيد عقل هذا لبننة العالم فمعنى ذلك زحلنته ومن المعروف أن صاحبنا ولد في زحله والكلام هذا واضح العصبية ظاهر الغرور لم يفهمه الا أبناء زحلة ، حينما قدم سعيد عقل نفسه كمرشح عن دائرة الانتخابات فنال مائتين من الأصوات فقط، من أصل ستين ألف ناخب وأهل مكة أدرى بشعابها ، و (لسعيد) شعر فصيح تغنيه فيروز وقدار تقي الأبراج العاجية بينما غيره من الأدباء يكاد يموت جوعا ولكنه ناقم على اللغة المقدسة حاقد عليها موتور من علمائها ولا يعرف السبب ، وجزاؤها كجزاء سنمار ، حمل شعارا منذ سنوات يتضمن الدعوة الى جعل اللغة العامية في لبنان وربما في العالم العربي لغة كتابة ودعا الى إهمال الفصحى ومن ثم طالب بأن تكتب هذه اللغة

---

1) من مقال بمجلة الأزهر للاستاذ علي عبد العظيم بعنوان : العربية لغة الاسلام والمسلمين (قواعد الاعراب) شعبان سنة 1391 هـ .

العامية بالحرف اللاتيني وأصدر كتابا (بارا) ضمنه بعض الكلام الفارغ وأسماه (شعرا) حوربت هذه الدعوى في حينها وشنت عليها الأقلام الشريفة حملة كادت أن تقضي عليها وعلى صاحبها ولكنه رصد لدعوته جوائز شهرية تزيد عن ألف ليرة وهي تقارب مرتبه الشهري أوشكت أن تكون كجائزة (نوبل) التي تدفعها الدولة في السويد ، في حين أن جائزة (سعيد عقل) تدفعها رواتب (سعيد عقل) كما طلع الأدب الماروني الذي تحدثنا عنه قبل ذلك ، يحمل نفس الدعوة ويبعث بنفس الرائحة الكريهة من جديد فيدعوا الى تقوية اللغة المحلية أي العامية ، وانما ذكرنا سعيدا هنا لاعتماد هذه المرة على أسلوب آخر ودعوته الى قضية نناقشها هنا وهو قوله بأن القرآن الكريم إنما نزل باللغة المحلية وكذلك شعر امرؤ القيس والحطيئة وزهير وغيرهم ، وقد يكون هذا الكلام صحيحا ، أريد أن أنبه الى نقطتين :

1) ليس صحيحا أن القرآن أنزل باللغة المحلية بدليل أن الناس كانوا يتوافدون زرافات ووحدانا من قبائل مختلفة يتوافدون على الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والعلماء بعد ذلك ويطلبون تفسير الآيات وشرحها ولو كانت لغة القرآن عامية لما كان ذلك .

2) على افتراض ان ذلك الكلام صحيح فمعنى هذا أن اللغة المحلية في الأصل هي اللغة الفصحى وأن الفصحى ما ضعفت الا عندما ضعفت الأمة العربية في العصور المتأخرة ابان الحكم التركي والأوروبي من بعده والعود الى الأصل هو الأصح والأكثر صوابا فالدعوة الآن ينبغي أن يوجهها سعيد عقل وغيره الى محاربة اللهجة العامية لتحل الفصحى محلها وليس العكس .

وهذا ما دعا جمعية أحمد الشارف بكلية التربية بالجامعة الليبية

الى عقد ندوة[1] دعت اليها أساتذة متخصصين في اللغة العربية حاصلين على أعلى درجاتها العلمية من دولتي الوحدة الاندماجية مصر وليبيا وكان عنوان الندوة « نحو لغة فصحى » فما هي الأوجه التي طرحت في الندوة ؟ وما النتيجة التي توصل اليها ؟

قبل الدخول في صلب المناقشات والآراء التي طرحت في الندوة أود أن أقول : إن كلمة لغة على وزن فعلة ـ بضم الفاء وسكون العين ـ وأصلها لغى أو لغو فحذفت الواو أو الياء وعوض عنها بالهاء ، والمصدر (اللغو) وهو الطرح . وفي لسان العرب اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وهي (فعلة) من لغوت أي تكلمت .

أما كلمة (فصحى) فيتضح معناها في نحو : فصح اللبن أي خلص مما يشوبه وفي نحو فصح الرجل الأعجمي أي جاءت لغته فلم يلحن .

فعنوان الندوة بعد هذا التوضيح هو (كيف الوصول الى كلام بدون لحن أو خطأ) وقد كان هناك اتجاهان :

الاتجاه الأول : الذي يقول : إن اللغة العربية الفصحى هي لغة القرآن الكريم وهي اللغة التي استطاعت ان تعيش أكثر من ستة عشر قرنا رغم محاولات الاعداء المتكررة عليها وأن اللهجات العربية الحديثة هي لهجات قاصرة وأنها تعني الفرقة والضياع وأنه علينا أن نواجه التحديات لأولئك الذين يروجون للهجات ، فهم خبثاء يريدون لعربيتنا المسخ والتشويه .

---

1) كانت في ربيع الأول سنة 1393 هـ ابريل سنة 1973 م .

واللغة العربية الفصحى كانت لغة مجتمع ولم تعد كذلك ، لأن أبناءها غمرهم الضياع وعليهم اليوم العودة لها . . ويجب إقامة حملات على المستويين الرسمي والشعبي لحماية الفصحى . . الخ .

الاتجاه الثاني : وهو الذي دعا اليه المصلحون في كل بقاع الأرض العربية يقول : ليست المشكلة تبرز من وجود اللهجات . . بل تتضح من وجود هوة سحيقة بين اللهجات والفصحى ، ونحن المسئولون عن هذه الهوة فكيف ذلك ؟

لكي تتضح هذه النقطة أو هذه العبارة لا بد لنا من معرفة عدة أمور :

1) كيف نشأت اللغة العربية الفصحى ذات الاعراب ؟

2) أكان للعربي لغة واحدة أم أكثر ؟

3) كيف تكونت اللهجات العربية الحديثة ؟

4) ما الفرق بين اللهجة واللغة ؟

5) وأخيرا كيف الوصول الى عربية أفضل ؟

إن قصة نشأة العربية الفصحى ليست غامضة ولا شائكة وانما هي واضحة وضوح الشمس فالعربية الفصحى تمتاز بميزتين هما : **الإعراب والإيجاز** ، وهي مبنية من لغات أو لهجات القبائل العربية وإن كانت لغة قريش تأخذ النصيب الوافر أو نصيب الأسد كما يقولون فقد قال الفارابي في أول كتابه المسمى (الألفاظ والحروف) : (كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، ولأسهلها على اللسان ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها إبانة عما في النفس) .

وانما الذي فيه غموض وافتراضات شتى هو (ظاهرة التصرف الاعرابي) فنرى جماعة تقول إن اللغة تتدرج من التعقيد الى البساطة أو من الصعوبة الى السهولة .

وقد انقسمت اللغة السامية الأم الى لغات عديدة : كالعبرية والسريانية والآرامية والعربية ، وقد ثبت ان هذه اللغات تمتاز بظاهرة الاعراب ، وإن كانت العربية الوحيدة بين أخواتها التي حافظت عليه . . ويمضي هؤلاء في قولهم : ثم ان العربية انقسمت الى لهجات عديدة كقريش وتميم وأسد ولخم وجذام . . الخ وطبيعي ان تفقد كل لهجة بعض الظواهر الإعرابية التي كانت باللغة الأم .

وترى جماعة أخرى أن اللهجات العربية القديمة كانت خالية من الإعراب ثم بدأت تسير في نحوها الطبيعي فبدأت تتميز بضوابط معينة ثم مع الزمن نمت والتزمت حتى أصبحت كأنها ملكة وأخيرا بدأت هذه اللهجات تتوحد وتتقارب الى أن وصلت الى مرحلة اللغة النموذجية قبل مجيء الإسلام وأصبح الشعراء والخطباء يلتزمونها . وليس كل ما ورد في الندوة بالجديد فقد ذكرناه في القسم الأول من هذا البحث .

مع المستشرقين :

هذا الاجماع أو شبه الاجماع على انفراد العربية بمعنى تميزها بظاهرة الاعراب لم يقبله بعض المستشرقين الا مقيدا بشروط فهذا (كوهين) COHEN مثلا في (لغات العالم) لا ينكر وجود الإعراب في اللغة المثالية الأدبية لغة الشعر والخطابة في الجاهلية والاسلام ولكنه يستبعد مراعاتها في لهجات الحديث بين عرب الجاهلية ويقيم رأيه على ملاحظتين فاسدتين :

أما احداهما : فهي تشعب هذه الضوابط الإعرابية ودقتها الى درجة يتعذر تطبيقها فهي تتطلب ملاحظة عناصر الجملة وعلاقتها ولا يعقل أن تراعى في لهجات الحديث عند العرب ، هذه اللهجات التي تتوخى السهولة واليسر .

أما الثانية : فهي تجرد جميع اللهجات العامية الحديثة المتفرعة من العربية من آثار الإعراب وقوانينه .

ويضيف البعض ملاحظة ثالثة : (إن قواعد هذا شأنها تشعبا ودقة لا يعقل أن تكون قد نشأت من تلقاء نفسها ولا يمكن لعقليات ساذجة كعقليات العرب في عصورهم الأولى أن تقوى على خلقها فهي تحمل آثار الصبغة الدقيقة المحكمة ويبدو عليها طابع من عقلية المدارس النحوية التي ظهرت في العهود الاسلامية بالبصرة والكوفة وما إليها) وهل سمعت بعد هذه الادعاءات التي سنبين قريبا زيفها ومنذ طلوع

الشمس ينقشع الضباب هل سمعت رأيا أعجب ، وخيالا أخصب وقولا أدعى الى طول الهزء والسخرية . مما ذهب اليه المستشرق (فولرز) VOLSER من أن القرآن نزل أول الأمر بلهجة مكة المجردة من ظاهرة الاعراب ثم نقحه العلماء على ما ارتضوه من قواعد ومقاييس حتى أضحى يقرأ بهذا البيان العذب الصافي وغدا في الفصاحة مضرب الأمثال .

ألا وإن المستشرقين يعرف بعضهم كذب بعض من لحن القول مثلما نعرف نحن طيش كثرتهم وتسرعهم من لحن القول أيضا ، فلقد قيض الله لكتابه مستشرقا آخر أشهر من فولرز وأكثر منه تحقيقا وتدقيقا هو نولدكهNOLEKE كفانا مؤنة الرد على هذا الرأي الصبياني وسفهه وفنده ونقده نقدا علميا موضوعيا أقام فيه الحجة على أن اغلب ما توهمه فولرز تجردا من الإعراب إنما كان صورا من تساهل الناس في القراءة بعد اختلاطهم بالأعاجم وشيوع اللحن والتحريف فليس للنص القرآني صلة بشيء من هذه الملاحن من قريب أو من بعيد .

ودقة المقاييس التي وصلت بها أحاديث النبي الكريم تنهض حجة دامغة على أن أقواله نقلت معربة أيضا فلقد كان الرواة على نقل احاديث النبي صلى الله عليه وسلم أحرص منهم على أشعار الجاهليين وكانوا يعتقدون أن هذا الأمر دين ، فبالغوا في رواية الحديث باللفظ وشددوا في روايته بالمعنى[1] .

ولنرد الأن على البراهين السطحية التي وردت على ألسنة المستشرقين وغيرهم ، هذه البراهين التي تدعى أن قواعد الاعراب لم

1) مباحث في علوم القرآن 119 للصالحي .

تكن مراعاة في لهجات الحديث عند العرب ولا في لغات آدابهم وكتابتهم وإنما خلقها النحاة خلقا قاصدين بذلك تزويد اللغة العربية بنظم شبيهة بنظم اللغة اليونانية حتى يكمل نقصها وتسمو الى مصاف اللغات الراقية وهذه هي البراهين الدامغة على فساد أدلتهم وتهافتها .

1) ان عدم وجود هذه القواعد في اللهجات العامية الحاضرة لا ينهض دليلا على أنها لم تكن موجودة في العربية الأولى فقد انتاب أصوات اللغة العربية وقواعدها في هذه اللهجات كثير من صنوف التغير والإنحراف وخضعت لقوانين التطور في مفرداتها ودلالالتها فبعدت بعدا كبيرا عن أصلها .

2) ليس بغريب أن تتفق اللهجات العامية جميعا في التجرد من علامات الإعراب . فقد خضعت لقانون من قوانين التطور الصوتي وهو ضعف الأصوات الأخيرة في الكلمة وانقراضها وهو قانون عام قد خضعت له جميع اللغات الانسانية في تطورها فما كان يمكن أن تفلت منه لهجة من اللهجات العامة المتشعبة عن العربية .

3) ان دقة القواعد لا تدل مطلقا على أنها مخترعة اختراعا فاليونانية واللاتينية مثلا في العصور القديمة والألمانية في العصر الحاضر تشتمل كل واحدة منها على قواعد لا تقل في دقتها وتشعبها من قواعد اللغة العربية ، ولم يؤثر هذا في انتقالها من جيل الى جيل ولا في مراعاتها في الحديث ولم يقل أحد انها من خلق علماء القواعد .

4) ان خلق القواعد خلقا محاولة لا يتصورها العقل ولم يحدث لها نظير في التاريخ ولا يمكن أن يفكر فيها عاقل ولا يتصور نجاحها ، فمن الواضح أن قواعد اللغة ليست من الأمور التي تخترع أو تعرض

على الناس بل تنشأ من تلقاء نفسها وتتكون بالتدريج .

5) وإذا امكن أن نتصور أن علماء القواعد تواطئوا جميعا على ذلك فانه لا يمكن أن نتصور أنه قد تواطأ معهم عليه جميع العلماء والمؤ رخين من معاصريهم فأجمعوا كلمتهم ألا يذكر أحد منهم شيئا ما عن هذا الاختراع العجيب ، ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد على أنها ممثلة بقواعد لغتهم ويحتذوها في كتاباتهم ، اللهم إلا إذا كان علماء البصرة والكوفة قد سحروا عقول الناس وألسنتهم واسترهبوهم وأنسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها فجعلوهم يعتقدون أن ما جاءوا به من الافك ممثل لفصيح هذه اللغة .

6) تقوم أوزان الشعر العربي وقواعده الموسيقية على ملاحظة نظام الإعراب في المفردات فبدون إعراب الكلمات تختل أوزان هذا الشعر وتضطرب موسيقاه ، ومما لا شك فيه أن هذه الأوزان سابقة لعلماء البصرة والكوفة . وأن شعرا عربيا كثيرا قد قيل على غرارها من قبل الاسلام ومن بعده قبل أن يخلق هؤلاء العلماء . فانكار هذا الشعر لا سبيل إليه ولا يمكن ان يكون قد ألف غير معرب الكلمات ، لأن عدم اعرابها يترتب عليه اضطراب أوزانه واختلال موسيقاه .

7) وأقوى من هذا كله في الدلالة على فساد هذا المذهب تواتر القرآن الكريم ووصوله إلينا معرب الكلمات وقد نزل بلسان عربي مبين .

8) ان في رسم المصحف العثماني نفسه مع تجرده من الإعجام والشكل لدليلا على فساد هذا المذهب وذلك أن المصحف العثماني يرمز الى كثير من علامات الاعراب بالحروف (المؤمنون) (المؤمنين) والى علامة اعراب المنصوب المنون (رسولا) (شهيدا بصيرا) وهلم جرا ولا شك أن المصحف العثماني قد دون في عصر

سابق بأنه غير قصير لعهد علماء البصرة والكوفة الذين تنسب اليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الإعراب .

ولهذه البراهين الدامغة وغيرها تبين فساد الرأي الذي نناقشة لجميع المحققين من باحثي الفرنجة أنفسهم حتى لأكثرهم تحاملا على العرب وأشدهم ولوعا بالانتقاص من حضارتهم ولغتهم مثل رينان الفرنسي .

وان أدلة كثيرة لتقوم على شعور العرب بوراثيتهم لغتهم معربة فهذه أمارات الإعراب باطرادها وسلامتها واضحة كما قلنا فيما صح من أشعار الجاهليين ، وذلك هو التصرف الاعرابي ما فتىء يراعي بدقة بالغة حتى القرن الرابع الهجري يوم كان الرواة الاخباريون يختلفون الى الأعراب في البادية ليأخذوا من أفواههم اللغة ويعودوا وألسنتهم الفصاحة والبيان .

أما ترتيلهم القرآن معربا فما نحسب عاقلا في الدنيا يرتاب فيه ، ولم يزعم احد من العلماء في الشرق والغرب قديما أو حديثا عامية الأسلوب القرآني أو تجرده من ظاهرة الإعراب ، لأن ما في القرآن من الألفاظ الصالحة لأن تقرأ رسما بأكثر من وجه ، كان السياق فيه غالبا يعين قراءته المثلى ويفرض وجهه الأفضل ولا يعين قراءة ما الا تحريك الأواخر بالحركة الإعرابية المناسبة ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فالمعنى نفسه يفرض رفع العلماء فاعلا ونصب اسم الجلالة مفعول ، وعزيت هذه القراءة الى عمر بن عبد العزيز وحكايتها عن الإمام أبي حنيفة لم يدفعها عن حكم الشذوذ ، ولولا الترف العلمي الذي أعزى العلماء بتوجيه القراءات الشاذة لتكون بزعمهم عونا على صحة التأويل لما تجشم بعضهم عناء

تفسير الخشية هنا ، بمعنى الإجلال والتعظيم ، فكأن هذه القراءة الشاذة بينت أن الغرض تخصيص العلماء بالخشية إظهار مكانتهم ودرجتهم عند الله[1].

وهذا من أعجب ما يجرؤ على قوله عبيد الله في حق الله .

ولنلاحظ في الآية السابقة أن الوقف بالسكون على آخر العلماء اختياري لا شيء يمنعه اما نصب اسم الجلالة فلا زم لا يجوز فيه الوقف العارض إذ لا يتم المعنى بدون حركة النصب ، وأن اللبس منه ليتمكن قبل هذا التحريك بناظرة في هذا جميع التراكيب المجردة من ظاهرة الإعراب وإذا حرك لفظ واحد في تركيب الآية بحركة الإعراب عند قراءة موصولا مدرجا كاسم الجلالة المنصوب هنا لم يخف على أحد أن السكون في آخر كلمة من هذا التركيب ليس إلا عارضا بسبب الوقف . وهذا السكون العارض يبدو أكثر وضوحا في الفواصل القرآنية المرفوعة والمخفوضة وما أكثر امثلتها في القرآن وقد يوقع في اللبس في الآيات التي تترجح فواصلها بين الرفع والخفض كقوله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ ﴾ فهنا القرآن المجيد محفوظ في لوح محفوظ فتكون الفاصلة مرفوعة أو القرآن المجيد كاتبه في اللوح المحفوظ فتكون الفاصلة مرفوعة أو القرآن المجيد كاتبه في اللوح المحفوظ فتكون الفاصلة مخفوضة .

ان القارىء الذي يظن أنه وقع على المعنى الألطف من خلال الحركة الاعرابية المناسبة لا يسمح لنفسه الا بخفض الفاصلة فهي في نظره لازمة الخفض لا محالة وربما لا يغيب عنه أن ما ارتآه من الخفض

1) البرهان في علوم القرآن للزركشي 341/1

يستلزم أن يكون قوله في لوح محفوظ بهذا التنوين الذي يفيد التنكير مساويا لقوله في اللوح المحفوظ بالتعريف العهدي الذي يوحي بأن هذا اللوح هو المحفوظ المعروف في عالم الغيب ، ولكنه بحسب قراءة الرفع أبعد عن سياق الرأي وأشد مجافاة للأسلوب العربي المبين[1] .

(فنظام الاعراب عنصر أساسي من عناصر العربية الفصحى وهو سمة من سمات رقيها وقد اشتملت عليه منذ أقدم عصورها وكل ما عمله علماء القواعد حياله هو أنهم استخلصوا مناهجه استخلاصا من القرآن والحديث في كلام الفصحاء من العرب ورتبوها وصاغوها في صورة قواعد وقوانين ، ويدلنا التاريخ أنهم كانوا أمناء كل الأمانة في استخلاص قواعدهم وأنهم كانوا يلاحظون المحادثة العربية في أصح مظاهرها ويستنبطون قواعدهم من هذه الملاحظة وأنهم كانوا لا يدخرون وسعا في دقة الملاحظة واتخاذ وسائل الحيطة حتى أنهم ما كانوا يثقون بأهل الحضر ، لأن لغتهم كان قد تطرق إليها الفساد في عصرهم ولا بالقبائل التي احتكت السنتها بلغات أجنبية كلخم وجذام وقضاعة وغسان وإياد وبكر وأزد عمان وأهل اليمن وأنهم كانوا يبذلون في سبيل ذلك من وقتهم وجهودهم شيئا كثيرا فكانوا يرحلون الى الأعراب في باديتهم ويقضون عندهم الشهور بل السنين وعلماء هذا شأنهم دقة واحتياطا وإخلاصا للعلم وهذه نتائج بحثهم ناطقة بعبقريتهم وعمق تفكيرهم وسلامة بحثهم خليقون منا بأطيب الحمد وعظيم الثناء ، طيب الله ثراهم وجزاهم عن العربية والإسلام خير الجزاء)[2].

---

1) لذلك قرأ نافع وحده بالرفع والباقون بالكسر (هكذ) الاتحاف 436 والأولى (الجر) أو الضم والكسر .

2) دكتور علي عبد الواحد وافي مجلة الرسالة العدد 1098 يناير سنة 1965

مع كتاب (من أسرار اللغة) :

ولسنا نعجب لكوهين وأضرابه إذا ذهبوا الى هذا الرأي الفاسد مستدلين بما وهي من الأدلة والبراهين وانما نعجب أشد العجب لبعض الباحثين العرب المعاصرين حين يهجمون على النحاة بحق وبغير حق ، ويغلون في اتهامهم بوضع تلك القواعد الدقيقة وفرضها على الفصحاء من العرب والفحول من الشعراء وحتى رجال القراءات .

وفي كتاب (من أسرار اللغة) للدكتور ابراهيم أنيس ـ نموذج من هذا الهجوم الصاعق على النحويين ، فالإعراب قصة ولكن كما يقول ذلك المؤلف : ما أروعها قصة لقد استحدث خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية ، ثم حيكت وتم نسجها حكاية محكمة في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل الثاني على يد قوم من صناع الكلام نشئوا وعاشوا معظم حياتهم في البيئة العراقية ، ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الإعراب حصناً منيعاً ، امتنع حتى على الكتاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية وشق اقتحامه الا على قوم سموا فيما بعد النحاة[1] .

وهذا غلو لا ريب فيه فلقد يكون للنحاة عمل شخصي في تنسيق ما استنتجوه من أصول النحو وقواعده من كلام فصحاء العرب ، ولقد

---

1) من أسرار اللغة ص 125 (الفصل الخامس من قصة الإعراب) .

يتشددون أحيانا في رمي شاعر مخل باللحن وغير مبالين بضرورة شعرية ملجئة ، ولقد ينكر بعضهم حتى على قراءة القرآن ما صح سنده من أوجه القراءات ولعل من الممكن الاستغناء عن بعض مقاييسهم أو تعويضها بأخرى أسهل وأيسر ولكن عملهم الأساسي في قواعد الإعراب يظل أسمى من أن يتهم وأوثق من أن يجرح فما أجمعوا شواهدهم كما رأينا الا من البادية موطن الفصاحة الأصيل ولم تكن معاييرهم التي نادوا بها الا صورة معبرة عن طبيعة الفصحى في بنائها الصوتي ودلالتها الموحية ، وفي جميع مظاهرها البسيطة والمركبة والمقيسة والمسموعة والمستعملة والمهملة والمشتقة والمنحوتة .

ومما قاله الدكتور ابراهيم أنيس يذكرنا بما قاله بعض المستشرقين وتبناه بعض أتباعهم بصدد الشعر الجاهلي فهو أيضا قصة حاكها قوم من صناع الأوزان والقوافي سموا فيما بعد بالرواة .

على أننا إذا تركنا روعة الأصالة في هذا الرأي أو هذين الرأيين جميعا فإننا نبادر الى القول : إن الذين زعموا اختلاق النحاة قصة الإعراب لم يستطيعوا أن يجعلوها قصة لا أصل لها بل أجبروا على الاعتراف بأنها كانت تستمد خيوطها من (ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية وحسبنا بهذا اعترافا من الزاعمين بأن النحاة جمعوا هذه الظواهر اللغوية المتناثرة بين القبائل العربية وصنفوها وخرجوا منها بصناعة الإعراب) .

وقد وقفنا عند نشأة الظاهرة الإعرابية ، وقد اطلعت على كتاب مغامرات لغوية (عبد الحق فاضل) توزيع دار العلم للملايين ببيروت ، تحدث فيه عن هذه الظاهرة حديث مقارنة بين اللغات والذي كانت نتيجته النهائية التي حصل عليها كما يقول : هي أن بعض اللغات

احتفظت بالتزمين والتكنين وتخلصت من الإعراب كالفارسية والانكليزية وبعضها احتفظت بالإعراب وتخلصت من التزمين والتكنين بالاضافة الى حركات الإعراب كالألمانية وبعضها تخلصت من هذه الرواسب جميعا كلغاتنا الدارجة بوجه عام وهو كاخوانه اللبنانيين يؤثر الفصحى المخففة بالتسكين ، وقد أثنى على النحاة الأوائل ودعا الى تيسير النحو الذي لا يستطيع أحد كما يقول أن يتعلمه كاملا الا إذا أنفق فيه من الزمن ما يكفي للتخصص في الطب والذرة انه يقدم بضاعة في ثوب رائع من الإغراء ونحن لا نعيب الموازنة بين اللغات ولكنا نحذر من خطورة تطبيق قوانين لغة ما على لغة تباينها ، ولا سيما أن اللغة العربية من بين اللغات أصالة تتمرد على كل طبيعة غربية عن روحها وطبيعتها .

ولن نطيل الوقوف عند نشأة الظاهرة الإعرابية وتاريخها فليس هنا موضعها ولكنا نقف لنسأل صاحب (من أسرار اللغة) ما مدلول الحركات الإعرابية ؟ وما تعليلها ؟ وعلى أي أساس صنعها أصحابها أو مختلقوها .

أما مدلول الإعراب عند صاحب الأسرار فلا شيء ، لأن حركاتنا الإعرابية ليست رموزا لغوية تشير الى الفاعلية والمفعولية وغير ذلك كما يظن النحاة[1] ، ويرى أنه اتجه في تفسير ظاهرة الإعراب الى رأي جديد له ما يدعمه من نصوص اللغة ومن روايات قديمة ثم يأتي ليكشف لنا النقاب .

---

1) من أسرار اللغة : 142 بتصرف ونص عبارته (ولعل أهم فرق بين رموز الأسماء في اللاتينية وبين حركاتنا الإعرابية آية الرموز اللاتينية لا تسقط مطلقا من نهاية الأسماء حين الوقف عليها كما يحدث غالبا للحركات الإعرابية في لغتنا مما يجعلنا نرجح أن حركاتنا الإعرابية نسخ ما قال .

عن هذا الرأي الجديد فيقول تحت عنوان « مفتاح السر في ظاهرة الوقوف » : يظهر ـ والله أعلم ـ ان تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل في الكلام شعرا أو نثرا ، فاذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج الى تلك الحركات بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى السكون كما يظهر أن الأصل في كل الكلمات أن تنتهي بهذا السكون وأن المتكلم لا يلجأ الى تحريك الكلمات الا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل ، والغريب في أمر هذا الرأي أن يوصف بالجدة مع أن صاحبه قال بصدده : ويشبه هذا الرأي ما نادى به أحد تلاميذ سيبويه وهو الإمام محمد بن المستنير المعروف بقطرب المتوفي سنة 206 إذ يقول : ان الرأيين في حقيقة امرهما رأي واحد ليس فيهما قديم وجديد ولا مشبه ومشبه به .

والغريب في أمر هذا الرأي ثانيا أن صاحبه لم يفعل كما فعل صاحب احياء النحو حين حاول الرد على قطرب ، ولم يفعل كما فعل الزجاجي حين أورد الحجج التي رد بها العلماء على قطرب ولكنه ذكر الرأي دون الاعتراض عليه ثم تبناه ، وحاول ان يجد للمشكلة المتوهمة حلا عن طريق ظاهرة الوقف ، فناقش هذه الظاهرة نقاشا طويلا انتهى منه الى فصل عنوانه « ليس للحركة الاعرابية مدلول » . وهو يقول فيه : « لم تكن تلك الحركات الاعرابية تحدد المعاني في أذهان العرب القدماء كما يزعم النحاة بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض[1] ثم يحاول ان يبرهن على صحته بأمثلة كان قطرب المتوفي سنة 206 هـ قد أتى بمثلها وبخير منها حين تحدث عما اختلف اعرابه واتفق معنا ، وعما اتفق اعرابه

1) من أسرار اللغة 158

واختلف معناه ما قدمنا »[1].

فالكلمة (آن) تدل على فعل ماض بمعنى حان ، واذا كان المد بعد النون فالكلمة (انا) ضمير للمتكلم . وهل الفرق بين الكلمتين الا في اختلاف موضع الصوت الممدود فيهما بل ان الفرق بين (ان) الحرف المشبه بالفعل وبين (انا) الحرف المشبه بالفعل مع اسمها (نا) المدغمة بها ، انما هو فارق في الصوت ودرجة مده فقط ، وهل الحركة الا صوت قصير أو بعض من حرف المد اللين ؟ أليست الفتحة صوتا كصوت الألف الساكنة الممدودة ، الا أنها أقصر ؟ وكذلك الضمة والكسرة بالنسبة الى الواو والياء ؟

وما الفرق بين الجد بالفتح والجد بالكسر ان لم يكن فرقا في الصوت ؟

بل ما الدلالة الصوتية ، (اذا) وهي من أوضح أنواع الدلالات المعترف بها ،

ونعود لنسأل القائلين ، ان الحركات الاعرابية وسيلة لدرج الكلام ، إذا كانت الحركة لازمة لدرج الكلام ـ اذ تعاقب السكون ، فيعتدل الكلام بين ساكن ومتحرك ـ فكيف نعد السكون في حالة الجزم

---

1) ولعلنا نستطيع أن نقول : نعم إنّ الحَركة لحن صوتي ولكنه ليس لحنا لمجرد درج الكلام وإنما هو لحن صوتي تفرق العرب به بين المعاني وهذا الصوت إما أن يكون ذا مخرج معين فيكون حرفا ومن الحروف تتألف الكلمات وواضح هنا أن المعاني تختلف باختلاف هذه الأصوات أي الحروف المعبرة عنها وإما أن يكون الصوت مداليناً ! كالألف والياء والواو الساكنات أو همزة الأصوات ومواضعها أيضا يفرقون بين المعاني إذ لو أخذنا الحرفين (أ) الهمزة (ن) والنون وأدخلنا عليهما صوتا ممدودا بالفتح لوجدنا أنه إذا كان المد بعد الهمزة . . . .

إعرابا ؟ إن الضمة في قولنا يكتب زيد لا لزوم لها لدرج الكلام اذ نحن نستطيع أن نقول « يكتب زيد » بسكون الباء كما هو الأمر حين نجزم فنقول : لم يكتب زيد . فهل حركتا الباء بالضم في الأولى وسكناها في الثانية لدرج الكلام مع أن الحرف الذي قبلها وهو التاء والحرف الذي بعدها وهو الزاي لم يتغير نوعا ولا حركة .

أما ما كان الأولى بناء على الأقل أن تقول : إن بعض حركات الإعراب ، جاءت في بعض المواضع ذات دلالة نحوية ثم قيس عليها حبا من النحاة بطرد القاعدة والقياس . وأما كون هذه الحركة المجحود فضلها عند قطرب وأتباعه واقعة في أواخر الكلمات فقد تبين العلماء حكمة العرب فيه ، وقطعوا الطريق على من يجب أن يفرق بين الحركات التي تقع في أوائل الكلمات وأواسطها والحركات التي تقع في أواخرها كما قال الزجاجي : (قال بعض النحويين الإعراب يدخل في الاسم لمعنى فوجب أن يلفظ به ثم يؤتى بالإعراب في آخره ، وقال أبو بكر بن الخياط ، ليس هذا القول بمرض ، لأنا قد رأينا الأسماء تدخلها حروف المعاني أولا ووسطا فما دخلها ؟ أولا قولك : الرجل والغلام وما دخلها وسطا ياء التصغير في قولك فريخ وقليق . ولو كان الأمر على ما ذهب إليه قائل هذا القول لوجب ألا يدخل على الاسم حرف معنى الا بعد كمال بنائه ، قال والقول عندي هو الذي عليه جلة النحويين أن الاسم يبني على أبنية مختلفة منها : فعْل وفعَل وفعُل وفعِل ، وما أشبه ذلك من الأبنية ، فلو جعل الإعراب وسطا لم يدر السامع احركة اعراب هي أم حركة بناء فجعل الإعراب أولا ، لأن الأول تلزمه الحركة ضرورة للابتداء ، لأنه لا يبتدأ الا بمتحرك ولا يوقف الا على ساكن ، فلما كانت الحركة تلزمه لم تدخل عليه حركة إعراب لأن حركتيه لا تجتمعان

في حرف واحد ـ فلما فات وقوعه أولا لم يمكن أن يجعل وسطا لأن أوساط الأسماء مختلفة لأنها تكون ثلاثية ورباعية وخماسية وسباعية فأوساطها مختلفة فلما فات ذلك جعل آخرا بعد كمال الاسم ببنائه وحركاته[1] .

وهكذا فالحركات في لغة العرب أصوات قصيرة على الحروف للتفرقة بين معاني الكلمات فمنها ما يثبت على حرف فيكون حركة بناء ومنها ما يلحق الآخر ، ويتبدل بتبدل وظيفة الكلمة النحوية في الجملة فيكون إعرابا وسواء كانت الحركة للبناء او الإعراب فان هذه التفرقة بالحركات بين المعاني ضرب رائع من ضروب الايجاز تغنينا فيه الحركة في الكلمة الواحدة عن عدد من الكلمات .

2) وأما القول: إن من لم يتصل بالنحو أيّ اتصال يفهم عنا تمام الفهم إذا نحن قرأنا له الخبر في الصحيفة وتعمدنا الخلط في الإعراب . . . فقول فيه الكثير من المبالغة والمغالطة فنحن نسأل أولا ، هل يفهم عنا من لم يتصل بالنحو ولم نعرب له كما يفهم عنا المتصل بالنحو . اذا نحن قرأنا له معربين ؟ ونسأل ثانيا : هل يجوز أن نعتبر العامي أو غير المتصل بالنحو أي اتصال ، هو المقياس الأمثل حتى نبني أحكام لغتنا بحسب فهمه ومستواه ، ونحن نسأل ثالثا : وهنا يظهر وجه المغالطة أنحن الآن بصدد البرهنة على ضرورة حركات الاعراب أو عدمها في كلا منا أم أننا بصدد تعليل حركات الإعراب في العربية التي تعارف الناس على أنها العربية ؟

نعم قد يساق هذا المثل تمهيدا للدعوة الى ترك الإعراب ولكن

---

1) الايضاح في علل النحو : 76

كيف يساق بصدد الحديث عن مفهوم حركات الاعراب عند القدماء وصدد الرد على ان لهذه الحركات صلة بالمعاني عندهم ؟ كيف نمثل بانسان من بيشتناو من أدنى الناس ثقافة فيها للتدليل على أن الإعراب يوم وضع وتكلم العرب به لم تكن بينه وبين المعاني صلة ؟ ثم أليست حركات الاعراب رمز الحقيقة كافية وراءها هي تلك المعاني النحوية في الكلام . . وهل فهمنا الكلام إذا فهمناه بدون حركات الإعراب يعني أن لتلك الحقيقة رمزا آخر ينبغي أن تدل به عليها . ولعلنا نكفي أنفسنا مؤونة المناقشة إذا نحن لجأنا الى أصحاب اللغة الذين يفهمونها بسلائقهم لنرى أكانوا يفهمونها لولا الحركات ، قال الجاحظ : (وقد روي أصحابنا أن رجلا من البلديين قال لأعرابي : كيف أهلك ؟ قالها بكسر اللام ، قال الاعرابي : صلبا ، لأنه أجابه على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله .

وحكى الكسائي انه قال لغلام بالبادية : من خلقك بسكون القاف ، فقال الغلام : لعلك تريد من خلقك . وفتح القاف . وكان بعض الأعراب اذا سمع رجلا يقول في الجواب قال : نعم وشاء ، لأن لغته نعم .

وقيل لعمر بن لجأ : محل : انا من المجرمين منتقمين . قال انا من المجرمين منتقمون[1] . فالعرب الذين يفهمون اللغة بسلائقهم إذن ولم يتصلوا بالنحو لا يفهمونها الا بالحركات وقد حدث كل من عاشرهم بذلك ، قال الجاحظ « وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا « (مكره أخاك لا بطل) و (إذا عز أخاك فهن) من لم يفهم قولهم هذا لم

---

1) البيان والتبيين 1 : 163 ، 164

يفهم قولهم : ذهبت الى (أبو زيد) ورأيت أبي عمرو ، ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباههم بهرجوه ولم يسمعوا كلامه ، لأن ذلك يدل على طول إقامتهن في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان[1].

لقد كانوا يمتحنون الأعراب بالقاء الاعراب الغلط عليهم فاذا قبلوه ضعفوهم وأسقطوهم ، وقيل ان أبا عمرو بن العلاء استضعف فصاحة أبي خيرة العدوي فسأله : كيف تقول حفرت الأران[2] فقال حفرت أرانا ؟ فقال له ابو عمر : ألان جلدك يا أبا خيرة حين تحفرت . وقال الأصمعي سمعت أبا عمرو يقول : ارتبت بفصاحة أعرابي فأردت امتحانه فقلت بيتا وألقيته عليه :

كم رأينا من مسحب[3] مسحلب   صار لحم النسور والعقبان

فأفكر فيه ثم قال : رد على ذكر المسحوب ، حتى قالها مرات فعلمت أن فصاحته باقية .

وهذا نموذج من الأخبار الكثيرة التي انتشرت في البيان والتبيين ، وفي كتاب الخصائص وغيرهما وهي كلها أخبار تؤكد أن العربي السليم الفطرة ما كان يفهم العربية الا معربة وأن علماء اللغة كانوا إذا فهم الأعرابي الكلام الفاسد أو الشاذ أو الملحن بهرجوه وأسقطوه وعدوه لين الجلد مضيعا للسليقة فكانوا بذلك أذكى من اللغويين المحدثين الذين إذا فهم العافي عندهم لغة ممتلئة باللحن تركوه وأسقطوا الإعراب .. إذا كانت فيها بالأمس ..

---

1) المرجع السابق

2) الأرة وهي الحفرة تجمع على أرين .

3) وضعها أبو عمرو عامدا فيها للخطأ ليمتحن الاعرابي وصوابها مسحوب .

لقد وصل أصحاب السلائق بالأمس الى درجة كادوا لا يفهمون معها عمن انصدع مفصل البيان في ألسنتهم فاذا رمتهم ظروفهم في بيئة العامة فزعوا الى اللغويين أو العلماء فزع الغريب عن اللغة الى الترجمان . قال الجاحظ : رأيت عن أسود لبنى أسد قدم عليهم من شق اليمامة فبعثوا ناطورا وكان وحشيا لطول تغربه بالابل وكان لا يلقى الا الأكرة الحراثين فكان لا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم ، فلما رآني سكن إلي وسمعته يقول : لعن الله بلادا ليس فيها عرب . . .

ونحن نسأل بعد كل ذلك المثقف المتصل بالنحو ـ لا من لم يتصل بالنحو أيّ اتصال ، هل يستطيع أن يفهم قولنا تمام الفهم اذا قلنا : ما أحسن زيدا غير معربين هل يستطيع أن يقول : أأردنا في قولنا النفي أم التعجب أم الاستفهام ؟ لا شك أنه سيقول : إن سياق الكلام ومعرفة الصلة بيننا نحن المتكلمين وبين زيد سيساعده على فهم قولنا ومعرفة ما أردناه من نفي أو تعجب أو استفهام . ونحن نقلو إن حركة بسيطة نحرك بها آخر الكلمة تغنيه عن كل ذلك الاستقصاء الواسع الذي سيسعى وراءه ليدرك معنى جملة قصيرة واحدة[1] .

3) وأما قوله : إن الذي يحدد معنى الفاعلية والمفعولية وغيرها في اللغة العربية هو نظام الجملة والموضع الخاص لكل من هذه المعاني اللغوية وما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات فقول غريب ، وهو إن صح في الحديث عن غير العربية لا يصح في الحكم عليها اذ من ذا الذي يستطيع أن يزعم أن للفاعل أو للمفعول في الجملة العربية موضعا لا يتقدم عنه ولا يتأخر ؟

---

1) هي جملة واحدة اذا كان الكلام نفيا أو استفهاما أما اذا كان للتعجب ففيه جملتان .

نعم لقد تعرض البلاغيون لنظام الجملة وموضع المسند اليه ومواضع تقديمه وتأخيره وذكره وحذفه . . وذكروا لذلك دواعي عددها علم المعاني ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يضع للجملة العربية قانونا كالذي يريد الأستاذ أن يفرضه عليها حين قال « من اللغات ما تتخذ من جملتها حجرات تسكن في كل منها حالة من حالات النحو ففيها للفاعل موضع وللفعل موضع آخر وللمفعول موضع ثالث وهكذا[1] بل نحن نقول إن الموضع الواحد في الجملة العربية قد تحيله الفاعل مرة والفعل مرة أخرى والمفعول مرة ثالثة ؛ إن الفاعل في العربية قد يأتي مبتدأ وقد يأتي مضافا اليه ، قد يأتي عقب الفعل وقد يأتي قبله وقد يستتر فلا يظهر . . . وأن هذه المرونة في تركيب الجملة العربية من أروع صفاتها وأكثرها فائدة في طواعية اللغة للناظم والشاعر وفي طواعية الألفاظ للحالات النفسية التي تستدعي في كثير من الأحيان نظاما خاصا لا تساعد عليه اللغة ذات « الحجرات » الثابتة .

إن علم المعاني يحدد لنا كيف توافق بين مواضع الألفاظ في الجملة وما نريد أن نؤ ديه من المعاني وإذا كان علماء البلاغة واهمين في تصوراتهم[2] فلنسأل عن النظام الثابت في الجملة العربية « لقد جال الاستاذ في كتب الجرجاني خاصة وكتب المتقدمين عامة ولم يستطع أن يجد قانونا ثابتا للجملة كما يريد فقال » ونحن في بحثنا لنظام الجملة العربية ندرك تمام الإدراك أن هذا النظام قد اختلف الى حد ما باختلاف العصور[3] .

1) من أسرار اللغة 212

2) من أسرار اللغة ص 218

3) انظر من أسرار اللغة ص 216

وهكذا ضاع القانون بين العصور ، وأما العصور القديمة ، وعصور الاحتجاج فقد أطال الاستاذ فيها البحث ولم يأت بشيء مقنع ، لقد قال « إن الفعل المضارع وما اشتق منه في معنى واحد ، وإن قولنا : (والله يدعو الى دار السلام) كقولنا (فان كان لهن ولد) كقولنا (فان كان لهن ولد فالربع لكم) وإن الجملتين تؤديان المعنى نفسه وليس لك أن تسأل عن القصر في الجملة إذ أن الأستاذ لا يرى فرقا بين الجملتين ويرى أن اختبار أحد الأسلوبين يرجع الى تلك النواحي الفنية التي تتأثر بمزاج الكاتب وموسيقى الكلام . . أليس من العجيب أن تطغى المادة على كل شيء فنرى من المتعلمين من يكفر بعلومنا النظرية ويرى أن انفاق العمر في رفع زيد ونصب عمرو وجر خالد وتحقيق الخلاف بين البصريين والكوفيين ضرب من العبث وانصراف عن الحياة ، فما بهذا تصنع الطائرات ولا تبني الغواصات ولا تغرس الأشجار ولا تشق الأنهار وكأنما فات هؤلاء أن للفكر متعته ولذته كما للجسم غذاءه ومادته ولو رجعوا الى ألوان الثقافة وصنوف المعرفة عند الأمم والشعوب التي بَرع أهلها في التجديد والابتكار لوجدوا بين هذه الألوان من العلوم النظرية ما اولع به كثير من أفذاذ العلماء الذين وهبوا أنفسهم للبحث رغبة في المعرفة وجريا وراء الحقيقة ، ولعلهم يؤمنون بأن في الجامعات الأوربية أقساما للدراسات الشرقية والاسلامية وماذا يفيد المستشرقون من دراسة اللغات والبحث عن أصلها وكيف يظن الانسان الأول مميزات اللغات السامية والموطن الأول للساميين وغير ذلك من المباحث والمسائل التي لا أثر في الحياة العملية لها ، وليست اللغة العربية نظرية فقط لأنها لغة دين يتعبد به جميع أهل الأرض من مبعث رسول الانسانية محمد الى قيام الساعة نزل كتابه على سبعة أحرف كلها شاف كاف ، وقرئت آياته بقراءات مختلفة ترتب عليها اختلاف الأحكام التي استنبطها

العلماء منه ، أفلا يحق للمسلمين أن يتفهموا أسرار هذه اللغة ويقفوا على دقائقها بغية فهم الأحكام ، رضي الله عن أسلافنا الذين اختلسوا اعمارهم من فتنة الحياة وتقربوا الى الله بخدمة العربية وفاء للاسلام . . .

(أ) كتابا : العوامل لأبي علي الفارسي ومفاتيح العلوم للخوارزمي :

فذلكة تاريخية :

كان النحو كما نراه في كتاب سيبويه وكما يؤخذ من مجالس القدماء ومناظراتهم دراسة لغة وأساليب قوامها أنماط من الأمثلة والعبارات المأثورة يبين المراد بها وأوجه الخلاف أو المشابهة بينها وطرائق إعرابها ومقتضيات هذه الطرائق وتلك الأوجه من المعنى والاستعمال ثم عرض نصوص من القرآن أو الشعر أو الرجز للاستشهاد بها ، والقياس عليها والاستنباط منها فهي دراسة تقدم النحو مثارا مفرقا تتأتي به مزاجا مختلطا لا تستخلصه ولا تفلسفه ولا يرجى ان يكون النحو لذلك العهد على خلاف ما ذكرنا فقد كان لا يزال ناشئاينحو وطفلايقوي ثم هو وضع لعلاج اللحن واتقاء خطره وكانت نظرتهم للحن أوسع وأشمل كما يفهم من كلامهم عنه وتمثيلهم له فهو في رأيهم كل ما يصيب الكلمة فيحرفها عن صحتها في الإعراب أو الاستعمال أو طريق النطق أو ضبط الحروف .

رووا أن الكسائي جاء يوما وقد مشى حتى أعيا فجلس الى قوم فهم فضل وكان كثيرا فقال قد عييت فقالوا له كيف تجالسنا وأنت تلحن ؟ فقال كيف لحنت ؟ فقالو له : إذا كنت أردت من التعب فقد أعييت وان كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل عييت مخففة ، وروي الجاحظ في باب اللحن أن يوسف بن خالد سمع

يقول : لا حتى يشجه بكسر الشين يريد يشجه بضم وروي فيه أيضا أن رجلا بالبصرة كانت له جارية تسمى ظمياء فكان اذا دعاها قال يا ضمياء بالضاد ، وقد آثر بعض المؤلفين أن يجعلوا كتبهم أشتاتا من النحو واللغة والأدب والأخبار وما اليها كالمبرد في كامله وكثير من أصحاب الأمالي في أمالهم ، يرون ذلك كله أدبا ، وكان الفصل بين النحويين واللغويين مما لا يكثر خطوره بالبال وما تزال ثمة مسائل متنازعة بين كتب النحو واللغة كحروف المعاني وكثير من العبارات الاصطلاحية المأثورةوأبواب الفعل الثلاثي ، وألفت كتب في الطبقات والتراجم تجمع بين النحويين واللغويين مثل طبقات النحويين للزبيدي وطبقات النحويين واللغويين لابن قاضي شهبه وأنباه الرواه للقفطي وبغية الوعاء للسيوطي بل ألفت كتب أخرى تجمع بينهم وبين الأدباء مثل نزهة الألباب للأنباري ومعجم الأدباء لياقوت .

وكتب أخبار النحويين البصريين للسيرافي يشتمل على تراجم لبعض من غلبت الرواية عليهم كالأصمعي وأبي عبيدة وإن كان ليسميه مؤلفة أخبار النحويين البصريين ويقول في أوله : كتاب فيه ذكر مشاهير النحويين وطرف من أخبارهم .

ثم ان صاحب الأسرار يعزو الرأي القائل بأن للحركات الإعرابية مدلولا الى صاحب الاحياء لا الى أصحابه القدماء فيقول : « وأما ما يشير إليه صاحب احياء النحو من أن حركات الإعراب ولاسيما الضم والكسر ترمز لمعنى من المعاني لا يستفاد من الكلام الا بمراعاتها فليس يشفع له ما ساقه من أمثلة للتفرقة بين اسم الفاعل واسم المفعول أو بين الفعل المبني للمعلوم والمبني للمجهول بواسطة الحركات كما في مُكرِم ومُكرَم ، وفي كَتَب وكُتِب، وقد أورد صاحب احياء النحو عدة

صيغ لا يفرق بين معانيها الا بالحركات ، غير أنه نسي أن الحركة في كل صيغة من هذه الصيغ تعد جزءا أساسيا في بنية الصيغة ، وشرطا هاما للتعرف على تلك الصيغة ، ومثلها كمثل أية كلمة[1] ثم ينتهي الى القول : ويكفي للبرهنة على أن لا علاقة بين معاني الكلام وحركات الإعراب أن تقرأ خبرا صغيرا في احدى الصحف على رجل لم يتصل بالنحو أي نوع من الاتصال فسترى أنه يفهم معناه تمام الفهم مهما تعمدنا الخلط في إعراب كلماته برفع المنصوب ونصب المرفوع أو جره . . .

فليست حركات الإعراب في رأيي عنصرا من عناصر البنية في الكلمات وليست دلائل على المعاني كما يظن النحاة بل ان الأصل في كل كلمة هو سكون آخرها سواء في هذا ما يسمى بالمبني أو المعرب إذ يوقف على كليهما بالسكون ، وتبقى مع هذا أو رغم هذا واضحة الصيغة لم تفقد من معانيها شيئا[2]

وبعد أن يطمئن صاحب « من أسرار اللغة » الى أنه هدم راي المتقدمين من النحاة والمتأخرين يقف ليبين كيف تكتسب الكلمات في العربية معاني الفاعلية والمفعولية وغير ذلك مما توهموا أن حركات الإعراب تدل عليه فيقول : أما الذي يحدد معاني الفاعلية أو المفعولية ونحو ذلك مما عرض له أصحاب الإعراب فمرجعه امران :

أولهما : نظام الجملة العربية والموضع الخاص لكل من هذه المعاني اللغوية في الجملة .

وثانيهما : ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات ، كتلك التي

---

1) من أسرار اللغة 160

2) المصدر السابق 160 - 161

بحثناها في الفصل الأول ، فالباحث في نحو لغة من اللغات يعني كل العناية بتراكيب الجمل وربط أجزائها بعضها ببعض ويحاول التعرف على مواضع الفعل منها ومواضع الفاعل والمفعول منها ، ثم مواضع فضلات الكلام وغيرها من عناصر غير أساسية فاذا اهتدى لكل هذا فقد اهتدى الى الكثير من أسرار اللغة[1].

ويتلخص هذا الرأي في ثلاث نقط وهي :

1 ـ أن الحركات في الأمثلة التي يوردونها للدلالة على أن للحركة معنى كما هو الأمر في مكرم ومكرم وكتب وكتب ، انما تعد جزءا أساسيا في بنية الصيغة وشرطا هاما للتعرف على تلك الصيغة ومثلها مثل أية حركة في أية كلمة .

2 ـ أن الدليل على أن لا صلة بين حركات الإعراب والمعاني : ان من لم يتصل بالنحو أي اتصال يفهم عنا تمام الفهم إذا نحن قرأنا له خبرا في احدى الصحف وتعمدنا الخلط في إعراب الكلمات .

3 ـ أن الذي يحدد معاني الفاعلية والمفعولية وغيرها من هذه المعاني اللغوية أمران :

أ ـ نظام الجملة العربية والموضع الخاص لكل من هذه المعاني اللغوية .

---

1) جاء في هذا الفصل وعنوانه وظروف الكلام وملابساته ان من شاء الكشف عن أسرار القواعد اللغوية والتعرف على مناهجها وطرائقها يجب أن يقرن البحث في العبارة بالنظر في الظرف اللغوي وأن يتفهم الكلام الملفوظ في ضوء ما بين المتكلم والسامع من صلة وعلى ضوء ما سبق من اللفظ من ظروف مهدت للكلام وحتمت أن يكون على صورة خاصة ووضع خاص .

ب ـ ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات رأينا أنها تقوم على معرفة الصلة بين المتكلم والسامع ومعرفة السياق والظروف التي مهدت للكلام ورسمت له وضعه الخاص .

ونحن نورد ما يرد به على كل من هذه النقط فنقول :

1 ـ أما القول بأن الحركات في مثل مكرم ومكرم وكتب وكتب تعد جزءا أساسيا في بنية الصيغة وشرطا هاما للتعرف على تلك الصيغة وأن مثلها مثل أية حركة في أية كلمة فهو يدل على قبول الفكرة من حيث المبدأ ، اذ ان ذلك يعني أن من عادة العرب التفريق بين معاني الصيغ والألفاظ بحركاتها بكسر واما قبل آخر الكلمة للدلالة على اسم الفاعل وفتحوه للدلالة على اسم المفعول وضموا أول (كتب) وكسروا ما قبل آخره للدلالة على معنى الصيغة الجديدة في البناء للمجهول وهم إنما فعلوا ذلك في ألفاظ كثيرة فغيروا حركة الحرف الأول مثلا لتغيير المعنى فقالوا البر بفتح الباء وضمها وكسرها ، فدلوا بكل منها على معنى مستقل خاص ، وقالوا : القرى بضم القاف وكسرها لمعنيين مختلفين

فدل ذلك على أنهم عبروا بتغيير حركة الحرف الأول من الكلمة عن تغيير معناها وكذلك فعلوا في الحرف الثاني منها فقالوا ، فرح بكسر الرا وفتحها للتفرقة بين فعليهما واسميهما وقالوا : أهلك بكسر اللام وضمها لمثل ذلك أيضا ، وقالوا : سفر بفتح الفاء وسكونها فدلوا بتغيير حركة الفاء على تغيير المعنى من الدلالة على الظهور الى الدلالة على القوم المسافرين . . الخ

فكأن بعض المؤلفين لا يرى التفرقة بين النحويين واللغويين

لشدة الصلة بين النحو واللغة خاصة وكأن بعضا آخر كان لا يرى التفرقة بين النحويين والأدباء لأن للنحو صلة بالأدب عامة وقد كان النحويون من المعلمين يسمون بالمؤدبين ، لأنهم يأخذون تلاميذهم بالتأديب أي الرياضة والتمرين حتى يصير الأدب ملكة منهم ـ وكان الأدب فيما يقول ابو البركات الأنباري يشمل ثمانية علوم وهي النحو واللغة والتعريف والعروض والقوافي وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم قال الأنباري وألحقتنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما وهما علم الجدل في النحو وعلم أصول النحو .

ولما أن استحصدت الفلسفة وأغرم الناس بها دخلت النحو وأثرت فيه كما دخلت غيره وأثرت فيه ولكن على تفاوت واختلاف مطاوعه لظروف الحال والبيئة فكان أبو زكريا الفراء وأبو الحسن الرماني محمد غلبت الفلسفة على كتبهم وكان كلاهما نحويا متكلما من اصحاب الاعتزال .

وتحدث الفارسي عن نحو الرماني فقال : إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن الرماني فليس معنا منه شيء وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء ، وتحدث غيره عن نحويهما ونحو السيرافي قال كنا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين فمنهم من لا يفهم من كلامه شيئا ومنهم من تفهم بعض كلامه دون البعض ومنهم من لا نفهم من كلامه شيئا ، فأما من لا نفهم من كلامه شيئا فأبو الحسن الرماني وأما من نفهم بعض كلامه دون البعض فأبو علي الفارسي ، وأما من نفهم جميع كلامه فالسيرافي[1] .

---

1) نزهة الألباب .

قال الجاحظ : قلت لأبي الحسن الأخفش أنت أعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومه كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم قال : أنا رجل لم أصنع كتبي هذه لله وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه ، قلت حاجتهم الى فيها وانما كانت غايتي المنالة ، وراعت النحاة ضخامة النحو وتشعب فروعه وثقل أعبائه على الطلاب فأخذتهم بهم رحمة وأبوا الا أن يتخذوا منهم عونا فتناولوه بالنظم يسلكون فيه ملألأه ويجمعون به أشتاته لئلا يشق عليهم حفظه ولا يسرع إليهم نسيانه فأصابوا في ذلك نجحا ولكنه غير حاسم فالنظم أصعب من النثر وأبعد متناولا ولاسيما نظم العلوم ، لأنه لا مجال فيه للمجاز والخيال ولهذا يغلب عليه الحشو وتشيع فيه الضرائر وتتابع المآزق ، ولا يسع الناظم الا أن يفعل بعض ما يجب ذكره أو يغنى فيه بالتلميح عن التصريح أو بالمفهوم عن الملفوظ ، وإذن لا بد لفهم إشاراته واكتناه دقائقه من جهد أكثر من جهد النثر يضيفه الطالب الى جهد التحصيل والحفظ بل انه لحقيق أن يتكلف جهدا آخر في التعهد وتكرار المراجعة لئلا تنبهم الإشارات وتشتبه المعالم فلا يكون ثمة إلا أشتات من أمهات المسائل وجملة الفروع .

ويقبل عصر الركود والجمود فلا تركد حركة النحو ولا تجمد بل تستمر وتطرد لا لتجدد او تبتكر ولكن لتنقل وتقلد وتكرر وتتزيد وتختصر مطولا وتطيل مختصرا وتنظم منثورا وتحل منظوما وتشرح متنا وتعلق على شرح وتصطنع أحاجي وألغازا .

حركة دائبة رحوبة دائرة قلما تأخذ الى أمام ولم تخل على كل حال من بركة ونفع لأنها دلت على نفسها وصورت عصرها ، وقد

حفظت لنا مع ذلك نصوصا من أصول ومراجع عدت عليها العوادي ولم يصل الينا منها غير أسمائها أفرغوها في كتبهم بقايا ماثلة وآثارا شاخصة قد يكون فيها للدارس المتأمل . . . .

لقد وقف النحاة طويلا عند نظرية العامل وهي ضرب من العلة وعدوها أساس النحو جميعه ، وقديما قالوا : (النحو أثر يجلبه العامل) .

والمؤلفات التي كتبت عن العوامل مؤلفات لا يعدو كل منها وريقات معدودة عني أصحابها بسرد العوامل سردا على صورة هي أليق بتقديمها لصغار المبتدئين وهذه هي المراجع وأرقامها بدار الكتب وهي :

عوامل البيركلي 330 ـ التبين والايضاح 1384 ـ تحفة الاخوان 72 ـ تعليق الفواضل على إعراب العوامل 1347 شرح عوامل المولى بن بير على المعروف بيركلي تأليف الشيخ أحمد الساكن ضمن مجموعة مخطوطة 368 مجاميع . العوامل المائة للجرجاني 1115 مطبوع ، اعراب عوامل الجرجاني 48 مخطوط ـ تسهيل نيل الأماني في شرح عوامل الجرجاني 553 ـ شرح عوامل الجرجاني 448 ومائة كاملة شرح مائة عاملة 508 ، معجب الأذكياء 1561 مخطوط ، العوامل المحسنية للمولى محمد محسن القاشاني وشرحها للشيخ عبد الكريم بن محمد هادي الحسيني 1939 .

شرح نظم العوامل المائة للشيخ عبد القادر الأفرامي ضمن مجموعة في مجلد مطبوع 1917 رقم 2 في المجموعة ، ومن هذه الكتب رسالة صغيرة للشيخ عبد الرازق في أحوال الكلمات وبيان العوامل وهي

على نظام الكتب السابقة ورقمها 1770 ويصرح المؤلف في المقدمة بأنه وضعها للأطفال المبتدئين .

وكنت أود أن أكتفي بهذه الاحالة ولكني أسطر مثالا لهذه المختصرات التي جمعت النحو جميعه .

كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي مكتفيا به عن كتاب العوامل لأبي علي الفارسي الذي لم أعثر عليه بدار الكتب ولا بمكتبة الأزهر أو غيرها ، وقد نص عليه الأستاذ عبد الكريم شعبان في رسالته (أبو علي الفارسي وأثره في النحو رقم 8350 رسائل كلية اللغة العربية) . ويحق لنا أن نسأل الآن : كيف نقبل أن تكون حركات الحروف الأولى والوسطى رموزا للمعاني المختلفة ، ولا نقبل مثل ذلك في حركات الحروف الأخيرة، كيف نقبل أن تكون حركة السين في (حسن) هي الرمز الدال على اسمية الكلمة أو فعليتها ، فاذا فتحنا كانت اسما وإذا ضممنا كانت فعلا ، ولا نقبل أن تكون حركة النون في (أحسن) هي الفارق بين فعلية الكلمة حين نلفظها بالفتح واسميتها حين نلفظها بالضم . اننا بعد أن قبلنا الفكرة من حيث المبدأ أو رأينا العرب تفرق بين المعاني بالحركات ثم رأينا هذه الحركات تقع تارة في الأول وتارة في الوسط لا يجوز لنا أن نرفض اطراد المبدأ على الحرف الأخير .

ونحن نسأل كيف يمكن التفريق بين (ما أحسن زيدا) في التعجب ، وما أحسنَ زيدٌ في النفي ، وما أحسنُ زيد في الاستفهام ، ونحن لم نر في التراكيب الثلاثة شيئا قد تغير سوى حركة الحرف الأخير في كل من الكلمتين .

اما أن نعود الى ملابسات القول وظروفه ونحن نعرف الصلة بين

القائل والسامع لندرك الفعل من الاسم ، والتعجب من الاستفهام فأي تعسف هذا الذي نلجأ اليه ؟ وأي إيجاز هذا الذي نتركه ؟ إن بيتا واحدا من الشعر القديم يضطرك بغية تفسيره أن تعود الى أكثر من باب لتعرف صلة الشاعر بمن يقول فيه .

وإذا كان مثل هذا العمل واجبا في تفسير النصوص المعقدة أو التي قيلت في مناسبات خاصة فهل يعني أن نعرف ظروف كل جملة وملابساتها لتفهم معناها ؟ بل إذا كانت الحركة الواحدة على الحرف تكفي لمعرفة القول وفهمه، أفليس الأجدر أن نأخذ بها وبدلالتها من أن نعود الى معرفة قصة كاملة لكل جملة ؟ إن قبولنا أن تكون للحركة في كل حرف من حروف الكلمة قيمة لتعد جزءا من الكلمة ولا تعد شرطا هاما لمعرفة الصيغة وإنما تصبح مجردة من أي مدلول ، واذا أردنا تعليلا لوجودها زعمنا أنها لحن صوتي لدرج الكلام ... إن قبولنا بكل ذلك أمر فيه نظر ولا يزال يحتاج الى الكثير من التأمل والنظر .

ولعلنا نستطيع أن نقول : نعم إن الحركة لحن صوتي ولكنه ليس لحنا لمجرد درج الكلام وإنما هو لحن صوتي يفرق العرب به بين المعاني وهذا الصوت إما أن يكون ذا مخرج معين فيكون حرفا ومن الحروف تتألف الكلمات وواضح هنا أن المعاني تختلف باختلاف هذه الأصوات أي الحروف المعبرة عنها وإما أن يكون الصوت مداليا (كالألف والياء والواو والساكنات) وبهذه الأصوات وبمواضعها أيضا يفرقون بين المعاني ، إذ لو أخذنا الحرفين (أ) الهمزة (ن) النون ، وأدخلنا عليهما صوتا ممدودا بالفتح لوجدنا أنه إذا كان المد بعد الهمزة وقد أصبحت الكلمة الآن فعلا ماضيا بمعنى جامد .

وقد عثرت على كتاب العوامل المائة للجرجاني ، الذي دلت

امثلته على خشيته وتقواه فهو يمثل بآيات من القرآن أو أمثلة تدعو الى الاعتصام والتمسك بحبلهما المتين ويكفي واحد منها مثالا لتبيان القدرة على جمع هذه القواعد ، وسهولة الإحاطة بها إن أردنا دراسة لغتنا دراسة جادة والحفاظ عليها وسيلة لحفظ كتاب البشرية الأعظم الذي قال فيه منزله: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

كتاب مفاتيح العلوم :

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي :

الحمد لله العلي العظيم القادر الحكيم الذي فضل الانسان على سائر الخلق بما خصه من مزية التمييز والنطق وجعل مقادير عباده في الأخطار والقيم على حسب حظوظهم من العلوم والحكم فيمن كان قدحه فيها فائزا ومحله بين أهلها بارزا كان أغلاهم قيمة وأعلاهم همة فتبارك الله أحسن الخالقين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين أما بعد : فلما نصر الله همة الشيخ الجليل السيد أبي الحسن عبيد الله بن أحمد العتبي أطال الله بقاءه وأدام للزمان بهاءه على طلب العلم وأهله وإيوائهم الى ظليل ظله وإيلاء قاصيهم ودانيهم عوائد بره وفضله ، دعتني نفسي الى تصنيف كتاب اسمه النابه أعلاه الله يكون جامعا لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات متضمنا ما بين كل حلية من العلماء من المواصفات والاصطلاحات التي خلت منها أو من حلها الكتب الحاضرة لعلم اللغة ، حتى ان اللغوي المبرز في الأدب إذا تأمل كتابا من الكتب التي صنفت في أبواب العلوم والحكمة ولم يكن شفا صدرا من تلك الصناعة لم يفهم شيئا منه وكان كالأمي الأعتم عند نظره فيه ، ومثال هذه المواصفات لفظة الرجعة فانها عند أصحاب اللغة المرة

الواحدة من الرجوع لا يكادون يعرفون عليها وهي عند الفقهاء : الرجوع في الطلاق الذي ليس بائن ، وعند المتكلمين ما يزعمه بعض الشيعة من رجوع الامام بعد موته او غيبته وعند الكتاب حساب يرفعه المعطي في العسار لطمع واحد ، وعند المنجمين سير الكواكب من الخمسة المتحيرة على خلاف مرصدة البروج ولفظة (الفك) فانها عند أصحاب اللغة والفقهاء مصدر فك الأسير أو الرهن أو الرقبة وأحد الفكين وهما اللحيان وعند أصحاب العروض إخراج جنس من الشعر من جنس آخر تجمعها دائرة وعند الكتاب تصحيح اسم المرتزق في الجريدة بعد أن كان وضع عنها ولفظة الوتد فانها عند اللغويين والمفسرين أحد أوتاد البيت أو الجبل من قوله تعالى : ﴿ والجبال أوتادا ﴾ وعند أصحاب العروض ثلاثة أحرف اثنان متحركان وثالث ساكن وعند المنجمين أحد الأوتاد الأربعة التي هي الطالع والغارب وسط السماء ووتد الأرض ، وأحوج الناس الى معرفة هذه الاصطلاحات الأديب اللطيف الذي يحقق .

إن علم اللغة آلة لمدرك الفضيلة لا ينتفع به بذاته ما لم يجعل سببا الى تحصيل هذه العلوم الجليلة ولا يستغني عن علمها طبقات الكتاب لصدق حاجتهم الى مطابعة فنون العلوم والآداب وقد جمعت في هذا الكتاب أكثر ما يحتاج إليه من هذا النفع متحريا للإيجاز والاختصار ومتوقيا للتطويل والإكثار وألغيت ذكر المشهور والمتعارف بين الجمهور وما هو غامض غريب ، لا يكد يخلو إذا ذكر في الكتب من شرح طويل وتفسير كثير ، وعنيت بتحصيل الواسطة بين هذين الطرفين اذ كان هو الذي يحتاج إليه دون غيره ولم اشتغل بالتفريع المفرط والاشتقاق من البارد ولا بإيراد الحجج والشواهد إذ كان أكثر هذه الأوضاع أسامي وألقابا اخترعت وألفاظا من كلام العجم أعربت وسميت

هذا الكتاب (مفاتيح العلوم) إذ كان مدخلا إليها ومفتاحا لأكثرها فمن قرأه وحفظ ما فيه ونظر في كتب الحكمة هدها هدا أو أحاط بها علما وإن لم يكن زوالها ولا جالس أهلها وجعلها متاليتين احداهما لعلوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية والثانية لعلوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم وبالله التوفيق .

« فهرست أبواب الكتاب وفصوله »

الباب الخامس في الهندسة : أربعة فصول .

الباب السادس في علم التنجيم : أربعة فصول .

الباب السابع في الموسيقا : ثلاثة فصول .

الباب الثامن في الخيل : فصلان .

الباب التاسع في الكيمياء : ثلاثة فصول .

فذلك ما في المقالتين خمسة عشر بابا فيها ثلاثة وتسعون فصلا .

الباب الثالث
(مفاتيح العلوم[1] في النحو)

وهو اثنا عشر فصلا .

الفصل الأول في مبادىء النحو ووجوه الإعراب على مذهب النحويين عامة .

الفصل الثاني وجوه الإعراب وما يتبعها على ما يحكى عن الخليل بن أحمد .

الفصل الثالث في وجوه الإعراب على مذهب فلاسفة يونان .

الفصال الرابع في تنزيل الأسماء ، الفصل الخامس في الوجوه التي ترفع بها الأسماء .

الفصال السادس في الوجوه التي تنصب بها الأسماء .

الفصل السابع في الوجوه التي تخفض بها الأسماء .

الفصل الثامن في الوجوه التي يتبع بها الاسم ما قبله في وجوه الإعراب .

الفصل التاسع في تنزيل الأفعال .

الفصل العاشر في الحروف التي تنصب الأفعال .

---

1) مفاتيح العلوم ص 28 معارف عامة 651 دار الكتب طبع وتصحيح عثمان خليل .

الفصل الحادي عشر في الحروف التي تجزم الأفعال .

الفصل الثاني عشر في النوادر .

« الفصل الأول »

في وجوه الإعراب ومبادىء النحو على مذهب عامة النحويين هذه الصناعة تسمى باليونانية غراما (طيعي الصحيح) وسنيتاكس .

الكلام ثلاثة أشياء اسم كزيد وعمرو وحمار وفرس ، وفعل مثل : ضرب يضرب ومشى ويمشي ومرض ويمرض ، وحرف يجيء لمعنى مثل : هل وبل ،

وأهل الكوفة يسمون حروف المعاني الأدوات ، وأهل المنطق يسمونها الرباطات ، النعت كقولك : زيد الطويل ، فالطويل هو النعت ويسمى صفة والخبر كقولك : زيد طويل فقولك طويل هو خبر .

الحركات التي تلزم أواخر الكلام للاعراب ثلاث : رفع ونصب وخفض ، وقد تسمى أيضا ضما وفتحا وكسرا وتسمى الخفض أيضا جرا ، وقد فرق البصريون بين هذه الأسماء فجعلوا الرفع لما دخل على الأسماء المتمكنة التي يلزمها الإعراب بالحركات الثلاث مثل قولك : زيد وعمرو وعبد الله وجعلوا الضم لما بنى مضموما مثل نحن وقط وحيث وجعلوا النصب للأسماء المتمكنة التي يلزمها الاعراب بالحركات الثلاث وجعلوا الفتح لما بنى مفتوحا نحو أين وكيف وشتان ، وجعلوا الخفض للأسماء المتمكنة التي يلزمها الإعراب بالحركات الثلاث وجعلوا الكسر لما بنى مكسورا نحو هؤلاء وأمس وجير ، وكذلك فعلوا في الجزم والوقف ، جعلوا الجزم في الأفعال لما جزم

العامل والوقف لما بني ساكنا نحو لم وقد وهل .

« الفصل الثاني »

في وجوه الاعراب وما يتبعها على ما يحكى عن الخليل بن أحمد ، الرفع وما وقع في اعجاز الكلم منونا نحو قولك زيد ، والضم ما وقع في اعجاز الكلم غير منون نحو يفعل ، والتوجيه ما وقع في صدور الكلم نحو عين عمرو وقاف قثم[1].

والحشو ما وقع في صدور الكلم المنقوصة نحو زيدا الفتح ما وقع في أعجاز الكلم غير منون نحو ياء ضرب والقعر ما وقع في صدور الكلم نحو ضاد ضرب ، والتفخيم ما وقع في أعجازها على الألقاب المهموزة نحو ألف قرأ ، والتيسير هي الألقاب المستخرجة من أعجاز الكلم نحو قوله تعالى ؟ « فأضلونا السبيلا » ، الخفض ما وقع في أعجاز الكلم منونا نحو زيد ، والكسر ما وقع في اعجاز الكلم غير منون نحو لام الجمل ، والاحتجاج ما وقع في أوساط الكلم نحو باء الابل ، والجزم ما وقع في أعجاز الأفعال المجزومة نحو باء اضرب ، والتسكين ما وقع في أوساط الأفعال نحو فاء يفعل ، والتوقيف ما وقع في أعجاز الأدوات نحو ميم تعم ، والامالة ما وقع على الحروف التي قبل الياءات المرسلة نحو عيسى وموسى وضدها التفخيم ، النبرة : الهمزة ، التي تقع في أواخرها الأفعال والأسماء سبأ ونسأ وملأ .

1) أبو زيد عمر الكثير العطاء والمجموع للشر فهو من الأضواء واسم ابن لسيدنا العباس بن عبد المطلب (هامش)

« الفصل الثالث »
في وجوه الإعراب على مذاهب فلاسفة اليونانيين

الرفع عند أصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة وكذلك الضم وأخواته المذكورة والكسر وأخواته عندهم ياء ناقصة والفتح وأخواته عندهم ألف ناقصة ، وان شئت قلت الواو والمحذوف اللينة ضمة مشبعة والياء الممدودة اللينة كسرة مشبعة والألف الممدودة فتحة مشبعة وعلى هذا القياس الروم والاشمام ، نسبتهما الى هذه الحركات كنسبة الحركات الى حروف المد واللين ، أعني الألف والواو والياء .

« الفصل الرابع »
في تنزيل الأسماء

الاسم السالم المتمكن نحو زيد وعمرو وحمار وفرس ، الاسم المضاف نحو : عبد الله وصاحب الفرس . الاسم المعتل مثل : غاز وقاص ومشتر ومغتر . الاسم المقصور نحو قفا وعصا ورحى ومصطفى وعيسى وموسى ، الاسم الممدود نحو سماء ولقاء ، الاسم المنقوص مثل : يد ودم ، وأخ وأب . ما لا ينصرف من الأسماء نحو ابراهيم واسماعيل وعطشان واحمد وطلحة وحمزة ، الاسم المعدول نحو حذام وفطام ورقاش عدلت عن حاذمة وفاطمة وراقشة ، الأسماء المبهمة مثل : هذا وهذه وتلك الاسماء المضمرة مثل أنت وهو وهي .

« الفصل الخامس »

في الوجوه التي ترفع بها الأسماء

الوجوه التي ترفع بها الأسماء سبعة : المبتدأ وخبره كقولك : زيد منطلق فزيد المبتدأ ومنطلق خبره والفاعل كقولك ذهب زيد وضرب زيد عمرا والمفعول الذي لم يسم فاعله مثل ضرب زيد ودخل البيت والأفعال التي ترفع الأسماء بعدها وتنصب الأخبار وهي كان وليس وصار ومازال وأصبح وأمسى وظل وبات ، والحروف التي ترفع بعدها الأسماء والأخبار وهي أين وكيف ومتى وهل وبل ، والحروف التي تنصب الأسماء بعدها وترفع الأخبار وهي إن وأن وكأن ولكن وليت ولعل .

« الفصل السادس »

في الوجوه التي تنصب بها الأسماء

النصب يدخل الأسماء من ثلاثة عشر وجها ، المفعول مثل قولك : ضربت عمرا ، وخبر ما لم يسم فاعله مثل أعطى زيدا درهما ، فزيدا مفعول به ، فزيدا مفعول به ، ودرهما مفعول ثان وخبر كان وأخواتها مثل : كان الله غفورا رحيما ، والمصدر نحو قولك قتلت قتلا وأكلت أكلا ، والظرف كقولك ذهب زيد اليوم ويذهب غدا زيد خلفك وفوقك وتحتك ، والتعجب كقولك ما أحسن زيدا وما أكرم عمرا والحال كقولك أخرجت ماشيا ، وهذا زيد قائما ، والتمييز كقولك : هو أحسن منك ثوبا وأكبر منك سنا ، وهذه عشرون درهما ، والاستثناء كقولك : أتاني القوم إلا زيد ، والنفي بلا كقولك لا مال لك ولا بأس عليك ، والنداء إذا كان المنادي مضافا أو نكره ، كقولك يا عبد الله ويا راكبا بلغ ، والمدح والذم باضمار أعني كقولك الحمد لله أهل الحمد ومعناه

أعني أهل الحمد كقول الله عز وجل : وامرأته حمالة الحطب على قراءة من نصب حمالة الحطب .

« الفصل السابع »
في الوجوه التي تخفض بها الأسماء

الخفض يدخل الأسماء من وجهين : أحدهما الاضافة الى اسم او الى ظرف كقولك : دار زيد وكقولك بعد عمرو وقبل سعد .

والوجه الثاني : حرف المعنى وحروف المعاني الخافضة من وعن وعلى والى والكاف الزائدة والباء الزائدة واللام الزائدة ورب .

« الفصل الثامن »
في الوجوه التي يتبع بها الاسم ما قبله في وجوه الإعراب كلها

الوجوه التي تتبع بها الأسماء ما قبلها ثلاثة : العطف والبدل والصفة ، فالعطف هو النسق وحروفه عشرة : الواو والفاء وثم وأو وأم ولا وبل ولكن واما وحتى ، والبدل على وجهين بدل بيان كقول الله عز وجل : ﴿ لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة) ، وبدل غلط كقولك مررت بفرس حمار ، والصفة النعت كقولك مررت برجل ذي مال ومررت بالرجل الحسن .

« الفصل التاسع »
في التنزيل للأفعال

الأفعال أربعة أجناس فعل قد مضى كقولك أكل أمس وذهب ، وهو مفتوح أبدا وفعل مستقبل كقولك هو يأكل غدا . وفعل ما أنت فيه ولفظه ولفظ المستقبل واحد ، ويسميان معا الفعل المضارع لأنه يضارع الأسماء بقبول وجوه الاعراب ، وفعل مبني للأمر كقولك كل واذهب ، وهو عند بعضهم مجزوم بعامل وهو لام الأمر .

« الفصل العاشر »
في الحروف التي تنصب الأفعال

الحروف التي تنصب الأفعال المضارعة هي أن ولن وكي وكيما وكيلا واللام المكسورة ومن الحروف النواصب ما ينصب الفعل المضارع في حال ولا ينصبه في أخرى وهو حتى وإذن وألا ، والفاء والواو وأو ، فأما حتى فانها تنصب لا محالة اذا تقدمها فعل غير واجب كالأمر والنهي والاستفهام فاذا تقدمها فعل واجب رفعت في حال ونصبت في اخرى مثل قول الله تعالى : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول ﴾ يجوز فيه النصب ، إذا كان معناه ليقول الرسول ويجوز فيه الرفع إذا كان معناه حتى قال الرسول ، وأما اذن فانها تنصب في أول الكلام لا غير ، إذا لم يكن بينها وبين الفعل حاجز ، وغير اليمين ذاتها لا تحجز ، تقول : والله إذن لا أفعل بالرفع ، وإذن والله أفعل بالنصب بطرح لا والا اذا كانت بمعنى ان المشددة ارتفع ما بعدها كقول الله عز وجل : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء ﴾ أي أنهم لا يقدرون على شيء والفاء تنصب إذا كان الفعل جوابا لها ليس بواجب وكذلك الواو إلا أن معناها

غير معنى الفاء وكذلك أو إذا كانت بمعنى حتى .

« الفصل الحـادي عشر »
في الحروف التي تجزم الأفعال المضارعة

الحروف التي تجزم الأفعال المضارعة لم ولما وألم وألما وحروف الجزاء وهي إن وما ومهما وإذ ما وحيثما ومن وأنى وأين وأينما ومتى وما وكيف وكيفما ، هذه تجزم الشرط والجزاء معا كقولك : إن تضربني أضربك وما تفعل أفعل ونحو ذلك والفعل يجزم إذا كان جوابا كما ليس بواجب وما ليس بواجب هو الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنفي والعرض وهذه اذا أدخلت الفاء في جوابها انتصبت تقول زرني أزرك ، ولا تفعل يكن خيرا لك وليتك عندنا فنكرمك وألا ماء أشربه .

« الفصل الثاني عشر »
فـي النوادر

الاغراء : كقولك : دونك زيدا وعليك عمرا .

التوكيد : كقولك : مررت بقومك أجمعين أكتعين وكلهم .

الظروف وهي التي يسميها أهل الكوفة المحال وهي عند البصريين على نوعين : ظرف مكان وظرف زمان ، فالزماني كاليوم وأمس وغدا وظرف المكان مثل : فوقك وتحتك وخلفك وقدامك التبرئة كقولك لا مال لي وهو النفي .

الندبة : كقولك واغلاماه وأنباه وابناه وازيداه .

العماد عند أهل الكوفة كقولك هو الظريف فهو العماد عندهم .

جمع التكسير مثل : دراهم جمع درهم وكلاب جمع كلب ، وانما سمي جمع التكسير لأن لفظ الواحد تغيره عن حاله ، وضده جمع السلامة وهو كالصالحين والصالحات وانما سمي جمع السلامة ، لأن لفظ الواحد ثابت على حاله .

الترخيم في النداء أن يقال يا حار ومعناه يا حارث .

لقد جمع الخوارزمي النحو كما جمع غيره من العلوم في وريقات صغيرة يمكن حصرها والتطبيق عليها بقراءة الأمثلة الرفيعة وفهمها وإدراك العلاقات بينها وحينئذ يواتى الدارس جنيه وتتفتح له أبوابه الداعيات ويتمدد على أظلاله السابغات ، انك لتلمس في يديه مقاليد الكلام العربي يديرها في الأفواه ويصرفها في الأوراق وتعترض منه العلوم فهو رسول الإعراب وإمام الكلام ، وحيز مثقف صنع للألسن والأقلام وإليه كان قصد الأدباء والمتأدبين وبه كان لون العلماء والمتعلمين وطالما شهدت أبواب النحو حجج المتوافدين وحجاج المتصارعين وعكوف المتخصصين .

(لقد صحبت النحو أكثر من ثلاثين سنة حتى تأبينه وتبناني)[1]

وقد زرع المحبة له في فؤادي انه كريم الصحابة جميل الرفاقة يوافيني نحيه ويواتيني جنيه طيب الثمرات . فليس بصحيح ما يزعمونه من أن قواعد النحو قد بلغت في كثرتها وصعوبتها وتشعبها مبلغ تنوء عن الإحاطة به همم كثير من الناس وتقصر عنه أعمارهم . بل اننا لا نجد من

1) تعبير للدكتور محمد فتح الله في رسالته أصول النحو السماعية .

بين قواعد اللغات الانسانية الراقية جميعها ما وصل في ضبطه واطراده وقلة أُصوله ويسر مآخذه وسهولة الإحاطة به الى ما وصلت اليه قواعد النحو في العربية الفصحى ، ولم يوفق علماء القواعد في أية لغة إنسانية راقية الى ما وفق اليه علماء النحو في العربية الفصحى إذ استطاعوا - بفضل عبقرياتهم وعمق تفكيرهم ومناهجهم السليمة في البحث ، وما بذلوه من جهود مضنية في هذا السبيل ، أن يرجعوا جميع ما استخلصوه من ملاحظة كلام العرب قديمه وحديثه الى قواعد محكمة مطردة قليلة منقطعة النظير في أحكامها واطرادها وقلة عددها حتى انه ليمكن حصرها في ثلاثة القواعد الآتية : -

* من الكلمات العربية ما هو مبني ملازم آخره حالة واحدة . ومنها ما هو معرب يتغير آخره بتغير وظيفته في الجملة ، والمبني من الكلمات هو الحروف والأفعال الماضية وأفعال الأمر وأفعال المضارع إذا اتصلت بها نون التوكيد أو نون النسوة وطوائف محدودة من الأسماء كالضمائر وأسماء الموصول والإشارة والشرط والعدد المركب ، والمعرب من الكلمات هو ما عدا ذلك من الأسماء والأفعال .

* المعرب من الأسماء يرفع وينصب ويجر ولكل وضع من هذه الأوضاع حالات خاصة حصرها علماء النحو حصرا دقيقا والمعرب من الأفعال يرفع وينصب ويجزم فينصب إذا دخل عليه ناصب ويجزم اذا دخل عليه جازم ويرفع اذا تجرد منهما . والنواصب والجوازم محصورة العدد مبينة النوع محددة العمل .

* الأصل في الاعراب على الاطلاق أن يكون بالحركات وهي الفتحة للنصب والكسرة للجر والضمة للرفع والسكون للجزم ويستثني

من ذلك جمع المؤنث السالم فانه ينصب بالكسرة، والاسم الممنوع من الصرف اذا لم يضف ولم يعرف بأل فانه يجر بالفتحة ، والاسم المعتل الآخر فان الحركة لا تظهر الا على الباقي منه في حالة النصب وتكون مقدرة فيما عدا ذلك ، والفعل المعتل الآخر فان اعرابه في حالة الجزم يكون بحذف آخره وفي حالة الرفع بحركة مقدره ، في المعتل بالألف وظاهرة فيما عداه ، والأفعال الخمسة فإن إعرابها يكون بثبوت النون في حالة رفعها وحذفها في حالتي النصب والجزم وثلاث طوائف من الأسماء وهي المثنى وجمع المذكر السالم والأسماء الخمسة، فان اعرابها يكون بالحروف أي بتغيير حرف من حروفها ، وقد بين علماء النحو طرق الإعراب بالحروف في كل طائفة منها .

والاسم المعرب بالحركات يدخله التنوين إلا إذا كان مضافا أو معرفا بأل أو ممنوعا من الصرف .

هذه هي قواعد النحو التي يهول أعداء العربية الفصحى في شأنها ويصورونها في صورة أمور مخيفة يعجز عقول البشر عن إدراكها فقد أمكننا بفضل سهولتها وضَبطها وقلة أصولها أن نحصرها في قواعد ثلاث يمكن تلقينها صغار المتعلمين في بضعة دروس إذا ترسمنا الطرائق الجادة في التعليم وليس بصحيح ما يزعمونه من أن مراعاة هذه القواعد في القراءة والكتابة تقتضي انتباها عميقا وجهدا كبيرا يفضيان الى تعويق القراءة والكتابة وإلى صعوبة الفهم وإبطائه بل انها ليسرها وضبطها وقلتها تنطبع في الأذهان انطباعا قويا ويسهل استحضارها ، وبتكرار مراعاتها وكثرة استعمالها في القراءة والكتابة تتكون لدى الفرد بحكم العادة ملكة سليمة يستطيع بفضلها القراءة والحديث والكتابة وفق هذه القواعد بدون أن يقتضيه ذلك شيئا مذكورا من الانتباه والمجهود ، وهكذا جميع الأمور

التي تستقر بحكم العادة وهذه هي سنة الله في جميع لغات بني الانسان .

واذا كان معظم المتعلمين في الوطن العربي يعجزون عن القراءة والحديث بالعربية الفصحى فإن سبب ذلك لا يرجع الى صعوبة قواعد هذه اللغة وانما يرجع الى استهانة المدارس بشأنها وفساد في طرق تعلمها وإلى ان المعلمين لا يأخذون تلاميذهم بالحديث والقراءة بالعربية الفصحى ولا يعملون على تكوين هذه العادات في ألسنتهم وأقلامهم ، وانما يكتفون بعرض قواعدها عرضا جادا لا يكوّن ملكة ولا يقوم لسانا ، وإذا كان المتخرجون في الوقت الحاضر في معاهد التخصص في اللغة العربية لا يجيد معظمهم هذه اللغة إجادة تامة فإن ذلك لا يرجع الى صعوبة قواعدها وانما يرجع كذلك الى فساد في مناهج هذه المعاهد وإتمام عدد كبير من المواد الدخيلة في خططها لتحقيق تطويرها فيما يزعمون وطغيان هذه المواد الدخيلة على موادها الأصيلة واستئثارها بأكثر قسط من الوقت والمجهود .

لقد قضيت في الأربعينات المرحلة الابتدائية والثانوية فكنا ندرس قطر الندى وبل الصدى وشذور الذهب لابن هشام بأكملهما. فماذا حدث بعد تطوير الأزهر ؟

ان الطلاب يدرسون في منهج النحو وريقات من كل كتاب ، لأن المواد المقررة عليهم تقارب العشرين أو تجاوزها ، بل انهم لينجحون في المواد الحديثة ويرسبون في المواد الأزهرية الأصيلة التي يعتز بها الأزهر مائدة الأرض الذي يستمد الشهي من القرآن العظيم مائدة السماء . . .

« نقد النحو واصلاحه »

لعلك تذكر أن الدعوة الأولى لاصلاح النحو ظهرت في النحاة الأولى إذ شكوا من غلو النحاة في فلسفة النحو ، وذكرنا ما نقد به أبو علي الفارس المتوفي ٣٧٧ هـ ما نقد به أبا الحسن الرماني المتوفي سنة ٣٧٤ هـ إن كان النحو ما يقوله فليس معنا منه شيء وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء[1] .

كما ذكرنا ما قاله أهل الأدب فيما يروى عن ابن الأنباري ممن يفهم كلامه من النحويين ومن لا يفهم ، وهاتان المقالتان منه إذا لم تكونا دعوتين الى التجديد وإعادة النظر في بناء النحو على أسس جديدة مستصلحة فهما شكوى وتذمر من غلو أبي الحسن الرماني في مزج عمله بالمنطق وهو ما لم يستسغه حتى الدارسون في القرن الرابع الذي طغت فيه الفلسفة والتزم الدارسون فيه حدود منهجها وهما بعد ذلك لفت للرماني وغيره الى ما بين طبيعتي الدراستين من فرق ينبغي ملاحظته وأن ما حققوه بوصفهم نحاة ليس من النحو في شيء .

إذن لا مفر من الاعتراف بتعسف بعض النحاة في طائفة من أحكامهم كأنهم يحاولون فرض مقاييسهم على الناس فقد حسبوا كما حسب اللغويون في كل زمان ومكان أن دراستهم يجب ان تتحكم بما لها

1) نزهة الألباء ص 39 .

من حق وقدسية لا مراء فيهما .

هذا هو عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وهو من النحاة الموالي يجرؤ على تخطئة الفرزدق وتلحينه في قوله :

مستقبلين شمال الشام تضربنا　　بحاصب من نديف القطن منثور
على عمائمنا تلقى ، وأرحلنا　　على زواحف تزجي مخها رير[1]

فيقول : ألا قلت على زواحف تزجيها محاسير فيغضب الفرزدق ويقول : والله لأهجونك ببيت يكون شاهدا على ألسنة النحويين وإذا هو يهجوه بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجومه　　ولكن عبد الله مولى مواليا

ويتعمد الفرزدق أن يقول : مولى مواليا ، بدلا من مولى موال فينكر عليه عبد الله ويخطئه مرة أخرى ، وفرقوا مع ذلك ببعض ما يجوز للشاعر وما لا يجوز ، فأيّ فارس لا يرى بأسا في قصر الشعراء الممدود ومدهم المقصور ، وتقديمهم ما حقه التأخير وتأخيرهم ما حقه التقديم ، لأنهم أمراء الكلام ، فأما لحن في إعراب أو ازالة عن نهج صواب فليس لهم ذلك ولا معنى لقول من يقول : إن للشاعر عند الضرورة أن يأتي في شعره بما لا يجوز :

ولا معنى لقول من قال :

ألم يأتيك والأنباء تمنى　　بما لاقت لبون بني زياد

فهذا ان صح وما أشبهه كله غلط أو خطأ .

---

1) الشعر والشعراء 35/1 بتحقيق أحمد محمد شاكر مراتب النحويين / 12

ولكي يجتنبوا مثل هذا الغلط أو الخطأ ، كانوا يسعون وراء الشعر ويصرحون بغايتهم من السعي ، وراءه ، قال الجاحظ ، ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ولم أر غاية الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الإستخراج ولم أر غاية رواية الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل .

ولقد ضاق الشعراء ذرعا بجراءة النحاة فنظموا الأشعار في هجائهم والشكوى من غرورهم لعل هجاءهم ينفس شيئا من كربهم ومن أشهر تلك الأشعار العاجية قول عمار الكلبي[1] .

ماذا لقينا من المستعربين ومن قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا
ان قلت قافية بكرا يكون بها بيت خلاف الذي قاسوه أو ذرعوا
قالوا لحنت وهذا ليس منتصبا وذاك خفض وهذا ليس يرتفع
وحرضوا بين عبد الله من حمق وبين زيد فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم وبين قوم على اعرابهم طبعوا
ما كان قولي مشروحا لكم فخذوا ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
لأن أرضى أرض لا تشب بها نار المجوس ولا تبنى بها البيع

ولم تقف سلطة النحاة عند الشعراء بل جاوزتهم الى القراء أيضا ، فإذا قرأ حمزة « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » في مفتتح سورة النساء بكسر الميم في الأرحام أنكر النحاة قراءته وقالوا لا يعطف على مضمر مخفوض الا بإعادة خافض ، وإذا قرأ ابن عامر : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم[2] بضم قتل ، وفتح

---

1) البيان والتبيين .
2) الاتحاف 217

(أولادهم ـ أو كسر شركائهم) أنكر النحاة هذه القراءة حتى قال الزمخشري : ان الفصل بين المتضايفين لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجا مردودا فكيف به في القرآن المعجز[1] .

لا يسعنا إزاء هذا أن ننكر تسلط بعض النحاة على الناس بيد أن هذا التسلط لا يعني أن ظواهر الإعراب كلها موضوعة وأن الأخبار حولها جميعا قصص خيالية طريفة ، وانما يعني أن النحاة لم يألوا جهدا في إقراء قواعدهم وتثبيت مقاييسهم وليس ثمة بواعث ذات شأن تحمل الباحثين المعاصرين على رمي النحاة بوضع هذه الحقائق كلها جملة وتفصيلا كأن أحدا من العرب لم يعرب كلامه قط .

ومن قبل الباحثين المعاصرين نادى ابن مضاء القرطبي[4] بالغاء بعض القواعد النحوية الهامة واستبدال غيرها بها كنظرية العامل التي تعتبر من أسس الإعراب الأولى فهو لا يرى مسوغا لهذه الاختلافات مثلا حول عامل الرفع في المبتدأ ، أهو الابتداء ، كما يقول البصريون أم الخبر كما يزعم الكوفيون ، وحول عامل الرفع في الفعل المضارع ، أهو تجرده من الناصب والجازم كما هو مذهب البصريين أم هو حرف المضارعة كما يرى الكسائي[5] ويبدو أن ابن مضاء كان قليلا ما يؤمن بجدوى القياس في دراسة العربية ، ويرى أن أكثر تعسف النحاة انما جاءهم من إسرافهم في الصيغ والأبنية القياسية ، فهو يحذر من هذه الوسائل المتحجرة الجامدة في صياغة الكلام العربي ، فإذا قال ابن

---

1) الكشاف 42/2 وقارن بأسرار اللغة 32 ، إيمانا منه بأن القراءة اختيارية .

2) بغية الرعاة 139

3) الرد على النحاة للدكتور شوقي ضيف .

جني وعلم أن من قوة القياس عندهم ، اعتقاد النحويين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب[1] انبرى ابن مضاء يظهر ما في هذا الاعتقاد من التكلف فقال : « والعرب أمة حكيمة فكيف تشبه شيئا بشيء وتحكم عليه بحكمية وعلة حكم الأصل غير موجود في الفرع .

وإذا فعل واحد من النحويين ذلك جهل ولم يقبل قوله ، فلم ينسبون الى العرب ما يجهل به بعضهم بعضا وذلك أنهم لا يقيسون الشيء ويحكمون عليه بحكم إلا إذا كانت علة حكم الأصل موجودة في الفرع وكذا فعلوا في تشبيه الاسم بالفعل في العمل وتشبيههم إن وأخواتها بالأفعال المتعدية في العمل .

وابن جني يحكي آراء النحويين وتعجبه تعليلاتهم لظواهر الإعراب ولكنه يستشعر بين الحين والحين ضعف تلك العلل فلا يملك نفسه من التصريح بضعفها كأنه يراها لا تخلو من الصنعة والتكلف . فهو يقول مثلا : اعلم أن محصول مذهب أصحابنا ومتعرف أقوالهم مبني على جواز تخصيص العلم وذلك أنها وإن تقدمت علل الفقه فإنها أو أكثرها انما تجري مجرى التخفيف والفرق ولو تكلف يتكلف نقضها لكان ذلك ممكنا وإن كان على غير قياس ومستثقلا ، ألا تراك لو تكلفت تصحيح فاء ميزان وميعاد لقدرت على ذلك فقلت موازن وموعاد ، وكذلك لو آثرت تصحيح فاء موسر وموقن لقدرت على ذلك فقلت ميسر وميقن وكذلك لو نصبت الفاعل ورفعت المفعول ، أو ألغيت العوامل من الجوار والنواصب والجوازم لكنت مقتدرا على النطق بذلك وإن نفي القياس تلك الحال وليست كذلك علل المتكلمين ، لأنها لا قدرة على

---

1) الخصائص . جـ 1 ص 145

غيرها ، الا ترى ان اجتماع السواد والبياض في محل واحد ممتنع لا مستكره .

ولو لم يصرح ابن جني بهذا لعددناه من متكلفي النحاة الذين يأبون إلا أن يروا عللهم على وجه الحكمة كيف وقعت ، ومع أن اللغة وعللها وأقيستها ليست منطقية دائما ، فبين لغة العقل والمنطق ولغة الإرادة والرغبة ولغة الإرادة والحساسية وفروق لا يحملها أحد .

لذلك رد بعض الباحثين كثيرا من تعليلات الأقدمين وأكدوا أنها ليست من المنطق في شيء ورموا العرب بضعف التعليل ونبهوا إلى أن عمل النحوي في دراسة التراكيب يتمثل في التمييز بين أنواع الجمل المختلفة ثم تعيين المجموعات التي تسير على نظام ثابت في كل نوع إذ تخلو من الحروف المتنافرة ويسهل النطق بها .

ولم ينكر أحد من الباحثين المعاصرين مع ذلك أن كثرة اشتغال النحاة العرب القدامى بالتعليم والقياس وأخذهم بالأبنية المقيسة دليل على غنى مباحثهم اللغوية بل على ترفهم في تلك المباحث وإذا كان بعض النقاد اليوم وهجومهم الصاعق على الإعراب يحسبون أنهم إنما يتبعون ابن مضاء فانه لم يبلغ بآرائه الجديدة في النحو حد إنكار ما للحركة الإعرابية من مدلول . بل على العكس من ذلك يرى أن فقدان هذه الحركة في كلمة لا بد أن يؤثر في توجيه فهمها حتى لا يوشك أن يعتبر الحركة الإعرابية جزءا من بنية الكلمة فيقول : وكما أنا لا نسأل عن عين (عظيم) و(جيم) (جعفر) وباء برثن لم فتحت هذا وضمت هذه وكسرت هذه ؟ فكذلك لا نسأل عند رفع (زيد) فإن قيل (زيد) فتغير الآخر ، قيل كذلك عظيم ، يقال في تصغيره بالضم وفي جمعه (فعائل) بالفتح ، فان قيل

للاسم أحوال يرفع بها وأحوال ينصب فيها وأحوال يخفض فيها قيل اذا كانت تلك الأحوال معلومة بالعلل الأول : الرفع يكون فاعلا أو مبتدأ أو خبرا أو مفعولا لم يسم فاعله والنصب يكون مفعولا والخفض يكون مضافا إليه صار الآخر كالحرف الأول الذي يضم في حال ويفتح في حال ويكسر في حال ، يكسر في حال الإفراد ويفتح في حال الجمع ويضم في حال النصب ، وقد يكون قياس ابن مضاء الحركة الإعرابية على الحركة التي تكون جزءا من بنية الكلمة قياسا مع الفارق وقد يكون في كلامه شيء من المغالطة أوقعة فيه حبه للنحو وولوعه بالإعراب ، ولكن المغالطة الشديدة تتمثل في مذهب من يقول « يكفي للبرهنة على أن لا علاقة بين معاني الكلام وحركات الإعراب أن تقرأ خبرا صغيرا في الصحف على رجل لم يتصل بالنحو اي نوع من الاتصال فسترى أنه يفهم معناه تمام الفهم مهما تعمدنا الخلط في إعراب كلماته برفع المنصوب ونصب المرفوع أو جره الخ ، وانما كانت هذه المغالطة لا تحتمل ، لأن الشخص المذكور عندما نفسد عليه اعراب الكلمات سيجد نفسه أمام خليط من الألفاظ والتعابير ليس عاميا كله فيفهمه فهم العامة ولا فصيحا كله فيفهم منه بعضه على قدر استعداده وانما سيفهم الفكرة فهما سقيما مشوها فهو على جهلة التام بقواعد الإعراب لا يستوعب جزئيات الفكرة ولا يلمح الترابط بين أجزائها إلا إذا قرئت عليه قراءة نحوية صحيحة ولذلك يسلك هذا الشخص في السمعيين لا البصريين ، فهو يفهم الخبر الذي يتلوه المذيع وهو يستمع إليه أكثر مما يفهمه إذا قرأ بنفسه وهو ينظر في الصحيفة ، لأن المذيع يراعي أحكام الاعراب فيفصح ويبين ، أما قارىء الصحيفة فيفقد الروابط الحقيقية بين ألفاظ يعرب بعضها عن طريق الالف والعادة ويجهل بعضها الآخر لأنها لم تطرق سمعه فهو القدر المحدود من الفهم الذي يتفاوت بتفاوت

الأشخاص والثقافات ليس مصدره فقدان الحركات الإعرابية وإلا لكان يجب أن يكون فهما تاما من كل وجه وهو ما ينكره الواقع ويأباه ، وحين ينقل لنا أن ربيعة تقف بالسكون على الاسم المنون المنصوب فتقول : هل رأيت زيد مثلما تقول جاء زيد ومررت بزيد المنون المرفوع والمجرور ، وأن طيئا تقف على جمع المؤنث السالم بابدال تائه هاء فيقول : دفن البناه من المكرماه ، كما في المفرد المنتهي بالتاء كالصلاة والزكاة بل ان لخما تقف على ضمير الغائبين بحذف ألفه فتقول : والكرامة ذات أكرمكم الله به أي بها ، وقضاعة تقول : المال له ومررت به حين ينقل لنا هذا وأضرابه نستطيع أن نفسره بظاهرة الشذوذ اللاشعوري في النطق لا بظاهرة المخالفة المقصودة الداعية للإعراب وبينهما اختلاف جوهري فإن ربيعة لا تقول رأيت زيد بتسكين زيدا الا في حالة الوقف أما اذا لم تقف على الاسم المنون المنصوب بل واصلت تعبيرها وأتمت جملتها فانها تقول مثلا (رأيت زيدا في بيته) ولم يحفظ لنا اسقاطها حركة الإعراب في مثل هذا المقام ولا اسقاطها في غير الاسم المنون المنصوب حين الوقف ومعنى هذا أنها كانت تعرب الأسماء والأفعال في غير هذا المقام أو أنها على الأقل لم يحفظ عنها في باب الإعراب إلا هذا الشذوذ والقاعدة التي تتبعها في سائر كلامها بعد ذلك ظلت تحريك الأواخر بالسجية والسليقة كانت تلفظ بذلك لفظا لا شعوريا لو كان متعمدا لأسقطت جميع علامات التأنيث في حالتي الافراد والجمع فقالت البقر وهي تقصد (البقرة) وقالت البقرا وهي تقصد البقرات مثلا ، ولكن شيئا من هذا لم يعرف عنها ومثل ذلك يقال أيضا في وقف طيء بالهاء بدلا من التاء في جمع المؤنث السالم ولا قالوا : (عليك بالثباة) يريدون عليك بالثبات ، فالمثل المحفوظ عنهم ضرب من الشذوذ فهمه الأقدمون الفهم المناسب له حين سلكوه في

عداد اللغات الضعيفة ولذلك لم نجد ربيعيا يقرأ (وخلق الانسان ضعيف) بل ضعيفا ، ولخما يقرأ (فألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق به وأهله ، بل وكانوا أحق بها وأهلها) ولا طائيا يقرأ ﴿والمؤمنون والمؤمناة ﴾ بل والمؤمنون والمؤمنات ، والقرآن بالتزام ترتيله على نمط معين ونظام وقوفه أثناء الآية بصورة عامة وعلى رؤوس الآي بوجه خاص ، أكد فصاحة لغة قريش في تثبيت حركاتها الإعرابية التي استلطفت تثبيتها واستحسنت ابقاءها في الوقت على الاسم المنون ، لم تبق قريش الا فتحة المنصوب لخفتها ووضوحها وحسن ايقاعها وزادتها خفة وحسنا بتحويلها الى ألفي مد فقالت (رأيته يريد فرارا) ونظمت شعرها على هذا المنوال . ونظم سائر الشعراء من مختلف القبائل أشعارهم بلغتها الأدبية على هذا المنوال أيضا ، وجاء القرآن يثبت هذا ويخلده ويحفظ عليه خصائصه الصرفية الموسيقية فقال : (إن يريدون الا فرارا) وقال : إن الله كان عليكم رقيبا ، وقال (وكان الله غفورا رحيما) وبمجيء القرآن على لغة قريش المثالية الأدبية قد قيل في خاصية الإعراب القول الفصل ، فكل ما ورد على غير ذلك فهو لحن أو شذوذ سواء أوقع فيه قائله سهوا أم قصد إليه في وعي وشعور .

لقد كانت دعوة ابن مضاء صدى لما كان يدور في عصره من ثورة على المشرق وأوضاعه في الفقه وفروعه ، وقد كانت دولة الموحدين منذ أول الأمر تدعو الى هذه الثورة حتى إذا كان يعقوب وهو أحد خلفاء الموحدين 580 - 595 هـ رأيناه يأمر باحراق كتب المذاهب الأربعة يريد ان يرد فقه المشرق على المشرق وقد تبعه ابن مضاء قاضي القضاة في دولته فألف كتاب الرد على النحاة يريد أن يرد بعض أصول هذا

النحو وان يخلصه من كثرة الفروع فيه وكثرة التأول[1] .

وقامت هذه الدعوة على (1) إلغاء نظرية العامل (2) إلغاء العلل الثواني والثوالث (3) إلغاء القياس (4) إلغاء التمارين غير الواقعية ، لأن المذهب الظاهري الذي كان ابن مضاء على رأي منقذيه يقوم على التمسك بحرفية النصوص وتحريم القياس واستبعاد التعليلات وعني ابن مضاء بثورته على النحو البصري خاصة ، وهاجم النحاة البصريين وحدهم ، ولم يعرض لنحو الكوفيين ، وقد سبق للدكتور شوقي ضيف ان أشار الى هذا أيضا بل لم يحاول التوفيق بين المذاهب النحوية المختلفة وهذا هو مصدر العقم في هذه الدعوة .

ومرت القرون حتى شهدت اليقظة الفكرية الحديثة ورأى الدارسون أنفسهم في عصر توافرت فيه عناصر الدرس الملائمة لطبيعة الدراسات المختلفة ومظهر دراسات جديدة لم يعن القدماء بها ولم يعرفوها كالنحو المقارن وعلم الاجتماع اللغوي ، وطبقت هـذه الدراسات على نحو اللغات الأجنبية فنجحت في تجديده وإصلاحه الى حد كبير . عند هذا شعر أهل العربية بضرورة تجديد النحو العربي وإعادة النظر في تصنيفه من جديد وقامت محاولات من أجل هذا بعضها يهدف الى التيسير والتسهيل وبعضها يهدف الى الاصلاح .

لقد بدت نزعة واضحة نحو التجديد في النحو شبيهة بمحاولة التجديد في اللغة والأدب ولم لا نجدد ونجتهد وقدامى النحاة يحققون التقليد ولم يعرف عنهم أنهم أغلقوا باب الاجتهاد على نحو ما صنع بعض متأخري الفقهاء على أنه إن كان قد أغلق فليفتح كما فتح باب

---

1) الرد على النحاة .

الاجتهاد في الفقه والتشريع . وما أجدرنا أن نصلح ونجدد ، كي نيسر من أمر قواعد النحو ما تعسر ونجعلها ملائمة لحاجات العصر ومقتضياته . .

والواقع أن لهذه القواعد في كل اللغات جانبا عمليا تعليميا ولأمر ما وضع الكسائي من قديم كتابا مختصرا في النحو للمبتدئين . وفي العصور المتأخرة انتهى الأمر بالمؤلفات النحوية أن أضحت في المتون والمختصرات رموزا يصعب حلها وفي الشروح والحواشي توجيهات وتعليلات نظرية لا طائل تحتها ، ولا بد لنا أن نبسط النحو ونعرضه عرضا جديدا كي يتيح للنشء تعلم اللغة في يسر وبخاصة اليوم ونحن نضطلع بعبء تعميم التعليم في نشر الثقافة الشعبية وقد قامت حركات خمس للتيسير نستعرضها فيما يلي : ـ

ب) حركات التيسير التي قامت
لما ضاق بعض الناس بهذه النظرية المدعاة

المحاولة الأولى : إلغاء نظرية العامل كما ذكرها ابن مضاء القرطبي في كتابه : الرد على النحاة .

هاجم ابن مضـاء القرطبي كما أشرنا نظرية العامل وهو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء اللخمي المتوفى سنة ٥٩٢ هـ ، وقد نشر الأستاذ شوقي ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة كتاب (ابن مضاء) هذا سنة سبع وأربعين وتسعمائة وألف واشتمل الكتاب على فكرتين رئيسيتين : أما الفكرة الأولى فهي إلغاء نظرية العامل وأما الفكرة الثانية فهي حاجة النحو الى تصنيف جديد ونستطيع أن نعتبرهما قسمين ، فأما القسم الأول فيشتمل على خمسة فصول :

الفصل الأول : مهاجمة هذه النظرية التي أسس النحاة عليها أصول النحو طالبا حذف ما يستغني النحوي عنه أي استعمال النحو الوظيفي بتعبير المحدثين وخطأ النحاة في ادعائهم أن النصب والخفض والجزم من وجوه الإعراب لا يكون الا بعامل لفظي وبعامل معنوي فتعبير النحاة يوهم : رفع زيد ونصب عمرو في قولنا ضرب زيد عمرا انما أحدث ضرب ، وذلك بين الفساد ، فقد ذكر ابن جني أن العمل انما هو للمتكلم ، وبهذا نربح أنفسنا من شروط العوامل أنواعها ومواضع ذكرها وحذفها وتقديمها وتأخيرها .

ودلل على فساد هذه النظرية تقسيم النحاة العوامل الى ثلاثة أقسام : قسم حذف لعلم المخاطب به كقوله تعالى ﴿ واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ أي أنزل خيرا ، وقسم حذف والكلام لا يفتقر إليه مثل : أزيدا ضربته فهم يقدرونه أضربت زيدا ضربته على ما هو معروف في باب الاشتغال وهو تقدير استدعته نظرية العامل من أن كل منصوب لا بد له من ناصب ، وقسم « هو » أكثر عنتا من القسم الثاني ، لأنهم يقدرون فيه عوامل محذوفة لو ظهرت لتغير مدلول الكلام كتقديرهم في باب النداء أن المنادى في مثل : يا عبد الله مفعول لفعل محذوف تقديره أدعو ولو قال المتكلم : ادعوا عبد الله بدل يا عبد الله لصار الكلام خبرا بعد أن كان إنشاء ومن هذا ما يزعمونه في الفعل المنصوب بعد الفاء والواو من أنه منصوب بأن مضمرة ثم يؤ ولـون أن مع الفعل بالمصدر ويعطفونه على مصدر يتصيدونه مما قبله فيقولون في « ما تأتينا فتحدثنا » أن تقديره ما يكون منك إتيان فحديث وهو تقدير لم يقصد إليه المتكلم ؟ لأنه قصد أحد معنيين : اما أنك لا تأتينا فكيف لا فتحدثنا واما أنك لا تأتينا محدثا وهما جميعا لا يفهمان من تقدير النحاة للعبارة .

ثم انتقل ابن مضاء من العوامل المحذوفة الى الضمائر المستترة إذ يقدرون في اسم الفاعل في مثل زيد ضارب عمرا ضميرا مستترا ولا داعي لذلك وكذلك في الفعل في مثل زيد قام فأنكر تقدير الضمير في كل ، وقال إنهما يدلان بمادتهما فنحن نعرف من الياء في أول المضارع أن الفاعل غائب مذكر ومن الهمزة في أول أنه متكلم ومن التاء أنه مخاطب أو غائبة ، وبنفس الصورة نعرف في قام أن الفاعل غائب مذكر فالفعل حينئذ يدل على الحدث والزمان وعلى الفاعل اذا كان مستترا وقد انتهى به ذلك الى أن ذهب الى أن الألف والواو والنون فيمثل قاما وقاموا

وقمن ليست ضمائر وانما هي علامات تدل على التثنية والجمع ، كما تدل التاء الساكنة على التأنيث ولم يذهب أحد الى أنها ضمير .

ودرس ابن مضاء في الفصل الثاني باب التنازع ذاكرا رفض النحاة اجتماع عاملين على معمول واحد كما في قول علقمة :

تعفق بالأرطي لها وأرادها رجال فبذت نبلهم وكليب

وانما كان رد النحاة هذه الصورة بسبب نظرية العامل فأعملوا واحدا وأضمروا في الثاني فقالوا قاموا وقعد اخوتك ، وأدى بهم هذا الى أن يقولوا في باب ظن وأعلم : ظننت وظننا في شاخصا الزيدين العمرين منطلقين ، ومثل هذا لا يجوز في الكلام .

ثم ذكر ابن مضاء في الفصل الثالث باب الاشتغال فأشار الى اضطرارتهم فيه وتقسيمهم لصوره ما يجب رفعه وما يجب نصبه وما يترجح فيه الرفع أو النصب والى ما يجوز فيه الأمران على السواء ، وهم يقدرون عوامل لا دليل عليها وانما هي أقيسة النحو ، ثم وضع في ذلك قاعدة سهلة تفسر صور الاشتغال كلها ، وهي أن الاسم المتقدم إذا عاد عليه ضمير منصوب أو ضمير متصل بمنصوب نصب ، لأنه في مكان نصب ، وإلا رفع ، لأنه في مكان رفع ، مثل : أزيدا ضربته وأزيد قام فاذا عاد عليه ضميران أحدهما منصوب أو متصل بمنصوب والآخر مرفوع أو متصل بمرفوع جاز رفعه ونصبه مثل : أعبد الله ضرب أخوه غلام .

ثم ذكر ابن مضاء في الفصل الرابع فاء السببية وواو المعية فرأى أنهما ينصبان المضارع لمعنى يقصده المتكلم لا لعامل يقدره في كلامه ، فاذا قال : لا تأكل السمك وتشرب اللبن بالنصب فهو يقصد

النهي عن الجمع بينهما ، واذا رفع فهو يقصد النهي عن أكل السمك واذا جزم فهو يقصد النهي عن كل منهما .

وهاجم ابن مضاء في الفصل الخامس العلل الثواني والثوالث وذلك في مثل سؤال السائل عن زيد من قولنا « قام زيد » لم يرفع ؟ فيقال : لأنه فاعل ، فيقول : ولم رفع الفاعل ؟ فيقال : لان العرب نطقت به مرفوعا ، ولا يصح أن يجاب بغير هذا من عللهم ، ثم هاجم القياس النحوي في هذا الفصل أيضا وذلك كقياسهم الفعل المضارع على الاسم في الإعراب ، فهو في رأيه إغراق في التفسير ويعد في التقدير والحق أن الإعراب أصل في كل منهما ثم هاجم التمارين غير العملية في هذا الفصل أيضا وذلك كقولهم : ابن من البيع ، على مثل فعل « فان من الممكن أن يقول شخص (بوع) محتما بأن الباء سكنت وضمهما قبلها فقلبت واوا كموقن وموسر ومن الممكن أن يقول آخر بل هي (بيع) محتجا بأن الياء سكنت وضم ما قبلها فقلبت الضمة كسرة كبعض وعن جميع بيضاء وغنياء فكل هذا عنده لا فائدة فيه لأنه لا يجري كلام العرب وانما يجري على ألسنة النحاة .

وفي القسم الثاني طالب بتصنيف النحو تصنيفا جديدا يجمع التجانسات فلا نجعل الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد مبنيا بل نجعله منصوبا حتى يجانس بين نصب المضارع حين تسبقه النواصب وحين تتصل به نون التوكيد أو نجعله مبنيا في الحالين وكذلك الفعل المضارع المتصل بنون الإناث يجب أن نضمه الى الفعل المضارع المجزوم ولا داعي أن نسمي سكونه مرة جزما ومرة بناء وهكذا غير المضارع مما تتجانس أحواله وتفرق بينها نظرية العامل وفي الأمكان إدماج باب كان في باب الفعل العام ويعرب مرفوعه فاعلا ومنصوبه حالا

كما هو مذهب الكوفيين وباب ما وأخواتها يعرب مرفوعه مبتدأ ومنصوبه خبرا للمبتدأ فإن خبر المبتدأ قد يجيء منصوبا في مثل ضربي العبد مسيئا ومثل قول الشاعر :

أبـا خراشـة أمـا أنت ذا نفـر   فـان قومي لـم تـأكلهـم الضبـع

ولا داعي لتأويل النحاة اذا اتفقنا على ان الخبر منصوب وفي باب ان واخواتهـا يعرب منصوبه مبتدأ ومرفوعه خبرا للمبتدأ وباب ظن وأخواتها ملحق بباب المفعول وعلى هذا يكون الأصل في المبتدأ الرفع وقد ينصب في باب وقد يجر في باب رب أو إذا دخل عليه حرف من حروف الاضافة الزائدة ، والأصل في الخبر أن يرفع وقد ينصب في باب (ما) وقد يجر اذا دخل عليه حرف إضافة زائد ، ثم ذكر مما يمكن بناؤ ه على ذلك تنسيق كثير من أبواب النحو ومن خير ما يوضح ذلك الأسماء التي لا تنون فانها تدرس في باب الممنوع من الصرف وفي باب لا النافية للجنس وفي باب المنادى وهذه الأبواب يجب أن تضم بعضها الى بعض لنستفيد من ضمها التجانس في التبويب وتوحيد التفسير فيها ، فاذا حكمنا بأن الاسم الممنوع من الصرف حكمنا بمثل هذا في اسم لا والمنادى المفرد، وقد قال بذلك بعض الكـوفيين لأنه يجب أن نبني هذه الأبواب الثلاثة كلها أو نعربها كلها ، ثم طالب بمنع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات إذ أن ذلك يريحنا من إضمار المعمولات وحذف العوامل وبيان محل الجمل والمفردات المبنية أو المقصورة أو المنقوصة ، فلا داعي لاضمار الفاعل المستتر كما سبق أن ذكرناوهذا يفيدنا في الأبواب التي تستتر فيها الضمائر وجوبا كالتعجب في ما أحسن زيدا فهم يجعلون الفاعل فيه ضميرا يعود على ما ويجعلون

زيدا مفعولا به مع أنه هو المسند اليه في الواقع إذ تستطيع أن تقول (حسن زيد ، في التعجيب من حسنه كما تقول ما أحسن زيدا ، وخير من ذلك كما يقول ابن مضاء أن يعرب زيدا مفعولا به ولا نتحدث عن الفاعل ما دام لم يأت في العبارة وكذلك الامر في خلا وعدا وحاشا من أدوات الاستثناء .

وأما حذف العوامل فيكون في متعلق الجار والمجرور ونواصب المضارع وباب الاستثناء فيجب الاستغناء عن تقدير العوامل المحذوفة في هذا كله والمفردات قد تفيد معاني كاملة كما في باب لا النافية للجنس فلم تقدر الخبر المحذوف والمصادر النائبة عن أفعالها كذلك ، فيجب أن تضم هذه الصيغ في واحد يسمى الصيغ الشاذة أو باب شبه الجملة وعلى هذا تقول في أبواب مثل (لولا دعاؤكم) دعاؤكم شبه جملة ونكتفي بهذا أولا نقول إنه مبتدأ خبره محذوف تقديره موجود ، وأما بيان محل الجمل والمفردات المبنية والمقصودة والمنقوصة فيجب الاستغناء عنه في الإعراب أيضا ، ولا نفيد منه الا عناء في حفظ اصطلاحات لا داعي إليها ويكفي في إعراب الجملة أن نقول إنهاخبر أو حال أو نحو ذلك وفي مثل يعجبني أنك مجتهد ، لا تذهب الى تأويل أن وما بعدها بمصدر نجعله فاعل يعجب والتقدير يعجبني اجتهادك بل الفاعل في هذا هو الجملة ولا داعي الى تأويلها بمفرد .

وكذلك المفردات المبنية والمقصورة والمنقوصة يكفي أن نعربها مبتدأ بلا تقدير حركة كما لا داعي الى إعراب ما لا يحتاج الى الإعراب كأدوات الشرط والاستفهام فالأعراب ليس غاية في ذاتها وانما هو لتصحيح اللسان ونحن ننطق بها سليمة .

وقبل أن ننفذ هذه المحاولة يجب أن نشير الى :

المحاولة الثانية لاصلاح النحو

« كتاب إحياء النحو للأستاذ ابراهيم مصطفى »

فكلاهما يهتم بإلغاء نظرية العامل ويجعل لها المقام الأول في تجديد النحو ولا أظن أن ما ذكره صاحب احياء النحو وقد قضى سبع سنوات كما قال عاكفا على كتاب القدماء محاولا الاصلاح لا أظن أن أراده مجرد توافق خواطر مـع آراء بن مضاء القرطبي وكان واجبه للأمانة العلمية أن يذكر أنه انتفع بآراء ابن مضاء وليس لإلغاء نظرية العامل منزلة كبيرة في تجديد النحو أو اصلاحه كما سبق أن ذكرنا ونكتفي بالإشارة هنا الى التسوية بين المضارع المنصوب والمتصل بنون التوكيد يلغي تقسيم الكلام الى معرب ومبني وهكذا ، أما الأسماء الممنوعة من الصرف في باب واحد ، وإذا ألغينا النواسخ وذهبنا الى ما ذهب اليه الكوفيون من اعراب اسميها فاعلا واعراب خبرها حالا كان ذلك باطلا من وجهين : أولهما أن الخبر في مثل كان زيد قائما ركن في الجملة ، لأنها لا تتم مع الأقتصار عـلى كان واسمها ، فالخبر يكون مسندا في الجملة لا حالا ، فضلـة فيها يمكن الاستغناء عنها وثانيهما أن من خبر كان وأخواتها ما لا يصح إعرابه حالا ، لأنه يكون معرفة في مثل كان زيدا المنطلق ولا شك أن المراد هنا الاخبار عن زيد بأنه هو المنطلق وليس المراد إثبات شيء إليه في حال انطلاقه ، وكذلك المراد في مثل : كان زيد منطلقا فهـو على معنى الاخبار عن زيد بأنه كان منطلقا لا على معنى إثبات شيء له في حال انطلاقه وفي صيغة التعجب إذا اكتفينا بجعل المتعجب منه مفعولا مكتفين بمثل حسن زيد لألغينا صيغا كثيرة نطق بها العرب

ولحدث إشكال أن زيدا فاعل في المعنى وليس بمفعول .

وما ذكره ابن مضاء في إعراب أسماء الاستفهام انما أعربناها لأنها تكون مفعولا مطلقا إذا دلت على حدث ومبتدأ إذا دلت على ذات وكان الفعل تاما أو ناقصا واستوفى خبره أو متعديا واستوفى مفعوله الخ . أما إذا كان الفعل متعديا ولم يستوف مفعوله فانه يكون واقعا عليها فتكون مفعولا به مثل : أي عالم ناقشت ؟ وليس القصد من الإعراب تقويم لساننا فقط ولكن القصد هو بيان معاني الكلام كما تأكد هذا المعنى في معظم فقرات البحث ، يبقى بعد ذلك الجزء الهام من الغاء نظرية العامل وهو الغاء التقديرات وسنخصه إن شاء الله ببحث مستفيض في معرض الرد على الأستاذ ابراهيم مصطفى صاحب إحياء النحو .

ولما هو معروف في علم الاجتماع بأن اللاحق تكون لديه العلامات أشمل فقد كانت دعوة صاحب احياء النحو أشمل وأوضح فقد لخص لنا أجمل تلخيص خمسة عشر أصلا ، وحسبنا أن نذكر هذه الأصول الأربعة :

1) كل علامة من علامات الإعراب فهي أثر لعامل إن لم تجده في الجملة وجب تقديره ، وقد يكون واجب الحذف ولكن من المحتوم أن تقدر في الجملة عاملان مختلفان كما في (سقيا لك) تقديره اسق اللهم سقيا دعائي لك .

2) لا يجتمع عاملان على معمول واحد فاذا وجد ما ظاهرة خلاف هذا جعلوا لأحد العاملين التأثير في اللفظ وللآخر التأثير في الوضع كما في (بحسبك هذا) فللباء العمل في اللفظ وللابتداء العمل في الوضع .

3) والأصل في العمل للأفعال وهي تعمل في الأسماء فقط ولا تعمل فيها الا الرفع والنصب ولا ترفع الا اسما واحدا أو أكثر وتعمل الرفع والنصب معا .

4) كلما كان الفعل أمكن في بابه كان أوفر من العمل حظا فالعمل الجامد عامل ضعيف لا يعمل فيما يتقدمه وبعضه لا يعمل الا بشروط تحدد عمله كفعل التعجب ، ونعم وبئس والفعل الناقص لا تعمل الا في المبتدأ أو الخبر .

وليس الإعراب في نظر القدماء الا تغير أحوال أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا أو تقديرا فلا بد للإعراب على هذا التعريف من عامل يقتضيه ، فإذا لم يكن هناك عامل لم يكن هناك إعراب ولهذا كانت الحروف وبعض الأفعال غير معربة عندهم ، لأنه لا يوجد عامل يقتضي إعرابها ومعنى هذا أن المبنيات ليس لها عوامل لتباينها على حركة معينة ، ولما ذهب الكوفيون إلى إعراب فعل الأمر لم يكن لهم بد من تكلف عامل في إعرابه ، لأنه لا يوجد في النحو إعراب لا عامل له فذهبوا الى أنه مجزوم بلام أمر مقدرة لأنه في رأيهم مقتطع من الفعل المضارع فقم عندهم أصلها لتقم (حذفت اللام للتخفيف) ويتبعها حرف المضارعة وهو التاء على أن بقية الأصول التي اعترض بها صاحب احياء النحو سترد في معرض المساجلة العلمية بين الأزهر والجامعة فلا داعي للتكرار فليس في هذا البحث جديد سوى ما يتصل بموضوعي وهو أن إلغاء النظرية والتأويلات يهدم ركنا أساسيا من أركان الكلام وهو جانب المعنى .

ولعل الناس يذكرون هذا الجهد المشكور الذي قام به الأزهر وشيوخه الأجلاء في الرد على الأستاذ ابراهيم مصطفى مدرس النحو في

كلية الآداب حين أخرج كتابه (احياء النحو) وعمد فيه الى تسفيه آراء النحاة المتقدمين وعاب على من تابعوهم في دراسة النحو على نهجهم العظيم وأطال في نقد نظرية العامل وعجب لقوم تتابعت عليهم الأجيال وهم على جهلهم عاكفون يرون أن الفعل يرفع وينصب وأن الحرف يجر ويجزم وأن الاعراب بالحركات وغيرها شيء يعرض الكلام ويتبدل بتبديل التراكيب على نظام يبدو فيه الاطراء فيقولون : عرض حادث لا بد له من محدث وأثر لا بد له من مؤثر ولم يقبلوا أن يكون المتكلم محدث هذا الأثر لأنه ليس حرا فيه يحدثه متى شاء وطلبوا لهذا الأثر عاملا مقتضيا وعلة موجبة وبحثوا عنها في الكلام فعددوا هذه العوامل ورسموا قوانينها سجل على النحاة أقوالا ونسب اليهم مذهبا ثم وقف منهم موقف الناقد وانتهى به الأمر الى تصويرهم أمام قراء كتابه بصورة قوم بله محرورين ينكرون المشاهدة ويتركون ما يحسه الناس جميعا من أن المتكلمين هم الذين أحدثوا الكلام وعالجوا حروفه وكلماته سواء أكانت في أوخر الكلمات أم في أواسطها أم في أوائلها ويأتون الى ألفاظ هي اعراض وينسبون اليها أنها هي التي رفعت وهي التي نصبت وهي التي جرت .

وبلغ من اعجابه بما وفق اليه من كشف حدا جعله يؤمن إيمانا لا ريب فيه بأن نظرية العامل قد لقيت حتفها ولم يبق لأنصارها إلا أن يشيعوها الى عالم الفناء آسفين على أحقاب وآماد أضاعها طلاب النحو في العكوف على ما ليس فيه فائدة أو عناء اسمع اليه وقد وقف موقف الظـافر المنتصر فقال : (ومهما يكن استقبال الناس إياها ومهما يتجهوا إليها ويبشروا بها فلن يستطيع النحاةمن بعد أن يركنوا الى نظريتهم العتيقة السابقة (نظرية العامل) وقد بنيت عليها من قبل أصول النحو واستقرت قواعده وشغلت النحاة ألف عام أو يزيد وملأت مئات من

الكتب النحوية خلافا وفلسفة وجدلا لا بل تمثلت لها فلسفة خاصة أفردت بالتأليف ونستطيع أن نقرأها في كتاب أصول النحو وجدل الاعراب للامام أبي بكر بن الأنباري .

لم تجد هذه النظرية من بعد سلطانها القديم في النحو ولا سحرها لعقول النحاة ومن استمسك بها فسوف يحس ما فيها من تهافت وهلهلة وستخذله نفسه حين يبحث عن العامل في مثل التقدير والإغراء أو الاختصاص أو النداء ثم يرى أنه يبحث عن غير شيء تخليص النحو من هذه النظرية وسلطانها هو عندي خير كثير وغاية تقصد ومطلب يسعى اليه ورشاد يسير بالنحو في طريقه الصحيحة بعد ما انحرف عنها آمادا وكاد يصد الناس عن معرفة العربية وذوق ما فيها من قوة على الأداء ومزية في التصوير لم أزل أضمر لنظرية العامل بقية من البحث تجمع أطرافها وتنظم أجزاءها وتحيط بنواصيها ولكن لما تجمع آثار العاهل الظالم لتعد في زاويتها من متحف تاريخي[1] وقد فتن بهذا الجديد من التحقوا بالنحو ولم يتبطنوه وتعلقوا به ولم ينعموا النظر فيه حتى قيض الله للحق من ينصره ويرفع لواءه ويدفع عن أئمة النحو والشيوخ ما لحقهم من وصمة وما وجه اليهم من اتهام بعد أن خرست ألسنتهم ونخرت عظامهم ولحقوا بمن يضع الموازين القسط ولا يضيع أجر من أحسن عملا .

أوضح أستاذنا الفاضل الشيخ محمد عرفة ما في احياء النحو من زيغ وتحريف ومسخ للحقائق وتشويه لآراء السابقين وسطو على تراثهم واختلاس لما أوردوا من بحوث ونظريات وبين للناس أن كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه وعلمه وأن من الخيانة على العقول

1) صفحتا 194 ، 195 من كتاب احياء النحو مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1937 .

والخيانة للأمانة أن يحرف الكلم عن مواضعه وأن ينقل المؤلف أعجاز نصوص لتشهد له على ما رآه ولو أنه أنصف الحق وحفظ الأمانة فنقل النصوص بأعجازها وصدورها لدلت على نقيض ما رآه وفي كتاب الاستاذ عرفة الذي يعتبر ردا غير مباشر على ابن مضاء ما يشفي النفس وينقع الفؤاد ، فقد رجع الى أصول النحو ومنابعه واستخرج منها آراء العلماء في العوامل ونظرتهم إليها من حيث كونها مؤثرات حقيقية أو امارات وعلامات ومن النقول المختلفة يتبين لنا بوضوح أن النحويين جميعا يؤمنون بأن التأثير الحقيقي للمتكلم فهوالذي يرفع وينصب ويجر ويجزم ولكنه لا يخبط فيما يذهب إليه خبط عشواء ولا يتصرف في الحركات الإعرابية كما أراد أو شاء بل يراعي قوانين ومقتضيات فيرفع زيدا في أعجبني زيد وينصبه في أعجبت زيدا ويجره في عجبت من زيد ، وما ذلك الاختلاف إلا لأن مركز اللفظ في التراكيب الثلاثة ليس واحدا والعرب قد تواضعوا على أن يميزوا بين المعاني التي تتعاور على الأسماء بالحركات الإعرابية وما ينوب عنها ، فالرفع علم الفاعلية وانصب علم المفعولية والجر علم الاضافة والمتكلم يأتي بالرفع لفاعلية الاسم والنصب لمفعوليته والجر لأضافته ومن هذا ترى أن المعاني المختلفة كانت عللا ، لأن رفع المتكلم الكلمة او نصبها أو جرها ما حدث اعتباطا وانما لمركزها في التركيب ووقوعها في الجملة .

ونتساءل بعد ذلك ما الذي أحدث هذه المعاني في التراكيب ، لا شك أن الفعل هو صاحب الفضل في ذلك فارتباط قام بزيد على جهة الوقوع من مسماه ، جعله مفعولا وننتهي مما قدمناه الى هذه النتيجة ، الفعل يحدث في الاسم معنى الفاعلية أو المفعولية والفاعلية تلزم المتكلم بأن يرفع الفاعل كما أن المفعولية تلزمه بأن ينصب المفعول فلا

عجب بعد ذلك إذا اعتبر الفعل آلة في التأثير ولا غرابة إذا نسبوا العمل إليه ، فقد جرت عادتهم بأن ينسبوا الفعل الى آلته كما ينسبونه الى فاعله تقول قطعت السكين كما تقول قطعت بالسكين وعلى هذا القياس فاذا قيل : العوامل النحوية ، فالمقصود منها الآلات والأمارات التي تحدث في الألفاظ معاني مختلفة يلزم للدلالة عليها والتمييز بها أن ترفع أو تنصب أو تجر أو تجزم ، وقد تقول أيضا ان ما ذكره النحاة من أن الفاعلية تقتضي رفع الفاعل والمفعولية تقتضي نصب المفعول غير مسلم على اطلاقه فان الأمر قد يرى على العكس من ذلك فالعرب يقولون : ضرب محمد الاسم وان كان مفعولا به ويقولون : ان زيدا قام بنصبه وان كان فاعلا ، وقد قال الله تعالى : ومن حيث خرجت برفع حيث وان وقع بعد حرف الخفض وقبله ومثله قوله تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ والجواب عن القول الأول : إن العرب وان لم يعملوا حقائق هذه المصطلحات بالصيغة فإنهم يجدونها بالقوةوالنحويون ينون أفكارهم ويضعون مصطلحاتهم على أساس ثابت من الاستقراء ومن التتبع للأساليب والتراكيب العربية فالعربي لا يعرف الفاعل بمعناه الاصطلاحي ولكنه يسير على سنة واحدة في رفع الاسم الذي ينسب اليه الحدث على جهة الوقوع منه ، على أنا نراه يحتاط ويقتاس ولا يفرط ولا يخلط ، وما اختلف الاعراب في شيء من الفروع الا ولكل رأي من الناس ودليل يؤخذ به ووجه يعمل عليه .

قال سيبويه : وليس شيء يضطرون اليه إلا وهم يحاولون به وجها[1] ، هذا وقد روى لنا الكثير مما يدل على أن العرب كانوا يلاحظون من أسرار لغتهم ما لاحظه العلماء ويريدون من العلل

---

1) الخصائص جـ 1 ص 222

والأغراض ما نسب اليهم وحمل عليهم من ذلك ما حكى الأصمعي عن أبي عمرو قال سمعت رجلا من اليمن يقول فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها فقلت له : أتقول جاءته كتابي ؟ قال نعم ، أليس بصحيفة ، أليس هذا تشريعا من عربي جارف ، عقل يبيح له للناظرين أن يقيسوا ويتصرفوا ويحتجوا لتأنيث المذكر بما علل به هذا الموضوع .

مناقشة الأستاذ عرفة للأستاذ إبراهيم مصطفى

أولا : النحو عند النحويين :

جاء في مقدمة النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة ولم يذكر كاتب المقدمة اسمه ، فرصة سعيدة تلك التي أتاحت لي أن أشاهد هذه الحرب العنيفة الشريفة وقد تابعتها في ميدانها وشاهدت فارسها وهما يجولان ويكران ويفران لأعلم أممثل المدرسة الحديثة يهدم القديم ولو كان صالحا أم هو لا يهدم الا الطالح ويبقى عمل الصالح ؟ ولأتبين كذلك أممثل المدرسة القديمة يحافظ على القديم ولو كان ضارا أم هو لا يحافظ إلا على النافع ويهمل الضار والذي أحب أن أقوله هنا أن الاستاذ عرفة فيه خصلة يعلمها له عارفوا ومتبعوا مساجلاته وهي أنه إذا عارض رأيا وأيد رأيا كان قوي الحجة ، ساطع البرهان مسدد الرأي لا يرمي حتى يصمي لا يفلت منه هارب ولا مثل له جريح[2] .

وقد تتبع الأستاذ محمد عرفة في كتابه ما جاء في كتاب إحياء النحو وما جاء فيه مسألة بعد مسألة على الترتيب الآتي : فاعترض عليه تعريفه النحو بمعناه الشائع وهو علم الإعراب والبناء مع تصور هذا التعريف فهو عندهم : علم قوانين تأليف الكلام وبحوث النحو لا تقتصر على الإعراب والبناء بل تتعداها الى تأليف الكلام في الأثبات والنفي

---

1) مقدمة النحو بين الأزهر والجامعة ص 4 مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر .

والتأكيد والاستفهام والتعريف والتنكير والقسم الخ .

وهذه المباحث من الذيوع بحيث لا يمكن إغفالها وقد عرفه الأشموني في شرحه الألفية تعريفا شاملا ، وهذا عند قول ابن مالك : مقاصد النحو بها محوية فقال: النحو هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة الى معرفة أحكام أجزائه التي أئتلف منها وهذا التعريف لا يقتصر على أحوال أواخر الكلمة من اعراب وبناء بل هو عام لكل قوانين تأليف الكلام المستنبطة من كلام العرب بكل ما تدل عليه كلمة العموم وكان واجبه ألا يقتصر على هذا التعريف على أن اشارة صاحب إحياء النحو في معرض تجديده وهدمه التعريف السابق كان يستند الى ما نقل عن الزجاجي من أن الاسماء تعتريها المعاني ليتسع لهم في اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة يفيد أن القدماء عرفوا ظاهرة الإعراب معرفة دارسة وبحث وتأليف لا يقتصر على الأواخر وقد نقد الشيخ الأمير في حاشيته على الأزهرية هذا التعريف الذي نقده الأستاذ ابراهيم مصطفى بدون تشنيع فقال : ففي تعريف النحو أنه علم بأصول يعرف بها أحوال الكلمات العربية إعرابا وبناء ثم قال وقولهم إعرابا وبناء اقتصار على الغالب والا فيعرف به أحوال الكلمة من غير الإعراب والبناء كان من جهة كسر همزها أو فتحه وتخفيفها وشروط عملها وشروط عمل بقية النواسخ وكالعائد من حيث حذفه وعدمه الى غير ذلك مما لو استقصى أقصى .

وهذه خلاصة وجيزة لبعض القواعد التي ذكرها سيبويه في باب أم وأو[1] تبين بما لا يدع مجالا للشك أن النحاة لم يقتصروا على البحث

---

1) باب أم واو ص 564 ط كتاب سيبويه طبعة بيروت .

في أواخر الكلمات فقط بل كان بحثهم أوسع من نظرية الإعراب والبناء فهو يشمل كل قوانين العرب في كلامهم وذلك إذا أردنا بالاعراب تعريف المتأخرين ببحث أواخر الكلمة أو الصناعة وقد أكدنا مرارا أن الإعراب يستهدف التراكيب تقول العرب1) أزيد جاءك أم عمرو 2) أجاء زيد أو عمرو .

قد يظن القارىء لأول وهلة أن المعنى في المثالين واحد ، وليس كذلك اذ المعنى في الاول أيهما جاءك ، فالسائل يعتقد أنه كان مجيء ولكنه لا يدري من أيهما كان فهو يطلب التعيين تعيين الجائي ، أما الثاني فالمعنى فيه أجاءك أحدهما فالشك في المجيء والسؤال عنه متعلقا بأحدهم وفرق بين أن يكون المجيء متيقنا غير مسئول عنه وبين أن يكون مشكوكا فيه مسئولا عنه ، يدل على ذلك اختلاف الجواب ، فالجواب في الأول يكون بأحد الاثنين زيد أو عمرو ، ولا يصح في الجواب أن يقال نعم أو لا .

والجواب في الثاني يكون بنعم أو لا .

وتقول العرب1) أتجلس أو تذهب أو تحدثنا . أتجلس أو تذهب أم تحدثنا والمعنى في الأول هل يكون شيء من هذه الأفعال ، والجواب نعم مثلا ، والمعنى في الثاني أي هذه الأفعال يكون منك فأنت موقن أن أحدهما يكون ولكنك لا تدري تعيينا ، والجواب بالتعيين مثلا .

وقالت أم الزبير : كيف رأيت زبرا + أأقطا أو تمرا + أو قرشيا صقرا لم تقل : أأقطا أم تمرا ، لأنها لم ترد أن تجعل التمر معادلا للأقط ، وإنما تريد أأحد هذين الطعامين رأيته أم قرشيا ، أو إطعاما ما رأيته أم قرشيا ، لأن المسئول لم يكن عندها ممن قال هو إما تمر وإما

أقط وإما قرشي بل المسئول عندها من قال هو إما طعام وإما قرشي والمعنى كيف رأيته أسهلا كالطعام أم صعبا فهذا بعض أسرار العربية بين لنا الفرق بين أم وأو ويبين أن إحداهما لا تغني عن الأخرى وأن هذه تراد بمعنى وتلك تراد لمعنى آخر والجاهل بأساليب العرب يظن أن المعنى في الاثنين واحد لا يختلف فيضع إحداهما موضع الأخرى ، وتقول العرب :

أعمر عندك أم زيد : أعمر عندك أم عندك زيد .

والمعنى مختلف فالمعنى في الاول أيهما عندك ، وأم فيه متصلة والمعنى في الثاني أنه ظن ان عمرا عنده فسأل عنه ، ثم أدركه مثل هذا الظن في زيد فسأل عنه فتكون منقطعة ومعناها الاضراب والاستفهام فهي مثل : انها لإبل أم شاه ، جرى كلامه على اليقين ثم أدركه الشك فأضرب وقال بل هي شاة ؟

وتقول العرب : هل زيد عندك أو عمرو .

لا يكون إلا أو ولا يجوز أم ، لأن أم تقتضي أن كونه عندك غير مسئول ، وانما المراد تعيين من عندك ، وهل لا تقتضي ذلك بل هي لطلب التصديق فالمعنى أعندك أحدهما ، واذا سمع ذلك فعلى كلامين وتكون أم منقطعة كما تقدم .

1) اذا كان السؤال عن الفعل أو ليت الهمزة .

2) واذا كان السؤال عن الاسم او ليت الهمزة .

تقول أأكرمت زيد أم أهنته في الأول .

وتقول أزيد أكرمته أم عمرا في الثاني .

وهذا هو الأحسن في لغة العرب .

(هذه خصائص في لغة العرب وأساليبها لا تتعلق بالإعراب ولا بأواخر الكلمات وانما تتعلق بخصائص الكلمات والتراكيب وفروق ما بينها وقد عرض لها سيبويه وأدركها أسمى إدراك وأبان عنها أحسن إبانة ، فهل يصح بعد ذلك أن يقال : ان النحويين لا سيما سيبويه شغلوا بأمر اللفظ ولم يفقهوا العربية ولا خصائص التراكيب ؟ اللهم ان هذا تجن على هؤلاء المحسنين إلى لغة العرب وإلى الناطقين بها من بعدهم[1] .

ونريد أن نرجع إلى الاقتباس من كلام سيبويه أيضا لندل على أن النحو عنده كان أوسع من نظرية الإعراب والبناء فهو يشمل كل قوانين العرب في كلامهم وعلاقة كل كلمة بما يجاوزها وفقه المعنى من خلال هذه التراكيب .

قال سيبويه : (هذا باب نفي الفعل)[2] .

إذا قال : فعل ، فان نفيه لم يفعل ، واذا قال : قد فعل ، فان نفيه لما يفعل واذا قال لقد فعل فان نفيه ما فعل لأنه كأنه قال : والله لقد فعل ، فقال : والله ما فعل ، إذا قال هو يفعل أي هو في حال فعل فان نفيه ما يفعل ، واذا قال هو يفعل ، ولم يكن الفعل واقعا فنفيه لا يفعل ، واذا قال ليفعلن فنفيه لا يفعل كأنه قال والله ليفعلن فقلت والله لا يفعل ، واذا قال سوف يفعل فان نفيه لم يفعل) ا هـ .

---

1) ص 47 من النحو والنحاة .

2) ص 537 جـ 1 كتاب سيبويه

هذا قليل من كثير وغيض من فيض وقطرة من بحر وزهرة من بستان مما في الكتاب لسيبويه وسيبويه في هذا الفصل الوجيز بين ما هو نفي للماضي غير المؤكد وما هو نفي للماضي المؤكد وما هو نفي للحال وما هو نفي للمستقبل المؤكد منه وغير المؤكد وما هو نفي للمستقبل الواقع بعد التسويف فهل يسوغ للمؤلف وهذا بعض بيان سيبويه في النفي أن يقول : وأغفل شر إغفال درس معانيها ـ أدوات النفي ـ وخاصة كل أداة في النفي بينها وبين فيها ما ينفي الحال وما ينفي الاستقبال وما ينفي الماضي وما يكون نفيا لمفرد كذا وما يخص الاسم وما يخص الفعل وما يتكرر لأحطنا بأحكام النفي وفقهنا أساليبها ولظهر لنا من خصائص العربية ودقتها في الأداء شيء كثير وضع سيبويه فهمه أساليب العرب ودقة ذوقه وجميل أدبه وعبقرية موازنته أيدينا عليه وينفي أن سار مسار الشمس واذا أطلق اسم الكتاب لم ينصرف الى غير كتابه .

ثم رد الأستاذ عرفة على ما أراده رفيقه من تجميع حروف النفي مثل لا النافية للجنس ولن الناصبة بأن الأشياء قد تتشابه في معاني مختلفة وقد يشبه هذا ذاك من وجه ولا يشبهه من وجه آخر في حين أنه يشبهه ثالثا من الوجه الأخير ، فالمؤلفين الذين من شأنهم ضم الشيء الى ما يشاكله ربما اختار نوعا من المشابهة في جمع الشبيه الى شبيهه غير غافلين عن ذكر المشابهات الأخرى وتوضيحها عن ذكرها وانما يفعلون ذلك لغرض من الأغراض ولكل انسان أن يختار من الترتيب ما يشاء بشرط ألا يخل بذكر عملها وشرطه .

ورد على ما ادعاه من أن عبد القاهر أراد أن يسلك بالنحو مسلكا أهدى من سيبويه ، لأن عبد القاهر لم يكن يرى في نحو سيبويه ما يشين وإنما كان يعنيه بيان البلاغة وهل ترجع الى اللفظ أو المعنى وقد أبان في

ذلك أنه لا يتصور نظم بين الألفاظ من حيث أجرامها وحروفها وإنما النظم للألفاظ من حيث علاقة بعضها ببعض في التركيب ، كأن يكون هذا فاعلا لهذا الفعل وهذا مفعولا له ، وهذا حالا من الفاعل الخ . فليس النظم إذن إلا أن نضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، لأن علم النحو هو الذي تكفل ببيان علاقة الألفاظ بعضها ببعض في التركيب ، فلا خلاف بين عبد القاهر وغيره في أن النحو يبحث عن أسرار التراكيب بل كان عبد القاهر يرى النحو جامعا لما يحتاج اليه حتى يتغلغل فيه ويعلم خفية كما يعلم ظاهره وهذا ما يؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن بلاغة عبد القاهر لم تقم إلا على القواعد النحوية وأن النحويين هم مؤسسوا علم البلاغة[1].

---

1) نحو عبد القاهر - انظر ص 58/56 احياء النحو

((العامل))

وتعرض مؤلف النحو والنحاة هنا لإنكار نظرية العامل المبنية في رأيه على عمل لفظي قاصر عن الدلالة على المعاني ، لأن العامل عنده هو المتكلم لا العامل وقد اجتلب المتكلم الإعراب لمعان يقصدها منه ، فليس الإعراب عملا لفظيا كما جروا عليه[1] ورد عليه بأنه يوافقه على أن هذه الأشياء التي يسمونها عوامل ليست عوامل وانما الذي يعمل هو المتكلم ولكنها مع هذا ليست أجنبية من هذا العمل ، فالرفع علم الفاعلية والنصب علم المفعولية والجر علم الإضافة ، فالفاعلية والمفعولية والإضافة علل لرفع المتكلم الكلمة أو نصبها أو جرها ولكن هذه المعاني من الفاعلية والمفعولية والإضافة لا تحدث في الكلمة اعتباطا أو تحكما بل هي حادثة من وقوعها في الجملة ومن مركزها بها ، فمحمد مثلا ليس فيه معنى الفاعلية قبل أن يدخل في التركيب فاذا أدخل في التركيب وقيل ذهب محمد جوز فيه معنى الفاعلية ، فالعامل قد أحدث المعنى الذي اقتضاه الإعراب ، وبهذا تكون الفاعلية علة غائبة للمتكلم من رفع الفاعل والذي أحدثها هو الفعل والعلل الغائبة علل فاعلية في الواقع ، لأنها علة فاعلة من فاعلية الفاعل فتكون الفاعلية مثلا علة الرفع بطريق الوساطة ولهذا تصبح نسبة الرفع في هذا العامل ويكون المتكلم محدث

1) ص 22 من احياء النحو ، 75 من النحو والنحاة

الرفع والفاعلية بآلة هي هذا العامل الذي يأخذ في هذا منزلة الآلة ، ومن سنة العرب أن ينسبوا الفعل الى آلته كما ينسبون الى فاعله تقول : قطعت السكين وقطعت بالسكين وقد قال الرضي في شرح الكافية : اعلم أن محدث هذه المعاني في كل اسم هو المتكلم وكذا محدث علاماتها ولكنه نسب أحداث هذه العلامات الى اللفظ الذي بواسطته قامت هذه المعاني بالاسم فسمى عاملا لكونه كالسبب للعلامة كما أنه كالسبب للمعنى المعلم فقيل العامل في الفاعل هو الفعل ، لأنه صار أحد جزأى الكلام وهذا الخلاف ذكره ابن يعيش في شرح المفصل . فالخلاف في عامل الإعراب على قسمين : 1) فالعامل هو المتكلم والعوامل هي علامات النصب والرفع والجر .

2) أو العامل هو المتكلم وما يسمى عوامل هي آلات في العمل وقد نسب إليها على عادة العرب في نسبة العمل الى الآلة(1) ثم رد عليه أخذه على النحاة تعسفهم في التقدير في باب الاشتغال .

أ) زيدا رأيته يقدرونه رأيت زيدا رأيته .

ب) وإن أحد من المشركين استجارك يقدرونه وإن استجارك أحد من المشركين استجارك .

جـ) لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي تقديره لو تملكون تملكون .

د) وأما ثمود فهديناهم تقديره وأما ثمود فهدينا هديناهم .

هـ) اياك والأسد : تقديره أحذرك واحذر الأسد .

و) ويقطع النعت في مثل : الحمد لله رب العالمين . فتنصب

---

1) المرجع السابق

كلمة رب وترفعه فيقدرونه هو رب أو أمدح رب[1] .

ثم رد عليه بأن التقدير في هذه الأمثلة ليس لتكملة نظرية العامل وانما هو في أكثرها لتحصل المعنى فمثلا إياك والأسد تقديره ضروري للمعنى ، لأن اياك ضمير يدل وضعا على المخاطب المفرد المذكر والأسد يدل وضعا على ذلك الحيوان المفترس وليس فيها دلالة على المعاني التركيبية فلا يفهم منهما المعنى التركيبي وهو تحذيره من الأسد الا بتقدير لفظاحذر واحذر يرتبطان بهما ارتباطا على جهة الوقوع عليهما ولولا هذا لما دل التركيب على معنى فالمعنى إذن هو الذي اقتضى هذا التقدير لو لم يكن في اللغة العربية إعراب ولا تبيان وأقول كما أنهم يقدرون اطرادا لقواعدهم ودلالة على المعاني يجعلون بعض الأدوات مختصة بالفعل كأدوات الشرط فاذا جاء مايدل في الظاهر على دخولها على الاسم قدرنا الفعل المحذوف .

وما أحسن قول الأستاذ عرفة هنا : ستجد هذه النظرية دائما سحرها وسيطرتها على العقول وستكون أبدا قوية لا تهافت فيها ولا هلهلة وسيلجأ المرء دائما إذا لم يجد أحد جزئي الكلام الذي يتم به الإسناد الى تقديره مناسبا للمعنى الحاصل سيفعل ذلك في التحذير والإغراء وغير التحذير والإغراء ، ومن يفعل ذلك لا تخذله نفسه ، لأنه يبحث عن شيء يحتاج الى المعنى ولا يتم بدونه . أما من يرى أنه لا تقدير في التحذير والاغراء فستخذله نفسه حين يعلم أن جزئي الاسناد لم يتماديا وأنه لا بد من تقدير ليكمل جزءا الاسناد وستخذله نفسه حين يعلم أن هذا التقدير لاقتضاء المعنى إياه لا لإيجاد العامل الذي حكم النحاة

---

1) تعرضت في التمهيد لنظرية العامل للرد على هذا .

أنه لا عمـل إلا له ، فاذا رأينا أثره ولم نحذف لجأنا الى تقديره سنقدر دائما وسيقدر الناس في مثل : الكلاب على البقر أرسل وما ماثلها، لأن المعنى اقتضاه وحاجة المعنى أولى الحاجات بالاستجابة إليها[1] .

وأفي بما وعدت من الوقوف عند التقدير الذي اعترض عليه ابن مضاء كما اعترض عليه متابعه .

1) صفحتا 111 ، 112 من النحو والنحاة .

« التأويل والتقدير »

التأويل في الأصل : تفسير مآل الشيء وبيان عاقبته التي يصير إليها ومنها تأويل الكلام بمعنى تبينه والكشف عن المراد به ويكون ذلك عادة في الكلام المتشابه الذي يحتمل غير وجه لاقي الكلام القاطع الأداء الصريح الدلالة على معناه والا كان تكلفا واعتسافا قال تعالى : هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يتذكر الا أولو الألباب .

والرؤيا من المتشابه الذي يحتاج الى تأويل أو تعبير وكلاهما بمعنى بيان المآل ، فالتعبير من العبر وهو الاجتياز ، يقال : عبر النهر إذا قطعه حتى يبلغ آخر عرضه وقد استعمل القرآن الكلمتين معا في تفسير الرؤيا وذلك حين يقول : وقال الآخر : إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله ، وحيث يقول أيضا : يأيها الملأ أفتوني في رؤ ياي إن كنتم للرؤ يا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

وأما التقدير فيراد به تدبير الشيء وجعله مطابقا لما أعد له وعلى وفقه ومنه قوله تعالى : وخلق كل شيء فقدره تقديراً » فالمعنى أن الله سبحانه قدر كل ما خلق من شيء فجعله على حسب المصلحة التي تناط

به دون مناقضة ولا خلاف[1] ولهذا سميت المساواة في التعبير باسم التقدير من قبل أن الألفاظ فيها تجيء على قدر المعاني ومعادلة لها[2] .

والتقدير والتأويل كلاهما ضرورة في العربية لكثرة الإيجاز والحذف إذا كانت لغة قوم يغلب عليهم الذكاء ويكفيهم في الفهم الإشارة والرمز وطالما حمدوا الإيجاز وأوصوا به وأكثروا منه فقالوا في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز فلان يقيل المحل ويصيب المفصل ، يعنون أنه يقصد إلى معناه قصدا فضربوا الجزار الحاذق في صنعته مثلا للمصيب الموجز في كلامه وسمع جعفر بن يحيى يقول لكتابه : إن استطعتم أن يكون كلامكم مثل التوقيع فافعلوا[2] ولم يكن ذلك ذما منهم للإطالة أو إنكار الفضل لها والحاجة إليها ولكنه في الواقع ذم للفضول ، وإنكار لوضع الشيء في غير موضعه فإن الكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وهو الخطل وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه[3] ومما مدحوا به الإطالة في موضعها والإيجاز في موضعه قول ابن دواوين خرير الإبادي :

يرمون بالخطب الطوال وتارة   وحي الملاحظ خيفة الرقباء[4]

أما نحن فسنكتفي في الكلام عن الحذف بما يقتضيه المقام ونورده في الموضع الذي يتطلبه غير مقيدين بمرجع معين : ويعقد عبد القاهر الجرجاني فصلا في كتابه : دلائل الإعجاز يمتدح به الأسلوب

---

1) الكشاف جـ 2 ص 102

2) المثل السائر 301

3) التبيان والتبيين جـ 1 ص 107

4) المصدر السابق .

الذي يحتمل وجها من المعنى غير الوجه الذي هو عليه ، ويسوق لرأيه الشواهد التي تعزز جانبه وتوضح دقائقه وتجتزئي منه بقوله في مستهل هذا الفصل :

« واعلم أنه إذا كان بينا في الشيء أنه لا يحتمل الا الوجه الذي هو عليه حتى لا يشكل وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه وانه الصواب إلى فكر وروية فلا مزية وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجها آخر ، ثم رأيت الذي جاء عليه حسنا وقبولا يعد مهما إذا أنت تركته إلى الثاني[1] .

وهذا الذي يذكره عبد القاهر عن الأسلوب ويحمده فيه يمكن أن يعد كذلك ظاهرة من ظواهر ذكاء العرب في التعبير والفهم ، فكأنما أردت بهذا اللون من الأساليب التي لا تفصح عن معناها افصاحا باتا حاسما الا بعد اصطناع الفكر والتروية فيها أن تعرض صورة من ذكائها في تأليف القول فيكون للقائل منه حمد وإعجاب وأن تهيىء به للسامع مجالا يختبر فيه مبلغه من الذكاء والاقتدار على استخراج المعاني المحتملة وتحديدها معناها المفضل فيكون له من ذلك متعة ورضا وارتياح واعتقد على كل حال أن عبد القاهر انما يعني هنا اللغة الأدبية وحدها فهي التي يتحدث عنها في مباحثه البلاغية ، أما اللغة العلمية ونحوها فانما تحمد بنصوع بيانها والقطع في دلالتها بما لا يحتمل إلا المراد ومثالها ما ذكره ابن جني في كتابه سر صناعة الإعراب .

باب في أن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم

---

1) دلائل الاعجاز .

المحفوظ به إلا أن يعترض هناك من صناعة اللفظ ما يمنع منه ، من ذلك ان ترى رجلا قد سدد سهما نحو الغرض ثم أرسله فتسمع صوتا فتقول : القرطاس والله أي أصاب القرطاس فأصاب الآن في حكم الملفوظ به البتة وان لم يوجد في اللفظ غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به وكذلك قولهم لرجل مهو بسيف في يده : زيدا أي اضرب زيدا فصارت شهادة الحال بالفعل بدلا من اللفظ به ، وكذلك قولك للقادم من سفر : خير مقدم ، أي قدمت خير مقدم ، وقولك مررت برجل إن زيدا وإن عمرا أي إن كانَ زيدا وإن كان عمرا ، وقولك للقادم من حجه مبرور مأجور أي أنت مبرور مأجور ومبرورا مأجورا أي قدمت مبرورا مأجورا وكذلك قوله :

رسم دار وقفت في طلله   كدت أقضي الغداء من جلله

أي رب رسم دار ، وكان رؤبة إذا قيل له كيف أصبحت يقول خير عافاك الله أي بخير .

بحذف الباء لدلالة الحال عليها يجري العادة والعرف بها ، وكذلك قولهم : الذي ضربت زيد ، تريد الهاء وتحذفها ، لأن في الموضع دليلا عليها وعلى نحو من هذا تتوجه عندنا قراءة حمزة وهي قوله سبحانه : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامِ ﴾ ، ليست هذه القراءة عندنا من الابعاد والفحش والشناعة والضعف على ما رآه وذهب اليه أبو العباس ، بل الأمر فيها دون ذلك وأقرب وأخف وألطف وذلك ان لحمزة أن يقول لأبي العباس : انني لم أحمل (الأرحام) على العطف على المجرور المضمر بل اعتقدت أن تكون فيه باء ثانية حتى كَأني قلت (وبالأرحام) ثم حذفت الباء لتقدم ذكرها كما حذفت لتقدم ذكرها في نحو قولك بمن تمرر أمرر ، وعلى من تنزل

أنزل ولم تقل أمر ربه ولا أنزل عليه لكن حذفت الحرفين لتقدم ذكرهما واذا جاز للفرزدق ان يحذف حرف الجر لدلالة ما قبله عليه مع مخالفته له في الحكم في قوله :

وإني من قوم بهم يتقي العدا ورأب الثأى والجانب المتخوف

أراد وبهم رأب الثاني فحذفت الباء في هذا الموضع لتقدمها في قوله : بهم يتقي العدا .

وإن كانت حالاهما مختلفتين ترى أن الباء في قوله (بهم يتقي العدا) منصوبة الموضع لتعلقها بالفعل الظاهر الذي هو يتقي كقولك بالسيف يضرب زيد ، والباء في قوله (وبهم رأب الثأي) مرفوعة الموضع عند قوم وعلى كل حال فهي متعلقة بمحذوف ورافعة الرأب ونظائر هذا كثيرة ـ كان حذف الباء من قوله والأرحام لمشابهتها الباء في (به) موضعا وحكما أجدر ، وقد أجازوا تبا له وويل على تقدير وويل له فحذفوها وان كانت اللام في (تبا له) لا ضمير فيها وهي متعلقة بنفس و(تبا) ، مثلها في هلم لك ، وكانت اللام في (ويل له) خبرا ومتعلقة بمحذوف وفيها ضمير ، فهذا عروض بين الفرزدق [1] أي مثله .

وقد عرف التأويل في الإسلام وظهرت الحاجة إليه منذ ظهرت الدعوة الى الله ودعت دواعي التثبت في العقيدة وفقه أحكام الدين الى مساءلة الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « من حوسب عذب ، فقالت عائشة ، أوليس الله يقول : فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا فقال صلى الله عليه وسلم إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك »[2] .

---

1) الصفحات 284 الى 287 جـ1 الخصائص

2) فتح الباري 1 : 159

فقد أول عليه السلام الحساب في الآية بالعرض لا بما يسبق الى الفهم من معنى المناقشة والاعتراض وتقدير الحسنات والسيئات ، وروى الزمخشري عن عائشة في تفسير الحساب اليسير في الآية المذكورة أنها قالت : هو أن يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه[1] .

بل لقد كان التأويل والحذق فيه من المطالب العزيزة التي يتمناها الفتى النجيب لنفسه ويدعو له بها محبوه ، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس فقال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل[2] .

والتأويل يستلزم التقدير ويعول عليه في أكثر الأحوال فليس يتم المعنى وتتضح إشارته ومراميه إلا بذكر المحذوف ورد الأسلوب الى نظمه الذي يكون عليه حسن لا يدخله الحذف ، فنحن مثلا حين نقرأ قول الله تعالى ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾لا نأمن للنظرة الأولى أن يفهم مبصرة بمعنى ذات بصر وان نجعلها تبعا لذلك حالا من الناقة وصفة لها ، بل هذا هو الذي يسبق إليه الفهم فعلا ، ويحسنه المعنى المراد ولم لا ؟ أليست مبصرة قد جاءت تالية للناقة ووقعت منها موقع الحال من صاحبها ؟ أليس الإبصار من صفات الابل وحالا من أحوالها ؟ فما يمنع إذن أن تكون كذلك لكنه حين يفكر في الآية ويصلها بما قبلها وما بعدها فيجدها هكذا : وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها هنالك يتبين ان صور الآية بذكر سبب امتناع الله عن إرسال الآيات التي اقترحتها الأمم

1) الكشاف 2 : 523

2) البداية والنهاية 8 : 296 ، 297

على رسلها السابقين ويتبين أن آخرها يشير الى عاقبة قوم صالح حين أرسلت إليهم الآية التي اقترحوها عليه أنهم كذبوا بها فلا يلبث حينئذ ان يعدل عن فهم الأول ، ويذهب في معنى الآية المذهب القويم الذي يتسق مع ما قبلها وما بعدها فيجعل مبصرة صفة لموصوف محذوف تقديره آية لا لأنها ناقة وكفى . .

وإذ تكون مبصرة بمعنى بينة لا بمعنى ذات بصر وإذن يكون تأويل الآية وتقديرها : وآتينا ثمود الناقة آية بينة فظلموها وظلموا أنفسهم اذ كفروا بها وعقروها فاستوجبوا أن يأخذهم الله بها جزاء وفاقا . ونحن اذ نقرأ قوله تعالى : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ لا نستطيع أن نفهم الآية فهما صحيحا نطمئن إليه إلا إذا قدرنامحذوفاً بين أي والضمير المتصل بها ، ليكون تأويل الآية وتقديرها هكذا : (فلينظر أي أهلها أزكى طعاما) .

وأكثر ما يكون التأويل والتقدير في دراسة النص لاستنباط المسائل والأحكام وتخريج الشواهد والأمثلة ولهذا نجد كتب التفسير والحديث وأصول التشريع وكتب النحو والبلاغة والنقد وما إليها منذ أول عهد الناس بالدرس حافلة بضروب منها لا تحصى كثرة وتنوعا ونكتفي هنا بهذا المثال ننقله من كتاب سيبويه رحمه الله تعالى : تقول : (حينئذ أنك تريد المعروف ، إنما تريد لأنك تريد المعروف ولكنك حذفت اللام ها هنا تحذفها من المصدر إذا قلت :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره   وأعرض عن ذنب اللئيم تكرما[1]

أي لادخاره . وسألت الخليل عن قوله جل ذكره : وان هذه

---

1) نسبة العيني لحاتم الطائي (مختصر الشواهد : 182)

أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاتقون ، فقال انما هو على حذف اللام كأنه قال ، ولأن هذه ، وقال : نظرها : لإيلاف قريش ، لأنه انما هو لذلك فليعبدوا ، وان حذفت اللام من أن فهو نصب ، كما أنك حذفت اللام من لإيلاف كان نصبا ، وقال سبحانه وتعالى : فدعا ربه أني مغلوب ـ فانتصر وقال : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ﴾ انما أراد بأني مغلوب[1] . . .

ومن هنا اختلف أئمة العلوم الشرعية واللغوية واختلف معهم زعماء الفرق الاسلامية وإن اتحد الأصل الذي يرجعون اليه ويستمدون منه للاستشهاد والاحتجاج ولم يكن هذا بلا شك من عمل اللغة وحدها ، فهناك حرية الرأي وتعدد القراءات والروايات واختلاف الباحثين في الكثير من الوسائل والأسباب التي تكون الرأي وتعمل عملها في التأويل والترجيح .

فاختلف مثلا أئمة الفقه في عدد فرائض الوضوء وفي القدر الذي يفرض مسحة من الرأس، مع أن الأصل فيه قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ﴾ ، واختلف المعتزلة والأشعرية في رؤية الله ، ينكرها الأولون ويجيزها الآخرون ويحتج المنكرون بقوله سبحانه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وقوله : ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك قال لن تراني ، ويحتج المجيزون بقوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ويؤكدون حججهم هذه بآيات أخر منها للذين أحسنوا الحسنى

---

1) الكشاف 1 : 464 ، 465

وزيادة ، فيؤولون الزيادة بالنظر إليه جل شأنه ، فالرأيان كما ترى متناقضان ومع ذلك لقد وجد كل له حجة من القرآن الكريم ولم يعيه ان يؤول حجة الآخر بما يجعلها غير معارضة له ولا مؤيدة لصاحبه[1] .

هذه هي حقيقة التأويل والتقدير التي ضاق بها ذرعا ابن مضاء القرطبي ومردد آرائه في العصر الحديث وهذا هو عمل التأويل والتقدير في النص ومكانهما منه ضرورة استوجبتها سماحة اللغة وحسن مطاوعتها ولا حيلة لأحد في دفعها ما بقيت اللغة على ما خلقها الله محتفظة بسمتها الأصيل وخصائصها المميزة ولكن ناسا من الزمن القديم والحديث يضيقون بهما بل ينكرونهما وربما ركبوا اللغة وعلماءها الدعابة والسخرية من جرائهما وما أرى ان على اللغة منهما بأسا ولا ان العلماء قد تكلفوا بهما عسرا أو ركبوا شططا .

فالذين تأولوا التأويل وقدروا التقدير كانوا هم حفظة اللغة ورفقاءها المنقطعين أو من أئمتها ورواتها الذين فازوا منها بحظ عظيم رحلوا الى البادية في طلبها أو قعدوا للوافدين منها الى الحضر يشافهون أهلها ويسمعون منهم ويرجعون إليهم في المساءلة والتحكم جادين غير هازلين مخلصين غير مرائين الى الغاية التي لا مطمع وراءها ولا مزيد عليها ففتح الله عليهم كنوزها وآتاهم من نفائسها ذخرا عظيما وكان لهم من طول ممارستها وكثرة النظر فيها حس لغوي صادق يجعلهم بحق خبراءها وأصحاب سرها وأهل الحل والعقد فيها فأكبرهم العلية وأصحاب السلطان واتخذوهم مؤدبين لأبنائهم ومعلمين وما نريد بهذا

---

1) راجع مقدمة مناهج الأدلة في عقائد الملة 83 : 90 وتفسير الكشاف والانتصاف عليه (305 ، 345 ، 346 ، 509) .

أن نقدس أشخاصهم أو أن نفرض أقوالهم وأذواقهم على الناس ، كلا ولكنا نريد فقط أن نذكر بجهادهم ونعرض الواقع الحق من أمرهم إنصافا لهم ووضعا للأمر في نصابه الصحيح عسى أن تخف الحملة عليهم ويتغير الرأي منهم وإنما ينكر التأويل والتقدير اليوم أحد رجلين : رجل لم يعرف اللغة حق معرفتها لأنه بحكم ثقافته الأصيلة لم يتهيأ له التمكن منها ولا التدرج في دراستها فهو منها غريب أو كالغريب ورجل عرفها وتجرد لدراستها ولكنه لم ينضج بعد أو نضج ولكنه يطلب نوعاً من الزعامة يرى نفسه أهلا له وكافيا فيه ولم تتهيأ له التجربة الطويلة التي تعين على فقهها والنفاذ الى أغوارها البعيدة وأسرارها الفقهيـة فهو يتعجل الاجتهاد ويتكلف الإمامة قبل الأوان . فأما الأول فظالم لنفسه ولغيره ، لأنه يتكلف علم ما لم يعلم ولا يتحرج أن يقول فيما لا يحسن القول فيه ثم هو مع ذلك يدخل نفسه في قوم ليس علمه من علمهم ولا ذوقه من ذوقهم في شيء ولو كان همه من ذلك أن يأخذ عنهم ويتدارك ما فاته من معارفهم لرضيناه له وحمدناه به ولكن همه من ذلك ينتقصهم ويتهم أذواقهم وأن ينتقص اللغة ويتهمها معهم كذلك لأنهم يقولون فيها ويذهبون بها الى غير ما يرضيه كأن سبيل المرء الى اللغة أن يتعلم كل شيء غير اللغة ، أو كأن الخوض في اللغة خاصة حق لكل من هب ودب أو كأن اللغة قد أصبحت من المسائل الشخصية فلكل امرىء أن يتصرف فيها كيف يشاء ولا معقب له غير ذوقه وهواه . ولو أنصف نفسه وغيره لكف عن الكلام في اللغة على هذا النحو وترك النظر في أمورها للعلماء والمتخصصين كما يترك الرأي في كل ما لا يعلم لأصحاب شأنه وإذن يستريح ويريح ، وكل ميسّر لما خلق له ، وأما الآخر فرجائي إليه ولا أقول نصيحتي له أن يجعل الحيطة والريث ديدنه في كل بحث يعالجه بكل رأي يعرضه فذلك أشبه بالعلماء وأحق أن يلتزموه والا لم

يأمنوا أن يخرج البحث فجا والرأي خطيرا وهم أحق أن يكونوا أحرص على هذه الحيطة حين يبدو لهم رأي مخالف من مسألة جليلة أجمع عليها الرأي وانعقد الاجماع أو يكاد ، مهما تكن ثقتهم بالدراسة الحديثة التي تزودوا منها وسبق الى الاعتقاد إن لم يكن للقدماء علم بها أو رأي فيها .

فليس كل ما يقال عن لغة مـا يمكن أن يقال كما هو في جملته وتفصيله عن لغة أخرى لأن اختلاف الموضوع يستوجب في كثير من الأمر اختلاف التطبيق ولو على وجه من الوجوه ، ومن يدري لعل هناك للمسألة وجها لم تره أو أسبابا ذات بال تقتضي حتما أن تكون على النحو الذي أثرت عليه ولو أتيح لنا مزيد من الدراسة والبحث لهدينا إليها وآمنا بالنتائج التي تقتضيها هذه الأسباب .

والتواضع الذي يتسم به العلماء يوجب على كل حال حين يعرض رأيه المخالف أن يعرض عرضا موضوعيا وزينا يشعر أنه رأي من الآراء قابل للمناقشة والتمحيص لا أنه الفتح الجديد والابتكار الفريد الذي أخطأ القدماء سبيله أو ضل سعيهم في طلبه أو غرب عنهم علمه وحمله ولا أنه الرأي الذي تلتقي فيه أحدث الآراء والنظريات التي اهتدت اليها فلسفة القرن العشرين .

ثم ان هؤلاء الذين قد ينعي عليهم القصور أو يأخذهم بالملامة أو التخطئة في بعض ما قالوا هم في القليل زملاؤه إلا انه أتيح لهم من التجربة الطويلة والاطلاع الشامل على أصول اللغة ما لم يتح له ممن حقهم عليه ألا تدفعه الثقة بنفسه والجرأة على غيره الى العجلة فيهم والقطع بتخطئتهم قبل أن يحيط بالقضية التي يدرسها ويتقصى مسائلها

من كل جانب .

اما الناضجون في علمهم من طلاب الزعامة المتشبثين بها والعاملين على احتباسها ما وسعهم الحول والطول فلا حيلة معهم ولا رجاء فيهم وما كان لأحد في مثل مكانتهم وسعة شهرتهم ليسمع لأحد أو يتقبل من أحد فلنتركهم وشأنهم يمضون على طريقتهم التي التزموها ولا سبيل لهم الى العدول عنها ، والأيام القريبة أو البعيدة احق أن تظهر الحق وتنفي الزيف وتعلن الحكم وهو حكم عدل وقضاء أخيرا لا مراجعة فيه ولا نقض له .

(إن علماء اللغة لم يخلقوا التأويل والتقدير خلقا ولا تكلفوا القول فيهما ارتجالا ولكنهم اعتمدوا فيها على مبادىء سليمة وأصول مقررة فقاسوا النظير على النظير واستدلوا بالحاضر على الغائب ، ورأوا المحذوف في المذكور تهديهم رواية واسعة وملاحظة بارعة وتجربة طويلة وحس لغوي غير مدخول ، لقد قالوا إن المشغول عنه في أساليب الاشتغال ينصب بعامل محذوف يفسره العامل المذكور ففي مثل قول أبي الأسود :

أميران كانا صاحبي كلاهما فكلا جزاه الله عني بما فعل

يجعلون تقدير الكلام فجزى الله كلا جزاه الله عني بما فعل وهو كما ترى يشبه التفصيل بعد الاجمال فجملة جزى الله كلا تعد مجملة إذا قرنت الى جملة جزاه الله عني بما فعل ، ونظيره في ذلك قوله تعالى : ﴿ لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات ، ولكن الكثير يزوّر هذا التقدير ويمط شفتيه اشمئزازا حين يسمعه ويقول فريق سخف ويقول ثان : تكلف لا حاجة إليه ويقول ثالث قلة ذوق ، كأن القوم حين

جعلوا التقدير على ما ذكرنا فقد افتعلوه افتعالا او أنهم يجيزون ذكره أو يأتون به على غير مثال من كلام العرب والحقيقة تخالف ذلك تماما فتقدير الناصب المحذوف ضرورة لا مفر منها تقتضيها طبيعة اللغة على الأقل في بعض أساليب الاشتغال وتأبى أن يكون الاسم السابق هو وضميره منصوبين بالفعل المذكور كما يريد بعض الباحثين أن يفعل ليتخلص من باب الاشتغال .

فاذا صح في نحو : « والسماء رفعها » دعوى أن تكون السماء وضميرها منصوبين بالفعل (رفع) فانها لا تضح في نحو آية : « وكلا ضربنا له الأمثال » من كل أسلوب كهذا جاء فيه المشغول عنه منصوبا ، إذ لا يصح هنا أن يسلط ضرب على (كلا) لأن المعنى يأباه ، ولأنه قد عمل عمله في كلمة الأمثال فينصبها بنفسه ووصل الى هاء كلا باللام فلم يبق إلا أن يكون ناصب كلا فعلا محذوفا قبلها وإذا يكون تأويل الآية وحذرنا أو أنذرنا أو وعظنا كلا ، ضربنا له الأمثال ذلك أن النحويين يمنعون بتاتا ذكر العامل المحذوف وكل ما هنالك أنهم يلحظونه في التأويل والاعراب مجرد ملاحظة ثم انهم حين قدروه على هذا النحو دون سواه قد جاءوا على أسلوب في العربية غير مجهول)[1] .

---

1) انظر من قضايا النحو واللغة للاستاذ علي النجدي ناصف .

« معاني الإعراب[1] »

ذكر المؤلف في هذا الفصل أن الأستاذ ابراهيم مصطفى يأخذ على النحاة أنهم يرون أن حركات الإعراب لا تدل على شيء من المعاني ، لأنها أثر لفظي اجتلبه العامل مع أن حركات الإعراب لها معان تدل عليها فالضمة علم الإسناد والفتحة علم المفعولية والكسرة علم الاضافة ، وقد خرج الزمخشري بهذا في كتاب المعضل[2] فقال : القول في وجوه إعراب الأسماء وهي الرفع والنصب والجر وكل واحد منها علم على معنى فالرفع علم الفاعلية والفاعل واحد ليس الا واما المبتدأ وخبره وإن واخوتها ولا التي لنفي الجنس واسم ما ولا المشبهتين بليس فملحقات بالفاعل على سبيل التشبيه والتقريب ، وكذلك النصب علم المفعولية والمفعول به والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول له ، والحال والتمييز والمستثنى المنصوب والخبر في باب كان والاسم في باب إن والمنصوب بلا التي لنفي الجنس وخبر ما ولا المشبهتين بليس ملحقات بالمفعول والجر علم الإضافة أما التوابع فهي في رفعها ونصبها وجرها داخلة تحت أحكام المتبوعات ينصب عمل العامل على القبيلين انصبابة واحدة ، ولا خلاف بين النحاة في هذا وبين المؤلف إلا في موضعين :

---

1) احياء النحو ص 22 والنحو والنحاة ص 112

2) ابن يعيش في شرح المعضل للزمخشري ص 71 الجزء الأول .

أولهما أنهم يرون أن الضم علم الفاعلية وهو يرى أنه علم الإسناد أي أن الاسم مسند إليه وما ذهبوا إليه في هذا أرجح من مذهبه لأنه يرد عليه اسم إن واخواتها واسم لا ، فانه مسند اليه وهو منصوب وقد أجاب عن هذا بأنه لما كثر ضمير النصب بعد أن توهموا أن الموضع للنصب فلما جاء الاسم الظاهر نصب أيضا على التوهم ، وهذا مردود من وجهين : أولهما أنه لو كان الموضع لضمير الرفع وناب عنه ضمير النصب فسمع فيه ضمير الرفع ولو قليلا مع أنه لم يسمع فيه الا ضمير النصب فلم يقولوا ان انتم كما قالوا لو أنك ولولاك .

وثانيهما ان الإعراب على التوهم يأتي قليلا ، ويكون الإعراب على الأصل كثيرا أما هنا فيكون الاعراب على الأصل هو القليل ، لأنه لم يسمع مرفوعا الا نادرا والنصب هو الكثير الغالب وكذلك أجاب عن اسم (لا) بأنه إن كان مرفوعا فهو مسند إليه وان كان منصوبا فليس مسندا إليه ، لأنه ليس معه خبر وانما هو جملة ناقصة تقول لا بأس فيتم الكلام وهو مردود أيضا بأنه مصادمة لبديهة العقل ، لأن الجملة لا بد لها من مسند إليه ومسند فإذا لم يكن المسند مذكورا وجب تقديره ، وقد رد عليه المنادى أيضا فهو مرفوع في بعض أحواله وليس مسندا إليه وقد أجاب عنه بأنه ضم لخوف أن يظن انه مضاف الى ياء المتكلم ، لأن ياءه تقلب في النصب ألفا ثم تحذف وهذا غير صحيح أيضا ، لأن المنادى يضم في مثل يـأيها الرجل وليس فيه خوف الالتباس بالمضاف الى ياء المتكلم .

والموضوع الثاني من الخلاف بينه وبين النحاة مذهبه في الفتحة فهم يرون أنها علم على المفعولية وهو يرى أنها ليست علامة إعراب وإنما هي حركة خفيفة يلجأ العرب إليها حين لا يريدون الدلالة على

إسناد أو إضافة وقد رأى أن هذا لا يستقيم له حتى يقيم الدليل على أن الفتحة أخف الحركات ولكن الخلاف في أنها أخف من السكون، والراجح مذهب النحاة ، لأنك إذا نطقت بحرف مثل الباء كأبكم نجد السكون لا يقتضي الا التقاء الشفتين ، أما الفتحة فتقتضي إطباق الشفتين وفتحهما وما يقتضي عملا واحدا أخف مما يقتضي عملين ، ولأن الفتحة شروع في ألف كما أن الضمة شروع في واو والكسرة شروع في ياء ، أما السكون فليس شروعا في حرف آخر فيكون أخف منها كلها ، فلو كان غرض العرب من الفتحة بالخفة لآثروا عليها السكون وبهذا يتعين أن يكون لهم غرض آخر منها وهو أنهم أرادوا منها ما أرادوه من أختيها من الدلالة على معنى إعرابي فتكون علما على معنى هو المفعولية كما أن الضمة علم الفاعلية والكسرة علم الإضافة .

« المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل »

وأراد الأستاذ ابراهيم مصطفى أن يدمج المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل في باب واحد منعا لتكثير الأقسام وذلك هو باب المسند اليه ، لأنه لا فرق بينهما في رأيه ورد عليه الأستاذ عرفة ان بينهما فرقا في الأحكام فالفاعل ونائبه مستتران ولا يحذفان كما يحذف المبتدأ كما يقول ، والمبتدأ يحذف ولا يستتر والفرق بين المحذوف والمستتر يتعاون اللفظ والفعل على الدلالة عليه أماالمحذوف فالذي يدل عليه القرينة لأنك تقول : وقف فلا يدل على زيد وانما يدل عليه قرينة السؤال عنه بخلاف أضرب فانه يدل على انت ومثله غيره من الضمائر المستترة .

ورد عليه فيما ذهب إليه من اتفاق هذه الأبواب في مراعاة التذكير والتأنيث من المسند والمسند اليه بأن مراعاة التذكير والتأنيث في الفاعل ونائبه فيهما من التفصيل ما ليس في باب المبتدأ والخبر ، لأن الفعل يؤنث في الفاعل ونائبه إذا كانا مؤنثين على ثلاثة أقسام : تأنيث واجب في مثل قامت هند وشمس طلعت ، وتأنيث راجح في مثل طلعت الشمس وتأنيث مرجوح في مثل ما قام إلا هند، ولا يوجد مثل هذا التفصيل في باب المبتدأ والخبر ، ثم ذكر ان بعض النحاة جمع الفاعل ونائب الفاعل في باب واحد لأنهما يتفقان في كثير من الأحكام وبعضهم فرق بينهما في بابين ، لأنهما يختلفان في بعض الأحكام ومن

اختلافهما أن نائب الفاعل يكون ظرفا وجارا ومجرورا في مثل جلس عندك ومر بزيد والفاعل لا يكون ظرفا ولا جارا ومجرورا وقد فصلنا في هذا الباب ، لأن وزارة التربية والتعليم في جمهورية مصر العربية أخذت به في بعض السنوات ثم تبين فشله فشلا ذريعا واضطراب الطلاب بين المسند والمسند اليه فكانت الصعوبة أكثر من التيسير وأدى هذا الى الضعف المتناهي والى آلية القواعد وعدم فهمها والتمييز بينها ووظيفة الكلمة في الجملة .

العلامات الفرعية للإعراب

ورد عليه فيما أراده من إنكار العلامات الفرعية أن هذا ليس تجديدا بل هو موافق لآراء بعض النحاة في ذلك[1] فذلك مذهب المازني كما ذكر ابن الأنباري ، فالباء عند المازني حرف الاعراب وانما الواو والألف والياء نشأت عن اشباع الحركات وبعضهم بحذف ـ الواو والياء والألف في حالات الاعراب الثلاث كما يقولون ، في حالة الإفراد من غير إضافة ثم قال صاحب الاحياء : وقد جاء ذلك كثيرا في استعمالهم قال الشاعر في إشباع الفتحة :

أقول إذ خرت على الكلكال
يا ناقتا ما جلت من محال

أراد الكلكل ، وكما قال الشاعر في إشباع الكسرة :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدراهيم تنقاد الصياريف

1) النحو والنحاة ص 189

أراد الدراهم والصيارف وهذا الإشباع كثير في كلامهم ورد عليه بأن هذا ظاهر الفساد لأن هذا الاشباع انما يكون في ضرورة الشعر ، وأما في حال اختيار الكلام فلا يجوز ذلك بالاجماع فتقول في حال الاختيار : هذا أبوك ورأيت أباك ومررت بأبيك وكذلك سائرها فدل على أن هذه الحروف ليست للاشباع عن الحركات وأن الحركات ليست للإعراب .

والذي يعنينا هنا أن نبين العلة التي جعلت النحاة لا يقولون بما قاله المازني ولا يطردون ذلك في بقية الأبواب ، أنه وقف في طريقهم المثنى فرأوه في حالة الرفع بالألف أو بالفتحة الممطوطة وهذه بعيدة عن الضمة التي كانت من حقه على الكسرة أو الكسرة الممطوطة فليست تصلح لأن تكون حركات ممطوطة أو غير ممطوطة فلما رأوا ذلك ترجح أن يكون بالحروف فهي معربة بالألف رفعا وبالياء نصباً وجرا ، واذا جاز ذلك من المثنى فلا مانع أن نفهم ذلك أيضا في الأسماء الستة وفي جمع المذكر السالم ، والمسألة محتملة لأن نسلك هذا السبيل الذي سلكه جمهور النحاة ، أو نسلك السبيل الذي سلكه جمهور المازني وتبعه فيه مؤلف (احياء النحو) وتوسع فيه ولكنه وقف لا يدري ما يفعل أمام المثنى لم يستطع حل إعرابه ولا تعليله .

التوابع

جعل صاحب احياء النحو التوابع قسمين : أحدهما ان يكون التابع بمنزلة عبد الله لا يفهم المعنى الا بهما معا وهو النعت ، والثاني أن يكون المتبوع دالا على معناه مستقلا، والتابع دال على معنى الأول مع خط من البيان يجيء من قرن إحدى الكلمتين بالأخرى وهذا يشمل البدل والتوكيد وعطف البيان ، أما عطف النسق فقد أبي أن يسميه تابعا .

ورد عليه صاحب النحو والنحاة بأنا مضطرون الى تقسيم التوابع الى أقسامها الخمسة لأمور : أولها أن معانيها مختلفة متمايزة والغرض فيها مختلف ، وثانيها : أن أحكامها مختلفة فيلزم التمييز بينها ليميز بين أحكامها .

وثالثها : أن التقسيم الذي ذكره ليس حاصرا لأنه لا يدخل فيه بدل البعض من الكل ولا بدل الاشتمال ولا بدل الغلط ، اذ القسم الثاني في تقسيمه لا يشمل الا بدل الكل من الكل حيث يفيد اجتماع التابع والمتبوع فيه الإيضاح وكذلك غيره من أقسام البدل .

ورابعها : أنه ليس كون الاسم تابعا منافيا لكونه شارك الأول في الحكم ، لأن التابع هو ما يتبع ما قبله في الإعراب لفظا أو تقديرا وبهذا يشمل عطف النسق .

ورد على ما ذهب اليه من إعراب النعت السببي بالمجاورة معتمدا

على تخريج ابن جني هذا جحر ضب خرب أنه على معنى خرب جحره ورد عليه بان العرب تقول : جاء معاوية سائرة خدمه بين يديه فنصبوا سائرة على الحال ، والحال وصف لصاحبها وهو معاوية ولكنها ليست من صفته وإنما هي صفة خدمة ولا سبيل الى القول بالمجاورة هنا ، لأنه لا اتباع في الاعراب بل السبيل أنه أجريت صفة ما هو من سببه وهو الجحر مجرى صفته وهو الضب فكما تجيء صفته حالا منه كذلك تجيء صفته ما هو من سببه حالا منه فتنصب ، وكما تجري عليه صفته في الإعراب كذلك تجري عليه صفة ما كان من سببه في الإعراب كمجرى صفته ولا يريد ابن جني أن يحمل كل نعت سببي على أنه أعرب بالمجاورة وانما يريد أن يحمل كل جر بالمجاورة على انه ليس كذلك بل هو جر على أنه نعت سببي .

أما ادخاله الخبر في التوابع فهو مردود بأن التوابع مستغنى عنها في الإسناد بخلاف الخبر ، لأنه ركن فيه ، وجعل حركة الخبر للاتباع يجعلها أمرا لفظيا لا يدل على معنى مع أنها تدل على معنى هو الربط بين الخبر والمبتدأ ، لأن الربط بينهما في غير العربية يكون بألفاظ موضوعة للربط أما في العربية فقد استغنى عن هذه الألفاظ بحركة الإعراب في الخبر فلا تكون حينئذ حركة اتباع وانما هي حركة أتى بها لغرض الربط .

تكملة البحث فيما يجوز فيه وجهان من الإعراب

ذكر المؤلف في هذا الفصل أن الأستاذ ابراهيم مصطفى زعم أن ما ذكره من أن الضمة علم الاسناد والكسرة علم الإضافة يعكر عليه مسائل أجازوا فيها وجهين من الإعراب ، لأنه ما دامت الحركة تدل على معنى يخالف ما تدل عليه الحركة الأخرى ، فاذا اختلفت الحركتان اختلف المعنى ولا يكون هناك شيء يجوز فيه وجهان من الإعراب ، ثم رد عليه بأنه لا يزال مقتنعا بأنه هو الذي كشف عن معاني الإعراب مع أن النحو القديم مبني على أن للإعراب معاني ولا خلاف بينه وبينهم إلا في زعمه أن الفتحة لا تدل على معنى ، ثم ناقشه فيما ذكره من المسائل التي يجوز فيها وجهان من الإعراب مسألة مسألة .

فذهابه الى أن لا النافية للجنس كلام مستغنى عنه بالخبر مصادمة لحكم العقل ، ثم ناقشه فيما ذكره في لا العاملة عمل ليس فقد ادعى أنه لا يفهم فيها إلا نفي الجنس أيضا وأنها ليست لنفي الوحدة كما يزعمون ورد عليه بأن الذي ذهبوا اليه في الفرق بين لا النافية للجنس ولا العاملة عمل ليس بأن الأول نص في نفي الجنس والثانية ظاهرة فتحمل عليه ما لم تدل قرينة على أنها لنفي الواحدة مثل : لا رجل في الدار بل رجلان ولا يمكن مثل هذا في الأول لأنها نص في نفي الجنس .

ثم ناقشه فيما ذكره في باب ظن من جهة الإلغاء والتعليق ، فذكر أن ما ذهب إليه من أن معنى الكلام على الإلغاء غير معناه على الاعمال

مأخوذ من كلام سيبويه في باب الأفعال التي تستعمل وتلغي فلا فضل له في هذا كما يعترف به ولكنه أراد أن يجري هذا الحكم في التعليق أيضا لأنه قد يفهم هذا المعنى مع تقديم الفعل إذا بدأ في الكلام ما يدل على استقلال الثاني من غرض المتكلم لما كان وجيها أن يؤكد الكلام بغير فعل يدل على معنى الشك أو الرجحان ، فقد سيق القول مساق التأكيد ثم قيل ان هذا مبلغ ظني ، وهذا التفسير قد تردد في كلام سيبويه في مواضع من الكتاب وقد رد عليه بأن أدنى تأمل يبين لنا أن ما ذكره سيبويه[1] في الإلغاء لا يطرد التعليق[2] ويقتضي من جهة المعنى أن يكون متعلقا بالفعل فيكون تاليا في المعنى كما هو تال في اللفظ .

وما ذهب اليه في باب الاشتغال من أنه ليس هناك موضع يجوز فيه النصب والرفع مردود بأنه لا يجوز فيه الوجهان على معنى واحد ، وانما أردنا أن نخبر عن الفعل ونتحدث عنه ، وجب الرفع في مثل : أزيد

---

1) بعد فما ورد من الرفع بعد ظن في الإلغاء فهو على هذا والكلام فيه كلامان .

2) والكلام في التعليق كلام واحد وليس كلامية لقول الله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أبدا ﴾ فقد علقت أي هلم عن العمل ، وسياق النظم يقتضي أن تكون أي الحزبين أحصى متعلقة بتعلم متأخرة عنها في المعنى ولا يجوز أن تكون مستقلة عنه مبتدأ بها لأنه بدأ فذكر أنه أنامهم سنين ثم بعثهم لعلة وهي أن وماذا يعلم ، يعلم شيئا خاصا وهو من منهم احصى امدا لما لبثوا ولو قطعنا أي عن فعله تفككت الآية ، قال سيبويه : (وكلما أردت الالغاء فالتأخير أقوى . . وانما كان التأخر أقوى ، لأنه انما يجيء بالشك بعدما يمضي كلامه على اليقين أو بعد ما يبتدىء وهو يريد اليقين ثم ما يدركه الشك كما تقول « عبد الله صاحب ذاك بلغني » وكما قال (أمن يقول ذاك تدري) فاخر ما لم يعمل في أول الكلام وانما جعل ذلك فيما بلغه بعد ما مضي في كلامه على اليقين وفيما يدري فاذا ابتدأ كلامه على ما في نيته من الشك أعمل الفعل قدم أو أخر كما قال : زيدا رأيت ورأيت زيدا ، وكلما طال الكلام ضعف التأخير اذا أعملت انظر ص 78 أول سيبويه ط بيروت .

أكرمته أم عمرو ، وان كان الاسم تتمة للحديث لا متحدثا عنه وجب نصبه مثل أزيدا أكرمت أم عمرا ، فالمراد من جواز الأمرين أنه لا مانع لفظيا من ان ترفع وتنصب حسب المعنى لا أن الرفع والنصب يجوزان على معنى واحد ، فوجب تخصيص كل إعراب لمعنى لأننا نخصص بالفعل كل إعراب لمعنى .

الصرف

رأى الأستاذ ابراهيم مصطفى أن التنوين علم التنكير فما نون من الأعلام كان نكرة وما لم ينون منها كان معرفة والأصل في الصفات التنوين وما ترك تنوينه منها فهو معرفة ، ثم رد عليه بأن لغة العرب تفرق في اللفظ بين المعرف والمنكر ، فالنكرة توصف بالنكرة ولا توصف بالمعرفة والمعرفة توصف بالمعرفة ولا توصف بالنكرة ، ومعنى المعرفة غير معنى النكرة ، وما ادعى أنه معرفة ليس فيه هذان الفارقان وكذلك ما ادعى أنه نكرة من الأوصاف والأعلام المنونة لا يجوز وصفها بالنكرة فلا يقال حضر نوح نبي بل يقال حضر نوح النبي ، ومعاني الأعلام المنونة مثل معاني الأعلام غير المنونة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ﴾ الآية الكريمة سورة الأنعام ، فلا فرق في هذا بين الأعلام المنونة وغيرها لأن كل منها يدل على النبي المعين الذي وضع له وكذلك الأوصاف الممنوعة من التنوين ، فلو كانت معرفة لما وصفت النكرة بها في قوله تعالى : ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ لأن آخر فيه وصف لأيام وهي نكرة ، وكذلك أفعل منك وقعت صفة لنكرة ولم تقع وصفا لمعرفة وكذلك مساجد ومصابيح لا توصف بالمعرفة فلا يقال بنيت مساجد العامرة ولا أوقدت مصابيح المضيئة .

وهذا هو الذي منع النحاة أن يذهبوا الى ان معنى التنوين في المعرب التنكير مع أنهم ذهبوا الى انه علم التنكير في المبنى لأنهم رأوا

أسماء كثيرة منونة وهي معارف ورأوا أسماء كثيرة غير منونة وهي نكرات ورأوا أحكام المعارف جارية على الأولى ورأوا أحكام النكرات جارية على الثانية فحكموا أن التنوين في المعربات لا يقصد به أن يكون علم التنكير بل هم ينونون ما يستحقون ، ويتركون تنوين ما يستثقلون ، ونقض علل النحويين في منع الصرف طردا وعكسا فقد دوجدت العلة ولم يوجد الصرف فلا تكون مطردة وانتفت العلة ولم ينتف منع الصرف فلا تكون منعكسة ثم رد عليه بأنه قد أعاد في هذا ما قاله النحاة وأجابوا عنه فلا حاجة الى الإطالة به .

وأما قول الرضي : إن حكم الاعراب لا يتخلف عن علة ولا يوجد العامل ويبقى العمل إلا لسبب ، أما حكم الصرف فانه يتخلف عن العلة الى أن قال ومنع الصرف سبب ضعيف إذ هو مشابهة غير ظاهرة بين الاسم والفعل فليس اعترافا منه بقصور عللهم وانما يراد منه أن الإعراب جاء لمعنى فحوفظ عليه ولم يتخلف حكمه ، أما الصرف وعدمه فلنوع من الخفة أو الثقل لا يتغير به المعنى فلهذا لم يحافظوا عليه كل المحافظة بل تركوه لنوع من التناسب أو نحوه من العلل .

(تقييم هذه المحاولة)

وفي ختام كتاب النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة ذكر مؤلفه أن كتاب إحياء النحو حشر النحاة حفاة عراة يتوارون عن الناس خزيا واستحياء تتقزز منهم النفوس وتتخطاهم العيون ، وقد حشرهم كذلك ظلما وجورا ، وأن كتابه بعثهم غرا محجلين ،ولقد أضفى عليهم ثيابهم وأسبغ عليهم دروعهم فبدوا للناس كما هم ملء العيون والأسماع وملء القلوب والصدور وملء المغرب والمشرق وملء الأرض والسماء ، ولقد بعثهم كذلك صدقا وعدلا فلم تكن غاية الأستاذ محمد عرفة من كتابه الا اعطاء كل ذي حق حقه وعدم جحد القديم لأنه قديم بل ابقاء الصالح (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) اذن فقد نصر القديم ثقة كاملة بالنحاة الأقدمين وحبذا لو كان قد ذكر لنا رأيه في تذليل صعوبة القواعد وعلى كل فقد أثبتت بحججه القوية أن أهم ما جاء في كتاب إحياء النحو لا جديد فيه سواء ما ذكره عن نظرية العامل أو معاني الإعراب والتجديد انما يكون بالرأي الجديد لا بالرأي القديم .

وما ذهب إليه صاحب إحياء النحو في جمع الأبواب الثلاثة الفاعل ونائبه والمبتدأ مسند من علم المعاني من علوم البلاغة إذ قد اشتركت في الذكر والحذف والتعريف في البلاغة ولا يمكن انكار ما بين هذه الأبواب من فروق في علم النحو ، فلا بد ان يعرب المبتدأ على أنه مبتدأ ليعرف بهذا معنى الجملة الاسمية ويعرف ما تفيده وتمتاز به عن الجملة الفعلية ولا بد أن يعرب الفاعل على أنه فاعل ليعرف بهذا معنى

جملته الفعلية ويعرف ما تفيده وما تمتاز به عن الجملة الاسمية إذ تفيد الزمن ولا بد أن نعرب ما يسمونه نائب الفاعل على أنه ليس بمبتدأ و لا فاعل ليعرف بهذا معنى جملته الفعلية ويعرف الفرق بين معناها مع الفاعل ومعناها ما يسمونه نائب الفاعل : فصدقت على المناظرة بينه وبين صاحبه ما درسناه في البلاغة :

جـــاء شقيق عـــارضـــا رمحـــه إن بني عمـــك فيـهم رمـــاح

« الحركة الثالثة »

« تيسير قواعد تدريس اللغة العربية »

ظل صراخ الشاكين يرتفع في كل مناسبة من صعوبة القواعد . كما ظلت قواعد النحو نفسها في جوهرها وصورتها على ما كانت عليه في الكتب الأولى وكما أسست على أصولها الأولى فيما اتخذه النحاة فيها نقلا عن أصول الفقه أو تأثرا بغير ذلك من مؤثرات وجهتهم في صيغهم ، بقيت تلك جميعا لم يفكر أحد في أن يمسها أو ينال منها شيئا ما قليلا أو كثيرا ، ثم عمل الزمن عمله وتأثرت الحياة اللغوية بما حولها من مؤثرات التجدد فجعلنا نسمع الكلام عن قواعد النحو وعمل النحاة فيها ومنهجهم في ذلك ، وجعل الدارسون ينظرون اليه بعين ناقده لا تغضي أمامه إجلالاً وهيبة ، وجعل يرتفع الصوت بذلك فيما سمعنا من عناوين مثل احياء النحو تيسير النحو وما أشبه ذلك مما نحاول أن نضعه قبل الإشارة بشيء غيره انتفاعا بما فيه ، واتقاء لما نقضه فلم يحقق الرغبة الملحة في تذليل العربية وتطويعها للحياة والاستعمال .

فأما إحياء النحو فقد تناولناه بالحياة وسنتناوله أيضا في هذه الحركة ، لأن صاحبه قد صار فيما بعد سادس خمسة كلفوا رسميا بتيسير النحو ، فقد أرادت وزارة المعارف المصرية أن تعمل على تيسير قواعد تدريس اللغة العربية فألفت لجنة لهذا العمل من الدكتور طه حسين (بك) عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية (فؤاد الأول) ومن الأساتذة أحمد أمين وابراهيم مصطفى المدرسين بكلية الآداب ، وعلى

الجارم (بك) المفتش الأول للغة العربية ومحمد أبي بكر ابراهيم المفتش بوزارة المعارف وعبد المجيد الشافعي المدرس بدار العلوم .

فقامت هذه اللجنة بذلك العمل وكتبت تقريرا قدمته الى وزارة المعارف ، وينقسم هذا التقرير الى قسمين أولهما يقع في ست صفحات ويشتمل على مقدمة لحضرات أعضاء اللجنة والثاني يقع في ثماني صفحات يشتمل على اقتراحاتها في تيسير قواعد تدريس اللغة العربية وهي تنقسم الى قسمين : أولهما يتعلق بالنحو والصرف والثاني يتعلق بعلوم البلاغة . وقد نشرت جريدة المصري هذا التقرير في يومي 27,26 من شهر ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وخمسين وسبع الموافق 26,25 يونيو عام ثمانية وثلاثين وتسعمائة وألف ، وسنذكر هنا اقتراحاتها بعد قليل في علم النحو والصرف واما اقتراحاتها في علوم البلاغة فلا داعي الى ذكرها هنا .

وقد كان هذا التيسير عملا مرجو النجاح إذا اتيحت له المعونة الحكومية والقوة الرسمية فصدر القرار الوزاري الذي سجل الشكوى من هذه الصعوبة وقال : بما أن الوزارة سبق لها أن عملت على تبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة فيما أخرجت من الكتب وكان لهذا العمل نتيجة مرضية وبما أن هذه الخطوة التي خطتها الوزارة في الماضي لم تكن كافية إذ إنه لوحظ أن صعوبة قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تزال قائمة وأن المعلمين والمتعلمين يبذلون جهدا كبيرا ووقتا طويلا في تعلمها ولا يصلون بعد هذا كله الى نتائج تتفق مع ما يصرف من زمن وجهد .

وحدد هذا القرار الوزاري مهمة اللجنة التي ألفها بأنها البحث في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة كما سماها التبسيط الجديد وطلب

الأسس التي تشير اللجنة بوضع قواعد النحو والصرف عليها وقد أعدت اللجنة تقريرها في ذلك وطبعته الوزارة وأذاعته.

ومما يحمد لهذه اللجنة أنها تمثلت حاجة الأمة اللغوية تمثلا واضحا إذ قالت في الجزء الأول المشار اليه ، ولن تكون اللغة العربية الفصحى لغة حية خصبة حقة إلا إذا شاعت بين الناس على اختلاف طبقاتهم وأصبحت أداة يطيعونها لتأدية أغراضهم المختلفة في يسر واسماح من غير مشقة وجهد .

وبمن يستطيع هذا العمل المتناول المستعجل وسنعني بغير المتخصصين في اللغة العربية المتفرغين لها ، تاركين أولئك المتخصصين يعانون تلك الصعوبات الى أن يكون القول في المنهج قولا علميا تاريخيا يتم به التغيير البطيء لهذا المنهج ان واتت عليه الحياة العامة والخاصة فيغير إذ ذاك أصحاب العربية المختصون من أسس مقرراتها وأصول دراستها بقدر ما يستطيعون من ذلك التغيير[1] وثاني ما يحمد لهذه اللجنة اهتمامها بالعامل الاجتماعي الذي يزيد من صعوبة تعلم اللغة العربية واستعمالها على الوجه الذي رأته اللجنة إذ قالت : لأن الشباب لا يتعلمون هذه اللغة كما يتعلم الشباب في الأمم الأخرى لغتهم ، هم لا يسمعونها في المدرسة الا أثناء درس اللغة العربية[2] ، وحين قالت : ويجب أن نلاحظ أن الشاب الانجليزي أو الفرنسي انما يحسن لغته ويتقن النطق بها والتصرف فيها لأنه يسمعها في درس التاريخ أو الجغرافيا وفي درس الطبيعة والكيمياء وفي درس الرياضة أيضا[3] .

---

1) ص 43 ، 7 ، 8 من التقرير
2) ص 2 س 20 .
3) ص 3 س 17 وما بعده .

ومن تقدير اللجنة للعامل الاجتماعي في صعوبة تعلم اللغة العربية واستعمالها ما أشارت إليه كذلك من مزاحمة اللغات الأجنبية للغة الوطنية فلا يسمع الصبي في المدرسة الابتدائية غيرها ، كما قررت أهمية الاعتبار الاجتماعي في حياة اللغة الوطنية بقولها كذلك . ولنسجل اننا على إكبارنا لخطر النحو والبلاغة لا نغتر بأثر هذا التيسير ولا نراه السبيل الوحيد الى إحياء لغة وإشاعتها وتمكين التلاميذ من أن يمنحوها ما ينبغي أن تمنح اللغة الوطنية من الحب لها والإقبال عليها وإنما هو سبيل من هذه السبل يجب أن نأخذ بأسبابه ولكن يجب الا نكتفي به ونقصر جهدنا عليه وإذا كان العامل الاجتماعي خطيرا في الماضي في أبناء العربية نفسها فقد خلف صعوبات ذاتية هي التي نحاول تذليلها اليوم ، والعامل الاجتماعي مؤثر كبير جدا في التغلب على هذه الصعوبات .

وقالت اللجنة : إن القرار الوزاري اشترط عليهم عدم المساس بشيء من جوهر اللغة ومع أنهم لم يلتزموا هذا الشرط فلم يشيروا بما فيه من المساس أو عدمه بهذه الأصول ما داموا يعانون آلام الصعوبة وهذه هي مقترحات اللجنة في الجزء الثاني :

ترى اللجنة وجوب الاستغناء عن الإعراب التقديري والاعراب المحلي ولكن ما التيسير في هذا ؟ إن الكلمات التي فيها هذا الإعراب من المقصور والمنقوص والمضاف لياء المتكلم والمبنيات ليس مصدر الصعوبة على القارىء أو المتكلم لعدم تغير الحركات عليها باختلاف مواضعها ، بل ليت اللغة كلها من هذا الصنف إذن لزالت الصعوبة الأساسية ثم ان بيان هذا الاعراب التقديري والمحلي بقدر ما يعرف متعلم العربية أجزاء الجملة لا بد منه لفهم المعنى كما أنه لا بد من

معرفة موقع الإعراب للكلمة التي لم تظهر عليها الحركة ليمكن ضبط تابعها بعدها ممن يقول جاء الفتى لا بد له أن يعرف موضع الفتى من الإعراب ليقال بعد ذلك : الأبيض أو الطويل الخ ودع عنك فوق هذا ما لا بد منه في فهم معنى بناء الكلمة من معرفة أنها وقعت في موضع تغيير الآخر بكذا ولم تتغير فكل الذي يمكن الاستغناء عنه هو الأخذ بالرواسيم والصيغ المتحجرة في بيان هذا الإعراب التقديري أو المحلي وتلك مسألة شكلية يكفي لها أيسر لفت للمعلمين .

(2) رأت اللجنة عدم التمييز بين علامات إعرابية أصلية وأخرى فرعية فلا تقول : إن الأسماء الخمسة معربة بالواو أو الألف أو الياء نيابة عن حركة كذا بل هي مرفوعة بضمة ممدودة ـ منصوبة بفتحة ممدودة مجرور بكسرة ممدودة وفي هذه الفقرة من قرارها قسمت اللجنة الأسماء بحسب ما تظهر فيه الحركات كلها أو بعضها وجعلت بين هذه الأقسام ما تظهر فيه ألف ونون أو ياء ونون أو واو ونون ، وعدت من كل أولئك أقساما سبعة ثم تقول بعد هذا كله إنها تقرر عدم التمييز بين علامة أصلية وأخرى فرعية ، وننظر في هذا الصنيع فنرى فيما يخص الأسماء الخمسة الحركات الممدودة منها أنه ليس شيء في التيسير ما دمنا نفهم مع النفسيين وأهل التربية أن اللغة إنما هي الأصوات لا صور الأصوات فهنا قد وجد صوتان من ضمة قصيرة وأخرى طويلة سواء أصورتها بواو أو عمدوا الى ضمة فهي صوت مغاير للأول وقد وجد التعدد وتغيرت الأحوال والقواعد على المتعلم .

ثم انها فيما عدته من أقسام حسب ظهور الحركات على الكلمات في الأحوال جميعها أو في بعضها قد عدت فيما قلنا سبعة أقسام بالأسماء الخمسة فكثرت عما في القديم إذ كأنه يعيد إليها حالة مشتركة

في المثنى وجمع المذكر ثم نرى التمييز في هذا ، وقد ذاكرت علامات متعددة هي حينا حركات وحينا ظروف وحينا حركات بدل حركات كما في الممنوع من الصرف ، ولعل في النص على النيابة راحة ذهنية ، على أن القدماء الأولين لم يجعلوا النص على النيابة أمرا هاما يجب ذكره فليس في هذا العمل كله تيسير .

(3) قالت اللجنة : جعل النحاة لحركات الاعراب ألقابا ولحركات البناء ألقابا ولكنك تجد أن ليس النحاة استغراقا ولا عهدا قد جعلوا ذلك بل هو جعل (سيبويه) والكوفيون يخالفونه ، وقد عادت اللجنة نفسها أخيراً فقالت : « ومن النحويين من لم يلتزم هذه ـ التفرقة وكانت تحسن هذا لو قدمت هذا وأخذت به ، وفي كل حال انتهت اللجنة الى أن ترى أن يكون لكل حركة لقب واحد في الإعراب والبناء وأن يكتفي بألقاب البناء والأمر أيسر من أن يوقف عنده كما ترى[1] .

(4) حاولت اللجنة ضبط الجملة بأصنافها تحت تقسيم واحد ينتظم الفعلية والاسمية والجملة الصغيرة والكبيرة وهو صنيع إن ساغ في المنطق ، لأنه يبحث في المعاني والمفاهيم ولا شأن له بالألفاظ مطلقا أو قيل في البلاغة لأنها تبحث عن حسن المعاني وتعرض للألفاظ بهذا المقدار فلعل هذا الصنيع على ما يبدو لي ـ لا يسهل في النحو ، لأنه يتحدث عن الصحة واستقامة المعنى الأولى وفي هذا يطيل الوقوف عند الألفاظ ويلحظ فيها أدق الفروق فيتحدث مكرها عن الفاعل ونائبه والمعنى فيه والمبتدأ والأحكام اللفظية لكل منهما لا مفر على حين قد

---

1) انظر ص 85 ، 86 من النحو الجديد .

ينظمها كلها البلاغي أو المنطقي تحت اعتبارات جامعة فيسميها مسندا ومسندا اليه وفي كل ما صنفت اللجنة في هذا السبيل أشياء فيها محل النظر فهي مثلا قالت :

(5) تسمية طرفي الجملة المحدث عنه والحديث اصطلاح جديد ولكنه قديم يعرفه من اتصل بأوائل كتب النحو وأحيانا نجده في أوساطها في مواضع من المفصل .

(6) آثرت تسميتها كالمناطقة المحمول والموضع على ما فيه من اعتبار معنوي بعيد عن عقل المتكلم وعن طبيعة الدرس ضبط إعراب الطرفين فارتكبت صعوبات لا تطرد وليس فيها ما يسر فهي مثلا :

(7) تقول : إن المحمول يكون ظرفا فيفتح ويكون فعلا أو مع حرف من حروف الإضافة أو ـ جملة ويكتفي في إعرابه ببيان أنه محمول .

وعادت فقالت : يخلو الفعل في زيد قام من الضمير وأنه المحمول ولا تقف عند خلوه من الضمير أو تحمله إياه ولكنا نسأل كيف يعرب الفعل في قام محمد ، وهل سيترك القول في بنائه وإعرابه خبرا في محمد قام ومن بيان حال آخره وهل ترك المسألة مرسلة هكذا يكون تيسيرا للصعوبة أو هو فرار منها .

(8) قالت اللجنة في المطابقة بين الموضوع والمحمول اذا كان الموضوع مؤنثاً كان في المحمول علامة التأنيث وهذا يصح في الجملة الصغرى أما في الجملة الكبرى فلا إذ تقول اللجنة : أصاب رأيها وحسن حظها فيكون المحمول في أصاب وحسن ناقضا للقاعدة وإن قلنا

معهم[1] إن الخبر الجملة يكتفي في إعرابه بانه محمول فهذا خبر جملة وجب فيه التفصيل في الإعراب ليعرف أن المطابقة فيه بين (حسن) وفاعله لا بين حسن واللجنة التي هي مبتدأ ، ثم فيه بعد ذلك الربط بين جملة الخبر ومبتدأ لها لا بد من مراعاته ففي المسألة تعقيد ونقص لا تيسير الا أن يكون التيسير بالإغفال والإنقاص .

(9) قالت اللجنة إذا كان المحمول متأخراً لحقته علامة العدد التي توافق الموضوع إذا كان متقدما لم تلحقه فيقال الرجال قاموا وقام الرجال ونصب على انها أخذت في ذلك برأي المازني الذي يقول : الواو للذكور والنون للإناث والألف للمثنى والياء للواحدة علامات لا ضمائر وبذلك زادت اللجنة شيئا جديدا على الضمير هو علاقة العدد التي اختارتها ولكنها أهملت في هذه العلاقة دلالتها على الجنس ذكورة وأنوثة ، وعلى الحال حضورا وغيبة وخطابا ولم تستفد شيئا الا ترك إعرابها ولو اكتفت باعرابها فاعلا دون تفصيل لكان أيسر وهو ضروري ، لأنها مضطرة الى بيان الخبر الجملة في نحو المثل السابق (هذه اللجنة أصاب رأيها) لتعليم الدارس أن المطابقة في الجملة الخبرية بين جزأيها لا بين جزء فيها وبين الموضوع أو المبتدأ التي هي خبره وتقول اللجنة في هذا المقام[2] : انها بتقسيم الجملة الى محمول وموضوع وجعل إشارات العدد علامات يسرت الإعراب وقللت الاصطلاحات وجمعت أبواب الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ واسم كان واسم إن في باب الموضوع ، وجمعت أبواب خبر المبتدأ وخبر كان وخبر إن في باب واحد هو هذا المحمول ، وخففت برد باب ظن الى الفعل المتعدي

---

1) ص 9 س 5

2) ص 9 س 18

وحسن هذا لو كفى ولكنك تسألها سيبقى بعد ذلك أحكام لكل واحد من هذه الأشياء فأين ستدرس ؟ فهناك مثلا ما ينوب عن الفاعل مما لا يصلح فاعلا وهناك مطابقة الفعل للفاعل وجوبا وجوازا ، وصحة تعبير وخطأ ، وهناك حذف المبتدأ وجوبا وتقديمه وجوبا واستغناؤه عن الخبر ، وحذف الخبر وجوبا ، وتقديمه كذلك ، وهناك حذف اسم كان وخبرها وترتيبها معا ، وهناك فتح ان مثلا وكسرها وتخفيفها فهل ستبحث هذه الأشياء في باب المحمول والموضوع دون أن تسمى وكيف يكون ذلك وإذا بحثت في موضوعات مستقلة فماذا صنعنا ؟ وإذا تركت فماذا صنعنا ، وهلا كان الأولى أن تكون النواسخ وأحكامها مع المبتدأ والخبر بعد استيفاء أحكامها الخ . . .

والحق أن الصعوبة ذاتية ليست شكلية يدفعها ضم باب الى باب وادماج مسألة في أخرى ونكتفي بهذا في التعليق على أمهات الاقتراحات وتعليقنا يكاد يتفق مع رد لجنة دار العلوم وان اختلفت التناول والأسلوب .

وننظر في محاولة أخرى حاولتها بعد الذي اعتبرته ضبطا للجملة وهي : -

التكملة كل ما يذكر في الجملة غير الموضوع والمحمول فهو تكملة وحكم التكملة أنها مفتوحة أبدا إلا إذا كانت مضافا إليها أو مسبوقة بحرف إضافة وتجيء التكملة لبيان الزمان أو المكان ولبيان العلة ولتأكيد الفعل أو بيان نوعه ولبيان المفعول ولبيان الحالة أو النوع وبذلك جمعت كما تقول كثيرا من الأبواب كالمفاعيل والحال والتمييز تحت اسم واحد وهو التكملة دون أن تضيع غرضا .

وأنقل هنا رد لجنة دار العلوم لطرافته (وقد سمت اللجنة المفاعيل والحال والتسمية تكملة وعلماء المعاني يسمونها متعلقات والنحويون يسمونها باسماء تدل على الغرض منها شرحا للمواد بها . فإعرابها على الصورة المألوفة أدل على المراد بها وأكثر توضيحا للمعنى من تسميتها متعلقات أو تكملة .

إن اللجنة تريد أن تقول في إعراب : « كافأ العميد المجتهدين اليوم أمام إخوانهم مكافأة حسنة » ما يأتي كافأ محمول ، والعميد موضوع ، والمجتهدين اليوم أمام إخوانهم مكافأة حسنة تكملة هذا هو الإعراب الذي تريده اللجنة ، وما أسهله على الناس جميعا إذ فهموا الموضوع والمحمول ، فكل كلام في اللغة العربية وغيرها موضوع ومحمول وتكملة ، أما أن يفهم الناس عامة ، والتلاميذ خاصة المراد بكل كلمة فليس هذا مما يعني اللجنة في قليل أو كثير ما دام الناس يحفظون ثلاث كلمات هي موضوع ومحمول وتكملة .

على أن اللجنة بعد أن أجملت إعراب التكملة شعرت بنقص واضح في ذلك فلم تجد مناصا من العودة الى التفصيل تحت ستار أغراض التكملة فقالت: تجيء التكملة لبيان الزمان أو المكان أو لبيان العلة الخ . . .

ونحن نقول : إن التلميذ إذا كلف إعراب التكملة وبيان الغرض عاد الى الإعراب المألوف المتداول مع إطالة فهو يقول في إعراب ضاحكا من جاء محمد ضاحكا ، وضاحكا تكملة مفتوحة جيء بها لبيان الحالة أفليس خيرا من هذا و أو جز أن يكون ضاحكا حال منصوبة .

إن الاعراب فرع المعنى كما يقول النحاة فحين نسأل التلميذ عن الإعراب ، لا نريد الإعراب لذاته ولكن نريد أن تعلم أفهم المعنى أم لم يفهمه؟ ونحن نكتفي ان يعين لنا المفعول ونوعه والتابع ونوعه وما هو مبين للحال أو مميز لشيء[1] .

(11) جعلت اللجنة بعد الجملة وتكملتها ما سمته الأساليب ورأت أن توجه العناية في درس هذه الأساليب الى طرق الاستعمال لا إلى قليل الصيغ .

وقد يفهم هذا بما مثلت به من التعجب والتحذير والإغراء ولكنها جعلت من الأساليب الاستثناء[2] فكيف يدرس الاستثناء بطريق الاستعمال ؟

ثم انها أوجزت جدا في إعرابها فتقول هذه جملة للتحذير وهذه للإغراء وهذه للإستغاثة ولا فائدة إذن من التعليم والتثقيف والعمل على إحياء اللغة والنهوض بها وجعلها لغة دراسة وكتابة وترجمة ووفاء بمطالب الحياة كلها كما يجب أن تكون .

إن هذه الشكلية لا تغني في علاج صعوبة ليست في صناعة النحويين بل في بناء اللغة نفسها وفي سعتها وفي أشياء أخرى من طبيعتها .

(لقد مضى على النحو نحو ألف وثلثمائة سنة يتناوله فيها التهذيب والاصلاح والتدوين ولكنه لم يخرج عما وضعه الأوائل ودونوه

---

1) انظر 105 ، 106 النحو الجديد

2) ص 13 من التقرير

فليس من الميسور أن تكون أسابيع معدودة يبحث فيها ستة أو أكثر من فضلاء الأدباء كافية لإخراج نحو جديد ولكنها وأقل منها تكفي للنظر في أسس تتبع في دراسة النحو وتسهيل هذه الدراسة على الناشئين[1] .

وكانت اللجنة مؤلفة من الأساتذة محمود عبد اللطيف ، أحمد صفوت ، محمود أحمد ناصف ، السباعي بيومي ، محمد عبد الجواد ، أحمد يوسف نجاتي ، ويشبه ردها رد الأستاذ محمد عرفة على الأستاذ ابراهيم مصطفى ، وهو رد قوي حقا بعد نقض لجنة التيسير كثيرا من دقة البحث وحسن الإصابة لما تقصده من التجديد وهو يثق كل الثقة بالنحو القديم ويرى أنه لا يحتاج الى تجديد بيعد هذا الأمد الطويل الذي تقبله فيه جهابذة العلماء وأئمة النحو ، ولو كان فيه نقص لكانوا أهدى إليه وأجدر منا معرفته . بعقولهم الراشدة وأفكارهم الصائبة .

1) من رد لجنة دار العلوم على اللجنة

« رأي وسط » المجتمع والتيسير

اللغويون أميل عادة الى المحافظة كانوا ولا يزالون يرون أن واجبهم الأول أن يحافظوا على سلامة اللغة وأن يحموها من الدخيل الجديد وقديما قال ابن فارس : (ليس لنا اليوم أن نخدع ولا أن نقول غير ما قالوه ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه أو حديثا ، قال رجال الأكاديمية الفرنسية لا ندعي التشريع في النحو ولا الوصاية على الإملاء ، ومع هذا قصد مجمعنا منذ نشأته إلى تيسير اللغة متنا وقواعد وترخص في ذلك ما وسعه ، أجاز القياس بوجه عام وأخذ ببعض الآراء المرجوحة إن كان فيها ما يتلاءم مع حاجات العصر ومستلزمات العلم والحضارة ، فقال بقياسية التضمين والمصدر الصناعي وجمع الجمع والإشتقاق من أسماء الأعيان وتعدية الثلاثي بالهمزة أو التضعيف صيغا للدلالة على الحرفة أو الراء أو اسم الآلة كما قاس مطاوع فعل وفعّل وفاعل وتفاعل واستفعل وأجاز جمع المصدر والنسب الى جمع التكسير وتكملة مادة لغوية لم تذكر بعينها في المعاجم وعطف الأقل على الأكثر في الأعداد المركبة مع المائة وإن كان الأرجح العكس .

وحين عرض عليه مشروع تيسير النحو الذي اقترحته الوزارة قضى زمنا في بحثه ودرسه فنظر طويلا في لجنة الأصول وبحث في ضوء ما وجه اليه من نقد وما كتب من بحوث حول مسائله ووقف عليه مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثماني جلسات كان فيها موضع أخذ ورد ثم أقر في شيء من التعديل وحرص المؤتمر على أن يسجل في صدر قراراته (أن

كل رأي يؤدي الى تغيير في جوهر اللغة وأوضاعها العامة لا ينظر اليه ، وقد آثر المجمع أن يسمى ركني الجملة المسند والمسند اليه ، كما اختار علماء البيان ، والموضوع والمحمول كما اقترح المشروع ، ورأى أن يستبقي التقسيم الثلاثي القديم للكلمة من أنها اسم وفعل وحرف وأن يقتصر على ألقاب الإعراب وألقاب البناء كما جاء في المشروع وأن ينص في التكملة على المفعول به لأهميته وكثرة وروده .

وفيما عدا ذلك وافق المؤتمر على مشروع التيسير جملة وتفصيلا فأقر الإستغناء عن الإعراب التقديري والمحلي وعن التفرقة بين علامات الإعراب الأصلية والفرعية وعدها كلها مجرد إعراب وصرف النظر عن الضمائر المستترة وجوبا وجوازا وعد الضمائر البارزة المتصلة حروفا دالة على نوع المسند إليه وعدده ولم ير ضرورة للنص على عائد الموصول واعتبر التعجب والتحذير والإغراء ونحوها تراكيب تشرح على أنها أساليب دون وقوف عند تفاصيل إعرابها ، واكتفى من الصرف بتاصريف الفعل وصوغ مشتقاته والتثنية والجمع ، وفي ختام هذا كله ، دعا الجميع الوزارة الى أن تؤلف كتابا على أساس تقرير ، يعرض على المجلس لمراجعته واستكمال ما قد ينقصه .

ولما لم تستجب الوزارة لدعوته عاد مرة أخرى في الدورة الرابعة عشرة وذكر بسابق قراراته وشكل لوضع الكتاب المطلوب لجنة من ثلاثة من أعضائه وعميد دار العلوم حين ذاك وللجنة أن تستعين بمن ترى من المتخصصين ، ولم تخط هذه اللجنة خطوة ولم تحرك الوزارة ساكنا برغم توجيه نظرها مرة ثانية الى قرارات التيسير ومؤتمر الدورة الخامسة عشرة ، وبقي الموضوع في طي النسيان من نحو عشر سنين ولم يثر إلا أخيرا كما قرر من قبل ، وبدأ التلاميذ يتعلمون النحو الميسر لا في مصر

وحدها بل في سورية أيضا وقضوا نحو عامين ولأمر ما عدل عنه وأغلب الظن أن فريقا من المعلمين لم يتهيأ لتدريسه تهيؤ التلاميذ لتعلمه ، وإذا كان في الكتـــب التي وضعت عيوب ففي الإمكان تلافيها والمهم هو الإيمان بفكرة التيسير والعمل على مقتضاها ، وستجبرها الحياة على تسهيل تدريس القواعد لغير المتخصصين بترك الألغاز النحوية والآراء المتشعبة والاستثناءات الكثيرة فهو وسيلة تقويم اللسان وليس غاية تقصد لذاتها حتى نقدم للتلاميذ قواعد مستقيمة ، والمجمع يبارك كل يوم تيسير العسير ولا يزال يعالج أمورا كأبواب الثلاثي ومصدره وتمييز العدد ولم تضق العربية ذرعا بأي تجديد .

وقد قال أبو العلاء وهو الغواص عن دقائق اللغة : لا يسخط اللغة ولا المكان عليك إذا كنت لا تدري لماذا ضممت تاء المتكلم وفتحت تاء المخاطب .

« المحاولة الرابعة : تيسير قواعد الاعراب »

أوحى بهذه المحاولة للمرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ما قامت به لجنة وزارة المعارف وما ردت به لجنة دار العلوم إذ أنه كما يقول من أنصار التجديد ، يقول : وقد توصلت بهذا الى اقتراحات أخرى لتيسير قواعد الإعراب فيهاوتجديد سائغ لقواعد النحو يقوم على أصول قوية ولا يسهل على أنصار القديم رده كما سهل عليهم رد المحاولات السابقة[1] وقد نشرها فضيلته بمجلة الرسالة من يوليو الى اكتوبر سنة **١٩٣٨** ذاكرا أن نظره في عمل لجنة وزارة المعارف سيكون قائما على أساس التهذيب والتكميل وهذه هي مقترحاته .

« باب الإعراب »

يرى إدماج الاعراب المحلي في المبينات في الاعراب التقديري في المقصور والمنقوص والمضاف إلى ياء المتكلم ويستغني بذلك عن باب البناء كله ويستغني عن الفروق بين المعرب والمبني في الإعراب فيقال هذا مبني وهذا معرب وعن ألقاب البناء من ضم وفتح وكسر وسكون وألقاب الإعراب من الرفع والنصب والجر والجزم وبيان المحال ، لأن لغة العرب معربة لا تلتزم حالة واحدة فالملاحظ في المبنيات أن بعضها مفتوح الآخر مثل رب وبعضها مضموم الآخر مثل

---

1) صفحة 113 من النحو الجديد .

منذ وبعضها مكسور الآخر مثل جير وبعضها ساكن الآخر مثل عن فهمس في جملتها معربة لا تلزم حالة واحدة ولا شيء في أن يقال في اعراب منصوب الآخر منها أنه منصوب بالفتح الظاهر وفي إعراب مرفوع الآخر منها أنه مرفوع بالضم الظاهر وفي إعراب مجرور الآخر منها أنه مجرور بالكسر الظاهر وفي إعراب مجزوم الآخر منها أنه مجزوم بالسكون فلا مانع في فعل الأمر مثلا أن يقال : أنه مجزوم بالسكون أو مفتوح اذا اتصل بنون التوكيد والفعل الماضي مفتوح أو مضموم أو ساكن مثل نام وناموا ونمت ، وهكذا المضارع يفهم ولن يفهم ولم يفهم وكذلك أسماء العربية منها ما هو مضموم الآخر وهو المبتدأ والخبر ومنها ما هو مفتوح الآخر مثل اسم إن ومنها ما هو مكسور الآخر وهو المضاف إليه وبهذا لا يكون هناك فرق بين إعراب الأسماء والأفعال والحروف إلا في أن كل حرف من الحروف له إعراب خاص به فيجري الإعراب على مفرداتها لا على أنواعها لأنه ليس لكل نوع منها إعراب خاص به .

(1) والاعراب التقديري يأتي في الكلمة العربية بأن يكون لها حكم في الإعـراب بالنظر الى نوعها ولكن آخره ليس مرفوعا فيكون رفعه تقديريا ، وكما في جاء سيبويه ، فسيبويه فاعل حكمه الرفع ولكن آخره ليس مرفوعا فيكون رفعه تقديريا أيضا وبذلك يظهر هذا التقدير في التابع مثل : جاء هذا الفاضل ورأيت هذا الفاضل ومررت بهذا الفاضل ، ولا شك أن وجود هذا الإعراب في التابع يدل على وجوده في المتبوع وعلى هذا يكون إعراب نحو جاء سيبويه مثل اعراب جاء الفتى كل منهما مرفوع بضم مقدر ولا داعي الى ذكر التقدير لأن هذا فلسفة لا طائل تحتها .

ويكون الإعراب التقديري في أربعة أنواع من الكلام : أولها

الكلمة التي يكون في آخرها ألف مفتوح ما قبلها مثل رمى وخشي والفتى ، وثانيها الكلمة التي يكون آخرها ياء مكسور ما قبلها : مثل يرمي والقاضي ويقدر فيه الضم والكسرض، وثالثها : الكلمة التي يكون في آخرها واو مضموم ما قبلها مثل يدعو ، ولا يقدر في هذا القسم إلا الضم والكسر ، ورابعها الكلمة التي يكون آخرها حركة لازمة أو سكون لازم مثل سيبويه ومن ، وهذا القسم اذا كانت حركته اللازمة مخالفة لحركة إعرابه كان إعرابه مقدرا ، وإذا كانت حركته اللازمة موافقة لحركة إعرابه كان إعرابه ظاهرا لا مقدرا فيقال في اعراب (نحن نفهم ، نحن مبتدأ ، مرفوع بضمة ظاهرة ويكون حاله في هذا قريبا من حال القسم الثاني إذ يقدر إعرابه في بعض الحالات دون بعض ولا يقدر اعرابه في جميع حالاته كما يقدر إعراب القسم الأول .

(2) ولا بد من تقدير الإعراب في الجمل أيضا ، لأنه قد يعطف عليهامفردا مثل قوله تعالى : إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ، فجملة يخرج الحي خبر لان مرفوعا تقديرا ، أما الجملة التي لا تقع خبرا أو حالا أو صفة ولا يكون لها محل فلا يقدر إعراب فيها .

وقد ثبت أن ألفاظ العربية معربة ومن الواجب أن ينقل الإعراب من اصطلاحهم الى اصطلاح آخر، فالإعراب في تعريفهم : تغير أحوال أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا أو تقديرا ، فلا بد للاعراب على هذا التعريف من عامل يقتضيه فاذا لم يكن هناك عامل لم يكن هناك إعراب ولهذا كانت الحروف وبعض الأفعال غير معربة لعدم وجود عامل يقتضي اعرابها ، وقد تكلف الكوفيون إعراب فعل أمر فذهبوا الى أنه مجزوم بلام أمر مقدرة لأنه في رأيهم مقتطع من الفعل

المضارع فأصل قم عندهم لتقم حذفت اللام للتخفيف ويتبعها حرف المضارعة وهو التاء ، وقد اختار ابن هشام هذا المذهب في كتاب المغنى لأن الأمر معني حقه أن يؤدي بحرف ، ولأنه أخر النهي الذي دل عليه في المضارع بحرف وعلى ذلك ينقل الاعراب عن هذا الاصطلاح ونحب أن نعرف بأنه تصرف أهل العربية في آخر أسمائها وأفعالها وحروفها من رفع وجر وجزم .

ويجب أن تزاد علامة في باب النداء دعا اليها الاستغناء عن الاعراب المحلي ، لأن المنادى اذا كان مفردا أي ليس مضافا ولا شبيها بالمضاف ينصب بالضمة وما ينوب عنها من الألف والواو فتكون الضمة في ذلك نائبة عن الفتحة . ولا غرابة في أن تنوب الضمة عن الفتحة في المنادى المفرد فقد نابت الكسرة عن الفتحة في جمع المؤنث السالم ونابت الفتحة عن الكسرة في الاسم الذي لا ينصرف ويمكن أن تجعل الفتحة مقدرة في المنادى المفرد ويكون المانع من ظهورها خوف التباس المفرد بالمنادى المضاف الى ياء المتكلم كما ذهب اليه الاستاذ ابراهيم مصطفى في كتاب إحياء النحو وإن لم يذهب الى القول بتقدير الفتحة وعلى هذا يقال في إعراب : يا محمد . محمد منادى منصوب بالضمة نيابة عن الفتحة أو يقال محمد منادى منصوب بفتحة مقدرة ويقال في إعراب يا زيدان ، زيدان منادى منصوب بالألف نيابة عن الفتحة ويقال في إعراب يا زيدون ، زيدون منادى منصوب بالواو نيابة عن الفتحة ويقال في إعراب : يا سيبويه ، سيبويه منادى منصوب بالضمة المقدرة نيابة عن الفتحة ولا بد من تقدير الضمة في هذا المثال ، لأن ظهورها في تابعة دليل على أنها مقدرة فيه ، ولهذا قدر الجمهور الضمة فيه أيضا .

ولا شك أن تقديرهم لها يقرب ما ذهبت اليه من تقديرها في نحو « جاء سيبويه » لأن الذي منع من ظهورها الضمة عندهم في مثل : يا سيبويه » هو حركة البناء الأصلي ، وهذا هو ما ذهبوا إليه من هذا ، في سائر الإعراب المحلي ، لتكون حالة الكلمات التي تلازم أواخرها فليس حالة واحدة من حركة أو سكون كحالة الكلمة التي يلازم آخرها ألفا مفتوحا ما قبلها أو ياء مكسورا ما قبلها أو واوا مضموما ما قبلها[1] (ولا يكون هناك فرق بين ألقاب الإعراب والبناء بادماج الاعراب المحلي في الإعراب التقديري ولكن لا بد فيه من أن يبقى الرفع والنصب والجر والجزم ألقابا للإعراب) أما الضم والفتح والكسر والسكون وما ينوب عنها فتكون علامات لهذه الألقاب ، وفي المعرب بالحروف يكون الرفع لقب إعراب وتكون بالألف والواو والنون علامات له في مواضعها و إذا جرى هذا في الإعراب بالحروف فليجر في الإعراب بالحركات ليجري القسمان على وتيرة واحدة وتكون ألقاب الإعراب غير علاماته فيهما معا ولا يكون هناك شيء من التحكم في التفريق بينهما .

ورأي الاستاذ الصعيدي في معرض رده على لجنة المعارف في تيسير الجملة : أن تقليل الاصطلاحات وتكثيرها يكون تيسيرا في العلم وتدوينه وقد يكون تعسيرا فيجب أن يصار الى كل واحد منهما بقدر الحاجة التي تدعو إليه حتى لا يكون تقليل الاصطلاحات غموضا في العلم ويكون تكثيرها حشوا لا فائدة فيه ويرى أن يقتصر على إلحاق باب كان وأخواتها وباب إن واخواتها بباب المبتدأ والخبر فتجمع هذه الأبواب الثلاثة في باب واحد ويعرب اسم كان وأخواتها مبتدأ مرفوعا

1) ص 125 ، 126 من النحو الجديد

ويعرب خبرها خبرا لهذا المبتدأ منصوبا[1] ويعرب اسم إن وأخواتها مبتدأ منصوبا ويعرب خبرها خبرا لهذا المبتدأ مرفوعا ، لأن الإعراب فرع المعنى وقولهم في إعراب المرفوع بعد كان وأخواتها والمنصوب بعد إن وأخواتها أنه اسم لها لا معنى له وانه هو كلام نردده ويقلد فيه آخرنا أولنا ، إذ لا معنى لكون اسم كان واسم ان اسما لها وكذلك لا معنى لتسمية خبرهما خبرا لهما ولهذا ذكر الصبان في حاشية الأشموني : أن تسمية المرفوع اسم كان والمنصوب خبرها تسمية اصطلاحية خالية عن المناسبة لأن زيدا في مثل كان زيد قائما اسم للذات لا مكان والأفعال لا يخبر عنها .

فصاحب الخبر في مثل « كان زيد قائما» هو زيد لا كان ، وموقعه في هذه الجملة موقع المبتدأ المخبر عنه فأصدق شيء في إعرابه أن يقال في إعرابه أنه مبتدأ وأصدق شيء في إعراب ما بعده ان يقال أنه خبر له وليست كان في جملتها إلا قيدا منها ، لأنها تقيد الخبر بمفادها وهو الزمان الماضي فكأنك قلت في ذلك المثال . زيد قائم في الزمان الماضي . وأمر ذلك في إن وأخواتها أظهر منه في كان وأخواتها لأن مثل : ان زيدا قائم لا تفيد إن فيه إلا تأكيد ثبوت الخبر للمبتدأ فلا يزال المبتدأ فيها مبتدأ على معناه وإن تغير إعرابه ولا يزال الخبر خبرا له إعرابه الذي كان له .

وليست منزلة هذه الأدوات من المبتدأ والخبر الا كمنزلة أدوات الشرط من فعل الشرط وجوابه فاننا حين نعرب فعل الشرط لا نقول الا أنه فعل شرط ولا ننسبه الى أداته كما ينسب ما بعد كان وإن لهما وكذلك نقول في الجواب انه جواب الشرط ولا نقول انه جواب إن وأخواتها فإذا

---

1) مذهب الكوفيين ان اسم كان باق على رفعه قبل دخولها عليه

أضيف الشرط أو الجواب في بعض الأحيان الى هذه الأدوات فان هذا يكون على طريق التجوز لمجاورتهما لها وربطها بينهما ولا يدل على أمر حقيقي في معنى الجملة ،

فهذا هو الذي أراه في اختصار هذه الأبواب وقد راعيت فيه ما يجب من موافقة الإعراب للمعنى ولم أقصد فيه الى الاختصار لذاته كما قصدت لجنة وزارة المعـــارف فلم توفق في قصدها له[1] ، وعلى هذا يجب أن يغير تعريف المبتدأ بحيث يشمل اسم كان واسم إن فيعرف بأنه الاسم المحدث عنه في الجملة الاسمية ولا شك أن هذا يشكل اسم كان واسم إن ويعرف الخبر بأنه الأسم المحدث به في الجملة الاسمية وهذا أيضا يشمل خبر كان وخبر إن وقد ذهب الكوفيون الى أن المنصوب بعد كان وأخواتها حال لا خبر ويرد عليهم أنه لا يكون هناك خبر لمرفوعها الا أن يقولوا إن الحال سدت مسدت الخبر ويمكن على قولهم أن يجعل المرفوع فاعلا لها ويكون حكمها في هذا حكم سائر الأفعال ولا يكون هناك داع الى تقسيم الأفعال الى تامة وناقصة .

فيبقى باب الفاعل بعد ذلك منفصلا عن هذه الأبواب ، أما باب نائب الفاعل فيجب أن يلحق بباب المفعول ونحوه مما يذهبون الى أنه ينوب عن الفاعل وعلى هذا يكون لنا مفعول به مرفوع في مثل : « قضي الأمر » ومصدر مرفوع في مثل : « فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة » وظرف مرفوع في نحو : « صيم النهار » وهذا الاعراب أولى من إعراب كل منهما نائب فاعل ، لأن هذا إعراب لاحظ له من المعنى يعرب

---

1) النحو الجديد ص 129 ، 130

عنه ، إذ ليس في هذا الأسلوب إلا حذف الفاعل لغرض من الأغراض وقد بقي المفعول مفعولا في المعنى بعد حذفه وان تغير أعرابه ولم ينب عنه في المعنى حتى نقول إنه ناب عنه في الاعراب ، فلا معنى إذن لدعوى نيابته عن الفاعل بل قد يحذف الفاعل ولا يوجد ما ينوب عنه كما في مثل سقط في أيديهم ، فقد ذهبوا في هذا الى أن الجار والمجرور نائب عن الفاعل مع أن الجار والمجرور لا يصح أن يكون فاعلا فلا يصح أن يكون نائب فاعل ، ولا شك أن هذا تكلف منهم لا داعي إليه وليس من اللازم أن ينوب عن الفاعل شيء بعد حذفه كما لا يلزم هذا في حذف المبتدأ ونحوه[1] .

وهذا هو تكلف جمهورهم في دعوى نيابة الجار والمجرور عن الفاعل في مثل « سقط في أيديهم » ومنهم من يتكلف أن نائب الفاعل ضمير مبهم مستتر في الفعل وقد ذهب الى هذا ابن هشام وغيره ومنهم من يتكلف أن نائب الفاعل ضمير يعود على المصدر المفهوم من الفعل وقد ذهب الى هذا ابن درستويه والسهيلي والزندي ومنهم من ذهب الى أن نائب الفاعل حرف الجر وحده في محل رفع قد ذهب الى هذا الفراء ، وقد ذهب أيضا الى أن حرف الجر يكون في محل نصب بعد الفعل المبني للفاعل مثل : « مررت بزيد » وهذا عندهم مذهب بالغ الغاية في الغرابة لأن الحرف لا حظ له في الإعراب أصلا ، ولكنه عندي مذهب يؤيد ما ذكرته من أمر الاعراب والبناء أمر تقديري ويجعل ما ذهبت اليه من إعراب الحرف إعرابا ظاهرا مذهبا قريبا سائغا لأنه أقرب من ذلك الإعراب المحلي الذي يتكلفه الفراء فيه .

---

1) انظر الصفحات 130 ، 132 النحو الجديد .

فالمذاهب أربعة في الجار والمجرور الذي يأتي في مثل سقط في أيديهم وهي متكلفة كل التكليف والجار والمجرور عندي متعلق بالفعل وتعلقه به في هذا لتعلقه به في مثل : مررت بزيد ، فلا يكون حينئذ نائب فاعل ولا يكون للفاعل فيه شيء ينوب عنه ، واذا بطلت النيابة عن الفاعل في هذا بطلت في غيره ويكون ما يسمونه نائب فاعل مفعولا به مرفوعا ويجب أن يتبعه في هذا إعرابه ، لأن الاعراب فرع المعنى .

ولا شيء في هذا أن يكون لنا مفعول به منصوب ومفعول به مرفوع ولا في أن يكون لنا مبتدأ مرفوع ومبتدأ منصوب ولا في أن يكون لنا خبر مبتدأ مرفوع وخبر مبتدأ منصوب ، فان هذا كله لا يبلغ الأمر فيه أكثر من أن يكون مثل الفعل المضارع فان لنا فعلا مضارعا مرفوعا وفعلا مضارعا منصوبا وفعلا مضارعا مجزوما وهو في أحواله الثلاث فعل مضارع مع أنه قد تأثر في لفظه ومعناه بدخول مايدخل من الأدوات عليه كما تأثر المبتدأ والخبر بدخول ما يدخل عليه من الأدوات عليهما فليكن المبتدأ والخبر مثل المضارع في ذلك وليكن غيرهما مثله في ذلك أيضا[1] .

« متعلق الظروف وحروف الجر »

قسم النحاة متعلق الظروف وحروف الجر الى قسمين : أولهما متعلق عام في مثل (زيد عندك) أو في الدار ، وتقديره كائن أو استقر والثاني متعلق خاص في مثل : (انا واثق بك) والأول عندهم واجب الحذف وهو الخبر عندهم لا الجار والمجرور كما ان المتعلق الخاص هو الخبر لا الجار والمجرور .

1) صفحتا 132 ، 133 من النحو الجديد

ورد فضيلته على لجنة وزارة المعارف في عدم تقدير المتعلق العام في جعلهم المحمول هو الظرف أو الجار والمجرور لا المتعلق العام بقبوله واني أرى أن الخطب في ذلك سهل وقد ذهب الى رأيها في المتعلق العام بعض النحاة فهو رأي قديم معروف وليس برأي جديد لها .

«الضمائر»

وكما جعلت اللجنة الظرف محمولا جعلت الفعل في مثل (زيد قام) محمولا أيضا لا ضمير فيه وليس فيه ضمير كما يذهب اليه النحاة وانما هو مثل الفعل في (قام زيد) وكذلك ترى في مثل (الرجال قاموا) أن الفعل محمول ، اتصلت به علامة العدد وليس بجملة كما ذهبوا اليه وكذلك ترى في مثل (أقوم ونقوم) أن الفعل محمول وأن كلا من الهمزة والنون إشارة الى الموضوع أغنت عنه .

ولا شك أن اللجنة تناقض في هذا نفسها لأنها ترى الاستغناء عن تقدير الضمير المستتر جوازا أو وجوبا ثم ترجع الى تقديره في مثل (أقوم ونقوم) وتجعل في الهمزة والنون دليلا عنه .

واذا أمكنها أن تجعل في الهمزة والنون دليلا عليه في مثل ذلك فماذا تفعل في مثل (قم) وليس فيه ما ينبيء عنه من همزة أو نون فلا بد لها من تقديره في ذلك قطعا وإذا قدرته فيه وجب عليها تقديره في غيره وإلا كان هذا منها تحكما وإذا صارت الى تقدير الضمير المستتر وجوبا وجب عليها أن تقدر الضمير المستتر جوازا من باب أولى .

والحق أن الواو في مثل : (الرجال قاموا) ليست علامة عدد

وانما هي ضمير يربط الخبر بالمبتدأ ولهذا يجب في غير هذا الموضع من المواضع التي لا يمكن أن يجعل فيها علاقة عدد كما في نحو (زيد في داره ، والزيدان في دارهما ، والزيدون في دارهم) فهوفي هذا ضمير يقصد منه ربط الخبر بالمبتدأ وهو اسم مضاف اليه وليس علامة عدد[1] .

« التكملة »

واعترض على اللجنة جعلها ما سوى الموضوع والمحمول تكملة ظانة أنها جمعت كثيرا من الأبواب في باب دون أن تضيع في هذا غرضا من أغراضها قائلا :

وإني أرى أنها لم تفعل في ذلك شيئا فقد كانت هذه الأبواب يجمعها قديما اسم الصلة فلم تفعل اللجنة الا أن جمعتها تحت اسم التكملة ثم عادت ففرقتها وهذا التفريق يوجب اختلاف أحكامها وأحوالها فيجب أن يخص كل منها بباب تجمع فيه أحكامه وتبين فيه أحواله وهذا أوفى بضبطها وتسهيلها من جمعها كلها في باب واحد ، وليس هنام ما يدعو الى جمعها في هذا الباب ولا ما يدعو الى جمعها في إعراب واحد ، وهناك مايدعو الى التمييز بين إعرابها لاختلاف معانيها وأغراضها ، وقد سبق أن الاعراب فرع المعنى وقد رددت على اللجنة بما يشبه هذا الرد .

« الأساليب »

رأت اللجنة أن في العربية أنواعا من العبارات تعب النحاة كثيرا

1) صفحتا 134 ، 135 من النحو الجديد

في اعرابها وفي تخريجها على قواعدهم ومن هذا صيغة التعجب فلها صيغتان : « ما أجمل زيدا وأجمل به » وقد رأت أن تدرس هذه العبارات على أنها أساليب يبين معناها واستعمالها ويقاس عليها ثم يتساهل في اعرابها فيقال في إعراب صيغة التعجب الاولى ما أحسن (صيغة تعجب) والأسم بعدها متعجب منه مكسور مع حرف الجر .

ورأي المرحوم الأستاذ الصعيدي أن هذا إعراب ناقص لا يبين معنى الجملتين وأنه لا شيء في أن تختار من إعراب النحاة فيهما أقر به الى الفهم وأدناه الى تصوير المعنى المراد من اللفظ وأسهله في إعراب صيغة التعجب الأولى لأن « ما » فيهما مبتدأ بمعنى شيء ، وأحسن فعل ماض ، وزيدا مفعول به ومعناهما على هذا الاعراب شيء عظيم أحسن زيدا وأسهله في إعراب صيغة التعجب الثانية أن أحسن فيها فعل أمر وفاعله ضمير المخاطب والجار والمجرور متعلق بأحسن ومعناها على هذا الإعراب أعجب تحسن زيد ، وهذا هو الإعراب التام الذي يبين معنى الصيغتين ويبين سبب إفادتهما ولا صعوبة فيه أصلا[1] .

واختتم محاولته تيسير قواعد الإعراب بأن أحدا من أعضاء اللجنة لم يحاول الرد عليه ، لأنها قد أخذت فيه بما لا يمكنها أن تدافع عنه ، ويذهب في الاصطلاح الى أكثر مما ذهبت إليه ويصب القواعد القديمة بما لم تصب به من يوم أن دونها الأقدمون من النحاة .

ثم أظهر إعجابه بما فعل راجيا أن يجد من رجال الأزهر حين يفصح عن أنه صاحب هذه الآراء التي كتبها في مجلة الرسالة بتوقيع أزهري من يقدر هذه الآراء كما اهتمت وزارة المعارف بعمل لجنتها

---

1) ص 137 من النحو الجديد

بعرضه على رجال العلم في دار العلوم وغيرها ثم ذكر بعد ذلك عدة تطبيقات لآرائه الجديدة التي يرجو أيضا أن يأتي اليوم الذي يأخذ فيه على نفسه مما يمكن أن يصيبها بمخالفة المألوف في النحو من يوم وضعه وتدوينه .

نموذج : « التطبيق الثالث »

يغضي حياء ويغضي من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

(يغضي) فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على آخرة وفاعله ضمير مستتر جوازا تقديره هو (حياء) مفعول لأجله منصوب بالفتح الظاهر .

(ويغضي) الواو حرف عطف منصوب بالفتح الظاهر ويغضي فعل مضارع محذوف الفاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره .

(من مهابته) من حرف اضافة مجزوم بالسكون الظاهر ، ومهابته مجرور بالكسر الظاهر وهما متعلقان بيغضي ، وضمير الغيبة مضاف الى مهابة مجرور الكسر الظاهر .

(فما) الفاء للتفريغ منصوب بالفتح الظاهر ، وما نافية مجزومة بالسكون الظاهر .

(يكلم) فعل مضارع محذوف الفاعل مرفوع بالضم الظاهر ومفعوله ضمير مستتر جوازا تقديره هو .

(الا) أداة استثناء مجزومة بالسكون الظاهر .

(حين) ظرف زمان منصوب بالفتح الظاهر متعلق بيكلم .

(يبتسم) فعل مضارع مرفوع بالضم الظاهر وفاعله ضمير مستتر جوازا تقديره هو وجملة الفعل والفاعل مضافة الى حين مجرورة بكسرة مقدرة[2] .

---

1) ص 143 من النحو الجديد

« نقد هذه المحاولة »

مما تقدم يتضح لنا ان الاستاذ الصعيدي حاول أن يصنف النحو تصنيفا جديدا ولكنه لم يفعل ولم يمس الموضوع في شيء لم ينته من تيسيره إلا الى تصعيب وكل ما ظنه جديدا لا يتعدى الشكل .

كان من مظاهر تجديده المزعوم تقسيمه الفعل الى قياسي وسماعي واغفاله تقسيم الكلم الى معرب ومبني حين حاول التيسير في جزئيات الأبواب عرض للمبتدأ فجعله ثلاثة أنواع : مبتدأ مرفوعا ومبتدأ منصوبا ومبتدأ يرفع وينصب ولم يكن المبتدأ في النحو القديم الا نوعا واحدا .

هذا الى ما اتسمت به محاولته من ايجاز مبالغ فيه ، كأن الغرض من التجديد إخراج نحو في غاية الإيجاز أو كأن الغاية منه هي الإبداع في إخراج أوجز المتون ، فقد اختصر أبواب النحو كما عرفها القدماء في ثماني وعشرين صفحة من القطع الصغير .

« المحاولة الخامسة لتجديد النحو
تذليل اضطراب الاعراب والقواعد »

وكان من المحاولات الجادة في إصلاح النحو وتجديده ودراسته من جديد في ضوء الجامعة المصرية و(القاهرة) (هذا النحو) عنوانا لمحاضرة له في تيسير النحو ألقاها في الجمعية الجغرافية الملكية سنة 1942 ونشرها بالمجلد السابع من مجلة كلية الآداب (يولية سنة 1944) وهي مجلة تصدر آخر كل سنة دراسية وتقع المحاضرة في أربعين صفحة من هذا المجلد من 29 - 68) بدأها بمقدمة ذكر فيها ان نواميس الكون الاجتماعية تقتضي التجديد في كل شهر حتى شريعة الله نزلت لمصلحة العباد والبلاد وواكبت حياة الناس ، كان الناس يفكرون من يفتي بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلقة واحدة ثم شاء الله وقضت نواميس الاجتماع بعد هذا أن يصبح منع التطليق ثلاثا بلفظ واحد قانونا معمولا به في المحاكم وهذه ظاهرة مطردة في حياة الكائنات المعنوية كلها تعد الفكرة كافرة وتحارب ثم تصبح مع الزمن مذهبا بل عقيدة واصلاحا .

ثم تحدث عن أصول النحو المرتبطة بأصول الفقه وما دام الفقه قد تدرج وساير الحياة ، وآخر مظاهر ذلك صنيع لجنة الأحوال الشخصية التي أخرجت من الفقه ما أصدرته الحكومة قانونا وعمل هذه اللجنة دستور يجب أن يتخذ دستورا شرعيا للتجديد النحوي .

واقترح الأستاذ أمين الخولي لتجديد النحو العربي : -

1 ـ أن يعاد النظر في جمع الثروة اللغوية ، لأن جمع القدماء اياها بالرغم مما بذلوه من جهد لم يستكمل كما صرح به القدماء أنفسهم ويرى أن استكمال هذه الثروة ممكن وان بدا مستحيلا ، لأن له نظائر وقد كتبت تواريخ كانت مجهولة تماما ، ويرى ان في الجزيرة العربية مجالا للاستكمال فإن الحياة قد حفظت فيها بالوراثة وتسلسل الطبقات في تناقل الأجيال شؤونا لغوية وأدبية من لهجات وأوضاع وأساليب وكلمات هو مادة للدرس لو جمعت بجد علمي وسجلت بأحدث الوسائل لأضافت جديدا وأكملت ناقصا ودعت الى استئناف نظر واجتهاد رأي .

2 ـ وأن يستفاد من علم اللغة العام ومن فروعه الخاصة بحيث يضع الدارس دراسته اللغوية على درجة السلم التي تقف فيها الحياة اليوم[1] فإذا تم ذلك أعيد النظر في منهج النحو في ضوء الدراسة الحديثة وفي ضوء علم اللغة العام بوجه خاص وذلك يقتضي الدارس :

(أ) التخلي التام عن التعليلات النحوية في أي لون من ألوانها النظرية سواء في ذلك التعليلات المنطقية التي عولجت بها المسائل في كتب القدماء أم التعليلات الأدبية أو الأعتبارية التي جاء بها المحدثون في محاولاتهم الجديدة لتيسير النحو أو تجديده .

(ب) والتخلي عما خلقته اللغة المنطقية من صيغ اعرابية تلقينية تردد في غير وعي كالقول في الإعراب : ان النون عوض عن التنوين في الاسم المفرد والنون للوقاية ، وهذا لا ينصرف لعلتين هما : كذا وكيت

---

1) الاجتهاد في النحو العربي (بحث أرسل لمؤتمر المستشرقين الدولي الثاني المنعقد باستنبول في سبتمبر سنة 1951 ونشر في كتاب الدكتور أمين الخولي (مناهج تجديد)

أو لعلة تقوم مقام العلتين هي كذا الخ . .

ويقترح الأستاذ لتصحيح المنهج النحوي أن ينبني على الاجتهاد بمعناه اللغوي القائم على الجد الدائب في تأصيل الدراسة اللغوية العلمية واستكمالها والاعتماد عليها وحدها في فهم خصائص العربية وتقديم التفسير اللغوي الصحيح لظواهرها كما تسجل الكثيرة منها الصيغ العربية وتقديم التفسير اللغوي الصحيح لظواهرها كما تسجل الكثيرة منها الصيغ الاعرابية التقليدية والأصول القائمة على بذل الجهد الموصول الى الحكم وتقدير سلامة قواعد العربية وتقرير التيسير والرفق وجمع كل ما يوجد من (المذاهب النحوية) حيثما وجد والتوسع في فهمه دون وقوف عند نصوصه وعدم التقيد بمذهب نحوي واحد في مسألة بعينها وتخير ما يوافق حاجة الأمة ويساير رقيها الاجتماعي[1] .

وذكر الأستاذ الخولي أن أسباب الصعوبة إنما هي ثلاثة أشياء غير التي ذكرتها لجنة وزارة المعارف وهي الفلسفة والإسراف في القواعد والإمعان في التعمق العلمي الذي باعد بين النحو والأدب وهذه الثلاثة الأشياء الأخرى في نظره هي :

1 ـ اننا نعيش بلغة غير معربة ولا واسعة ونتكلم لغة معربة وافرة الحظ من الإعراب فكأننا نتعلم لغة أجنبية صعبة .

2 ـ إن إعراب هذه اللغة لا يسهل ضبطه بقاعدة بل يسوده الاستثناء وتتعدد قواعده وتتضارب فالفتحة تنصب وتجر والكسرة تجر وتنصب والحذف يعرب والاثبات يعرب والسكون يبني ويعرب ، والفتح والحركات كلها كذلك والياء تنصب وتجر الخ .

1) مجلة كلية الأداب المجلد السابع ص 37

وهذا السبب هو ما سميناه اضطراب الإعراب .

3 ـ ان هذه اللغة مع اضطراب إعرابها لا تستقر على قاعدة في الكلمة الواحدة أو التعبير الواحد فيجوز فيه النصب والجر ، أو يجوز فيه الرفع والنصب والجر جميعا ، وهذا هو ما سميناه اضطراب الإعراب واضطراب القواعد ، حتى نصل فيهما الى شيء يخفف تلك الصعوبات على من يستعمل هذه اللغة في حياته من غير المختصين بدرسها فتقدم له لغة أقل صعوبة من هذه اللغة وليس فيها ما في هذه اللغة من اضطراب الإعراب والقواعد .

والأصل العام لهذا الحال هو الاتجاه الى الأصول التي استخرجت منها القواعد فنرجح من منقول اللغويين أوجها تدفع هذه الصعوبات وتقلل ذلك التعدد على أن يلاحظ اعتباران أصلان زائده رئيسان في هذا الأختيار .

1 ـ تقليل الاستثناء واضطراب الإعراب .
2 ـ اختيار ما هو بسبب من الحياة اليوم .

ومن ذلك هذان النصان :

1 ـ كل ما ورد أن القرآن قرىء به جاز الاحتجاج به في العربية سواء أكان متواتر أم آحادا أم شاذا[1] .

3 ـ اضطراب الاعراب ثم نظر في اضطراب الإعراب على هذا الأساس فوجد من ذلك في الأسماء .

1) عن الاقتراح طا الهند ص 14 ، 15

في الأسماء :

1 ـ الأسماء الخمسة تعرب بالحروف أو الحركات الممدودة ومن النحاة من يجعلها من المقصور والملازم للألف ومنهم من يعربها بالحركات القصيرة ، فاذا نظرنا من لغتنا التي نستعملها وجدنا أننا ننطبق هذين الاسمين « أب ، أخ ، بالواو دائما ، ووجدنا اننا ننطق هذا الاسم « حم » بالألف دائما وهذا الصنيع ليس بغريب على العربية لأنه جاء في بعض القراءات (تبت يدا أبو لهب) فهل لنا أن نقيس على هذا فنجيزه في الأسماء الخمسة ما جاز في أب وتلزمها الواو مثلها ، وقد يكفينا أن نلزمها الألف كالمثنى فتقل أقسام المعربات .

2 ـ المثنى يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء ومن النحويين من يلزمه الألف كالمقصور ولغتنا المستعملة تلزمه الياء والأولى ان نلزمه الألف كالأسماء الخمسة .

3 ـ جمع المذكر السالم يرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ومن النحاة من يلزمه الياء ويعربه بحركات ظاهرة على النون مثل حين ، وقد جرت اللغة التي نستعملها على إلزامه الياء ولهذا يكون الأولى فيه أن يعرب بالحركات على النون كحين أو نلزمه الياء مع فتح النون دائما وهذا من باب التلفيق في اللغات .

4 ـ جمع المؤنث السالم ينصب بالكسرة وقد أجاز الكوفيون نصبه بالفتحة مطلقا وهذا أهون من نصبه بالكسرة .

5 ـ ما لا ينصرف يجر بالفتحة وقد اضطربوا في منع صرف ما لا نصرف واجازوا صرف الممنوع في الاختيار ورعاية للتناسب واتساق

اللفظ وقد سبق أن تهوين الأمر على صغارنا وكبارنا غير المتخصصين في علوم العربية أجدر بالمراعاة من ذلك التناسب اللفظي .

6 ـ الاسم المنقوص يظهر النصب على يائه ومن النحاة من يسكن ياءه في النصب أيضا وهذا الاعراب مريح لا اضطراب فيه ثم وجد من ذلك من الأفعال .

ثم وجد من ذلك في الأفعال :

1 ـ الأفعال الخمسة تثبت نونها عند الرفع وتحذف عند النصب والجزم وقد جاء حذفها أيضا عند الرفع في بعض القراءات (قالوا ساحران تظاهرا) فيكون الأولى أن تعرب هذه الأفعال بحذف النون في الرفع أيضا .

2 ـ المضارع المعتل الآخر يحذف آخره في الجزم وقد يقل عن بعض اللغات إبقاء هذه الحروف مع الجازم وهذا يكفي في إبقاء الفعل المعتل دون حذف شيء منه في الجزم كالرفع والنصب .

ورجا أن يعالج الاضطراب ويقوّم بأمرين :

أولهما : محاولة الاحتفاظ واطراد القواعد ما أمكن .

وثانيهما : اختيار ما هو أيسر إعرابا .

فمثلا في الاستثناء بخلا وعدا وحشا يجوز فيها وجهان الجر والنصب وما دام النصب جائزا سواء سبقت بما أم لم تسبق فليكن لها حكم واحد هو النصب .

ثم رد على بعض الشبه التي وضعها بالوهي فيرد مثلا أن ما ذكره

يخالف لغة القرآن فاذا أخذنا به باعد بيننا وبين القرآن ولغته فقال إن ما اقترحه من ذلك لا يخرج عن قراءة من قراءات القرآن ولا يضيره أنه يخالف بعض القراءات المشهورة ويرد أنه يبعد التلاميذ عن لغة النصوص الأدبية القديمة وهذه شبهة واهية ايضا لأنه يمكننا أن نقرأ لهم هذه ـ النصوص ، تلك الأجه الميسرة أو الموحدة من الإعراب ، ويرد أن المتكلمين بالعربية في عصرنا لا يجتمعون على عامية واحدة بل تفرق بينهم عاميات مختلفة تكاد تقطع وشائج التفاهم والافهام وهذه شبهة واهية أيضا ، لأنهم يسمعون الفصحى في كل حين في الإذاعة ونحوها ملحونة لحنا فاحشا فلا يحول اللحن بينهم وبين فهمها فاذا لم يأخذوا بما نأخذ به في مصر من تلك الاقتراحات فسيكون ما نأخذ به لقراءات القرآن المختلفة أو يكون على أسوأ الفرُوض كاللحن الذي يسمعونه كل حين في الإذاعة ونحوها ، أما اذا أخذوا به فسيتم بذلك توحيد ما بيننا وبينهم على لغة سهلة ميسرة والقضاء على تلك العاميات التي تجعل التخاطب بيننا صعبا .

وختم تيسيره بأن ذكر أنه عرض بذلك أصول الحل العملي لاضطراب الإعراب ،واضطراب القواعد وبسطت من الأمثلة ما يسهل الانتفاع بهذا الأصل وأنه يخرج على غراره تخفيفات كثيرة إذا صدقت النية في الاستجابة لحاجة الحياة والوفاء بمطالبها .

(نقد هذه المحاولة)

إن ما نريد تيسيره هو تيسير إعراب اللغة العربية الفصحى التي ورثناها عن العرب ونزل بها كتاب الانسانية الأكبر القرآن الكريم فتيسير إعرابها يكون بمعالجة طريق تدوين هذا الإعراب من غير أن يحس الاعراب نفسه بشيء حتى لا يخرج عن اللغة التي نريد تفسير إعرابها ونصير الى غاية أخرى هي تيسير النطق باللغة على من لم يتخصص لمعرفة علومها وهما غايتان مختلفتان .

فهذه المحاولة وان كانت تهدف الى بناء النحو واعادة الحياة اليه من جديد إلا أنها تهدف مع ذلك الى خلق جديد قد تنقطع بوجوده الأسباب بين لغة الحياة اليوم وبين التراث القديم أو قد تنشأ به كما يقول بعضهم لغة ملفقة بعيدة عن لغتنا التي نستعملها عن لغتنا التي تربطنا بها تلك الصلة التاريخية فنصير بهذا امام ثلاث لغات بدلا من لغتين ونزيد الصعوبة صعوبة ونزيد التعقيد تعقيداً أو ستؤدي محاولته ايضا الى فصل الأقاليم العربية وذهاب كل إقليم بلغة إقليمية خاصة ، ولو سايرنا الأستاذ في تصحيح الأوضاع المحلية وإيجاد أصل لها في اللغات القديمة وفي القراءات لما وضعنا أيدينا على التيسير المنشود لأن اللغة سائرة في تطورها غير مكترثة بما يعترضها من عقبات فلا تلبث هذه اللغة التي جعلناها ثوبا للنحو الجديد أن تتطور وأن تتشبع وأن يصبح نحوها الجديد مخالفا هذه اللهجات كالفصحى بالنسبة الى لهجاتنا الحديثة اليوم .

واللغة كسائر الأحياء تطور بمرور الزمن من كلماتها ما يولد ومن كلماتها ما يموت وبرغم القيود التي حاول النحاة أن يقيدوها بها فقد ظلت سائرة في طريقها تصطنع لنفسها أسلوبا جديدا لا يلبث بمرور الزمن أن يغاير الأسلوب الذي توقفت عنده لغة الكتابة ، لأن المتكلمين ينقسمون بما يحيط بهم من ظروف طبيعية واجتماعية الى جماعات متعددة فتتعدد مسالك التطور اللغوي ولا تلبث مسافة الخلف بين اللهجات الحديثة ولغة الكتابة من جهة وبين اللهجات أنفسهن من جهة أخرى أن تتسع شيئا فشيئا حتى تصل الى المرحلة التي وصلت اليها اللهجات العربية الحديثة في تطورها عن الفصحى ولغة الكتابة .

ولا ينبغي القعود عن بذل الجهود الدائبة أو اليأس من إمكان التقريب بين اللغتين لغة الكتابة ولغة الحديث أو تيسير لغة الكتابة للناطقين باللهجات العربية الحديثة المختلفة فلدى الجماعات الناطقة بهذه اللهجات من أساليب التقريب ما يضمن اتساع لغة الكتابة وتيسيرها في البيئات اللغوية المختلفة فلا يزال القرآن مصدرا لغويا هاما كما هو مرجع للاجتهاد في شؤون الفقه ولا يزال أمام المجامع اللغوية والعلمية القائمة فرص العمل على مضاعفة ما بذل حتى الآن من جهود لتحقيق هذه الغاية المنشودة .

هذا الى ما يرجوه العاملون من تنسيق المناهج ومعاهد هذه البلاد في مراحلها التعليمية المختلفة والى ما عقدوا الأمل عليه لتحقيق تلك الغاية من دور التمثيل المسرحي والسينمائي والمسجلات وبخاصة ما يذاع منها في الملايين وما يصدر عن الخطباء والمتحدثين من خطب وأحاديث تذاع في المجتمعات الخاصة والعامة . .

« النحو بين القديم والحديث »

وبعد ، فليس يسع المصنف حيال هذا التراث الرائع الا أن يعجب به ويثني على أصحابه ويعظم ما اتفقوا عليه من جهد واحتملوا من كد وما أسدوا به الى العربية من فضل ويرحم الله أبا العلاء لقد ذكرهم فأكبر فضلهم وود لو كان للغة عقل يعقل وإحساس يحس فتبكي عليهم وتستهول خطبها فيهم ، لكنهم مضوا كما مضى غيرهم لا تبالي منهم أحدا ولا تدري من أمرهم شيئا ، قال :

تولى سيبويه وجاش سيب … من الأيام فاختل الخليل
ويونس أوحشت منه المعاني … ودون مصابه الخطب الجليل
أتت علل المنون فما بكاهم … من اللفظ الصحيح ولا القليل
ولو أن الكلام يحس شيئا … لكان له وراءهم أليل

ولقد يبدو أن فيما أسلفنا من النحو شيئا من مبالغة ، أو محاباة ، لأننا ورثنا هذا التراث وخلف لذاك السلف فنمسك اذن عن القول وندع الكلام لرجلين من قوم آخرين لسنا منهم وليسوا منا في شيء أحدهما (يوهان فك) والأخر (ديبوز اهلال) وتضحية جديرة بالاعجاب بعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ والتراكيب للجمل ومعاني المفردات على صورة محيطة شاملة حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد .

وقال ديبوز : إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربي لما فيه من دقة الملاحظة ونشاط في جميع ما تفرق وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ويحق للعرب أن يفخروا به ثم كانت النهضة الحديثة وعنيت مصر بالتعليم كما عنيت بغيره من شؤون الدولة فأخذ المؤلفون يؤلفون في النحو المدرس كما يؤلفون في غيره من مواد الدراسة فظهر سنة ١٢٨٦ من الهجرة كتاب تقريب من العربية لأبناء المدارس الملكية كما وصف نفسه بظاهر الكتاب ، وقال في مقدمته : إنه عرضة على سعادة مدير المدارس علي مبارك باشا فأعجبه حسن ترتيبه ووصفه وأصدر أمره بتمثله وطبعه .

والكتاب صورة مختصرة لكتاب النحو القديم في لغته ونسقه يحرص على المصطلحات النحوية ويعرف الموضوعات بتعاريفها الفنية وينفي عن كل معرف ما ليس منه ولا ينطبق تعريفه عليه ثم لا يفوته أن يستدرك على بعض المسائل بالتنبيهات أو الفوائد أو التتمات وربما أورد بعض الاعتراضات اللفظية وأجاب عنها على الطريقة النحوية المأثورة وفيه جدول للضمائر وآخر للظروف ولكن ليس فيه تطبيق ولا له فهرس ويطرظه الشيخ أحمد الشبيني أحد (خواجات) مكاتب الأوقاف ويؤرخ ظهوره بستة أبيات يقول في أولها :

ان رمـت بلومـك تهـذيـبي فعــلام بغيـك تهـذي بي

ويقول فيها عن الكتاب : أغنى النحوي عن التصريح وجاء برقة أسلوب ثم يختمها بقوله :

وهـلـم الى الـتــاريـخ هـنــا قـد رق الـطـبـع بتقـريـب

ثم أنشئت مدرسة دار العلوم سنة ١٢٨٩ من الهجرة ومضت تؤدي

رسالتها في خدمة العربية فظهر أثرها في خدمة النحو بعد قليل اذ ألفت لجنة من خريجيها الأولين سلسلة من الدروس النحوية في أربعة كتب : الأول والثاني والثالث للمدارس الابتدائية والرابع للمدارس الثانوية وزادت تلك الدراسة الثانوية سنة رابعة فتغير المنهج وتغير معه الكتاب الرابع ثم ضم الى كتاب دروس البلاغة للمدارس الثانوية ، وأخرجا معا كتابا واحد سمي كتاب (قواعد اللغة العربية) للمدارس الثانوية ، وتقوم فكرة هذه الكتب على التدرج مع التلاميذ وبعث التطلع منهم أرقى الممتازين منهم الى المزيد فيعرض كل كتاب قواعد الفرقة التي ألف لها ثم لا يلتزم الاقتصار عليها بل يشير إشارات عابرة الى بعض المسائل المتصلة بها ولا سيما في المواطن التي تدعو الى التساؤ ل وتهيء لقبول الزيادة وأكثر ما يرى ذلك في كتب الفرق المتقدمة ، أما طريقتها فقائمة على السرد الخالص وقلة التطبيق ، وأما لغتها فواضحة حاسمة لكنها موجزة جامعة .

ويعد ظهور هذا الكتاب حين ظهر عملا قيما وتطورا في النحو جديدا وقد لبث كتاب النحو الرسمي للمدارس الابتدائية والثانوية وما في حكمها قرابة نصف قرن ليس لها كتاب سواه على أن المدرسين بعد أن تطورت طرائق التدريس لم يغفلوا في دروسهم ما أغفل الكتاب فأخذوا تلاميذهم بالتمرن على ما يدرسون .

ومن كتب النحو غير الرسمية التي ظهرت في أوائل القرن العشرين سفينة النجاة في أربعة أجزاء مسلسلة . للأخ بلاج مفتش اللغة العربية بمدارس الفرير في مصر ، وكعناية الطالب وبغية الراغب للقس يوسف الحبر بتاري الراهب الأنطوني ، ويكثر في الكتاب الأول الهوامش والتعليق للتكملة أو التوضيح أو بيان الحكم والأسباب ويشتمل على

تمرينات الأبواب المختلفة وليس يسلم من بعض الهفوات الفنية العارضة .

ثم ظهر كتاب النحو الواضح للأستاذين علي الجارم ومصطفى أمين فخطا بالنحو المدرسي خطوة أخرى فمؤلفاه الجليلان من أعلام اللغة والأدب وأساتذة التربية والتعليم وتقوم طريقة الكتاب على عرض الأمثلة ودراسة خصائصها وملاحظة الفروق بينها ثم استنباط القاعدة منها ، ويلي كل موضوع زاخر من التطبيق المنوع يساير القواعد خطوة خطوة ومرحلة مرحلة ولغته في القواعد كلغة الدروس النحوية توشك أن تكونها لكنها في التمثيل والشرح ناصعة بينة عليها مسحة بادية من جمال الفن ورقيه .

وقد أقبل عليه المدرسون والتلاميذ في مصر والأقطار العربية فأفادوا منه كثيرا وفي الكتاب شيء من هفوات فنية ولكنه أيسر من أن يقعد به عن تحقيق المرادفة وظهرت بعده كتب شتى رسمية وغير رسمية تأثرت في الخطة والطريقة ، فكان لها من ظاهره نصيب قليل أو كثير أما خفة مئونته وقرب متناوله فهيهات ، وظهر كتاب القواعد النحوية مادتها وطريقتها للأستاذ عبد الحميد حسن ويتضمن فيما يتضمن آراء المؤلف في تيسير النحو وطريقة تدريسه وهي آراء حقيقة بالدرس والاعتبار . .

وظهرت في غير هذا المجال كتب أخرى منها شذا العرب في فن الصرف للأستاذ أحمد الحملاوي وتهذيب التوضح للأستاذين أحمد مصطفى المراغي وأحمد سالم علي والكامل للأستاذ أحمد صفوت وتقوم كلها على تلخيص المسائل وإتمام الشواهد والإقلال من الخلاف ويعول أكثر ما يعول في نظامها ومادتها على كتاب أوضح المسالك لابن هشام والتصريح عليه للشيخ خالد الأزهري ، وظهر كتاب التطبيقات

العربية للأستاذ أحمد نجاتي ويشتمل على أسئلة عامة وتطبيقات منوعة في النحو والصرف وفي العروض والقافية وفنون البلاغة وقد التزم المؤلف الإجابة عن الأسئلة والتطبيقات ويشرح قواعدها ويوضح أسرارها في بيان ناصع ، وتفصيل صريح فيقف القارىء منه على علم غزير ونفع كبير .

وأهم ما يؤخذ عليه انه ليس له فهرس ولا فيه شيء من نظام ويكثر فيه بعد ذلك التحريف المطبعي مع أن الذين تولوا طبعه ثلاثة من المدرسين .

ولما جاءت الجامعة المصرية (فؤاد الأول) جامعة القاهرة الآن ، ومضت تؤدي رسالتها وتضطلع بنصيبها في خدمة العلم والأدب إذا آراء جريئة ووثبات بعيدة لم تسلم من الإسراف في بعض الأمر كأنما كانت انطلاقا مكافئا للجمود الذي خلقته القرون الأخيرة أو تجاوبا مطالبقا للثورة النفسية والتطورات المذهبية بعد الحرب العالمية الأولى وليس يعنينا إلا الإشارة الى كتاب إحياء النحو للأستاذ ابراهيم مصطفى والرد على النحاة للأستاذ شوقي ضيف ، وقد تحدثنا عنها ولا يفوتنا أن نشير الي جهود الأستاذ الكبير الدكتور عطية الصوالحي فمذكراته كانت سندا في بحوثنا ، وكتاب النحو الوافي للأستاذ عباس حسن وهمة أستاذنا الكبير راجي عفوا الله أبو رجاء الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد الذي أخرج لنا الكتب القديمة في صورة قشيبة تشرح الصدر وتسر الفؤاد وتغرى بالقراءة والاطلاع حافلة بالتعليقات القيمة والشروح المفيدة كما أخرجت كلية اللغة العربية ـ حرسها الله معقلا لأدب العرب ولغة القرآن أسفارا قيمة أخرجت النحو في صورة عصرية فريدة فسهلت الصعب من النحو والصرف كدراسات تطبيقية للمرحوم الاستاذ عبد

السميع شبانه وذلل صعوبة الصرف الأستاذ محمد عمارة في كتبه التي أخرجها للسنوات الدراسية وكذا الدكتوران كحيل وعضيمة ، وأخرج الصرف الوافي لطلبة الصف الثالث أستاذنا الدكتور أحمد السيد غالي أستاذ النحو والصرف بالكلية عام تسعة وستين وتسعمائة وألف بوضع عناوين تسهل تناوله وتبويب يضمن الإحاطة به وأسئلة يجيب عنها اجابة شافية ، وهذا بخلاف ما أخرج في تاريخ النحو على يد المرحوم الاستاذ الشيخ محمد الطنطاوي وأستاذنا الدكتور عبد العظيم الشناوي .

وهناك أوجه من التيسير خلصت من الإعتراض والنقد فأدخلت في كتب تلاميذ المدارس وجرى المدرسون على العمل بها ، لأنها ترجع في جملتها إلى صنع الإعراب والاقتصار فيها على قدر حاجة التلاميذ إما بالاختصار فيها أو استيحاء بعض المذاهب منها .

ثم دخلت في هذا العصر طائفة أخرى من خريجي المعاهد العليا والكليات انقطعوا للتأليف والكتابة في علوم النحو والصرف والبلاغة ، وأفرطوا في التسهيل والاختصار متكلفين الاستفادة من البيئة الى درجة كبيرة مبتذلة وان المكتبات تعج بهذه المؤلفات والمصنفات كذلك ، عطف عليهم إخوانهم من مؤلفي البلاغة بمختصراهتم ومؤلفاتهم المبسطة زاعمين أن الأذهان سوف تتقبلها .

ثم خلف من بعد هؤلاء جميعا خلف ملئوا الأسواق وأغرقوها بكتب القواعد والبلاغة المبسطة السهلة المختصرة والمستوحاة من البيئة كما يقولون بأشكال وأنواع وألوان لا تعد ولا تحصى وأفرطوا في استعمال الأرقام والأمثلة والتمارين ، فهذه قائمة من الأمثلة من واحد الى عشرة تكون أحيانا بين خطين متوازيين بطريقة عمودية وأفقية ، وتارة توضع بين قوسين أو شرطتين ، لقد سئم الطلاب والمدرسون هذه

الوضعيات المختلفة التي تأخذ بالأبهار وتشوش على الأذهان وتتلف العقول .

أفترى بعد هذا أن الشكوى من النحو انقطعت والتبرم بالنحاة قد ذهب مع الأيام هيهات فمن التلاميذ من يتعلمون دروسهم الأولى في رياض الأطفال أو المدارس الأجنبية وربما لا تتهيأ لهم مع ذلك رقابة مستنيرة ولا توجيه رشيد ، فاذا دخلوا المدارس المصرية وجد بهم الجد هناك أخذهم الإعياء ولج بهم العثار فعجزوا عن مسايرة الركب أو انقطعوا عنه جملة ومن هذا الذي يهون عليه أن يقر بخطئه ويحمل نفسه تبعة التورط فيه ، انه لا يكاد يعرف في الناس ، فالحق صعب مرو نفس المرء أعز عليه من كل شيء ، ومن هذا الذي يهون عليه أن يقر بعجز ابنه أو قصوره عليه في تربيته التسليم بالأمر الواقع اذا أخفق فيتجه به الاتجاه الذي يلائمه لا الاتجاه الذي يتمناه له ويريده عليه إن ابنه بضعة منه وصورة له وهذا بهذا حقيق أن يخلفه في قومه وأن يغني غناءه في الأمر كله . وماذا عسى أن يحمله على الاقرار بهذا أو ذاك بل ماذا عسى أن يحمله على التفكير فيه ، وهو واجد في غيره مراغما كثيرا وسعة ، فهناك المدرسة المصرية ان يرد تعميما ، وهناك اللغة العربية ولا سيما النحو ان يرد تخصيصا ، أليست لغة البلاد القومية فمن حق كل انسان إذن أن يتكلم عنها ويرد ضعف التلاميذ فيها الى النحو وأن يتكلم في إصلاحه ويتقدم بمقترحات فيه ، نعم هو النحو ولا شيء غيره فلكثير ذكريات عنه وعن أصحابه قديمة ، وهي لسوء الحظ غير سعيدة ولا شائعة ، وقد آن الأوان أن يذكروها ويأخذوه بها لئلا يكون لفلذات الأكباد منها اليوم مثل ما كان لهم هم بالأمس ، وللنحو من غير هؤلاء خصوم كبار ، وآن لهم القول في كثير فحبوا فيه ووضعوا وغيروا منه

وبدلوا ، ولما قيل لهم رويدكم بعض هذا فقد أسرفتم وكاد الشطط يذهب بكم أو هو قد ذهب بكم مذهبا بعيدا قالوا في صلف وتبجح .ما أنتم وذاك وما قولكم فيه انه ليس منكم ولا أنتم منه في شيء الزموا قديمكم ان شئتم فاعكفوا عليه ودوروا حوله ودعونا والنزعة الجديدة والرأي الحر الجريء . .

كان هذا في غير النحو ، لأنه تأبى عليهم وبقي على العهد به ممتنعا في حصونه مستعصيا على المحاولة والأمنية ، لأن له قوانين ثابتة وأصولا راسخة لا ينفع فيها مجرد دعوى التجديد ولا يغير منها كذلك مجرد الرأي الحر الجريء . .

فارتفعت الشكاة وتجاوب صداها هنا وهناك يكتبها الكاتبون ويحاضر فيها المحاضرون من الآباء وغير الأباء وذهب النحو منها بأضخم نصيب وهو وحده مدارها أو في الصميم من مدارها أو المثل الذي يضرب لتأييدها والاقناع بصحتها ولا تغنى عنها نتائج الامتحان ولا يشفع فيه تحول طرائقه ولا تجديد كتبه .

وسكنت الشكوى أو كادت ابان الحرب وما تلاها لقسوة ظروفها واشتغال الناس بها عن غيرها حتى أخذت الظروف تلين وأخذ الناس ينصرفون عن الاشتغال بها وتحركت الشكوى في هوادة ورفق لا تجاوز مكاتب وزارة المعارف مسايرة لنزعات التغيير والتبديل التي كانت توشك أن تكون سياسة الحكم في مصر فقد غلبت الحزبية واشتدت المنافسة بين الاحزاب ومن يدري لعلها تعود جذعة ، لولا أن تداركها من تدارك من تغيير نظم الامتحان وتيسير النجاح على التلاميذ ، والآن ماذا علينا أن نصنع بالنحو أو نصنع له إبراء لذمتنا وأداء لواجبنا ؟

إن الاجابة عن هذا السؤال مترتب على الإجابة عن سؤال آخر وتختلف باختلافها

لنحن لتحديد الاجابة ونفي الشيوع عنها علينا أن نورد هذا السؤال الآخر وننظر اذا يكون الجواب عنه أولا ، ولو أن قوما سينكرونه ويضيقون كدأبهم كلما وصل شيء بالدين أو حكم الدين فيه كأنهم يرون ذلك رجعية الى وراء وجمودا على قديم ومهما يكن من أمر فالسؤال الاخر : هل نريد من العربية أن تكون كما أرادها الله لغة دين ودنيا في وقت معا او نريدها لغة دنيا وكفى ولكن لا ينبغي حينئذ أن تبقى عكس تسميتها بالعربية لانها صائرة مع الزمن في هينة ورفق أو في اندفاع وعنف الى التحول عن سمتها والتنكر لاصولها حتى تنتهي الى لغة غير اللغة او ربما كان خير لنا من هذا ان نتخلص منها جملة ونتخذ لنا منذ اليوم الذي نرى فيه هذا الرأي لغة أخرى غيرها من لغات الحضارة القائمة فان يكن الاولى فلا مفر لنا الحفاظ عليها في صحتها وأصولها كما ورثناها عن اصحابها الاولين بلا تغيير ولا تبديل في طرائق اعرابها الموروثة ولا في مسائل انميتها الموروثة على ما أقره المجمع اللغوي في أول عهده بالحياة وإذا فلا غنى لنا عن النحو كما خلفه قدامى النحاة في جوهره فكانوا من حفظة اللغة ورواتها وتجردوا لجمعها والنظر في أساليبها ثم جاءوا بما هدوا اليه وتبين لهم بالاستقصاء والتحري انه البيان العربي كما كانت تصنعه العرب .

ثم هم لم يفرضوا علينا القول فرضا ولا ألقوه الينا مرسلا ولكنهم جاءوا به رأيا رأوه ونتيجة وقعوا عليها مؤيدة بالشاهد أو الدليل فان تكن صوابا والا فباب التصويب مفتوح ووسائله معروفة مقرره .

فما ضيقنا بالنحو ، وانما هو قانون اللغة التي قدر علينا ان نتكلم

بها وما جريرة النحاة فيه وما اساءتهم الينا به وانما هم أخذوه من العربية كما ألفوا اصحابها متكلمين انضيق بفلسفته ، وكيف ؟ وكل شيء من الثقافة اللغوية والدين قد دخلته الفلسفة وأثرت فيه وصبغته بصبغتها وما كان ممكنا أن تسلم فيها النحو وحده وإلا كان عجبا من العجب أو تلفيقا من التلفيق يراد به اخفاء طابع الثقافة ورسم العصور في النحو خاصة ان نضيف بمدارسه ومذاهبه وتعدد الآراء في كثير من مسائله وكيف واعمدة النحاة فيه والرواية والفهم وظروف الحال والبيئة وكل أولئك مختلف جدا فلانه صادر عنها ومتأثر بها أم نضيق بعلله وحجج المختلفين فيه كيف زمن طبع الانسان البحث عن الاسرار والسؤال عن هذه المجهولات الأفكار من الحجاج والنحاه بما أوتوا من هذا انما يستجيبون للطبع المستنير في استنباط المسائل وعرضها في الناس فترضى العقول وتطمئن النفوس وتأخذ ما تأخهذ عن بينه وتدع ما تدع من بينه .

ليست اللغة العربية مادة من المواد بل هي أداة من أدوات الثقافة ونافذة يشع منها النور ولا يقتصر الاستعمار على غزو الأمم بالجيوش بل ان الاستعمار الثقافي في أشد انواع الاستعمار وقد حاربتها الدول الاستعمارية بالتهوين من شأنها وشأن متعلميها ، لأنها لغة الوحي ولغة القرآن والدين يدعو الى العزة واللغة تبعده عن دينه ، وقد ألم ثورة الفاتح من سبتمبر ألا تكون اللغة العربية لغة معترفا بها في المجتمع الدولي لأن أهلها لم يستطيعوا أن يفرضوا لغتهم على المجتمع الدولي في الأمم المتحدة وعدم الاعتراف بها يعني أشياء خطيرة في صالح الدول المستعمرة طالما أن الأمة العربية ضعيفة الشخصية ممزقة الكيان ومن خلال الظلمات الحالكة يبدو الضوء المستنير فقد بذلت جهودا مشكورة للاعتراف بها في منظمة الصحة العالمية فاللغة العربية هي الفرع

الرئيسي الذي يعتبر امتدادا غير منقطع للغة السامية فذلك أصبح موضع شبه اجماع من باحثي اللغة وعلمائها ومؤرخيها بأدق الأبحاث وأكثرها انتهاجا لأسلوب البحث العلمي ولعل هذا الى جانب عوامل أخر هامة ما أكسبها صفة الاستمرار وأعطاها القدرة على الصمود في وجه كل مؤامرات الطمس والتخريب فان الأصالة التاريخية والبذر في أعماق تربته بأقوى البذور وأكثرها نقاء سبب من أسباب الاستمرار لأي كائن معنويا كان أم ماديا .

اللغة مع التاريخ :

وقد كانت هذه اللغة قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم محصورة في شبه جزيرة العرب فلما ظهر الاسلام انتشرت فيما بين أواسط الهند وجبل طارق وما بين البحر الأسود وبحر العرب تشهد بذلك حروبها وألفاظها المستعملة في لغات الترك والفرس والهنود وغيرهم ومن اللغة العربية تتفرع لغات الحبشة وفروع أخرى .

إلا أنه من المؤكد تاريخيا أن اللغة العربية قد بدأت رحلتها التاريخية بكل الخصائص التي تميزها قبل الاسلام الحنيف وقد استقرت الأبحاث حتى الآن على أن ذلك بدأ قبل الهجرة المحمدية بأربعة قرون .

وقد أثبت علم اللغات المقارن أن اللغة العربية استمرت عبر أجيال طويلة قبل الإسلام حتى وصلت الى هذه التفرقة بين أحكام الاعراب والاستقرار على صيغ الإفراد والتثنية والجمع بأنواعه خاصة جموع الكثرة والقلة في الأوزان السماعية ولا بد من أجيال أيضا ليتم تنسيق حروف المعاني وادخالها في تركيب الجمل وتحديد عملها وتأثيرها كحرف الجر والعطف وغيرها . كل ذلك كان كاملا عندما جاء الاسلام .

وليس تعصبا أيضا أن نقول ان ما تتمتع به اللغة العربية من خصائص لا تتمتع بها لغة أخرى ولا بد من عرض أمثلة منها هنا ونحيل

من لم يقتنع الى كتاب الخصائص لابن جنى وفقه اللغة لعلي عبد الواحد وافي ودراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح والعبقرية العربية في لسانها الأسوزي وهو كتاب خصب .

ان دلالة حيوية اللغة الأساسية ومقدرتها على الاستيعاب تكمن في أن كلماتها ليست مجرد كائنات مستقلة . وانما هي مصنفة في مجمـوعات يربط بينها رباط تتفاوت قوته وضعفه من قوة الى أخرى وكلما ارتقت اللغة كلما اشتد هذا الرباط وهنا يبرز تفوق اللغة العربية على غيرها من اللغات الحية والراقية .

فمفرداتها مجموعات يشترك أفرادها في ثلاثة حروف هي المادة الأساسية لها تضمها في إطار معنى عام ومشترك بينها .

بعد هذا تنفرد كل كلمة من المجموعات بصفة تعطيها معنى خاصا ولكنه يبقى ضمن إطار المعنى المشترك .

ثم يصبح لها تاريخ حياتي خاص يعطيها شخصيتها وذاتيتها بالاضافة الى المعنى الدقيق والمحدد مع كل الظلال والهالات التي ترسمها حولها مما يبعث في النفس شعورا ينسجم مع الظروف التاريخية للكلمة .

وإذا كانت الأبجدية العربية ليست أوفر من أبجدية بقية اللغات عددا إلا أنها أبلغ منها جميعها في كونها تفي بالمخارج الصوتية وفاء كاملا .

وهناك ميزة أخرى لا تشاركها فيها لغة وهي أن الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالتها الشعرية المجازية ودلالتها العلمية الواقعية في وقت

واحد وتدل على المعنى المراد في السياق دون غموض .

وثمة ميزة أخرى تفوقت فيها اللغة العربية وهي الإعراب لكافة مفرداتها أفعالا وأسماء وحروفا حيثما وقعت بمعانيها من الجمل والعبارات .

أضف إلى ما تقدم وكثير غيره العروض الذي ميز الشعر العربي بخصائص لا مثيل لها في أشعار الأمم الأخرى ذلك الذي اقتبسه الفرس تفضيلا له وكذلك شعراء العبرية .

وحسب اللغة العربية بعد كل ما تقدم أصالة أنها كانت بيان السماء للأرض في القرآن الكريم وقد استوعبت معانيه وصوره وشموليته فكان حافظها الأمين وكانت سبيلة الى الناس الا أن حيوية اللغة ترتبط بحيوية الأمة أي أنها ترتبط بمسيرتها صعودا أو هبوطا تقوى اذا قويت وتضعف اذا ضعفت .

وإذا كانت اللغة العربية قد كتب عليها أن تتجمد وتنهزم فترة ما فان ذلك دليل على انهزام الشخصية القومية لأمتنا .

وإذا كانت قد بدأت تنهض اليوم فإن ذلك يعني أنها بدأت مسيرة النهضة .

ولقد كانت الحركات الشعوبية دائما في القديم والحديث تقترن بفكرة ضرب اللغة والقضاء على فصحاها بتغليب العامية عليها أو اللغات الأجنبية مما نراه ونسمعه على ألسنة بعض المتحذلقين الذين يدخلون الكلمات الأجنبية عرضا في حديثهم تدليلا على رقيهم المزعوم والممسوخ .

ولقد أبدعت هذه اللغة من مصطلحات العلم الكثير في وقت كانت فيه اللغات الأخرى ما زالت لم تتميز بعد .

وإذا كان للأمة العربية حضارتها المشرقة وهذا ما لا ينكره حتى الأعداء فان اللغة العربية كانت أكثر الجوانب إشراقا في هذه الحضارة .

وما أخذه الفكر الأوروبي وغيره ونفى عنه الصفة العربية هو الأساس في تكوين الفكر الأوربي الذي ينعم الغرب بحضارته الآن ونستورده ونفترضه نحن مشوها فننزل به وننزله معنا لأننا فقدنا القدرة على الإبداع والخلق عبر عصور التجزئة والتخلف .

أما الذين يصفون اللغة العربية بالقصور عن استيعاب مصطلحات التقنية فلا بد أنهم يجهلونها ويجهلون مقدرتها التي لا تدانيها لغة في الأرض .

إن الصورة التي حفل بها الأدب العربي والتي استوعبتها وعبرت عنها بإبداع هو أوسع ألف مرة من المصطلحات العلمية المحددة ، وإذا كنا نحن قد عجزنا فلا يعني عجز وقصور اللغة على الأطلاق ، يقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إن اللغة التي تجمع أشتات هذه الصورة وتركبها في هذا النسق المحكم ليست عاجزة أو قاصرة وإنما هي قوية الاستجابة خلاقة .

خيول مسرعة وسحابة من الغبار وسيوف تلمع وسط هذه السحابة وكأن الصورة بأكملها تجسدت في ليل مظلم تتهاوى نجومه ومن الذي أتى بهذا الوصف البديع والخيال النادر إنه الشاعر الكفيف بشار بن برد ، ثم انظر الى هذه الايجاز المحكم في قول نفس الشاعر :

فراحوا فريق في الاسار ومثله   قتيل ومثل لاذ بـالبحر هـاربه

انها الموسيقى الخفية تمتزج باحساس القارىء عن طريق هذا الحصر والتقسيم ، أيه لغة أقدر من هذه اللغة التي استوفت صورة لمعركة انهزم فيها عدو بهذا التنسيق العجيب والإيجاز المعجز . هل هذه اللغة عاجزة وقاصرة إن ذلك قول ظالم وجاهل .

وتدبر هذه الصورة التي يعجز أي عالم أو فنان وأية لغة عن الإحاطة بها وقد احتوتها العربية وعبرت عنها بشكل محكم بارع :

وقـد نبـه النـيروز في غسـق الـدجى

أوائـل وردكسنّ بـالأمس نـومـا
يفتقهـا بـرد النـدى فكـأنـه   يبث حـديثا كـان قبل مكتمـا
ورق نسيم الروض حتى حسبته   يجيء بـأنفـاس الأحبـة نعمـا

لا شك أن الصورة قد امتزجت بمشاعر الشاعر الداخلية فعبر عن تأثره النفسي بها وان الانسان ليدعها بدون تعليق ليترك للقارىء أن يقف على جوانبها وتركيبها ويخرج منها بالشكل الحقيقي ويرى أي ابداع فيها ؟

وبعد هذا هل اللغة التي تستوعب وتحتضن بكفاءة أمثال هذه المعاني المعنوية اللامدركة عاجزة أن تتعامل مع المادة المحددة المقننة ؟

إن العجز كامن فينا فلا يجب أن نلصقه باللغة وأمثال هذا كبير في لغتنا ، وقد يقول قائل إن هذا خيال ونقول : إن اللغة التي تقوي على مطاردة الخيال ورصده وتجسيده في صور من أجزاء متعددة ، هي

بالتأكيد أقدر على رصد المادة المحسوسة ونقلها تعبيرا واضحا .

إن فرض لغتنا يعني فرض شخصيتنا وهي جديرة بأن تكون شامخة بين لغات الأمم الأخرى ففي الخامس والعشرين من شهر يناير الماضي سنة 1973م[1] تم الموافقة بالأغلبية على استعمال اللغة العربية كلغة رسمية في الجمعية العمومية لهيئة الصحة العالمية .

والجمعية العمومية حينما اعتمدت مشروع الاقتراح المقدم من كافة الدول العربية فانها تكون قد أحلت العربية مكانها اللائق بها بين لغاتها الرسمية لأنها أدركت ما لهذه اللغة من مكانة عظيمة بين اللغات العالمية ، ذلك أن هذه اللغة قد خدمت الفكر الانساني قديما ونقلت تراث الأجيال المتعاقبة عبر التاريخ فوجب أن تمكن من خدمته حديثا ويعترف لها بالفصل والاقتدار على مواصلة أداء رسالتها العلمية في جميع فروع الثقافة والمعرفة ، وتساهم في خدمة الفكر المعاصر وتساير ركب المدنية وتواكب العلم كما صنعت أول مرة ومعنى هذا أن عالميتها المعترف لها بها اليوم ما هي الا تأكيد لعالميتها بالأمس وقد طبقت الوفود العربية مع وفد الجمهورية العربية المتحدة ما هتف به أمير شعراء العربية المرحوم احمد شوقي :

ويجمعنا إذا اختلفت بلاد   بيان غير مختلف ونطق

فأشرت هذه الجهود مشروع القرار التالي :

استعمال اللغة العربية كلغة رسمية في الجمعية العمومية لهيئة الصحة العالمية اقتراح مقدم من : الجمعية العمومية الخامسة والعشرين

1) جريدة الفجر الجديد - الثلاثاء 3 من المحرم 1393 هـ الموافق 6 من فبراير 1973 الموافق 133

لهيئة الصحة العالمية .

اشارة الى القرار : أ ب 490 -- ٥٦, للمجلس التنفيذي بادراج موضوع استعمال اللغة العربية كلغة رسمية للجمعية العمومية للهيئة في جدول أعمال الجمعية العمومية الخامس والعشرين .

واعترافا بأهمية اللغة العربية نظرا لازدياد عدد الدول الأعضاء التي تستعملها كلغة رسمية وبعد الأخذ بالاعتبار لمساهمة اللغة العربية في الحضارة والتأثير العربي على التقدم العلمي والطبي بصفة خاصة .

1) استعمال اللغة العربية كلغة رسمية للجمعية العمومية للهيئة .

2) تعديل المادة 84 للنظام الداخلي للجمعية العمومية للهيئة على النحو التالي : مادة 84 تكون اللغات الانجليزية والعربية والصينية والأسبانية والفرنسية والروسية لغات الجمعية العمومية الرسمية وتكون الانجليزية والفرنسية لغةالعمل .

ان تكاتف العرب كما قال الأخ الدكتور عصام ساسي رئيس الوفد العربي الليبي واتفاق الوفود العربية على تسديد العجز المالي للهيئة هو الذي أزال عقبة استعمال اللغة العربية كلغة رسمية وتبين أن هذا العجز لا يزيد عن 24 ألف درهم وتبين أن هذا المبلغ ليس بحجة ودون دفع درهم ما .

وقال رئيس الوفد في نهاية الحوار : إن على اللجنة الصحية للجامعة العربية أن تتدخل في مثل هذه الموضوعات وأن تعي مسئولياتها كاملة وتطرح الموضوعات للنقاش وتجري الاتصالات بشأنها وخصوصا في العلاقات الدولية ، لأن الدول العربية يجب أن تمثل وتنطلق

كمجموعة وليس كدول منفردة ، فاللغة العربية ممكن ادخالها في أية هيئة دولية متى توفر التصميم والعزم على ذلك لأن كل دول العالم مقتنعة بها واذا اتحدنا تقشعت السحب التي يحاول تجميعها الأعداء فتدخل لغتنا في كافة المنظمات الأخر لهيئة الأمم المتحدة فبقوة وحدتنا وعدم تفريطنا في شيء من تراثنا ومثلنا العليا وقيمنا العربية يكون نصرنا مؤزرا وذكرنا منشرا والحديث عنا عاطرا في كل مكان لأن هذه الأشياء كانت دائما الزاد الذي تزودت به الأمة العربية في معاركها المريرة ضد الأعداء .

عود على بدء ـ حركة الاستشراق :

سبق أن فندت آراء المستشرقين في أن العرب لم يرثوا لغتهم معربة وانما اختلقها النحاة خلقا وهذه ادعاءات قصد منها الحط من شأن اللغة تنفيسا لحقدهم عليها بمحاربتها وقصتهم مع اللغة قصة تطول نرى أن المناسبة قد حانت للتحدث عليها ، فقد كان لهذه الحركة آثارها على من تثقفوا ثقافة أجنبية جعلهم كالببغاوات يرددون كلامها والعيار الذي لا يصيب يحدث (دويا) كما هو معنى المثل العامي .

إن نمو الشعور بالقومية العربية لدى العرب جعل المستشرقين يلعبون دورا هاما في طمسه دونوا أحداث التاريخ كما يريدون في دائرة المعارف الاسلامية وشوهوا صورة العرب في الجاهلية وحسبنا هنا أن نشير الى كتابين هما تاريخ الشعوب الاسلامية للمستشرق الألماني كارل بروكلمان (1868 - 1956) وتاريخ العرب والشعوب الاسلامية لمستشرق يدعي كلود كاهن الاستاذ في جامعة باريس حاليا .

وقد كان الكتاب الأول معتمدا في كل الجامعات العربية كمصدر وكتاب للدراسة فلما ظهر الثاني ولما يصدر منه إلا المجلد الأول أقرته بعض الجامعات بدلا من الأول بحجة أنه أكثر ثقة وأكثر دقة في منهجه العلمي لدراسة التاريخ من سابقه (بروكلمان) .

ليس الحديث هنا تقييما وتفنيذا لكل المزاعم والافتراءات التي

تضمنها الكتابان يكفي منها أنهما ينظران الى النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه مؤسس ديانة فقط وقد أنكروا الشعر الجاهلي وذكروا انحطاط شأن العرب وتوحشهم وتخلف عقليتهم ونسفوا ريادتهم للتجارة وشجاعتهم ولغتهم وأدابهم . ذلك الأدب الرفيع بكل ما فيه من نفحات انسانية وبكل ما فيه من جمال النفس وصفاء الروح فلا يعبر بنظرهم عن شيء بينما يعتبرونه عند الأخرين قياسا للرقي والتقدم . .

ان بيتا واحدا قاله شاعر جاهلي لمحبوبته يضعهم في أعلى عليين من التحضر ويجعل الغربيين الهمجيين في ناحية الجنس الذي يزاول عندهم دون ما ضابط من دين أو خلق أو ضمير يجعلهم في أسفل سافلين مهما ادعوا من إتفاقهم برتوكول الاتيكيت : استمع الى الشاعر العربي الجاهلي يقول لمحبوبته :

أذود سوام الطرف عنك وماله　　　الا أحـــد إلا عليـك طـريق

إنه المعنى الذي عبر عنه عزيز اباظة الشاعر الحديث :

نغضي حياء وتغضي عفة وتقي　　　إن الحياء سياج الحب مذ كانا

انظر الى تعبير الشاعر سوام المأخوذ من البقرة الجامحة في المرعى يجذبها العشب الأخضر لتملأ بطنها بلا حدود إن النظر الى الجمال الأنثوي يماثلها ولكن الشاعر يضبط جماح نفسه عن الانطلاق وملء العين فأية انسانية رفيعة تلك إنه أرقى درجة من الشاعر العفيف الذي يقول : فلا والله ما كان الا الحديث والنظر فبينما تمتلىء صحف الغرب عن فضائح تندى لها الجبين بين رجال السياسة عندهم وما يتخذونه من خليلات وعشيقات تاركين الزوجات . . .

ان لغتنا العربية لغة متينة شامخة بين لغات الأمم بكل ما فيها من

عمق وبكل ما تعبر به عن ابداع عقلية متكلمها لدرجة أنها كانت مصدرا من مصادر قواعدها . تلك اللغة التي استوعبت كتاب الله بكل الصور الدقيقة التي انتظمته وبكل الدقة في أحكامه وبكل أوعية الجمال الغني التي تحدت وما زالت تتحدى الانسان في دقتها وإعجازها ، تلك اللغة لسان اهل الجنة ولغة القرآن ووعاء حضارات الدنيا بأسرها ورسالة العرب الى الانسانية ووسيلتهم لهداية البشرية .

كل هذا ليس شيئا يذكر يطمسونه أي يقفزون فوقه وصولا الى أغراضهم التي تتنافس مع أبسط قواعد الأمانة العلمية بل هو خيانة للانسانية وامتهان لها لأنه سرقة لتراثها

ما الغاية وما الهدف ؟ هل كان ذلك كله بدون غاية يقصدها او هدف يسعى اليه ؟

كانت الغاية تتمثل في نقطتين : الأولى : أن هذه اللغة وهذا التراث هو مصدر اعتزاز عند العرب بقوميته وغذاء لذاته القومية ولذا فلا بد من مسخه وتشويهه بل وطمسه إذا أمكن لاجتثاث جذوره من التاريخ .

الثانية : أن العقلية العربية وهي في هذا المستوى من التخلف وفي هذا الوضع الاجتماعي البدائي ، كانت حقلا لانبات وتقبل أية أفكار ويقصدون أن القرآن ليس شيئا متفوقا وجامعا نفيا للوحي الالهي .

وهم إذ يفعلون ذلك فإنهم يدركون معنى اعتزاز العربي بذاته القومية وما ستصير اليه هذه الذات وقد كرمت بحمل رسالة السماء كقيادة مسئولة أدت الأمانة وتحملت ما تتطلبه من مكابدة وعناء انهم يدركون ان ذلك سيحولها الى قوة تمتلك طاقة لم تتوفر لأمانة ما وبالتالي فهي بما

تحمله من قيم روحانية ومثل رحمانية سوف تكون حربا على الظلم وهداية ونورا للانسانية في دروب الحق والخير وصولا الى السعادة والاطمئنان .

وقبل أن نتجاوز هذه النقطة . لا بد من ربطها بحركة ما يجري على الأرض العربية منذ بدأ مخاض الثورة العربية وحتى بلغ أوج عنفه عام ست وخمسين وتسعمائة وألف .

نشير هنا الى وثيقة تركها اللورد كيتشنر الذي كان حاكما عاما على السودان ودرس المنطقة العربية لقد رصد الحركة فيها وسجل أن هناك شعورا قوميا سيؤدي في النهاية الى الوحدة العربية وأن الوطن العربي بموقعة الاستراتيجي وخبراته سيتمكن من استعادة امجاده واقترح للحيلولة دون ذلك بزرع جسم غريب بين شقي الوطن العربي في آسيا وأفريقيا هي اسرائيل التي ينفذ جزء كبير من امكاناتنا للحيلولة دون خطرها كان من الممكن أن تتجه نحو بناء الحضارة والتي مكنتها بريطانيا من فلسطين .

وقد عمل هؤلاء المستعمرون على إحياء النعرات الطائفية بين المسلمين والمسيحيين والإقليمية المصرية والقومية السورية والأمية الشيوعية أو الأمية الاسلامية في تونس والهدف ضرب الوحدة القومية وافتعلت المعارك بين القومية العربية والدين الاسلامي الحنيف إمعانا في التمزيق والتفتيت مع أن القرآن الكريم جاء مؤكدا للقومية الانسانية ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ والقومية العربية : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

واذا اقتصر الأمر على بعض المستشرقين ودعواتهم الخبيثة ودسهم الرخيص لهان الأمر فقد عرفنا الشر لنتقيه ولكن الأدهى والأمر أن بعض من رضعوا لبان الثقافة الغربية ونحن لا نحجب انفسنا عنها بالعقد ولا نصدها عنا بالتعصب بعض هؤلاء يرددون آراء المستشرقين هذا هو الأستاذ عبد الحميد عبد الغني مدير إدارة القضاء بالأمم المتحدة يطلع علينا في جريدة الأهرام بمقال بعنوان : قوانين التعليم بتاريخ 1971/8/13 يقارن فيه بين اللغة الانجليزية واللغة العربية قائلا : الاجرومية الانجليزية مهما تكن شيء هين يسير بالنسبة للنحو العربي الذي ما زال يتمسك مثلا بشيء لا نكاد نستعمله وهو المثنى .

اللغة الانجليزية ومثلها معظم اللغات الحية فيها مفرد وجمع ولكن تزيد زائدة لا فائدة منها بنسبة 33% باستعمال المثنى مذكره ومؤنثه وما يلزمهما من افعال ومن صفات واللغة الانجليزية فيها جمع . اما جمعنا ففيه مذكر سالم وفيه مؤنث سالم وفيه أيضا جمع تكسير . وجمع المذكر أهون أمرا من جمع المؤنث فنقول في جمع المذكر مثلا : الرجال الذين . . أما ان كن من النساء فعليك أن تعرف أنهن النساء اللاتي واللائي واللواتي وتقول في اللغة العربية هذا رجل طيب وهذه امرأة طيبة وهذان رجلان طيبان وهاتان امرأتان طيبتان وهؤلاء رجال طيبون وهؤلاء نساء طيبات ، أما في اللغة الانجليزية فتستعمل كلمة واحدة هي OOD لهؤلاء جميعا .

إنه يعد الميزة التي بواسطتها يفرق بين المعاني ويسهل الاستعمال عيبا ، لماذا لم يتحدث عن شذوذ اللغة الانجليزية وعدم اطراد قواعدها فتارة يكون الجمع بزيادة حرف (S) في الآخر ، كما في جمع طائر وطائرة بتغيير حرف في الكلمة كما في جمع رجل .

ثم يمضي في ذكر الصعوبة قائلا : على الطفل الذي يتعلم اللغة العربية في أمريكا أن يعرف حروف المعاني تلك التي تقلب المعنى رأسا على عقب ، فرغب في الشيء هي نقيض رغب عن الشيء وانصرف عن الدرس ، هي تماما عكس انصرف الى الدرس ، وهذه الكتابة بالحروف العربية إنها حروف جميلة للزخرفة ، أما للكتابة فما اكثر مشكلاتها . تتكون اللغة المنطوقة من سبعة وعشرين حرفا ولكن عندما نكتبها فان هذا الرقم يتضاعف أربع مرات فالحرف يكتب على أربع صور حسب موضعه من الكلمة في أولها أو في آخرها أو في وسطها لو كان منفصلا ، ومع هذا كله فليس من السهل قراءة ما تكتب . فان الكلمة الواحدة يمكن أن تقرأ على ثلاثة أو أربع وجوه ، كلمة ـ كتب ـ مثلا لا تعرف : أهي فعل ماض أم ماض مبني للمجهول أم جمع كتاب إلا إذا عرفتها قبل أن تقرأها إنها مشكلة جسيمة لخصها قاسم امين في جملة واحدة حين قال : في اللغات الأخرى تقرأ لكي تفهم وفي اللغة العربية تفهم لكي تقرأ .

ما وظيفة اللغة إذا لم تكن الفهم والافهام وما عيب اختلاف معنى الحرف باختلاف معناه في الجملة ، ولماذا يستنكر الحروف في اللغة العربية ولا يتحدث عن هذه الحروف الكثيرة الصامتة التي ترهقنا في حفظها في اللغة الانجليزية إذا انضم الى حرف كان له نطق خاص فاذا جيء بحرف آخر مع الحرف الأصلي تغير النطق .

أذكر أن زملاءنا مدرسي اللغة الانجليزية بمعهد التربية العالي للمعلمين عند الترجمة كانوا لا يحسنون إيجاد الكلمة العربية التي تعبر عن معنى الكلمة الانجليزية لقصور باعهم في لغة آبائهم وأجدادهم فكان يهتف بي أستاذي الدكتور ابراهيم حافظ لإسعافهم . وكانت هناك

حركات تنادي بكتابة اللغة العربية باللاتينية بحجة صعوبتها .

وهذه دعوى سبق أن نودي بها وهي حركة تبغي القضاء على اللغة .

والكاتب المذكور يعاود المناداة بها قائلا : منذ ثلاثين سنة دعا قطب من أقطاب الفكر والفقه والقومية المصرية هو المرحوم عبد العزيز فهمي إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية وقد وئدت الدعوة في مهدها كما كانت توأد البنات في عهد الجاهلية ، أما يجدر بنا أن نفكر في هذه الدعوة بعقل لا يثقله التعصب لما ألفناه ولا تقيده السلفية وشعارها الأبدي ، هذا ما وجدنا عليه آباءنا ، وكم أود أن تقوم دار من دور النشر بإعادة طبع هذا الكتاب ونشره بين الناس فإنني أظن أن معظم المتعلمين منا لم يسمعوا به ولا بالدعوة الجريئة التي دعا اليها ، سبحان الله أكل هذا الطعن والهدم يوجه الى اللغة لأن له ابنا يتعلم في أمريكا . وهل هذه الظروف تستدعي أن نفرض أن ظروف كل متعلمي العربية مثل ظروفه ، فتكون الكتابة باللاتينية سهلة عليهم ، لقد صدق الله ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴾ لأنهم يسيرون الانسان مع الهوى الجامح ناسين قول الله سبحانه : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

والآن مالي لا أنكر من النحو شيئا كأني عنه راض واليه مطمئن والواقع أن الرأي المغيب في ثنايا البحث يفهم منه أنني لا أنكر شوائب النحو من حيث تعدد الآراء وكثرة التعليل والفلسفة ولا أضيف بها لأننا بكثرة هذه الآراء تقدم زناد الفكر ونصل الى الصواب وانما المنكر الإسراف فيها والافتتان بها كما تتمثل في أسفار القرون الأخيرة قرون التزايد والتكرار فانبهمت المسائل واضطراب النظام وغمت المعالم

والأصول ، فالذي علينا أن نصنع أمران : الأول : أن نرجع النظر فيه من جديد ، لا على أنه فاسد مختل يستحق الهدم ولكن على أنه صالح مشوب يغشاه غبار الزمن ويختلف فيه الجوهر بالصدف والنافق بالزيف ، حاجته أولا وآخرا أن ننفض عنه الغبار وننفي الشوائب ونعرض عرضا جديدا نرجع النظر في أبوابه فنقدم منها ونؤخر ونضيف إليها ونحذف على نور من المنطق وتساوق النسق ونرجع النظر في مسائلة فنلغي الشروط المنقوضة ونوجد الأساليب المكررة ونطلق الأصول المقيدة عند الحاجة المقتضية وفي الحدود المرسومة على هذي من أقوال الأئمة حتى لا تصبح اللغة هدفا لبعض النزوات الجامحة والآراء الهادمة ، ولتكن لنا أسوة حسنة في أستاذنا الجليل أحمد الاسكندري رضوان الله عليه ، اذا قدم الى المجمع اللغوي مقترحاته الجليلة في الاشتقاق والمطاوعة والتعدية وغيرها .[1]

فقد رجع رحمه الله في كل أولئك المعاجم يتتبع ويستقصي والى آراء النحاة وفقهاء اللغة يستوحي ويستشهد حتى خلف من هذه وتلك بالرأي الحصيف والنتيجة المجدية ، ولم يسع المجمع الا أن تقره عليها ويأذن في نشرها فلقيت من العلماء وأهل الغيرة على العربية رضاء عاما وارتياحا شاملا واستحق الأستاذ رحمه الله ثناء جميلا وشكرا جزيلا وذكرا باقيا .

وليس يقتصر فضله فيها على جهده الجهيد وأثره الحميد في تطويع اللغة وانما ثروتها وتيسير التعبير بها ولكنه يمتد كذلك الى طريقته في الاهتداء اليها والاحتجاج لها فقد وضع بذلك دستور البحث النحوي

---

1) مجلة المجمع اللغوي .

الجديد كما ينبغي أن يكون لتنمو اللغة نموا ذاتيا باستحياء القديم واستخلاص الدقيق فتبقى على صلتها المقدورة بما فيها وتأمن عوادي الاندثار والدروس في مستقبلها .

ونرجع النظر في شواهده فتمحصها ،ونخنق روايتها ونعززها أو نتبدل بها غيرها أو نحذف منها ما نراه حقيقا بالحذف لشواهد اللهجات البائدة والزوائد اللاحقة التي لا قيمة لها ولا رجاء فيها ولا حاجة إليها.

ونرجع النظر في علله لا نبقي منها الا ما يتصل بالمعنى ويتفق مع طبيعة البيان الرفيع والذوق الصحيح فاذا ما خلصت المادة واستقامت على ما نريد رجعتها اليها ، تسلكها في نظام التأليف الحديث ونجلوها في معرض من لغته العتيدة ، عسى أن يكون بذلك سفر العصر في مكتبة النحو وندعوه فيلبي الدعوة وترغب اليه فيسعد بالطلبة في غير إعنات ولا إضاعة وقت ، وندعه أثرا بعدنا يحدث الأجيال المقبلة عن صنيعنا بالنحو وأثرنا فيه كما تحدثنا أسفار الماضيين عن صنيعهم له وأثرهم فيه .

هذه خطة مجملة لكنها فيما أرى كافية ، لأنها على إجمالها واضحة المعلوم والخطوط وأعتقد أن المقام لا يتطلب البسط والتفصيل على كل حال ، لأنه نوع من التقيد قبل الأوان والمجال الآن للنظر المجرد وما أكثر ما يخالف العمل والنظر يقتضي تغييره أو تعديله فحسبنا ذلك وكفى .

والأمر الثاني : أن نعمد الى أسفار النحو القيمة ذات المزية الخاصة فنخرجها إخراجا عصريا كريما وقد أخرج بعض كما سبق أن أشرت ولا يزال بعض تحت الاخراج ، وكلاهما قليل ،

وآخر ما أخرج كتاب (النحو المصفى للدكتور محمد فرج عبد المدرس بكلية دار العلوم الذي قدمه الاستاذ جلال العريان جريدة الجمهورية منذ شهور وجميل أن نقدم النحو الوظيفي للناشئة صافيا رائعا ولكن المؤسف أن يذم مقدم الكتاب (النحو القديم) وأمثلته التي قدمت علماء وأخرجت شخصيات لا تزال آثارهم باقية وأعمالهم خالدة فقد قدم الكتاب بعنوان كبير . سقوط (زيد) و (عمرو) من النحو العربي . ثم قال: سقط زيد وعمرو من أمثلة النحو العربي وسقطت مع هذه الأمثلة التقليدية كتب النحو التي امتلأت بالحشو واللغو من الكلام الذي لا يعطى فائدة تذكر وإنما كانت الفائدة في التجارة (هي الربح) فهي في النحو كلام مفيد وعلى هذه القاعدة وضع الدكتور محمد فرج عيد المدرس بكلية دار العلوم كتابه الجديد (النحو المصفى) كاضافة جديدة لمحاولات تصفية النحو العربي من كل ما تعلق به ، من تعقيد وإغراب في الأمثلة وفي القاعدة حتى ظن الدارسون أن اللغة العربية لغة لا تصلح للكلام العادي ولا يسهل استعمالها في الحوار اليومي ، وظهرت دعوات غربية لاستعمال العامية واتخاذها لغة تخاطب وتعامل ، ويقول الدكتور عيد : إن صورة الكتاب عاشت في عقله ووجدانه زمنا طويلا ، بدأت عندما أكدت له صحبته لكتب النحو القديمة أن هذه الكتب صعبة الفهم ويتعذر استيعابها على الدارسين والمتخصصين أنفسهم بسبب امتلائها بالحشو والفضول والمصطلحات التي لا تفيد .

ويقول إن بعض جهد القدامى مفيد وبعضه طفيلي معوق عن الوصول الى ما هو مفيد ومن هنا كان لا بد من بذل جهد مخلص يعزل المفيد من النحو والإبقاء على نحو اللغة لا نحو الصنعة .

ويؤكد الدكتور عيد أنه عاش التجربة في صورة أخرى مع

الدارسين المتخصصين من طلاب اللغة الذين ضجوا بشكواهم من النحو وصعوباته التي تتمثل في تشتت أفكاره وتجمد أمثلته وغرابه شواهده .

واذا استعرضنا الكتاب وجدنا المؤلف يبدؤه بايضاح مفهوم الكلمة والكلام وصور كل منهما لدى علماء النحو ويحصر صور (الكلام) في الجملة الاسمية الفعلية ويحصر صورة الكلمة في (الاسم والفعل والحرف) وبنفس أسلوبه السهل في العرض ينتقل الى (المعرب والمبني) من الكلمة ليدخل في رحلة شيقة مع بقية أبواب النحو .

ويقوال : إذا كانت الفائدة بصفة عامة هي أساس ما يقبل وما يرفض فهي في التجارة بمعنى (الربح) ويقصد بها في النحو أن تؤدي الجملة معنى تاما متكاملا يمكن أن يسكت عنه المتكلم ويقتنع به المخاطب .

ويستعرض المؤلف جمال اللغة العربية في كل باب من أبواب النحو ، ويشير الى بعض الطفيليات اللازمة لاضفاء هذا الجمال على موسيقا الجملة فاذا قال الشاعر :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بـأنـواع الهمـوم ليبتلي

فان المعنى رب ليل بضم الراء و (رب) حرف جر يفيد التقليل ووقوع الحدث في بعض الأحيان وقد تزيد أو تنقص كلمة أو حرف أو جملة ويكون لكل منها موقع يؤدي معنى مفيدا ويربط الدكتور عيد أمثلة كتابه بالتطور العلمي المعاصر ويستغل في ذلك معلوماته العامة بعد اسقاط كل الأمثلة التقليدية ويأتي بجديد يمكن للدارس أن يأتي بأمثلة من فكرة على منوالها . . . .

ويقول المؤلف : إنه عرض الكتاب بأسلوب علمي مدروس

فنظم الأفكار المصفاة بطريقة تصل الى الذهن متكاملة ومن أقرب طريق ، وقدمها بأسلوب منظم ملخصه في سطور قليلة ثم يعرضها في مقدمة كل باب بلا غموض واستخدم فيها أمثلة يسوقها كمعلومات جديدة تنمى عقل الدارس وتصقل وجدانه وتضيف الى أفكاره في النحو أفكارا جديدة تأتى بها هذه الأمثلة المشوقة التي تؤدي مهمتها في إفهام القواعد دون تكلف أو صنعه ولم يتجاهل ثروة النحو من الشواهد النثرية والشعرية الفنية المعنى باللفظ والبناء والموسيقى .

هذا طيب مقبول ولكن لا غنى للمتخصصين عن الرجوع الى النحو في مصادره الأولى وبأمثلته المأثورة فهي التي كونت العقليات الناضجة ولا زلنا نذكر اجابة لأحد علماء النحو حينما سئل في الفقه في مبحث العبادات : نسى شخص أن يسجد للسهو فهل يسجد لنسيانه سجود السهو فقال : لا ، وعلل ذلك بأن المصغر لا يصغر وهذه علة نحوية .

مقترحات فيما يجب أن تكون عليه كتب النحو للناشئة :

1) أرى أن تكون كتب النحوللناشئين متبعا فيها التعليمات الآتية :

1) يجب أن تكون مناسبة لاستعداد الطلاب ومواهبهم العقلية بين السهولة والصعوبة وسطا بين كتب النحو الأزهرية وكتب المدارس .

2) أن تكون متدرجة تبعا لتدرج عقول الناشئين ومبلغ استفادتهم من خبراتهم السابقة فيكون الكتاب الأول مبنيا على الاجمال ثم يؤخذ بعد ذلك في تفصيلها على التدريج .

3) أن تكون متمشية مع الطريقة الاستنباطية لقربها إلى عقول الناشئين وسلوكها سبيل النطق الصحيح .

4) أن تجنب ذكر الاصطلاحات النحوية لقواعد لم يعرفها الطالب كالموازنة بين المبتدأ أو الفاعل مثلا عند الكلام على المبتدأ وهو لم يأخذ الفاعل حتى لا يضطر الى حفظ هذه الاصطلاحات بلا فهم .

5) أن تكون حاوية لتطبيقات عقب كل باب من أنواع الكتاب في جمل مبتكرة فصيحة شائقة محسوسة منتزعة من معلومات التلاميذ في الفنون المختلفة المقررة عليهم ومن بيئتهم متدرجة تبعا لنموهم .

6) أن يكون الكتاب المقرر في كل سنة ملائما للزمن المخصص للدراسة فيها بحيث لا ينتهي العام الدراسي إلا وقد فرغ من تدريسه .

7) ترتيب الأبواب ترتيبا منطقيا بحيث لا يقدم باب واجب التأخير عن غيره .

8) جودة الطبع ، فالتشويق ليس قاصرا على الأسلوب بل جودة الطبع وحسن الورق تجعل الكتاب جذابا في منظره محببا إلى القراءة فيه من جميع نواحيه .

أمل كبير في الأزهر :

إذا كانت القبلة وجهة المسلمين يصوبون شطرها نظرهم فإن الأزهر هو القبلة الثانية التي يشع منها النوروإذا كان القرآن مائدة السماء فان الأزهر هو مائدة الأرض تتنزل بين هذا وذاك رحمة الله على الخلائق وتفيض منهما سحائب الرضا والرضوان ، وحسبك أن تتبين ذلك إذا خطوت الى فنائه ومشيت بين أروقته ووجدت الناس هناك قد اجتمعوة من كل صوب وحدب لينقعوا غلة الجوع والظمأ . . .

والمسلم اذا أخذته الغيرة على الأزهر فقام يدافع عنه انما يدافع عن تراثه الذي به يفاخر ويزهو وليس الدفاع عنه الا أن نعمل جاهدين على أن يتجه أبنائه وجهة الحق غير زائغين ولا منحرفين وأن نرغبهم في العلم وأن نعلمهم قول االمصطفى صلى الله عليه وسلم من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معا فعليه بالعلم .

وقد حمدنا لثورتنا المباركة اتجاهها الى تنظيم الأزهر ومن حسنات هذا التنظيم أنه دل على الإحساس بمكانة الأزهر الشريف تلك المكانة التي تحتاج الى العناية والاهتمام وأنه سيؤدي الى دعم مدارس

تحفيظ القرآن الكريم كما ينص على الاحتفاظ بمكانة الأزهر الشريف وشخصيته ورسالته ولكن ماذا حدث في التطبيق ؟

عند إشارة القانون الى أن طلاب المعاهد الابتدائية والثانوية سيجمعون بين المناهج الازهرية والمناهج المدرسية المدنية كان هذا الجمع على حساب علوم الدين واللغة إذ أنه لما كثرت المواد التي ربت على عشرين مادة اكتفى من الكتب الازهرية ببعضها لقد كنا ندرس بالابتدائي قطر الندى وبل الصدى وشذور الذهب كاملين كل كتاب في فرقة دراسية أما الآن فهذه الشذرات من العلوم الأزهرية ليست قمينة باخراج شخص متمكن .

وفي أول حديث مع أول وزير بالأزهر فضيلة الاستاذ الشيخ عبد العزيز عيسى منشور بالعدد 2530 بتاريخ 3 ربيع الأول **١٣٩٣ هـ** الموافق 6 ابريل 1973 كتب أحمد أبو كف[1] وقد كان سؤالي الأول حول الأزهر وحول القانون الجديد الذي بدأ منذ أكثر من عشر سنوات لتطوير الدراسة فيه وماذا أثمرت هذه السنوات وأقول للوزير : هل ترون أن قانون الأزهر بحاجة الى تعديل الآن ؟

ويرد قائلا :

«قانون السماء هو الذي لا يتغير ، لأنه من صنع العليم الخبير (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

أما قوانين الأرض قوانين البشر أو القوانين الوضعية فهي خاضعة للتغير دائما وقانون الأزهر دخل منذ سنوات مرحلة التجربة وقد أثبتت

---

1) ص 56

الممارسة صلاحية جانب منه وحاجة الجانب الآخر الى شيء من التعديل .

وليس من شك أن بعض الأهداف التي تراد منه لا يزال محتاجا الى علاج .

ونرجو أن يكون إنشاء وزارة جديدة لشئون الأزهر معينا على ذلك كما نرجو أن ننتفع بما أسفر عنه عند التطبيق في المرحلة السابقة وأن نحاول تثبيت ما يكفل له لسلامة الحركة في المرحلة القادمة . وهذا جواب غني عن كل تعليق .

ان رسالة الأزهر الشريف الأساسية هي صيانة علوم الدين وعلوم اللغة ونشر الاسلام والدفاع عن تعاليمه والازهري لا يتقن هذه العلوم الا إذا قضى في الأزهر ما يقرب من خمسة عشر عاما ، ونحن نريد من الأزهر أن يخرج علماء في الدين ودعاة للاسلام وحراسا للغة القرآن وآدابها وهي رسالة ضخمة ليس بالكثير أن يتخصص فيها الأزهر وليتنا نركز العناية والاهتمام على تمكينه من كافة الأسباب والوسائل المادية والأدبية التي تجعله قائما بهذا التخصص في إتقان ومهارة .

إن الجامعات المدنية أولى بهذه الكليات العملية ومن الميسور لنا ذلك بفتح أبواب الكليات الجامعية أمام الراغبين والصالحين من طلاب الأزهر بعد أداء امتحان المعادلة المناسبة ومن الميسور لنا ذلك أيضا بتقرير نصيب من الثقافة الدينية في الجامعات المدنية ، ومن الميسور ذلك أيضا بأن نجعل الراغبين الصالحين من خريجي الجامعات المدنية يأخذون دراسة تكميلية في كليات الازهر بعد أداء امتحان المعادلة اللازمة أيضا وحسنا فعلت الجامعة الأزهرية بانشاء كلية الدراسات

الاسلامية التي يلتحق بها الطلاب من المدارس المدنية والمعاهد الأزهرية بعد الحصول على الثانوية العامة ، وانه لمن يمن الطالع أن يكون على رأس الأزهر عالم جمع بين الثقافتين العربية الأصيلة والغربية العميقة هو فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود الذي وضح رسالة الأزهر في حديث اجراه معه الأستاذ ابراهيم البعثي في عدد المصور 2532 بتاريخ17 ربيع الاول 1393 الموافق20 ابريل سنة1973 قال المحقق الصحفي :

قلت لفضيلة الامام الاكبر : وبالنسبة للأزهر الشريف . . ماذا سيكون عليه في الغد حسب تصورك ؟ قال : أتصور أن يكون الأزهر كما كان باستمرار عاملا على :

1) نشر الثقافة الاسلامية الأصيلة .

2) وإحياء الشعور الاسلامي الصادق .

3) وتقوية ملكة اللغة العربية .

4) وجمع كلمة المسلمين .

5) وأن يقوم بالعناية الكاملة بالأقليات التي في مختلف الأقطار مثل الفيلبين وغيرها .

6) وأن ينجح في أن يجعل الناس كلها تشعر بأن الأزهر بمثابة الأب الروحي للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

ولا يجوز أبدا أن يعيب عائب الكتب الاسلامية والعربية التي سطرها فحول السلف لأن هذه الكتب هي الكنوز التي تخرج عليها كما

قلنا الأعلام في الماضي وفي الحاضر ولا ينكر فضلها الا جاهل بها او عاجز عن العلو الى مستواها ومن لم يربط حاضره بماضيه لم ينتفع بحاضره ولم يسعد بمستقبله .

والدليل على أن الأزهر كان وحده المدرسة القادرة على تخريج علماء عرب قادرين على التطوير ليس في أن مصر لم تجد مؤرخا الا الشيخ عبد الرحمن الجبرتي فقد يرد على ذلك بأن الأزهر كان وحده في تلك الفترة ولكن . . عندما بدأ (محمد علي) نظام المدارس الحديثة واختار نخبة من طلبة النظام الجديد وقرر إرسالهم بعثة الى أوربا ليكون أداة نقل الحضارة الغربية اختاروا لهم (حرصا على تقاليد البلاد) ولتهدئة خاطر المتعصبين فقيها يعلمهم الصلاة وأرسلوه معهم فكان هذا الشيخ وحده هو الذي تمثل الحضارة الغربية وأفرز عملا فكريا ترك بصماته على الفكر الغربي حتى مطلع القرن العشرين ذلك هو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي .

بل ان كل المنعطفات الفكرية البارزة في تاريخنا سواء أكانت مع أو ضد التراث يقف على رأسها شيخ من الأزهر .

وغيرتنا عليه تدفعنا الى أن نكون الصخور التي تتحطم عليها معاول الهادمين فكم عملية تجفيف برزت تصد عنه الرواد بجعل الوظائف من خريجي التعليم الحديث الذين ارتبطت بهم المكانة الاجتماعية .

ولكن ذلك عهد قد مضى ولن يكون له استمرار في عهد دولة العلم والايمان . .

قم يا أبا السادات لب الندا   فقد تنادت ساعة الجد

وقـل لـهم أدوا رسـالاتـكـم | بـالـعلم والايـمـان والـكـد
فـالله لا يـرضى على عبـده | ان لم يـر الايمان في العبد

ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول في الأزهريين العدول الأعلام الفحول الثقاة :

واخشع مليا واقض حق أئمـة | طلعوا به زهرا وماجـوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالـة | وأعـز سلطانـا وأفخم مـظهـرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم | حرم الأمان وكان ظلهم الذرا
من كل بحر في الصريعة زاخر | ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

ثم ينكر على من غشى عيونهم البرق الخاطف (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون) .

لا تحـذ حذو عصـابة مفتـونة | يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا في المجامع انكروا | من مات من آبائهم او عمـرا
من كل ماض في القديم وهدمه | واذا تقـدم للبنـايـة قصـرا
وأتى الحضارة بالصنـاعة رثـة | والعلم نـزرا والبيـان مشـرثـرا

وأمل في الجامعة العربية :

اننا نطمئن روح الشاعر المرحوم حافظ ابراهيم في عليائها بأن قد آن الأوان للعودة الى لغتنا العربية وأن نزيح الرغام عن المعدن النفيس ليبدو لألاؤه مشعا ينير العقول ويأخذ بالأبصار :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية — وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة — وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن — فهل سألوا الغواص عن صدفاتي ؟

سنقول له إن اللغة العربية لن تعجز عن إيجاد كلمات موسيقية رنانة ذات معنى لكل جديد واننا لن نهجرها . .

أيهجرني قومي ـ عفا الله عنهم — الى لغة لم تتصل بـرواة
سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى — لعاب الأفاعي في سيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة — مشكلة الألوان مختلفات

إن للجامعة العربية مكتبا دائما لتنسيق التعريب في الوطن العربي ولهذا المكتب علاقات بكل الدوائر العلمية في الوطن العربي في الخارج لمتابعة كل جديد في المصطلحات العلمية وتعريبها ليصبح لنا علوم عربية خالصة .

وقد زار القاهرة في هذا الشهر مايو 1973 العالم السوري الجليل

الدكتور ممدوح حقي[1] الملقب بذي الثقافتين بسبب دراسته الجامعية والأزهرية غير ست لغات يجيدها إجادة تامة وله خمسة وستون مؤلفا بعضها يعتبر مرجعا ممتازا في تخصصات متعددة ، وآخرها (المثل المقارن) وفيه جمع ألف ومائة مثل انجيزي وقارنهم بالأمثال العربية بأقاصيمها وهو يشغل الآن منصب كبير الخبراء أو مدير مساعد فني للمكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي وهو أحد أنشطة جامعة الدول العربية في مجال الثقافة والمكتب الدائم للتعريب له نظام ينص على أن يعقد مؤتمر علمي كل ثلاث سنوات وفي آخر هذا العام سيعقد مؤتمره في الجزائر وسيدعى إليه من كل دولة عربية سبعة علماء على الأقل متخصصين في موضوعات المعاجم التي يجري العمل فيها الآن وذلك لمناقشتها وتوحيد المصطلحات العلمية بين العرب بقصد اقرارها والمعاجم التي تعد حاليا تتناول علوم الكمياء والفيزياء والحيوان والنبات والرياضيات والجيولوجيا والبترول .

وقد قوى هذا المكتب الإحساس بين مجموعة الدول العربية في شمال افريقيا بخطورة الغزو الثقافي الغربي واللغات الأوربية على الشخصية القومية العربية وبدأت كل دولة تؤكد شخصيتها بأشكال متعددة . وفي عام 1961 عقدت الجامعة العربية مؤتمرا في الرباط بدعوة من الملك محمد الخامس لتخليص المغرب من الثقافة الفرنسية ولتعريب العلوم والثقافات الاجنبية .

وفي عام 1968 التحق المكتب رسميا بالأمانة العامة للجامعة العربية .

---

1) المصور العدد 2536

وفي عام 1973 أصبح جزءا رئيسيا من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وتبنيه كاملا جامعة الدول العربية ، ويدير المكتب عالم مغربي جليل معروف هو السيد عبد العزيز بن عبد الله وهو في نفس الوقت شيخ طريقة صوفية لها أتباع يعدون بالملايين وله كتاب (تفصيح العامية) وهو دراسة للجهات العامية وتقريبها ويساعده مديران مساعدان أحدهما إداري وهو العالم المغربي محمد بن زيان والثاني فني وهو الدكتور ممدوح حقي والمؤتمرات التي يعقدها المكتب هي المؤتمرات الوحيدة التي تخلو من الخطابة ومن الإعلام ويحضرها الصحفيون كمراقبون فقط ويبدأ المؤتمر العمل التخصص على الفور فالعضو المشترك يرسل اليه المعجم قبل موعد المؤتمر بستة أشهر للدراسة المتأنية قبل بدء المناقشات وبعد إقرار كل مصطلح يصبح شائعا ومتداولا وموحدا في العالم العربي وهو يعد من الأن للمؤتمر التالي في عام 1976 في القاهرة ويصدر مجلة سنوية اسمها (اللسان العربي) في نحو 2000 صفحة في مجلدين وأحيانا في ثلاثة مجلدات يحررها علماء متخصصون في اللغات والمعاجم وتوزع على الدوائر العلمية والعلماء مجانا . ويقوم المكتب باصدار معاجم علمية بلغ عددها حتى الأن 15 معجما سيعرض منها سبعة معاجم على مؤتمر التعريب القادم في الجزائر .

كما أصدر ثلاثة كتب منها مخطوط نادر في المنطق العربي (المقولات العشر) للبليدي الجزائري وكتاب (متخير الألفاظ) وثالثها كتاب (المثل المقارن) .

ويعمل المكتب على تكوين دائرة معارف عربية شاملة ويقدر الانتهاء منها في نحو عشرين عاما ويعد الآن تحت الطبع واحد من أهم

معاجم المعاني باسم (لآليء العرب) وهو 6 آلاف صفحة ولخصه (د. ممدوح حقي) في ألف صفحة ومؤلف هذا العمل العظيم سوري اسمه خليل رزق ظل يعمل فيه ثلاثين عاما وهو موظف صغير يعمل بالجمارك وقد رفض أن يتقاضى ثمنا عن مخطوط والده في مقابل ان يقدم إضافة عربية الى المعرفة العربية وكلها مجهودات تدل على مقدار اعتزازنا باللغة العربية إحدى مقومات القومية العربية .

ودولة الاتحاد . . . .

ولقد جمعت اللغة العربية الأمة العربية كلها منذ التقت طلائعها الأولى في الجزيرة العربية جمعت تاريخهم ووحدت نضالهم وساهمت في خلق شخصية مستقلة لهم وظلت أداة التخاطب عبر التاريخ[1] .

(ولما اتسعت أطراف الدولة العربية وبعد ان عدا الاستعمار عليها وقطع أوصالها ظلت اللغة العربية صامدة تتحدى الاستعمار واستمرت على مدى العصور ذات طابع فكري وذات طابع ثقافي وتميزت عن غيرها من اللغات بأن لها تراثا باقيا أكثر من أية لغة أخرى فنحن ما زلنا نقرأ الشعر الجاهلي الذي وضع من أكثر من خمسة عشر قرنا ما زلنا نتذوقه ونتغنى به ونتفهمه وهذه ميزة كبرى لا نجدها في أية لغة أخرى ، فإذا رجعنا للغة الانجليزية الى عشرة قرون قل من تجد من يفهمها وحتى لو وجدنا من يفهمها فيندر أن تجد من يتذوقها وكذلك الحال بالنسبة للغات الحية الأخرى، فاللغة العربية فيها مرونة وحيوية فكرية ومقدرة على البقاء والاستمرار وقد كانت مصدر قوة كبيرة في توحيد ثقافتنا العربية فتوحدت ميول العرب وتقاليدهم ومعاملاتهم

1) الجمهورية العربية المتحدة للدكتور عبد القادر حاتم .

الاجتماعية ومن ثم فقد كانت ولا تزال مقوما اساسيا من مقومات القومية العربية)[2] .

وبعد إعلان الاتحاد بين الجمهوريات مصر العربية والعربية الليبية والعربية السورية ببنغازي في ابريل عام واحد وسبعين وتسعمائة والف وشكلت اللجان المختلفة للعمل على الوحدة الاندماجية بين الجمهوريتين الأوليين والتي تقرر إعلانها بمشيئة الله في سبتمبر من سنة الف وتسعمائة وسبعين وثلاث اولى مجلس دولة اتحاد الجمهوريات العربية موضوع التعريب اهتماما بالغا لايمانه بأن اللغة العربية قادرة على مواكبة الفكر والثقافة بحكم مساهمتها في المد الحضاري وقدرتها أيضا على التعبير ، فقد أوحى المجلس في أكثر من اجتماع على ضرورة التعريب للمناهج وعما ينعكس على الوطن العربي من خلاله من تأثير وجود هذه الأمة العريقة التي أعطت للعالم من فكرها وحضارتها ما لم تقدمه أمة أخرى من الأمم .

ويسير الإقليم الغربي من دولة الاتحاد بخطوات فساح في هذا المجال حيث قطع شوطا لم تقطعه أية دولة عربية أخرى ، وأعطت درسا لعدد من الدول العربية التي ما زالت تستخدم اللغة الاجنبية في معاملاتها اليومية وتمتلىء شوارعها وصحفها بالأسماء الاجنبية وبذلك استطاعت الثورة العربية الليبية أن تعيد الى اللغة العربية مكانتها التي كانت مفقودة على أرض عربية مما جعل الكثيرين من الذين يغارون على هذه الأمة يتقبلون هذا العمل بالرضا ، كان آخرهم « علال الفاسي » عندما أصدر بيانا طالب فيه الحكومة المغربية بتطبيق اللغة العربية في

2) مقومات اللغة العربية للدكتور سليمان حزين .

المغرب والاهتمام بالتعريب مستشهدا بدور الجمهورية العربية الليبية في هذا المجال .

وذهبت الجمهورية العربية الليبية الى أقصى من ذلك حتى انها طلبت من الأجانب الذين يرغبون في زيارتها أن تحمل جوازات سفرهم معلومات باللغة العربية تقوم بذلك وهي تؤمن بأن لغة هذه الأمة قد دبرت ضدها الحملات الكثيرة من الاستعمار والقضاء عليها وحتى تقرر أن تكون للغة العربية المكانة التي تليق بها تكون قد قدمت لأمتها عملا جليلا وقطعت الطريق أمام المحاولين الذين يريدون طمس اللغة العربية بين أبنائها بل أجبرت العشرات من الدول على الاعتراف باللغة العربية في جوازات السفر وتبني علاقتها بالدول على أساس تقدير لغتنا الحبيبة ووضعها في مكانتها اللائقة بين اللغات العالمية ، فقد اعترفت بالمانيا الشرقية لذلك .

وبذلك تكون الجمهورية العربية الليبية قد أدت واجبها حيال اللغة العربية ويبقى الآن أن نتساءل عن مواقف الدول العربية عامة ودولة الاتحاد خاصة بشأن حملة تعريب تعيد الى اللغة العربية مكانتها ، فاذا كان هناك وعي سياسي فلا بد أن يسبقه وعي لغوي وما تزال أجهزة الاعلام في جمهورية مصر العربية الحبيبة تستخدم الكلمات الأجنبية بوفرة في الأخبار والإعلانات وبالاضافة الى ذلك عشرات الشوارع ودور الخيالة التي تحمل اسماء اجنبية حتى ان المذيعات يفضلن استخدام الكلمات الأجنبية في البرامج واللقاءات التي يقدمنها مثل كلمة «مرسي» و « سوري » وما شاكل ذلك من ألفاظ دخيلة تسهم في قتل اللغة العربية هذه اللغة التي هي لغة القرآن الكريم .

انه ليحز في أنفسنا أن لغتنا تطعن في البيت والشارع وفي كل

مكان حتى انه وصلت بنا الحماقة والجهل اننا نرفض التعامل باللغة العربية مثل ما يحدث في تونس حيث يفضل بعض الأخوة هناك استخدام اللغة الفرنسية .

ودولة الاتحاد إزاء هذا وهي تشق طريقها نحو إرساء دعامة دولة عربية قوية ترى من الواجب أن تصدر قانونا يحرم استخدام الكلمات الأجنبية وبخاصة في أجهزة الإعلام، لأننا بذلك نعطي لوجودنا قيمة ولحياتنا دعامة ، وعلينا ان نأخذ من الدول الأخرى عبرة حيث يولون لغتهم اهتماما ولا يتنازلون عنها ، فاليابانيون والصينيون سابقوا الدول في التقدم العلمي والتقني وأثبتوا أن العلم ليس حكرا على اللغة الانجليزية أو الفرنسية أو غيرهما وهو ما يجعلنا نحن العرب نؤمن بهذه اللغة العظيمة وبقدرتها على مسايرة العلم ولنعلم أن العدو الصهيوني الذي يتمركز على أرضنا ويهدد وجودنا جعل من لغة كانتمنتهية منذ ألفي سنة لغة تدرس بها العلوم في الجامعات والمدارس فلماذا فعل ذلك ولم يقلد غيره ؟

إن الذين يحاولون أن يقولوا إن اللغة العربية غير قادرة على مسايرة العلوم هم مخطئون والذي يهمنا في هذه المرحلة هو تصحيح ما نسمعه ونقرؤه ونراه يوميا من كلمات أجنبية كان الواجب أن تعطى الرنين والفكر العربي ولا تستعمل كما تلقيناها أو تعلمناها من الاستعمار . .

إن المواطن العربي الحر المؤمن بوجود هذه الأمة يتساءل الى متى تبقى الإهانة توجه الى اللغة العربية في أجهزة إعلامنا العربية وفي شوارعنا والغريب أننا أحرار على أرضنا ونمتلك زمام امورنا وكلنا يعرف جيدا ما حاول الاستعمار أن يقوم به في مسخ لغتنا ، وما قام به في الجزائر لخير شاهد امامنا ولكن لا بدلنا أن نحيي الثورة الجزائرية حول

ما تقوم به من حملة تعريب شاملة تبشر بالخير وتنبه النائمين .

وعندما نطالب بالتعريب فليس معنى ذلك ان لا نتعلم اللغة الأجنبية وأن يمنع تدريسها بل نطالب بأن تعطى لها الأهمية وتوفر لها كل الامكانات في المدارس والجامعات والمعاهد .

نقول هذا والأمل كبير في أن نرى الكلمات الأجنبية وقد اختفت وأن تعطى اللغة العربية أهميتها في دولة الاتحاد بإجراءات سريعة كالتي تمت ولا يمكن تحقيق ذلك بالقرارات والتوصيات فقط وإنما بالعمل الجاد والإخلاص وصدق النوايا في تنفيذ هذه القرارات لنكون بالتالي قد اعطينا لوجودنا دفعا قويا نحو إحياء أمة عربية عريقة ، فهذا هو الأساس وهذه هي الأرضية التي يقوم عليها كل اصلاح هو سبيل القضاء على كل ضعف حتى نفهم كل معنى خصب عناه النحوي من غير أن يصرح به وانما لفت اليه بالاعراب الذي أورده على غير ما يتبادر ، ولنتلو بلفظ معبر وفكر مسموع قوله سبحانه ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ .

حلول لتذليل صعوبة القواعد

اذا سلمنا بناء على النتائج بصعوبة قواعد اللغة العربية مع اعترافنا بأن القواعد صعبة في كل اللغات ، وتمتاز اللغة العربية بالتشعب والشمول لقدرتها على التعبير عن مختلف المشاعر والأحاسيس ، ففي الامكان تقديم بعض الحلول التي تذلل الصعب وتهون العسير فلا زالت الشكوى قائمة من ضعف مستوى الدارسين في اللغة العربية بمدارسنا وجامعاتنا وهذه مشكلة مزمنة طال عليها الأمد وحارت العقول في البحث عن علتها والإشارة الى موطن الداء فيها ، وأقصى ما كانت تمتد إليه يد الإصلاح في هذه المشكلة هو الكتب المدرسية والمصطلحات النحوية ثم يعجب المصلحون حين يرون هذا الإصلاح لم يؤت ثماره المرجوة ويشاهدون انحدار المستوى يوما بعد يوم كأننا أمام بئر ينضب ماؤ ها بالتدريج ولا شيء يرفدها ويصلح من شأنها ولو استمر الحال على ذلك لجاء يوم قريب تشيع فيه الأمية بين جملة الشهادات العليا الذين قال عنهم أحد المستشرقين الألمان : إنهم لا يقيمون جملة عربية ولا يدرون شيئا عن تراثهم ولم يقرءوا للجاحظ ولا لابن قتيبة أو للمبرد ومن انهم من أعلام العربية وتلك للأسف حقيقة واقعة ، وإذا أردنا تشخيص العلة لنصف الدواء .

لقد كانت هناك عدة لهجات قبل الاسلام في الشمال والجنوب وعند قريش تتباعد أو تتقارب للظروف الاجتماعية والاقتصادية والحربية والمكانية والزمانية ولكن هذه اللهجات انصهرت في لهجة قريش

لمقصد العرب إياها ولقيامها برحلتي الشتاء والصيف، فلما ظهر الإسلام وجاء القرآن الكريم بهذه اللهجة المصقولة طار بها في أنحاء الجزيرة العربية فصارت لغة واحدة تتسم بالقوة والاتساع وتعبر عن حاجات الحياة والفكر والعلم والأدب جميعا . إلا أن هذه اللهجات المختلفة تركت أثرا واضحا في اللغة يمثل صعوبة في تعليم اللغة العربية إذ فتح الباب واسعا أمام الأختلاف وغذى المدارس النحوية ، ولما انتشر الإسلام ودخل غير العرب فيه شاع اللحن وخيف على القرآن فأشار علي كرم الله وجهه على أبي الأسود الدؤلي بأن يصنع أصول وقواعد علم النحو ففعل ما استطاع ولكن أمرا للحن تزداد خطورته وتتسع أبوابه حتى ليقول عبد الملك بن مروان : لقد أشاب رأسي وقوف المنابر وخوف اللحن وحتى ان الخلفاء يرسلون أولادهم الى البوادي حيث اللغة ذات الورد الصافي والمنبع الراقي غير الملوث باللحن ليعيشوا اللغة ويحيوا بين أبنائها يلقنون عنهم ويقيمون ألسنتهم على طريقتهم .

ان لذلك دلالتين هامتين : انتشار اللحن وذيوعه ، والدلالة الثانية أن الخلفاء والأجراد عرفوا أن القواعد وحدها لا تقيم الألسنة ولا تحمي من اللحن وانما يقيم اللسان ويصونه من الخطأ أن يمارس اللغة ويتعود الفصاحة .

لقد كان هذا شأن لغتنا قبل الاسلام وبعده الى منتصف القرن السابع الهجري حيث سقطت بغداد في أيدي التتار وحيث ازدادت انقاسامات العالم الاسلامي فماذا كان أمر اللغة العربية أيام المماليك والعثمانيين والاستعمار الغربي بما يمكن أن نطلق عليه عصور الضعف ؟ .

ان اللغة العربية مظهر من مظاهر الوحدة العربية وأصل من أصول

القومية العربية ومنطقي أن يحاربها من ليسوا عربا ومن لا يؤمنون بالعروبة ومن ليس في صالحهم أن تنبض فيها عروق الحياة :

فمماليك مصر لم يكونوا عربا ولم يكن لهم الحس اللغوي والتذوق الأدبي لها ، وان العثمانيين أتراك يتعصبون لقوميتهم وللغتهم وان الاستعمار الغربي كان أسوأ من هؤلاء جميعا لأنه يحارب الاسلام أيضا ، ولأنه كان يخطط لابتلاع العرب والقضاء عليهم ولن يتأتى له تفكيكهم وابتلاعهم والقضاء عليهم الا بمحاربة لغتهم . لقد فعل هذا بالجزائر وحاول هذا في غير الجزائر .

والترجمة من اللغات الأجنبية إلى لغتنا العربية لها جوانب مضيئة ولا شك فقد مرت لغتنا بكثير من مظاهر القوة وساعدت على تخلصها من السجع المتكلف والمحسنات البديعية المتصنعة وأسرعت فأدخلت إليها القصة والمسرحية وغذتها بالخيال الخصب ولكن لها أيضا جنايات على لغتنا العربية هي اختلاط العرب بالأجانب .

لقد أضحى عندنا الكثير من الكلمات الدخيلة والاستعمالات الطارئة ، ولقد جنى المنطق اليوناني على بلاغتنا فأشبعها تفريقا وتقسيما ووضعها في قوالب جامدة وشغلنا بالنظريات عن التطبيق في النقد .

إذن فالصعوبات في تعلم اللغة العربية جمة كثيرة يتمثل أكثرها فيما يأتي : ـ

- 1 اختلاف اللهجات قديما وقد فتح الباب أمام النحاة ومذاهبهم .

2 ـ الكلمات الدخيلة والاصطلاحات الأجنبية والتعبيرات الطارئة .

3 ـ الإعراب وضبط أواخر الكلمات .

4 ـ الوضع الاجتماعي للغة العربية ، لأن الاستعمار حاربها على اختلاف ألوانه وأزمانه .

5 ـ جمود البلاغة بعد عبد القاهر الجرجاني .

6 ـ ضخامة التراث وتعدد اتجاهاته ومذاهبه .

7 ـ مزاحمة العامية للغة العربية في خارج المعاهد التعليمية وفي داخلها .

8 ـ نظم التقويم وبخاصة خلو الامتحان من الجانب الشفوي .

ولا يقصد بالصعوبات أنها عقبات وعوائق وانما يقصد بها أوضاع معينة تحتاج الى جهود كبيرة وتعاون من الجميع واخلاص .

أما كيف نتغلب على هذه الصعوبات ونذللها فتحتاج الى شيء من التفصيل :

2 ـ فاختلاف اللهجات وما أدى اليه من اختلاف النحاة ينبغي أن تتفرغ له الجامعات المتخصصة في ذلك ولا شأن لطلابنا الا بما يؤدي الى النطق السليم ، وينبغي أن تخلو كتب القواعد في مدارسنا فيه (النحو المصفى) الذي أشرنا إليه .

2 ـ وأما الكلمات الدخيلة والاصطلاحات الأجنبية والتعبيرات

الطارئة ولا شك أنها تمثل خطورة على لغتنا العربية فينبغي أن يلقى العبء في ذلك على مجامع اللغة العربية والمتفرغين لهذه الدراسات ، وعلى معلمي اللغة العربية أن يتابعوا ذلك وينتفعوا به ويرشدوا طلابهم اليه وعن طريق الطلاب يشيع الاستعمال في الصحف والإذاعة والكتب .

3 ـ أما الإعراب فحقيقة يمثل صعوبة في تعليم اللغة العربية وتعلمها ولكن علاج ذلك يمكن في القراءة أكثر من تدريس القواعد النحوية ، لأن القراءة هي الممارسة الحقيقية للغة الفصحى وهي المعوان الصادق على تصحيح اللسان المعوج وتقويم النطق الخاطىء وما دام اللسان قد تعود أن ينطق الكلمات والجمل نطقا فصيحا ، فدور القواعد إنما هو في القانون الذي يرجع إليه وقت الحاجة للتثبت من صحة الاستعمال ، ويجب على القائمين على اللغة العربية أن يعنوا بالقراءة ووقتها ومادتها وكتابها وطريقة الاختبار فيها ، فأول ما يلفت النظر في مشكلة دراسة اللغة الأدبية أننا نهتم في تعليمها بالقواعد ونجعل مقياس إجادة اللغة البراعة في حفظ المصطلحات النحوية والتفنن في عد مسوغات الابتداء بالنكرة وشروط مجيء الحال معرفة وأحوال الصفة المشبهة وما الى ذلك .

كل هذه الأمور وأمثالها يرددها التلميذ بلا وعي وينساها عقب الفراغ من الامتحان ، ولا يبقى منها في ذهنه الا التندر على صعوبة اللغة العربية وما لاقاه في تعلمها من عنت ومشقة .

وانني لست بهذا أحط من أهمية قواعد اللغة وقد تمشت من النحويين الأيام والليالي العديدة بل الأشهر والسنوات ، وأرجوا أن أكون قد وفقت في أن أدفع تهمة تجريهم وراء الإعراب من غير أن يحفلوا

بالمعنى ، فان فهم المعنى هذا هو الوسيلة الصحيحة لبناء الجملة واعرابها ، وهذه هي وظيفة القراءة ، التي أريد أن يكون لها المقام الأول قبل القواعد فتلك هي الفطرة التي جبل الإنسان عليها في تعلم اللغة فانك لا تعلم طفلك طريقة النفي في العامية ، لتقول له : إذا أردت أن تنفي فاستعمل (ما) ثم أتبعها بالفعل ثم ألحق بالفعل شيئا مثل : ما عرفش وما نامش وما لعبش وغير ذلك ، بل الذي يحدث أنك تتكلم أمام طفلك وهو يحاول أن يحاكيك ويقلدك ،وعندما يخطىء في هذه المحاكاة وذلك التقليد لا يجد من حوله من يشرحون له القاعدة وانما يكررون الصواب أمامه ، وهكذا عن هذا الطريق وحده يلم الطفل بتراكيب اللغة ومعانيها حفظا وفهما ويهضم كل ذلك ثم يقيس عليه ، ويكتمل نضج لغة التخاطب عنده في وقت قصير دون أن يعلم شيئا عن قواعدها وقوانينها وضوابطها .

واذا كان هذا هو المنهج الفطري في تعلم اللغة فلماذا لا نفيد منه في تعلم اللغة الأدبية ؟

حقا ان اللغة الأدبية لا يتكلمها الناس في كل وقت حول التلميذ كما يتحدث بالعامية من يحيطون بالطفل في كل حين . ولكن هناك طريقا آخر يقوم مقام السماع وهو طريق القراءة ، قراءة النصوص الأدبية القديمة وما نسج على نمطها في العصور المختلفة ، قراءة واعية صابرة مع حفظ الكثير والكثير جدا من هذه النصوص الجيدة شعرا ونثرا ، وفي هذه الحالة تتكون الملكة القادرة على محاكاة هذه االنصوص وإجادة استخدامها .

ولقد فطن الى هذه الفطرة الطبيعية في تعلم اللغة العلامة ابن خلدون فقال في مقدمة كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر : «ووجه

التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسماعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظة لكلامهم من المنظوم والمنثور ، منزلة من نشأ بينهم ، ولقن العبارة منهم . . وعلى قدر المحفوظ وكثرة الأستعمال، تكون جودة المقول المصنوع نظما ونثرا . ومن حصل على هذه الملكة فقد حصل على لغة مضر (يقصد اللغة الفصحى) وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها » .

ولقد نادى بمثل ما نادي به ابن خلدون من اطراح تعليم القواعد والعناية بقراءة النصوص الكثيرة وحفظ الجيد منها عالمان من علمائنا المحدثين وهما : الشيخ محمد عرفة في كتابة (مشكلة اللغة العربية) لماذا أخفقنا في تعليمها وكيف نعلمها «المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٤٥ ، والأستاذ خليل السكاكيني الذي نشر مقالة بعنوان : (النحو) في مجلة مجمع اللغة العربية عام ١٩٥٣ ولكن صرخة كل واحد منهما وللأسف صرخة في وأن ونفخة كل منهما للعجب نفخة في رماد .

كما ينبغي أن ينشأ الطفل على حب القراءة والاستمتاع بصحبة الكتاب وهنا لا بد لعصمة لسان المتعلم من الخطأ في القراءة الحرة بعيدا عن محيط المدرسة فنضع أمامه نصوص اللغة مضبوطة ضبطا تاما بالشكل ، وانني لأعجب حقا من تهاوننا في طباعة هذه النصوص بلا شكل أحيانا وببعض الشكل أحيانا أخرى ! اننا بهذا الخطأ الخالي من التشكيل نفهم أولا لكي نقرأ قراءة صحيحة وفي كل لغات العالم يقرأ الناس ليفهموا . وان هذا الخطأ الخالي من التشكيل هو المسئول عن

الخطأ في ضبط بنية الكلمة ، وهو الذين يجعل كثيرا من الناس ينطق كلمة (عرف) بفتح العين وكسر الراء ، والصواب فتحهما ، وهو الذي تجعلهم يقولون تبعا لكذا على وزن كذا طبقا لكذا ، وينطقون الفعل يعني بكسر العين : النون عنا ـ والفعل (حرص) بكسر الراء والصواب فتحهما . . الخ فلماذا لا نقضي على هذه الآفة بتشكيل جميع النصوص تشكيلا كاملا فيتعود التلميذ على النطق السليم لأبنية الكلام وهو ما لا يضبط بقاعدة في كثير من الأحيان ولا بد فيه من السماع !

وللأستاذ عبد الحميد حسن في كتابه القواعد النحوية : مادتها وطريقتها[1]

بحث ممتع في طريقة تدريس القواعد يقرب مما ذكرناه من قراءة الأساليب العربية السليمة وفهمها أولا ثم إدراك ما بينها من علاقات ثم تأتي القواعد سهلة بعد ذلك .

يقول : «والطريقة العامة التي ستتخذها أساسا لتعليم القواعد النحوية هي الطريقة العلمية التي ترتكز عليها اللغة ويتبع تعليمها منها ورائدنا في هذا حقيقة لا ريب منها ، وهي أن القواعد النحوية إن هي إلا خصائص للغة العربية تلازمها في أوضاعها وفي جميع أحوالها وتصطبغ بها أساليبها وعباراتها ، فالطريقة التي تثبت هذه الأساليب في الأذهان وتطبعها في اللسان وفي الأذن ستكفل لنا إيضاح هذه الخصائص ومزجها بعقول المتعلمين وطبعها في أذهانهم ، وتصل بنا الى تحقيق الغاية المنشودة ، بل ان هذه الأساليب هي هيكل اللغة ومعدها فاذا استطعنا أن نظفر بوسيلة تملك زمامها ونروض شامها فان هذه الوسيلة نفسها هي

1) عبد الحميد حسن طبعة 1953 مكتبة الانجلو المصرية مطبعة العلوم 163 الخليج مصر .

التي تمكننا من تعليم القواعد وتذليل صعبها)

وان من يتصفح المنهج الذي وضعته وزارة المعارف سنة ١٩٣٥ للسنة الثانية الابتدائية ليجد في توجيهات منهج القواعد أن الجمل أساس قوي لتعليم الإنشاء والنحو معا ، ولو كانت الهزيمة قد اتجهت الى تعميم هذه الفكرة وهي إنشاء الجمل وإشاعة عناصرها في تعليم القواعد في جميع المراحل ، أو أغلبها بشيء من البسط والتدرج الملائم لكان ذلك أجدى ولكان عونا على إخراج دروس القواعد من دائرتها الجافة المقيدة الى ميادين فسيحة شيقة تنبع فيها من الجمل الصحيحة ومن الأساليب اللغوية التي تستخدم بالفعل في شئون الحياة ، فالطريقة التي ستتبعها شبيهة بالطريقة الاستنباطية ، أو بطريقة إنشاء الجمل من بعض الوجوه وهي الطريقة الطبيعية التي ينبغي أن تعلم القواعد في كل تعليم اللغة وفي ثنايا تعليم التعبير السليم .

إن اللغة في رأي التعليم الناجح هي المعاني التي تتحلى في مظاهر من الألفاظ فالمعاني إذن هي اللغة ولبها وهي التي نقصد إليها في تعليم الناشئين وهي التي ينبغي أن تقودنا في معالجة العقول ، أما هذه التراكيب والألفاظ التي لا ترتبط بحياة المتعلم ولا تصادف معانيها مكانا من نفسه فلا تعد لغة تعليمية وأغلب الظن أن منشأ التعلم بأمثال هذه التراكيب الجوفاء إنما هو ذلك التفسير الذي نحاول اجتنابه للغة وهو أنها الألفاظ التي تحوي المعاني فان اعتبار اللغة ألفاظا تجعل هم المعلمين متجها الى تعلم ألفاظ يحاولون البحث عن معانيها وليس هذا هو الطريق الناجح الطبيعي بل الطريق الطبيعي الناجح هو أن يدرك المتعلم الحقائق أولا ثم يقرن ذلك بما يدل عليها والفرق بين الحالتين شاسع في التعليم ، فتعليم اللغة انما هو تعليم حقائق الحياة ثم تقييدها في

الأذهان بهذه الرموز التي اصطلح عليها بنو الانسان ويظهر أثر ذلك فيما سنعرض له من وسائل في تعليم اللغة والقواعد وتخبر الأمثلة التي تساعد على تحقيق الغرض المنشود .

إن هناك عوامل نفسية تساعد على تعليم اللغة وأهم هذه العوامل :

المحاكاة والتكرار والتشويق :

فالمحاكاة والتكرار دعامتان في تعليم كثير من ألوان المعرفة ولا سيما في المراحل الأولى حيث لا يقوى الطفل على الاستقلال بتعليم اللغة ويكون محتاجا الى التلقين والارشاد والتشويق هو الميدان الصالح الذي تجول فيه المحاكاة بل هو في ميدان التعليم اشبه بالهواء الصالح الذي لا تتم الإفادة بدونه وهذه العوامل الثلاثة مشروحة في مباحث علم النفس والتربية شرحا وافيا وسنتناولها بإيجاز :

فالمحاكاة غريزة لها عظيم الأثر في حياتنا الفردية والاجتماعية وفي تعليم التعبير وتذليل صعاب اللغة فهي من أقوى الوسائل التي يلجأ إليها الانسان ، لأن المحاكاة من طبيعة الطفل وليست المحاكاة شيئا آليا خاليا من الغرض بل إنها تتدرج الى أنواع وافية تسير في كنف الإرادة بإرشاد الفكر وتتجه الى بعيد الغايات وسامي المقاصد ، ويرجع أثر المحاكاة الى احكام الصلة بين مراكز الاحساس ومراكز الحركة في الجهاز العصبي حين يحاكي الانسان عملا رآه أو تخيله .

والتكرار وهو وسيلة لا غنى عنها في التعليم واذا لاحظنا أن اللغة هي عادات نسبية علمنا ما للتكرار من شأن في تثبيتها فهو عماد لجميع

العادات بأنواعها العلمية والعقلية والخلقية كما هو معلوم وان الالتجاء الى التكرار في تعليم اللغة وتثبيت تراكيبها وأساليبها وخصائصها يتطلب هوادة وحزما حتى لا يكون التكرار مملا .

والعامل المهم هو التشويق الذي له شأنه في التربية فهو من أقوى دعائمها وسر من أسرار النجاح في التعليم ولذلك اتخذته عونا على حب العمل والرغبة في التعلم ، لأن الطفل يتطلع الى دنيا من التشويق والسرور والجمال فينبغي أن ترعى التربية هذا الميل وتغذية بما هو ملائم من الوجهين اللفظية والمعنوية فان امتزاج العبارات بالنفس وقوة أثرها انما يتوقف على قبولها واساغتها :

انما تنجح المقالة في المرء اذا صادفت هوى في الفؤاد

وليس التشويق تفكها كما يتبادر الى الأذهان ولكنه مساعد على تركز الانتباه الغريزي ووسيلة لبذل الجهود وسبيل لجعل التعلم مرتكزا على الرغبة وليس موجها للسهل الهين دائما بل انه يترابط بجلائل الأعمال في الحياة وهو كالضوء الذي يسير المتعلم على هداه ،

وللتشويق صلة بالمحاكاة وبالوجدان والإرادة فالطفل إذا ترك على سجيته حاكي ما يشوقه فهو كالحادي للمحاكاة يحفزها ويوقظ نشاطها .

واما صلته بالوجدان فانه ناحية منه فالتشويق في صميم وجدانه ، لأن الانسان حين يحس ان الشيء شائق يشعر بأن باعثا يجتذب اليه انتباهه فيقبل عليه ويلبي داعيه ، واذا نشط الشوق وتيقظ الوجدان استطاع المعلم ان يسيطر على القوة الدافعة للوجدان التي هي من اهم البواعث في الحياة .

وطرق التشويق

أ ـ ان يكون الشيء جديدا مشابها للمألوف حتى لا يكون غير مألوف غريبا .

ب ـ جعل التلميذ محورا للتفسير والشرح وإشعاره أن ما يجيء به المعلم نابع منه ومن البيئة والحياة .

جـ ـ الاهتمام بأن تكون المادة التي نعالجها مرآة تنعكس عليها نفس التلميذ وميوله .

د ـ التنويع مع الاحتفاظ بالوحدة أو الوحدة المتنوعة أو التنويع الموحد .

هـ ـ البدء بالميول الفطرية والاستعانة بهائم التدرج في ربط الحقائق بها .

و ـ مسايرة الكتاب الدراسي للطريقة التي يسلكها المعلم متضمنا الوحدة المتنوعة ، ولا بد للشوق من المثابرة التي تتسلم الزمام ويكون لها السلطان فعلى المعلم أن يوثق الصلة بين المثابرة وبين الشوق فان هذا هو خير ما يوصل الى الغاية المنشودة .

ونرى أنه يجب أن تتحقق في الكتاب المدرسي هذه الشروط :

1 ـ يجب أن تكون كتب النحو مناسبة لاستعداد الطلاب ومواهبهم العقلية ، بين السهولة والصعوبة وسطا بين كتب النحوالأزهرية وكتب المدارس .

2 ـ أن تكون متدرجة تبعا لتدرج عقول الناشئين ومبلغ استفادتهم

من خبراتهم السابقة فيكون الكتاب الأول مبنيا على الاجمال ثم يؤخذ بعد ذلك في تفصيلها على التدريج .

3 ـ ان تكون متمشية مع الطريقة الاستنتاجية لقربها الى عقول الناشئين وسلوكها سبيل المنطق الصحيح .

4 ـ تجنب ذكر الاصطلاحات النحوية لقواعد لم يعرفها الطالب كالموازنة بين المتبدأ ـ والفاعل مثلا عند الكلام على المبتدأ وهو لم يأخذ الفاعل حتى لا يضطر الى حفظ هذه الاصطلاحات بلا فهم .

5 ـ أن تكون حاوية لتطبيقات عقب كل باب من أبواب الكتاب في جمل مبتكرة فصيحة شائعة محسوسة منتزعة من معلومات التلاميذ في الفنون المختلفة المقررة عليهم ومن بيئتهم متدرجة تبعا لنموهم .

6 ـ أن يكون الكتاب المقرر كل سنة ملائما للزمن المخصص للدراسة فيها بحيث لا ينتهي العام الدراسي إلا وقد فرغ من تدريسه .

7 ـ ترتيب الأبواب ترتيبا منطقيا منظما بحيث لا يقدم باب واجب التأخير عن غيره .

8 ـ جودة الطبع فالتشويق ليس قاصرا على الأسلوب بل ان جودة الطبع وحسن الورق تجعل الكتاب جذابا في منظره محببا الى القراءة فيه من جميع نواحيه .

ويجب ان ننوه بشأن عامل عقلي له مكانته في تعليم القواعد النحوية ذلك هو الاستنباط الذاتي الباطني وإدراك حقيقتها فالاطفال والكبار يدركون كثيرا من الكليات العامة كحقيقة الشجرة والمنزلة والكتاب وغير ذلك من الكليات العامة في علم المنطق ويلمون بمعناها

العام بمرور الجزئيات على أفكارهم ويسيرون في هذه الحكرة الفكرية طبقا للمراحل المعروفة في الإدراك الكلي وهي الملاحظة ، الموازنة ، التجريد ، التعميم ، التسمية ، فالطفل اذا ترك وشأنه للتراكيب الصحيحة التي تعبر بها سمعه وتتخذها وسيلة للتعبير عما يصل اليه من تجارب وحقائق فانه يستطيع أن يدرك القواعد النحوية إدراكا مقرونا بالتطبيق العملي ولا يكون الفرق بين ما يصل إليه من هذا وبين الذي نتعمد عليه اياه من القواعد في دروسها الخاصة سوى الإصطلاحات والتعاريف وليست هذه بالكبيرة الأثر في الغرض الذي من اجله تدرس القواعد .

فقد وضح أن خطب القواعد هين يسير إذا نظرنا اليها نظرة طبيعية وعالجناها معالجة طبيعية خالية من المواصفات الاصطلاحية وقصدنا اليها عن طريق التراكيب السليمة ولم ننظر اليها تلك النظرة الى الظواهر المستقلة التي تعالج وحدها في دروس خاصة وسرنا في تعليمها طبقات لغاية نرسمها ونسعى لتحقيقها في وضوح ويسر.

4 ـ أما الوضع الاجتماعي للغة فهو أثر من آثار الاستعمار على اختلاف الوانه وما دمنا قد عرفنا الداء فقد سهل علينا الدواء ، فعلينا ان نتسلح بالوعي وأن نزيل هذا الأثر وأن نعني باللغة وأن نحذر من ألاعيب المستعمر الذي لا يزال يحاول غزونا فكريا ويضعف من ثقتنا في لغتنا .

5 ، 6 ـ أما جمود البلاغة وضخامة التراث فينبغي أيضا أن نعالجهما عن طريق المتفرغين لهذه الدراسات في الجامعات ، وعلى كبار الأساتذة والمؤلفين والنقاد أن ينزلوا الى مستوى طلابنا ويأخذوا بأيديهم ويبصروهم .

7 ـ ومزاحمة العامية للفصحى أمر خطير ولكن علينا نحن معلمي اللغة العربية أن نروض أنفسنا على الصر وطول الاحتمال ، ولا يغيب عن أذهاننا أن محو الأمية وانتشار التعليم وجهود الإذاعات والصحافة والتزام اللغة الفصيحة في مجالات التدريس لكل المواد ، وترديد الأناشيد ، كل ذلك من العوامل التي ترسم مستوى اللغة العربية وتمهد السبيل للأساليب الصحيحة والتعبيرات السليمة .

8 ـ أما التعليم الابتدائي فلا ينبغي أن نستهين بأمره فأثره على المراحل التالية وبخاصة في اللغة العربية خطير ، ويجب أن نقلل من كثافة الفصول وأن نختار أنسب الطرق في التدريس وأن نكثر من الوسائل التعليمية كالأصوات المسجلة بصوت قوي ونبرات واضحة ونطق سليم وعبارات فصيحة كما يفعلون في البلاد الغربية مع أطفالهم ويجب أن يساعد البيت المدرسة فاتفاقهما واجتماعهما لتكامل شخصية التلميذ ويجب أن يدرك الآباء أن أبناءهم ليسوا دجاجا يربى بل هم مسئولية فيجب تعهد تنشئتهم وتقوية ضعفهم والأخذ بيدهم لا عن طريق الضغط بل عن طريق الترغيب والتشويق كما سبق أن تحدثنا .

ويعجبني كثيرا ما ينشر هذه الايام من أخبار الزيارات المفاجئة التي يقوم بها وزير التربية والتعليم لبعض مدارسنا الابتدائية ، لكي يرى بنفسه ما وصل إليه مستوى التعليم الابتدائي هذا المستوى الذي ادى الى انتشار الأمية بين كثير من تلاميذه الذين وصلوا الى الصف السادس منه ، وفي رأيي أن هذا المستوى مسئول مسئولية كبيرة عن هذا الضعف العام الذي نلحظه في المستوى الثقافي عند المتعلمين في مراحل التعليم المختلفة .

والسر في ذلك . . يكمن في نظري في عاملين أساسيين هما

نظام التعليم الابتدائي ومناهجه وتوعية المدرس الذي يشرف على صوغ هذه العجينة اللينة : أبنائنا وبناتنا لكي يكون مواطنا صالحا أو شيطانا ماردا .

أما نظام التعليم الابتدائي ومناهجه فهناك ركنان فيه قد انهارا تماما بسبب نزعات التجديد ومحاولة التقليد الأعمى لما عند غيرنا من النظم والمناهج .

وانني بهذا الكلام لا أحرم النظر عند الآخرين من نظم تعليمية ومحاولة تجربتها في مدارسنا ولكنني أحارب الإصرار على انتهاج نظام تعليمي ثبت فشله عندنا بحجة أنه ناجح عند الآخرين .

أما الركنان اللذان انهارا بسبب تلك النزعات التجديدية فهما انعدام حب القراءة عند الأطفال وتعود الطفل منذ الصغر على النجاح الرخيص أو قل انتقاله من فرقة الى فرقة أعلى مكافأة له على قضائه عاما دراسيا بين جدران المدرسة ، كأنه فيه هو والكرسي الذي يجلس عليه سواء ، لا مكافأة له على تحصيله وجده واجتهاده ، اما انعدام حب القراءة عند الأطفال فيرجع في نظري رغم كل مما يكن أن يقوله المدافعون عن هذا النظام الى تلك الطريقة المسماة (بالطريقة الجملية) وفيها يبدأ الطفل بقراءة الكلمة كاملة ، دون معرفة بتفاصيل حروفها وأسماء تلك الحروف وتعتمد هذه الطريقة على ما ركب في طبيعة الانسان من قدرته على إدراك الأشياء جملة قبل أن يحيط بتفاصيلها وهم يشبهون ذلك بمن يلقي نظره سريعة على حجرة مفروشة فانه يدرك أن فيها سريرا ودولابا وكرسياغير أنه لن يستطيع بهذه النظرة أن يتحقق من الأشياء الكثيرة الدقيقة في السرير والدولاب والكرسي . . . الخ كل ذلك مقنع وجميل غير أن هذا النظام لم يفلح للأسف في تطبيقه

على تعليم اللغة العربية وأصبحنا نرى في أطفالنا شيئا عجيبا لم يكن مألوفا في جيلنا عندما كنا في مثل سنهم هو أنهم وحتى مرحلة متأخرة في المدرسة الابتدائية لا يستطيعون قراءة كلمة لم تكن في ضمن الكلمات التي تعلموا قراءتها على تلك الطريقة الجملية ، وبذلك يتعثرون في قراءة قطعة صغيرة يمر فيها بين الحين والحين امثال تلك الكلمات الجديدة فتتعقد نفوسهم الصغيرة ويكرهون القراءة يكرهونها الى الأبد .

نعم قد يقال : ان المفروض في الطريقة الجملية أن تنتهي بتفصيل حروف الكلمة ومعرفة مكوناتها غير أن ذلك لا يحدث للأسف على الوجه المرضى ، ومن المعوقات الكبرى في هذا الصدد كما سبق أن أشرنا ما درجنا عليه من كتابة الكلمات عارية عن التشكيل حتى في هذه الفترة المبكرة من حياة الطفل ، لقد يستطيع هذا الطفل أو ذاك أن ينطق كلمة سمع نطقها وتعلمه في مدرسته غير أنه يقف عاجزا مكتوف الأيدي أمام كلمة أخرى لم يقرأها من قبل حتى وإن عرف حروفها وهجاءها ، ذلك لأن رموز وصف الأصوات في الكلمة مفقودة تماما ، فكلمة مثل (ضرب) لا يدري الطفل كيف تنطق ، لأنها تحتمل عدة أوجه من القراءة بسبب عدم ضبطها بالحركات ، وهذا معوق آخر عند القراءة يزيد من كراهية الطفل للتعليم وتحبط العملية التعليمية ، ولقد أدى عدم الاهتمام بضبط النصوص التي توضع بين يدي الطفل الصغير الى فقدان القيمة الصوتية لرموز الحركات بين المتعلمين بهذه الطريقة ولقد قرأت مقالا للدكتور رمضان عبد التواب الأستاذ المساعد للدراسات اللغوية بجامعة عين شمس بجريدة الأخبار بتاريخ الثاني من صفر سنة ثنتين وتسعين وثلثمائة وألف الموافق السابع عشر من مارس عام ألف وتسعمائة وسبعين واثنين ميلادية بعنوان : علموا أبناءنا القراءة

بطريقة أفضل قال فيه : (ولقد قمت بتجربة مثيرة على من تعلموا بالطريقة الجملية بين طلبة قسم اللغة العربية بكلية الآداب إذ عرضت عليهم جملة (المدرسة في المدرسة) خالية من رموز الحركات ونطقتها أمامهم بوضوح وطلبت منهم أن يضبطوها بالشكل الكامل في أوراق وزعتها عليهم وذهلت إذ كانت النتيجة أن حوالي 80% منهم لم يفلح في ضبطها الضبط الصحيح كما أنني عرضت على طائفة منهم نصوصا مضبوطة ضبطا كاملابالحركات فلم يستطع كثير منهم أن يقرأ قراءة خالية من الخطأ لفقدان هذه الرموز ودلالتها الصوتية في أذهانهم .

هذه مأساة يجب تداركها على الفور وبلا أدنى تردد ، لأننا اذا أنشأنا أطفالنا على كراهية القراءة قضينا على مصدر مهم من مصادر الثقافة في الأمة لأنه ليس في وسع امة من الأمم أن تعيد على مسامع أطفالها كل تفاصيل خبرات الأقدمين والطريق الموصل الى اكتساب هذه الخبرات ، كان وما يزال في الدرجة الأولى هو القراءة المستفيضة الواعية رغم انتشار الأجهزة السمعية الأخرى ، فاذا تعطل هذا الطريق ضاع كل شيء .

أما الركن الثاني الذي انهار في هذه العملية التعليمية فهو عامل الترغيب والترهيب أو قل سنةالحياة وطبيعة البشر ومنهج الأديان السماوية في أن (من يزرع يحصد) ومن يزرع الشوك لا يحصد به العنب ، ومن هنا وجب الاهتمام بالمعلم الذي يستطيع أن يضع الندى في موضع الندى والسيف في موضع السيف ، فالمعلم هو الذي يشكل حجر الزاوية في هذه المشكلة الخطيرة والدول المتحضرة تعني عناية فائقة به فتختار للتدريس في المرحلة الابتدائية أكفاء المدرسين ومن حصلوا قدرا كبيرا من العلم وأثبتوا كفاءة عالية في النزول الى مستوى

تلك البراعم الغضة يشكلونها في مهارة فائقة مواطنا صالحا قادرا على هضم تراث البشر والاندفاع به الى الأمام .

لقد قرأت أن معظم مدرسي هذه المرحلة في المانيا ممن حصلوا على درجة (الدكتوراه) في التربية وعلم النفس ، والدولة تكرمهم فتمنحهم أعلى الرواتب ، ليعيشوا في حالة استقرار وقناعة ورضى وهي حالة لا بد منها لكل من يرعى الأمانة ويؤدي واجبه في تشكل هذه العجينة اللينة ، والترقية هناك تتم من المراحل العليا الى هذه المرحلة للسبب نفسه ، فماذا عندنا في هذا المجال ؟ إن هذه المرحلة عندنا في ذيل المراحل من ناحية مستوى الكفاءة الأساسي والمستوى المادي فمن ناحية مستوى الكفاءة الأساسي ، لا يزال ما يقرب من سدس المدرسين في هذه المرحلة من حملة الثقافة العامة والكفاءة الاعدادية والابتدائية والصلاحية والخبرة وشهادة العفة وما الى ذلك وما ننتقص من قدرهم وفيهم كل مرب فاضل ، ولكن فاقد الشيء لا يعطيه ، ونحن نريد المدرس الكفء الراغب رغبة صادقة في نفع طلبته متحملا العناء والصبر في توصيل المعلومات الى أذهانهم لا يسمعهم إلا الصحيح من القول ليكون قدوة حسنة لطلابه ومثلا أعلى يحتذونه في تعبيره وبيانه ، ويجب عقد المؤتمرات التي تبحث المشكلات التي تعّن للمدرسين وإيجاد الحلول لها .

وليست الحال في الجامعة خيرا منها في هذه المرحلة فمعظم الطلبة يدخلون اقسام اللغة العربية في كليات الآداب ومعاهد العربية مرغمين تسوقهم اليها مجاميعهم الضعيفة بعد أن تفوز كليات الطب والهندسة والعلوم والصيدلة بالمجاميع العالية وبين من يدخلون هذه نوابغ في اللغة العربية فصاحب المجموع العالي في العادة نابغة في كل

شيء فلا بد من وضع نظام للحوافز كتحسين مستوى المعلم ورصد مكافآت سخية لطلبة اللغة العربية على أن ينتقي الطالب الذي يتمتع بهذه المكافأة من بين ذوي الاستعدادوالموهوبين في الميدان اللغوي والا فلننتظر أن يتخرج هذا الطالب الأعرج بعد أن يرسب سنة ويطفوا أخرى لينشر الجهل بين صفوف التلاميذ ويقذف الى الجامعة بأجهل منه وما خريجوها ببعيدين عنا .

إن اخترنا المعلم على هذه الأسس فسيلقنهم العلم وهو قريب اليهم يلعب معهم دون ان يلعن الزمن الذي حكم عليه ان يقوم بهذه المهنة الشاقة مهنة القرداتي .

9 ـ ونصل بذلك الى علاج الصعوبة الأخيرة وهي طرق التقويم ، والواجب إعادة النظر فيها وإفساح المجال للإمتحان الشفوي لأن اللغة وعاء الفكر ومعنى هذا أنها شكل ومضمون أو لفظ ومعنى ولا يمكن الفصل بينهما ، لأنهما كوجهتي العملة الواحدة أو كشقي المقص ليس احدهما أقطع من الآخر ، واللغة قائمة أصلا على النطق ومعتمدة على اللسان والخراج وإخراج الحروف من مخارجها الأصلية وما الكتابة الا رموز لها وليس معنى هذا أن نهمل الرموز أو الكتابة وإنما يجب أن نعني بهما معا . .

والامتحان سواء أكان تحريريا أم شفهيا ليس شرا كما هو شائع بين الناس وإنما الشر في طقوسه وانقلاب معاييره ، ومتى كان الغرض منه هو الوقوف على مدى تحصيل الطفل واختيار الطريقة التي تتبع في تعليمه ، كان أمرا ضروريا لتقييم العملية التربوية كلها وبذلك لا يتعود الطفل ذلك النجاح الرخيص أو الانتقال من فرقة إلى أعلى بلا مجهود يبذل كما أن ذلك يكون حافزا للمعلم على بذل أقصى طاقة مع

تلاميذه هو في الواقع اختبار له ولطريقته في التدريس ، فقد ترتب على إلغاء الامتحانات في كثير من فرق المدرسة الابتدائية أن أهمل المعلم والتلميذ وأصبح في كل بيت مدرسة أخرى تقوم بمساعدة الطفل إن أريد له ان يتخطى العقبة الكبرى أو امتحان الشهادة الابتدائية .

وبعد ، فاللغة العربية حية وقوية ومرنة ومطيعة وغنية بالاشتقاقات وقادرة على التعبير عن مطالب الحياة وحاجات الحضارة والدليل القوي على حيويتها أنها ثبتت على الأيام ولم تندثر أو تنحصر كغيرها من اللغات التي كانت تجاورها قديما كالسريانية والعبرية ، ويكفي أنها لغة القرآن الكريم الذي حفظه الله بلغته العربية إذ يقول سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

ولعلى لا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن الأمة العربية اليوم بأبنائها ومصلحيهاوبحقوبها وحكوماتها في أشد الحاجة الى بعث هذا الوعي اللغوي السليم الذي افتقده الكثيرون فكانت لهم أمام أعيننا مواقف غريبة متناقضة .

إن كل دعوة الى بناء المجتمع العربي مهما تلبس من أثواب وتنشر من أفكار روحية أوسياسية او وطنية أو اجتماعية أو ثقافية . . إذا لم يكن للغة فيها نصيب فهي دعوة متناقضة أو ناقصة .

إن كل دعوة الى نهضة الأمة العربية ـ مهما يكن أمرها وشعارها إذا لم توفر للغة العرب أسباب نهضتها فهي دعوة بتراء .

إن كل حماية للأمة في حدود أوطانها وصد العدوان عنها إذا لم تكفل بحماية لغتها من الضياع والاضمحلال والمزاحمة فهي حماية ناقصة . .

ولست أقول هذا مبالغة في قيمة الوعي اللغوي ولا تعصبا مني للغة العربية التي رضعت لبانها صبيا واعتصرت ثمرها فتيا وهصرت عودها كهلا ، ولكنه الحق الذي يأخذ حكم المبدأ العام وينطبق على جميع اللغات .

إنه المبدأ الذي ينطبق على العرب حين كانت لهم لهجات فوحدها لهم الاسلام تحت راية القرآن ، وينطبق على الألمان حين غزاهم نابليون وجزأ بلادهم فقام فيهم فيلسوفهم (فيخته) يبعث فيهم وحدة اللغة أساسا لوحدة الأمة .

بل ان التاريخ ليقدم لنا أمثلة كثيرة لأمم غزاها الاستعمار وشتت شملها فإذا هي ـ وقد أخفق كل سلاح ـ تعتصم بوحدة لغتها وتتخذ من لغتها رمزا للكفاح ومقاومة الدخلاء وهل ننسى ـ نحن أبناء هذا الجيل ـ كيف كنا نتخذ من بعض الأناشيد العربية رمزا لاعلان المقاومة السلبية والنضال أيام العدوان الثلاثي على مصر لقد كنا نلجأ الى النشيد فتمدنا كل لفظة فيه وكل نبرة منه بقوة جديدة . . لقد وقف جمال عبد الناصر على منبر الأزهر يقول : سنقاتل فتلقفنا هذه الكلمة فنظمناها شعرا

سنقاتل لن نفنى أبدا   سنناضل وسنبني بلدا

وكانت الكلمة أقوى من طلقة الرصاص

انا النيل مقبرة للغزاة   أنا الشعب ناري تبيد الطغاة
أنا الموت في كل شبر إذا   عدوك يا مصر لاحت خطاه

كانت هذه الكلمات تمدنا بالعزيمة والثبات فتثور كرامتنا وتتنبه مشاعرنا وننطلق لدحر الطغيان مستهينين بكل تضحية ولو بالزكي الغالي من دماء الشهداء . . .

لمصر وجارات مصر الخلود وأرض العروبة بنت السباع
الى كل باغ يمس الحدود سنمضي ونحن الأسود الجياع[1]

وما حدث في مصر حدث مثله في البلاد العربية حدث في سورية التي كان أبناؤها يتخذون من بعض الأناشيد العربية قوة لاعلان المقاومة الشعبية والنضال أيام الفرنسيين لقد كانوا يلجئون الى النشيد فتمدهم كل لفظة فيه وكل نبرة منه بقوة جديدة وكانوا يكررونه مرات ومرات فاذا هو يبعث فيهم غاية النشوة والاعتزاز ويفعل في نفوسهم ما لا يفعله السحر . . ان سماء الشام لتذكر يوم كانت أصوات الشباب في هذه الديار ترتفع بنشيد :

يا ظلام السجن خيم اننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل الا فجر مجد يتسامى

ولكم سمعنا أن سلطات الاستعمار حرمت إنشاد نشيد معين . وهل هي تفعل ذلك إلا لأن الأناشيد الوطنية تصبح في الأيام الحالكة معينا للقوة لا ينضب وسلاحا في يد الأمة ولسانها وعقلها وقلبها لا يضل وإلا فلماذا ينبغي أن يكون لكل أمة نشيد رسمي بلغتها القومية تسميه نشيدها القومي أو الوطني وهي تحتفي به يتوقف لدى انشاده قادتها حتى رئيسها الأول وتستقبل به كبار ضيوفها الرسميين . . . أليس ذلك لأن

(1) يذكرنا هذا بما روي عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه قال : لقد كانت نفسي تحدثني بالفرار من المعركة فما كان يثبتني فيها الا ترديد أبيات لعمرو بن الاطنابة :

أبت لي همتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وامساكي عن المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح

الاعتزاز بهذا النشيد اعتزاز باللغة القومية وبالوطن والتراث الذي تمثله لغة النشيد كنشيدنا .

الله أكبر فوق كيد المعتدي والله للمظلوم خير مؤيد
أنا باليقين وبالسلاح سأفتدي بلدي ونور الحق يسطع في يدي

ان العرب ليجتمعون على حب العربية اجتماع الأقوام على حب الأديان والأوطان ، بل إن العربية هي الوطن الروحي لأبناء الأمة الواحدة وإذا كانت الأرض التي تجمع أبناء الأمة فوق ترابها تسمى وطنا فان اللغة التي جمعت بينهم في اللسان والفكر هي وطن روحي آخر . . .

وبعد فاللغة العربية حية وقوية ومرنة وطيعة وغنية بالاشتقاقات وقادرة على التعبير عن مطالب الحياة وحاجات الحضارة والدليل القوي على حيويتها أنها ثبتت على الأيام ولم تندثر او تنحصر كغيرها من اللغات التي كانت تجاورها قديما كالسريانية والعبرية .

ويكفي انها لغة القرآن الكريم الذي حفظه الله بلغته العربية وسيظل محفوظا الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

إن الوصول باللغة العربية الى الغاية المرجوة والأمل المنشود هدف يعمل له كل القائمين عليها وغاية ينشدها المخلصون لها وسيتغلبون على العقبات وسيذللون الصعوبات بتوفيق الله ما دام الاخلاص رائدهم وماداموا حراسا على لغة القرآن الكريم ، اعانهم الله ومهد أمامهم الظروف .

(والحمد لله اولا وأخيرا ، والحمد ° الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

(المراجع والمصادر)

أولاً : المخطوطات :

1 ـ اصول النحو السماعية للدكتور محمد فتح الله 8351 رسائل كلية اللغة العربية .

2 ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب لابن حيان الأندلسي تحقيق الدكتور مصطفى النحاس .

3 ـ اعراب القرآن لأبي جعفر النحاس تيمور .

4 ـ اعراب القرآن السابق نسخه مخطوطة 178 تفسير تيمور دار الكتب .

5 ـ الاغفال لأبي علي الفارسي مخطوط رقم 699 تفسير دار الكتب .

6 ـ (أي) أنواعها واستعمالاتها . بحث ماجستير لصاحب هذه الرسالة .

7 ـ تمهيد القواعد . ناظر الجيش رقم 349 نحو دار الكتب .

8 ـ خطبة ديوان الأدب للفارابي مخطوط بدار الكتب .

9 ـ الدر المصون للسمين الحلبي نسخة رقم 384 تفسير تيمور .

10 ـ سيبويه والكتاب للدكتور احمد السيد غالي .

11 ـ السيرافي مخطوط بدار الكتب .

12 ـ الفراء وأثره في النحو للدكتور ابراهيم عمر هندية ـ رسائل كلية اللغة العربية .

13 ـ اللمع لأبي القاسم عبد الواحد بن علي العكبري . مخطوط دار الكتب رقم (5) .

14 ـ ما خالف فيه المبرد سيبويه للدكتور عبد العاطي محمد مصطفى (رسائل الكلية) .

15 ـ المسائل الخلافية في النحو للعكبري (مخطوط بدار الكتب) .

16 ـ مشكل القرآن لابن قتيبة ـ نسخة بدار الكتب .

17 ـ معاني القرآن . أبو جعفر النحاس مخطوط 385 تفسير .

18 ـ معاني القرآن للزجاج نسخة 11 تفسير دار الكتب .

ثانياً : المطبوعات :

vel	اسم الكتاب ومؤلفه والمطبعة كلما أمكن
1	أبو زكريا الفراء : الدكتور احمد مكي الأنصاري مطبوعات المجلس الأعلى .
2	الاتقان : جلال الدين السيوطي . طبعة ثالثة . مطبعة الحلبي .
3	أثر القرآن الكريم في تطور النقد العربي . الدكتور محمد زغلول سلام طبع دار المعارف .
4	أثر القرآن الكريم في اللغة العربية : الأستاذ أحمد حسن الباقوري .
5	احياء النحو . المرحوم الأستاذ ابراهيم مصطفى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1935 .
6	أدب الكتاب . أبو محمد يحيى الصولي . المطبعة السلفية 1341 هـ .
7	أسرار العربية . ابن الأنباري . مطبعة الترقي بدمشق .
8	الأشباه والنظائر في النحو . السيوطي . طبع الهند .
9	اعجاز القرآن للرافعي . مطبعة الاستقامة . طبعة سادسة .
10	اعجاز القرآن للباقلاني تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي . ط . صبيح .
11	الاعجاز للقاضي أبي بكر بن الطيب .

12 الإعراب عن قواعد الإعراب تحقيق رشيد العبيدي . دار الفكر . ليبيا .
13 الاقتراح للسيوطي . طبع الهند . طبعة ثانية 1953 الانجلو المصرية .
14 الامتاع والمؤانسة . أبو حيان التوحيدي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
15 إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات . العكبري . طبعة أولى . الحلبي .
16 أنباه الرواة . القفطي . تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم مطبعة دار الكتب .
17 الانتصاف أحمد بن المنير (هامش الكشاف للزمخشري) مطبعة الحلبي عام 1948 .
18 إلايضاح في علل النحو لأبي القاسم الزجاجي تحقيق مازن المبارك طبع دار العروبة .
19 البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . القاضي محمد بن علي الشوكاني . مطبعة السعادة 1348 هـ أولى .
20 البحر المحيط . لأبي حيان . مطبعة السعادة طبعة أولى 1328 هـ .
21 البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم . طبع الحلبي .
22 بغية الوعاة . السيوطي . مطبعة السعادة . طبعة أولى .
23 البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف . طبعة دار المعارف 1965 .

24 البيان القرآني للدكتور محمد رجب البيومي سلسلة البحوث الاسلامية الكتاب 31 الشركة المصرية .
25 البيان والتبيين للجاحظ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ط ثانية .
26 تاريخ بغداد . الخطيب البغدادي . مطبعة السعادة 1931 .
27 تاريخ الفلسفة الاسلامية . ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة .
28 ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة . للشيخ طاهر الزاوي الطرابلسي مطبعة الاستقامة ص 59 .
29 تفسير الطبري . تحقيق محمود محمد شاكر . طبع دار الكتب المصرية .
30 التفسير البياني . الدكتورة بنت الشاطىء . ط . دار المعارف .
31 تفسير القرآن الكريم حمزة وعلوان وبرانق . ط . دار المعارف .
32 تلخيص الخطابة لابن سينا .
33 الجامع لأحكام القرآن . طبع دار الكتب .
34 الجمهورية العربية المتحدة . الدكتور محمد عبد القادر حاتم .
35 حاشية الأمير علي المغني . مطبعة الحلبي .
36 حاشية الصبان على الأشموني .
37 الحاوي للفتاوي لجلال الدين السيوطي . دار الطباعة المنيرية .
38 حسن المحاضرة للسيوطي . المطبعة الشرقية .
39 الحيوان . للجاحظ .

40 خزانة الأدب للبغدادي تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون المطبعة السلفية .
41 الخصائص . ابن جني . طبع دار الكتب بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار .
42 خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم . الدكتور محمد رجب البيومي الكتاب 43 .
43 دائرة المعارف الاسلامية . ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس وزملائه .
44 دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي . طبع دائرة المعرفة ببيروت .
45 دراسات تطبيقية للمرحوم الأستاذ عبد السميع شبانه . الطبعة الثانية 1965 .
46 الدرر الكافية . ابن حجر العسقلاني . ط . الهند . أولى . مطبعة الفتوح .
47 دلائل الاعجاز . لعبد القاهر الجرجاني .
48 رأي في بعض الأصول اللغوية والنحوية للأستاذ عباس حسن 6391 - 2392 هـ دار الكتب .
49 الرد على النحاة . ابن مضاء القرطبي تحقيق الدكتور شوقي ضيف مطبعة دار الفكر العربي .
50 رسالة الغفران . تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء . دار المعارف بمصر .
51 روح المعاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي . تحقيق الدكتور طه الزيني . دار الزيني .

52 الزمخشري للدكتور أحمد محمد الحوفي . مطبعة دار الفكر العربي 1966 .

53 شذرات الذهب في أخبار من ذهب . ابن العماد الحنبلي طبع 1935 هـ .

54 شرح ابن عقيل . تحقيق محمد محيي الدين . مطبعة السعادة 1964 .

55 شرح الأشموني . مطبعة الحلبي .

56 شرح الرضى على الكافية . مطبعة مجمع الرضى 1275 هـ .

57 شرح شذور الذهب لابن هشام تحقيق محمد محيي الدين . مطبعة يوسف محمد .

58 شرح شواهد المغنى للسيوطي بتحقيق الشيخ محمد محمود أمين التلاميذ التركزي الشنقيطي . مطبعة الفكر - ليبيا .

59 شرح شواهد سيبويه . الأعلم الشنتمري . نسخة مصورة . هامش الكتاب المطبعة المنيرية الدمشقية .

60 شرح المفصل لابن يعيش . مطبعة الحلبي . دار الطباعة المنيرية .

61 الشعر والشعراء . ابن قتيبة بتحقيق أحمد محمد شاكر .

62 الصاحبي في فقة اللغة . طبعة المؤيد 1328 هـ .

63 ضحى الاسلام للأستاذ أحمد أمين . مكتبة النهضة . طبعة خامسة .

64 طبقات الشافعية للسبكي .

65 طبقات النحويين واللغويين . الزبيدي . تحقيق محمد أبي الفضل طبعة أولى 1954 . مراجع دار الكتب .

66 العربية . يوهان فنك . ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ، ط 1951 .
67 العمدة في صناعة الشعر ونقده . أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني مرابن هندية . أولى .
68 عيون الأخبار . كتاب العلم والبيان والإعراب واللحن لابن قتيبة .
69 الفهرست لابن النديم . مطبعة الاستقامة .
70 في أصول النحو . الأستاذ سعيد الأفغاني . مطبعة الجامعة السورية . ط . ثانية .
71 القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية . للدكتور عبد العال سالم مكرم . دار المعارف بمصر .
72 القواعد النحوية . مادتها وطريقها . للأستاذ عبد الحميد حسن مطبعة العلوم الخليج مصر 1953 .
73 الكامل في اللغة والأدب . المبرد . الطبعة المصورة .
74 الكتاب لسيبويه . طبعة بيروت . منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات عام 1967 .
75 الكشاف للزمخشري طبعة الحلبي 1948 .
76 كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون . حاجي خليفة . طبعة وامالة المعارف استانبول .
77 لسان العرب . ابن منظور الأفريقي . المطبعة الأميرية طبعة أولى سنة 1301 هـ .
78 لمع الأدلة في أصول النحو لابن الأنباري 10689 هـ دار الكتب تحقيق الدكتور عطية عامر .
79 الوساطة بين المتنبي وخصومه . الجرجاني .

80 دلائـل الاعجاز تحقيق أحمد مصطفى المـراغي المكتبة المحمودية التجارية طبعة ثانية .
81 من اسرار اللغة للدكتور ابراهيم أنيس.
82 نشأة النحو للأستاذ محمد الطنطاوي 1948 .
83 التصريح على التوضيح مطبعة مصطفى محمد 1312 هـ .
84 تفسير المنار طبعة أولى مطبعة المنار .
85 أبو حيان التوحيدي للدكتورة خديجة الحديثي ص 424 مطبعة السعادة .
86 معنى اللبيب مطبعة الحلبي .
87 المقتضب مطبعة محمد مصطفى 1312 هـ .
88 المزهر مطبعة صبيح .
89 حاشية الدسوقي على المعنى 1286 هـ السيد محمد عبد الرحيم .

ثالثاً : الدوريات :

1) جريدة الجمهورية 1972/6/12 مقال للدكتور سعد جلال .

2) جريدة الفجر الجديد 1973/2/6 العدد 133

3) مجلة الأزهر الأستاذ علي عبد العظيم شعبـان 1391 هـ .

4) مجلة الرسالة . السنة الحادية عشرة 1943 .

5) مجلة مجمع فؤاد الأول .

6) مجلة الكتاب . السنة السابعة 1953 .

7) محاضر جلسات المجمع دور الانعقاد الأول .

8) العربي . عدد سبتمبر 1972 . ابن مالك وأثره في النحو ، للدكتور عبد العال سالم مكرم .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

فهـرســـت

الشواهد القرآنية حسب ترتيب السور وورود آياتها بالرسالة

سورة الفاتحة :

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
سورة البقرة :		
ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين	2	622
ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .	62	60
أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار .	175	64
ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم .	7	71
صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون .	138	602
والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادا اصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم .	228	

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادو يفعلون .	71	
تلك حدود الله فلا تعتدوها كذلك يبين الله آيته للناس لعلهم يتقون .	187	
ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين .	66	184
واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم .	260	
الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .	274	192
الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج . وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب .	197	201 76
يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما ، ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون .	219	204

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون .	15, 14	395
ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون .	179	378
وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من أنصار .	270	549-548
حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين .	238	549
زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب .	212	564-550
يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون .	127	669-554
ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي		

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون .	124	
واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين .	183	
وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون .	80	642-181
ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا (آية الدين - أكبر آية في القرآن) وأولها الذين آمنوا اذا تداينتم .	282	665
أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ، ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير.	259	666
ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين .	8	680

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون .	111	606
هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم .	6	
يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين .	34	637
سورة النساء :		
يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام انه كان عليكم رقيبا .	1	52 496
لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما .	163	58
ولا يكادون يفقهون حديثا .	72	
والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيماً .	24	198
يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو		

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا .	135	548
ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما عظيما .	14	544-396
فما لكم في المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا .	88	554
يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليكم حكيم .	24	
ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا .	83	604
يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا .	176	608
وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً .	4	639
من يعمل سوءا يجز به ولا يجدله من دون الله وليا ولا نصيرا .	123	680

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون .	43	457
وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا فما نحن لك بمؤمنين	132	
سورة الأنفال :		
وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون .	60	184
كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون .	4	670
واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين .	58	678
سورة التوبة :		
وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم .	3	526-46
لقد تاب الله على المؤمنين والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ		

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
وقال الملك اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ أفتوني في رؤ ياي ان كنتم للرؤ يا تعبرون .	43	615
فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه قال ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون .	96	679
سورة الرعد :		
هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشيء السحاب الثقال .	13	616
سورة الحجر :		
ان عبادي ليس عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين .	42	67
سورة النحل :		
ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين .	103	49
وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون .	68	679
سورة الاسراء :		
من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا	72	59
ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا .	65	67
ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً .	74	615

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا كان أمرا مقضيا .	21	614
قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا .	4	619
واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا .	5	665
سورة طه :		
قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى .	63	168-64
فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى .	44	65
ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزي كل نفس بما تسعى .	20	
فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من أليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى .	78	202
قال آمنتم به قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى .	71	452
ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها	106	
قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .	107	
قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفس .		

الآية الكريمة	رقمها	رقم الصفحة
سورة النور :		
ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار .	44	
الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .	24	636
سورة الفرقان :		
وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .	63	185
يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا .	22	184
والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما .	67	610
سورة الشعراء :		
ان نشأ ننزل عليهم من السماء ماء فظلت أعناقهم لها خاضعين .	4	52
وأخرج يده فاذا هي بيضاء للناظرين .	33	422
الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين .	88,89	570

((فهرس الشواهد الشعرية))

قافية الهمزة :

الشاهد	رقم الصفحة
واعلم أن تسليها وتركا ... لـلا متشابهان ولا سواء	231
كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء	305
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء	548
لن ما رأيت أبا يزيد مقاتلا ... أدع القتال وأشهد الهيجاء	665
يتمسكون من حذار الالقاء ... بتلمات كجذوع الصيصاء ردي ردي ورد قطاه صماء ... كدرية أعجبها برد الماء كأنها وقد رآها الرؤاء	512

قافية الباء

وجدنا لكم في آل حاميم آية ... تأولها منا تقي ومعرب	18

الشاهد	رقم الصفحة
أجهر سلمى بالعراق حبيبها ... وما كان نفسا بالعراق تطيب	132
فما أدري أغيرهم تناء ... وطول العهد أم مال أصابوا	140
حتى اذا قطعت بطونهم ... ورأيتم أبناءكم شبوا وقلبتم ظهر المجن لنا ... ان اللئيم العاجز الخب	161
وكلهم قد نال شبعا لبطنه ... وشبع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه	273
قال قوم تحبها؟ قلت بهرا ... عدد الرمل والحصى والتراب	337-335
ليس بيني وبين قيس عتاب ... غير طعن الكلى وضرب الرقاب	503
عجب لتلك قضية واقامتي ... فيكم على تلك القضية أعجب	354
بلونا ضرائب من قد نرى ... فما ان رأينا لفتح ضريبا هو المرء أبدت له الحادثا ... ت عزما وشيكا ورأيا صليبا تنقل في خلقي سؤدد ... سماحا مرجى وبأسا مهيبا فكالسيف ان جئته صارخا ... وكالبحر ان جئته مستثيبا	389
فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فاني وقيار بها لغريب	365
وما مثله في الناس الا مملكا ... أبو أمه حي أبوه يقاربه	366

الشاهد	رقم الصفحة
يا أوسط الناس طرا في مفاخرهم وأكرم الناس أما برة وأبا	549
الى رجل مفهم أسيف ناعما يضم الى كشحيه كفا مخضبا	566
فلو رفع السماء اليه قوما لحقنا بالسماء مع السحاب	566
يبسط للأضياف وجها رحبا بسط راعيه لعظم كلبا تعفق بالأرطى لها وأرادها رجال فبذت نبلهم وكليب	664
كأن مثار النقع فقو رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه	

قافية التاء

ألا يا بيت بالعلياء بيت ولولا حب أهلك ما اتيت	359
أغار على معزاي لم يدر أنني وصفراء منها عبلة الصفوات	514
أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في قعر منحوت من الساج	327
قافية الحاء	
أبحت حمى تهامة بعد نجد وما شيء حميت بمستباح	139
ان تهبطين بلاد قوم يرتعون من الطلاح	227

الشاهد	رقم الصفحة
مــن صــد عــن نــيـرانها فــأنــا ابــن قــيس لا بــراح	235
أخـــاك أخـــاك ان من لا أخـــا لــه كـــاع الى الهيجـا بغـير سـلاح	320
فـان تمس في قبـر برهـوة ثـاويـا أنيسـك أصـداء القبـور تصيـح	334 502
والحـرب لا يـبقـى لجـاحمهـا الـتـخـلي والمـراح الا الفتى الصبـار في النجـدات والـفـرس الـوقـاح	335
ان السماحة والشجاعة ضمنـا قبـرا بمرو على الطريق الـواضـح داومـي الأيـد يخـبـطن الـسـريحـا	567

قافية الدال

أعـتى بـجـوار الـعـنـان تخـالـه اذا راح يـرى بـالمـذجـج أجـردا	343
وأبيض مصقـول السـطام مهنـدا وذا خلق من نـسـج داو مسـردا	344
ألم يـأتـيـك والانبـاء تـنـمـي بمـا لاقـت لـبـون بـني زيـاد	343-162
أن تحملا حاجة لي خف محملها فـتـوجبا نقـمـة عـندي بها ويـدا	227

الشاهد	رقم الصفحة
ان تقـرآن عـلى أسـماء ويحكـما مني الســلام وأن لا تعلما أحـدا ولــكــنــني مــن حــبــهـا لــعــمــيــد	432-241
كـنـواح ريش حـمامـة نجـديـة ومسحت بـاللثـين عصف الاثمد	261
مـا كـان كـاليـروح ويغـدو لاهيا مشمـر يسـتديم الحـزم ذو رشـد	266
ثـلاث كلهـن قـتلت عـمـدا فـأخـزى الـله رابعـة تـعـود	585
فـزجـجـتـهـا بمـزجـة مـزج القـلوص أبي مـزادة	239-167 ـ
ولأبـغـيـنـكـم قـنـا وعـوارضـا ولأقبلن الخيـل لابـة ضـرغـد	333
أنحوي هذا العصر ما هي لفظة جـرت في لساني جـرهم وثمود اذا استعملت في صورة الجحد أثبتت وان أثبتت قـامت مقـام جحـود	491
هنيئا لـسعد مـا اقتضى بعد وقعتي بنـاقـة سـعـد والعشيـة بـارد	567
ألا أيهذا الزاجري احضر الـوغى وان اشهد اللذات هل أنت مخلدي	611
يـا دار مية بـالعلياء فـالـســند أقوت وطال عليها سالف الأمـد وقفت فيهـا أصـيلانـا أسـائلهـا عيت جوابا وكا بالربع من أحـد	334

الشاهد	رقم الصفحة
ألا أواري لأيا بعدما أبينها والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد	492
أرجو واخشى وأدعو الله مبتغيا عفوا وعافية في الروح والجسد	

قافية الراء

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر	69
حذر أمورا لا تضير وآمن ما ليس منجيه من الأقدار	119
ان سراجا لكريم مفخرة تحلى به العين اذا ما تجهره ياما أميلح غزلانا شدن لنا من هؤليائكن الضال والسمر	161
ولله صعلوك صحيفة حذة كضوء شهاب الحامس المتنور فذلك ان يلق المنية يلقها حميدا وان يستغن يوما فأجدر	232-171
ليس شيء الا وفيه اذا ما قابلته عين البصير اعتبار	697-238
أكل امرىء تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارا	
لعمرك ما معن بتارك حقه ولا منسىء معن ولا متيسر	235-274
فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم اذ هم قريش واذ ما مثلهم بشر	464-309

الشاهد	رقم الصفحة
أنا ابن دارة معروفا بها نسبي وهل بدارة يا للناس من عار	323-98
ترتع ما ارتعت حتى اذا ادركت فانما هي اقبال وادبار	368
كأن غديرهم بجنوب سلمى نعام فاق في بلد قفار	333-330
جئني بمثل بني بدر لقومهم أو مثل أسرة منظور بن سيار	343
فقصرن الشتا بعد عليه وهو للذود أن يقسمن جار	344
لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغني والفقيرا	358
بكرا صاحبي قبل الهجير ان ذاك الصباح في التبكير	397
أقامت به حتى ذوي العير والقول ولف الثريا في ملاءته الفجر	369
ما رأينا خربا نقر عنه البيض صقر لا يكون المهر مهرا لا يكون المهر مهر	423
جبير بنو لهب فلا تك ملغيا مقالة لهبي اذا الطير مرت	429
فأبت الى فهم وما كدت آيبا وكم مثلها فارقتها وهي تصفر	489

الشاهد		رقم الصفحة
كانوا أناسا ينفخون فأصبحوا	وأكثر ما يعطونه النظر الشزر	
مستقبلين شمال الشام تضربنا	بحاصب من نديف القطن منثور	794
على عمائمنا نلقي وأرحلنا	على زواحف تزجى مخاريير	
تبكي على لبنى وأنت تركتها	وكنت عليها بالملا أنت أقدر	
أتطلب يا عوران فصل نيذهم	وعندك يا عوران زق موكر	274

حرف السين

أحقا بني أبناء سلمى بن جندل	تهددكم اياي وسط المجالس	281-278
وبلدة ليس بها أنيس	الا اليعافير والا العيس	339-335 502

حرف الطاء

فما أنا والسيري في متلف	يبرح بالذكر الضابط	499

قافية العين

أكفرا بعد رد الموت عني	وبعد عطائك المئة الرتاعا	68
هجوت زيان ثم جئت معتذرا	من سب زيان لم تهجو ولم تدع	162

الشاهد		رقم الصفحة
فلا تكثر اللومى فان أخاكما	بذكراه ليلى العامرية مولع	195
اذا بأهلي تحته حنظلية ونبئت ليلى أرسلت بشفيعها	له ولد منها فذاك المذرع فهلا نفس ليلى شفيعها	207
اذا قيل أي الناس شر قبيلة	أشارت كليب بالأكف الأصابع	231
لسانك هذا كي تغرو تخدعا	فتتركها شنا ببيداء بلقع	241
لما أتى خبر الزبير تواضعت	سور المدينة والجبال الخشع	256
لا تجزعي ان منفسا أهلكته	واذا هلكت فعند ذلك فاجزعي	258
فيستخرج اليربوع من نافقائه	ومن حجرة بالشيحة اليتقصع	265
أحين اصطباني أن سكت مداني	لفي شغل عن زحلي اليتتبع	266
فقالت أكل الناس أصبحت قائما	لسانك كيما أن تعزو وتخدعا	242-239
من لا يزال شاكرا على المعه وغيرني ما غال قيسا ومالكا	فهو حر بعيشة ذات سعة وعمرا وعمر بالمشقر ألمعا	266

الشاهد		رقم الصفحة

قافية الفاء

مـا كـان من بشـر الا وميتـه	محتـومـة لكن الآجـال تختلف	
نحن بما عندنا وأنت بما عند	ك راض والـرأي مـخـتـلف	239 365
ومـا دمـيـة من دمى ميـسـنـان	مـعـجـبـة نـظرا واتـصـافـا	513
واني من قـوم بهم يتقي العـدا	ورأب الثأى والجانب المتخوف	675
تنفي يداها الحصى في كل هاجرة	نفي الـدراهيم تنقاد الصيـاريف	

قافية القاف

أفنى تلادي وما جمعت من نشب	قـرع القـواقيـز أفـواه الاباريق	196
أحـقـا أن جـارتـنـا اسـتـقـلوا	فـنـيـتـنـا ونـيـتـهـم فـريـق	278
تـكلفـني سـويـق الـكـرم جـرم	ومـا جـرم ومـا ذاك الـسـويـق	498
	قافية الكاف	
يـأيهـا المـائح دلـوي دونكمـا	اني رأيت النـاس يحمـدونكمـا	194-70 196

الشاهد		رقم الصفحة

قافية اللام

كناطح يوما صخرة ليوهنها	فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل	32
ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره	ومن يغو لا يعدم على الغي لائما	300
أبيتم قبول السلم منا فكدتم	لدى الحرب أن تغنوا السيوف عن السل	83
لئن منيت بنا عن غب معركة	لا تلفنا من دماء القوم ننتقل	
رايت الناس ما حاشا قريشا	فانا نحن أفضلهم منالا	212
فاليوم أشرب غير مستحقب	اثما من الله ولا واغل	226
أفبعد كندة تمدحن قبيلا		235
أن تركبوا فركوب الخيل عادتنا	او تنزلون فانا معشر نزل	237
ولا أرض أبقلها ابقالها		241
وليس البرى للخل مثل الذي	يرى له الخل أهلا أن يعد خليلا	266
ما أنت بالحكم الترضي حكومته	ولا الأصيل ولا ذي الراي والجدل	266

الشاهد		رقم الصفحة
فذو المال يؤتى ماله دون عرضه	لمـا نـابـه والـطارق التيمـل	266
اذا لـقـيـت بـنـي مـالـك	فـسلم عـلى أيهـم أفـضـل	300
فـمـالـك والتلدد حـول نجـد	وقـد غصت تهـامـة بـالـرجـال	314
ومـالكم والـفـرط لا تقـربـنـه	وقـد خلته أوفى مـرد لعـاقـل	314
رب ابن عم لسليمى مشمعـل	طباخ ساعات الكرى زاد الكسـل	328
ويـوم شهـدنـاه سليما وعـامـرا	قليـل سوى الـطعن النهال نـوافله	329
سـرى بعدما غار الثريا وبعـدمـا	كـان الثريا حلة الغـور فمنحـل	346
نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية	جنبى فـطيمة لا ميـل ولا عـزل	
فـواعـديـه سـبـر بـني مـالـك	أو الـربـا بـيـنـهـمـا أسـهـلا	351
وأي فتى هيجـاء أنت وجـارهـا	اذا مـا رجـال بـالـرجـال استقلت	352
سـأشكر عمـرا مـا تـراخت منيتي	أيـادي لم تمنن وان هي جلت	
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه	ولا مظهر الشكوى اذا هي جلت	392

رقم الصفحة	الشاهد
369	قــال لي كيف أنت قلت عليــل ســهــر دائــم وحــزن طــويــل
	وقــد اغتدى والـطـيـرفي وكـنـاتها بـمـنـجـرد قيـد الأوابـد هـيـكــل
460	فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
566	فهي أحـوى من الـربعـة خـاذلـة والعين بـالاثمد الحـاري مكحـول
633	ويـأوي الـى نـســوة عـطل وشعثا مـراضيـع مثـل الـسعـالى
236	ألا نـادت أمـامـة بـاحـتـمـال لتحـزنني فـلا بـك مـا أبـالي
566	غـيـر أنـا لـم تـأتـنـا بـقـيـن فـنـرجى ونـكـثـر الـتـأمـيـلا
	رســم دار وقــفــت فــي طــلله كــدت أقضي الغــداة من حـلله
647	محمــد تفد نفســك كــل نفس أمــا مــا خفت من شيء تبــالا أميـران كـانـا صـاحبي كـلاهمـا فكـلا جـزاه الله عني بمـا فعـل أقــول اذ خــرت على الكلكــال بـاناقـتـا مـا جلت من مجـال وليل كموج البحـر أرخى سدوله علي بـأنــواع الهمــوم ليـبتلي
194	مان ان يمـسي الارض الا منكبها منه وحرف الساق في المحمـل

الشاهد		رقم الصفحة

قافية الميم

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره	ومن يغو لا يعدم على الغي لائما	
فان ترفي يا هند فالرفق ايمن فانت طلاق والطلاق عزيمة	وان تخرقي يا هند فالخرق أشام ثلاث ومن يخرق اعق وأظلم	25-24
الريح تبكي شجوها	والبرق يلمع في غمامة	66
حتى تهجر في الرواح وهاجها	طلب المعقب حقه المظلوم	195
لنا هضبة لا ينزل الذل وسطها	ويأوي اليها المستجير فيعصما	227
من يعن بالحمد لم ينطق بما سفه	ولا يحد عن طريق المجد والكرم	232
فكيف اذا رأيت ديار قوم	وجيران لنا كانوا كرام	237
اذا بعض السنين تعرقتنا وتشرق بالقول الذي قد أذعته	كفى الأيتام فقد أبى اليتيم كما شرقت صدر القناة من الدم	256
هريرة ودعها وان لام لائم	غداة غد أم أنت للبين واجم	289

الشاهد		رقم الصفحة
عشية لا تغني الرماح مكانها	ولا النبل الا المشرفي الصمم	338-336
لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى	ونمت وما ليل المطي بنائم	343-327
ولم أرى ليلى بعد يوم تعرضت	لنا بين أثواب الطراف من الأدم	352
غضبت خثعمة أن تقتل عامرا	يوم اللقاء فاعتّبوا بالصيلم	-339
كلابية وبرية حبترية	نأتك وخانت بالمواعيد والذمم	352
أوكلما وردت عكاظ قبيلة	بعثوا اليّ عريفهم يتوسم	393
أكثرت في العذل ملحا دائما	لا تكثرن اني عسيت صائما	489
عشية لا تغني الرماح مكانها	ولا الفصل الا المشرفي المصمم	503
كفاك كف ما تليق درهما	جودا وأخرى تعط بالسيف الدما	570
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك اذا فعلت عظيم	573
واذا نظرت اليك من ملك	والبحر دونك زدتني نعما	593
ألم ترني عاهدت ربي وانني	لبين رتاج قائما ومقام	611

الشاهد		رقم الصفحة
على حلفة لا أشتم الدهر مسلما	ولا خـارجا من فيّ زور كـلام	611
لا يبعد الله التلبب والغارات	اذا قال الخمني يقم	663
رسـم دار وقـفـت فـي طـلله	كـدت أقضي الغـداة من جـلله	
وأغفـر عـوزاء الكـريم أدخـاره	وأعرض عن ذنب اللئيم تكرمـا	
ورق نسيم المريح حتى حسبته	يجيء بـأنفـاس الأحبـة نـعمـا	
اذا مـا المرء كـان أبوه عيسى	فحسبك ما تـريـد من الكـلام	104

قافية النون

غـيـر مـاسـوف عـلى زمـن	يـنـقـضـي بـالـهم والـحـزن	120
أكـل عـام نـعـم تـحـوونـه	يـلقحـه قـوم وتـنـتـجـونـه	257
فـخـالـد تـحـمـد سـاداتـنـا		263
وكـل القـوم يسـأل عن نفيـل	كـأن عليّ لـلحبشـان ديـنـا	273
ألا أبـلغ بنـي خـلف رسـولا	أحـقـا أن أخـطلكـم هـجـانـي	278
صـددت الكـاس عنـا أم عمـرو	وكـان الكـأس مجـراهـا اليمينـا	345

الشاهد		رقم الصفحة
هبت جنوبا فذكرى ما ذكرتكم	عند الصفاة التي شرقي حوارنا	
أني جزوا عامرا سوأى بفعلهم	ام كيف يجزونني السوأى من الحسن	
		424
ام كيف تنفع ما تعطي العلوق به	رئمان أنف اذا ماضن باللبن	
وكل أخ مفارقه أخوه	لعمر أبيك الا الفرقدان	507
بأني قد لقيت الغول تهوى	بسهب كالصحيفة صحصحان	
		600
فأضربها بلا دهش فخرت	صريعا لليدين وللجران	
خليلي هل طب فاني وأنتما	وان لم تبوحا بالهوى دنفان	657
تعش فان عاهدتني لا تخونني	نكن مثل من يا ذئب يصطحبان	660
أري محرزا عاهدته ليوافقن	فكان كمن أغريته بخيس	
ونحن عن فضلك ما استغنينا		
لو كنت من مازن لم تستبح ابلي	بنو اللقيطة عن ذهل من شيبانا	692
فوالله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا	696

الشاهد	رقم الصفحة
كم رأينا من مسحب مسكت صار لحم النسور والعقبان	762

قافية الهاء

هون عليك فان الأمور بكف الالـ ـه مقاديرها فليس بآتيك منهيها ولا قاصر عنك مأمورها	313
وكرار خلف المحجرين جواده اذا لم يحام دون أنثى حليلها	329
لم يغذها الرسل ولا أيسارها الا طرى اللحم واستجزارها	336
فغدت كلا الفرجين تحسب انه مولى المخافة خلفها وأمامها	346
في ليلة لا نرى بها أحدا يحكى علينا الا كواكبها	453
ترى أرباقهم متقلديها	460
أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة قليل بها الأصوات الا نعامها	507
فما رجعت بخائبة ركاب حكيم بن المسيب منتهاها	550
فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقالها	

رقم الصفحة	الشاهد
567	فـان تـعـهـدي لامـرىء امـة فـان الـحـوادث ازرى بـهـا
207	قـلـت لـبـواب لـديـه دارهـا تـأذن فـاني حمؤهـا وجـارهـا
	فهلا نفـي ليلى شفيعها

قافية الياء

226	أبـيت أسـرى وتبيتي تـدلكي شعرك بـالعنبر والمسـك الـذكي
313-238	بدا لي اني لست مدرك ما مضى ولا سـابق شيئـا اذا كـان جـائيـا
266	بل القوم الرسول الله فيهم هم أهـل الحكـومـة من قصى
274	يؤذنني هذا ويمنع فضله وهـذا كمعن أو أشـد تقـاضيـا وقـائلة خـولان فـانكـح فتـاتهم وأكـرومـة الحيين خلو كمـا هيـا لم يغـذهـا الـرسـل ولا أيسـارهـا الا طـرى اللحم واستجـزارهـا
366	أأنت أخي ما لم تكن لي حاجة فـان عرضـت أيقيت أن لا أخـاليا
465	عميـرة ودع وان تجهـزت غـازيـا كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

الشاهد	رقم الصفحة

قافية الألف المقصورة التي أصلها واو أو ياء

فـريناهم المـأثور البيض كـالدمى على مثل أصحاب البعوضة فاخمشي لك الويل حر الوجه أو يبك من بكى	342

سرد موضوعات الجزء الأول

رقم الصفحة

الباب السابع

الباب الثامن

الباب التاسع	رقم الصفحة

رقم الصفحة

الباب العاشر

رقم الصفحة

سرد موضوعات الجزء الثاني

رقم الصفحة